نيقولاي غوغول



المؤلفات المختارة

المفتش العام

ترجمة

غائب طعمة فرمان- د.أبو بكر يوسف

نيقولاي غوغول

المفتش العام

ومؤلفات أخرى

ترجمة:

غائب طعمة فرمان

د. أبو بكر يوسف

المفتش العام

مؤلفات مختارة

Author: Nikolai Gogol
Title: The Government Inspector
Translator: Gaeb Tohme Faraman
Dr. Abu Baker Youssef
Cover designed by: Majed AlMajedy
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2014

المؤلف: نيقولاي غوغول
عنوان الكتاب: المفتش العام
ترجمة: غائب طعمة فرمان
د. أبو بكر يوسف
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2014

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الفهرس

الفصل الأول ١٥
الفصل الثاني............................ ٣٧
الفصل الثالث ٥٩
الفصل الرابع ٨٥
الفصل الخامس ١٢٥
المشهد الختامي ١٤٦
بعد عرض مسرحية جديدة ١٤٧
خطوبة ١٩١
الفصل الأول............................ ١٩٣
الفصل الثاني............................ ٢٤٣
شارع نيفسكي ٢٨٩
الصورة................................. ٣٣١
الأنف ٣٩٩
المعطف................................. ٤٣٣
مذكرات مجنون ٤٦٧
عربة ٤٩٣
مالكو أيام زمان ٥١١

لا تلَمْ المرآة، إذا كان وجهك قبيحاً

(مثل روسي)

شخصيات المسرحية

أنتون أنتونوفيتش سكفوزنيك دموخانوفسكي، حاكم المدينة.

آنا آندرييفنا، زوجته.

ماريو أنتونوفنا، ابنته.

لوكا لوكيتش خلوبوف، ناظر المؤسسات التعليمية.

زوجته

أمّون فيدروفيتش ليابكين - تيابكين، قاضي.

ارتيمي فيليبوفيتش زملانيكا، راعي مؤسسات خيرية.

إيفان كوزميتش شبيكين، مأمور البريد.

بيتر إيفانوفيتش دوبتشينسكي

بيتر إيفانوفيتش دوبتشينسكي مالكا أراضٍ في المدينة.

إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف، موظف في بطرسبورغ.

أوسيب، خادمة.

خريستيان إيفانوفيتش غيبنر، طبيب البلدة.

فيدور آندربيفيتش ليوليوكوف

إيفان لازيريفتش راستاكوفسكي موظّفون متقاعدون، شخصيات محترمة في البلدة.

ستيبان إيليتش أوخوفيرتوف، رئيس الشرطة.

سفيستونوف

بوغوفيتسين

درجيموردا

عبدولين تاجر.

فيفرونيا بيتروفنا بوشليبكنا، زوجة سمكري.

زوجة ضابط صف.

ميشكا، خادم حاكم المدينة.

خادم حانة.

ضيوف وضيفات، تجار، أهل البلدة، أصحاب حاجات.

ملاحظات للممثلين – أوصافهم وملابسهم

حاكم المدينة، رجل سلخ شبابه في الوظيفة. بعيد جدّاً عن الغباء، على طريقته الخاصّة. وعلى الرغم من أنّه مرتشٍ إلا أنّه يتصرّف برصانة شديـدة، وعلى قدر كاف من الجدية، بل وميـال إلى المناظرة. يتكلّم غير مرتفع الصوت ولا منخفضه، غير كثير الكلام وغير مُقلّه. ولكلّ كلمة يقولهـا مغزى. تقاطيع وجهه غليظة قاسية مثل أي موظّف بدأ سنـي وظيفته الشاقّة من رتب واطئة، يتحوّل بسرعة كبيرة من الفزع إلى الفرح، ومـن الوضاعة إلى الأنفة، مثلما يحصل لإنسان تطوّرت قابلياته الروحية تطوّراً متعـثِّراً. يرتدي في العادة، بزّته الرسمية ذات العروات، وجزمة ذات مهمازين، شعره مشذب دبّ فيه الشيب.

آنا أندرييفنا، زوجته، امرأة غناجة على الطريقة الإقليمية لم تتوغّل في العمـر كثيراً، تربّت إلى النصف علـى الروايات والألبومات وإلى النصف الآخر على المشاغل في مؤونتها وخادماتها. كثيرة الفضول، تُبدي خيلاء عند سنوح الفرصة. وتظهر سلطتها على زوجها أحياناً، لمجـرد أن هـذا لا يجد ما يـرده عليها ولكن هـذه السلطة لا تتعدى الصغائر وتقتصر على التوبيخ والتهكّم. خلال المسرحية تغيّر ملابسها أربع مرّات.

خليستاكـوف، شابّ في نحو الثالثة والعشرين من العمر، نحيف هزيـل العود، على شيء من البلاهة، وعلـى المثل القائل لا يستجيب لنداء العقل، مـن أولئك الذين يسمّون في الدوائـر بالتافهين. يتكلّم

ويتصرّف دون أي تفكير. لا يقدر على تركيز ذهنه في أية فكرة. كلامه متقطّع والكلمات تتطاير من بين شفتيه بشكل مفاجئ تماماً. وكلّما أظهر ممثل هذا الدور مزيداً من نقاوة قلب وبساطة نجح في دوره أكثر. يلبس على المودة.

أوسيب، خادم مثل أي خادم اعتيادي فارق سنّ الشباب، يتكلّم بجدّية، ويخفض بصره قليلاً، مجادل، ويحب أن يلقى العظات لنفسه عن سيده، وصوته موزون دائماً تقريباً، وفي حديثه مع سيّده يتكلّم بصرّامة واقتضاب بل وبشيء من الغلظة. وهو أكثر ذكاء من سيّده، وأكثر حدساً منه لهذا السبب، ولكنه لا يحب أن يتكلّم كثيراً، فهو محتال صامت، يرتدي بدلة بالية رمادية أو زرقاء.

بوبتشينسكي ودوبتشينسكي، كلاهما قصير دحداح كثير الفضول، يشبه صاحبه شبهاً صارخاً، وكلاهما ذو كرش صغير، يتكلّم بسرعة فائقة مستعيناً إلى حدّ بالغ بالإشارات وحركات اليد، ودوبتشينسكي أطول قليلاً وأكثر جدّية من بوبتشينسكي، ولكن بوبتشينسكي أكثر خفّة ونشاطاً من دوبتشينسكي.

ليابكين تيابكين، قاض، رجل قرأ خمسة أو ستّة كتب، ولهذا فهو متحرّر في تفكيره بعض الشيء. مولّع كبير في الحدس والتخمين، ولهذا يعطي وزناً لكلّ كلمة ينطق بها. وعلى الممثّل الذي يمثّله أن يضفي على وجهه دائماً سمة الاعتبار، يتكلّم بصوت عالي النبرة مع توقّف طويل وبُحة ونخير، مثل ساعة قديمة تهمس قبل أن تدقّ.

زيملانيكا، راعي مؤسسات خيرية، بدين جداً، أهوج الحركات ثقيلها، ولكنّه على الرغم من كل ذلك خشّاش ماكر، وخدوم جداً ولهوف.

مأمور البريد، بسيط إلى حدّ السذاجة.

وبقية الأدوار لا تحتاج إلى إيضاحـات معينة. والعين دائماً تقريباً تقع على أشخاصها الحقيقيين.

يجب أن يلتفت السادة الممثلون بشكل خاصّ إلى المشهد الأخير. كلمـة الختام يجب أن تحـدث رجّة كهربائية للجميـع دفعة واحدة، وبشــكل فجائي، وجميـع الممثّلين يجب أن يغـيّروا وضعهم بطرفة عين. كما يجب أن تفلت آهة الدهشة من جميع النساء دفعة واحدة، وكأنّها منطلقة من صدر واحد. وعدم التقيّد بهذه الملاحظات يمكن أن يفسد التأثير كلّه.

الفصل الأول

غرفة في بيت حاكم المدينة

المشهد الأول

(حاكم المدينة، راعي المؤسسات الخيرية، ناظر المؤسسات التعليمية، القاضي، رئيس الشرطة، الطبيب، اثنان من رجال الشرطة).

حاكم المدينة: دعوتكم، أيّها السادة، لأخبركم بخبر مزعج جدّاً وهو أن مفتّشاً عامّاً في طريقه إلينا.

أمّوس فيدروفيتش: مفتّش عامّ؟ كيف؟

أرتيمي فيليبوفيتش: مفتّش عامّ؟ كيف؟

حاكم المدينة: مفتّش عامّ من بطرسبورغ، متخفٍ و فضلاً عن ذلك بمهمّة سرّية.

أمّوس فيدروفيتش: يا للمفاجأة!

أرتيمي فيليبوفيتش: تأتيك الدواهي وأنت ساهٍ.

لوكا لوكيتش: يا إلهي، وبمهمّة سرّية أيضاً!.

حاكم المدينة: كأنّ قلبي أعلمني. رأيت في الحلم هذه الليلة جرذين غير اعتياديين. الحقيقة أنّني لم أرَ مثلهما قطّ. أسودين بحجمين غير طبيعيين!. جاءا وتشمّما، واختفيا. ها أنا أقرأ لكم الرسالة التي تلقّيتها من آندريه إيفانوفيتش تشميخوف الذي تعرفه أنت، يا أرتيمي

فيليبوفيتش: ها هو يكتب: «الصديق الفاضل المحسن، مُعمِّد أبنائي. (يتمتم بصوت خافت ممرّاً عينيه بسرعة)... أعلمك». آها! هكذا: «أسرع لأعلمك، بالمناسبة أنّ موظّفاً وصل بمهمّة تفقّد الولاية كلّها، ولاسيّما قضاءنا (يرفع إصبعه إلى فوق بمغزى). عرفت ذلك من أوثق الناس، على الرغم من أنّه يقدّم نفسه على أنّه لا يمثل أية جهة. ولما كنت أعرف أنك لا تخلو من آثام، كأي شخص آخر، لأنّك رجل نابه، ولا تحبّ أن تفوّت ما يسنح لك...» (يتوقّف) طيّب، لا غريب بيننا... «فإنّني أنصحك بأن تلزم الحذر، فقد يصل إليك من ساعة إلى أخرى، إن لم يكن قد وصل الآن، وسكن متخفياً في مكان ما... يوم أمس كنت....» حسناً، بعد هذه تأتي قضايا عائلية: «جاءت إلينا الأخت آنا كيريلوفنا مع زوجها. إيفان كيريلوفيتش سمن كثيراً، ويعزف على الكمان الوقت بطوله...» إلى غير هذا وذلك. هذا هو الوضع!..

أمّوس فيدروفيتش: نعم، هذا هو الوضع... غير الاعتيادي، غير الاعتيادي تماماً، لابدّ من سبب.

لوكا لوكيتش: ولأي شيء هذا، يا أنتون أنتونوفيتش؟ لماذا يفد علينا مفتّش عام؟

حاكم المدينة: لماذا؟ قدر، كما يبدو! (يزفر).. حتّى هذا الحين، وبفعل الله، كانوا يفدون على مدن أخرى. والآن جاء دور مدينتنا.

أمّوس فيدروفيتش: أظنّ في الأمر سبباً دقيقاً، أميل إلى السياسة، وهو أن روسيا.... أها... تريد القيام بحرب. والحكومة، يا حضرة المحترم، أرسلت مَنْ يمثّلها ليتأكّد فيما إذا كانت هناك خيانة.

حاكم المدينة: أوه، إلى أين رحت! وأنت الرجل الحصيف! خيانة في مدينة من مدن الأقاليم! وهل هي على الحدود؟ إنّك لو عدوت بحصانك من هنا لثلاثة أعوام لما وصلت إلى أية دولة.

أمّوس فيدروفيتش: لا، أريد أن أقول لك أنك لا... الرؤساء يرون الأمور الدقيقة. قد تكون المدينة بعيدة، ولكن لهم تفكيرهم الخاص.

حاكم المدينة: لهم أو ليس لهم، ولكنّني أنبّهكم مقدّماً، أيّها السادة. فالزموا الحذر. ومن جهتي أصدرت بعض الأوامر، ونصيحتي أن تفعلوا ذلك أيضاً. لاسيّما، أنت أرتيمي فيليبوفيتش! ليس من شك في أنّ الموظف القادم سيرغب، قبل كلّ شيء، في تفقّد المستشفيات الخيرية التي ترعاها. ولهذا يجب أن تجعل كلّ شيء فيها لائقاً. الطاقيات نظيفة، والمرضى لا يشبهون الحدّادين، كما هم في العادة، حين يضعون عليهم أي شيء من الثياب، وكأنّهم في بيوتهم.

أرتيمي فيليبوفيتش: لا بأس في هذا. يمكن أن نلبّسهم طاقيات نظيفة حسب ظني.

حاكم المدينة: ويجب أن يكتب المرض فوق كلّ سرير باللاتيني أو أية لغة أخرى. وهذه مهمّتك، يا خريستيان إيفانوفيتش، ومتى مرض المريض به، اليوم والتاريخ... غير لطيف أن يدخّن مرضاك تبغاً قوياً يجلع كلّ من يدخل يعطس حتماً. وحبّذا لو يقلّ عددهم، وإلا فسيعزى ذلك إلى سوء الإدارة أو عدم مهارة الطبيب.

أرتيمي فيليبوفيتش: أوه! بخصوص الطبابة اتّخذت أنا وخريستيان إيفانوفيتش الموقف التالي: كلّما كان الأمر أقرب إلى الطبيعة كان أحسن. نحن لا نستعمل أدوية غالية. الإنسان بنية بسيطة. إذا كان في طريقه إلى الموت مات، وإذا كان في طريقه إلى الشفاء شفي. ثم إن من الصعب على خريستيان إيفانوفيتش التفاهم معهم فهو لا يعرف من الروسية أية كلمة.

(يصدر خريستيان إيفانوفيتش صوتاً يشبه الياء).

حاكم المدينة: وبودي أن أنصحك أنت أيضاً، يا أمّوس فيدروفيتش، بأن تلتفت إلى غرف دائرتك، فإنّ الحرّاس صاروا يربّون البطّ وفراخه في الرواق الذي يوجد المراجعون فيه عادة،

فيلبـط بين أرجلهم. تربية الدواجن تستحقّ كلّ ثناء بالطبع، فلماذا لا يربّيهـا الحرّاس أيضاً؟ ولكـن لا يليق ذلك في مثل هذا المكان... قبل هذا أيضاً كنت أريد أن ألفت انتباهك، ولكن فات من بالي.

أمّوس فيدروفيتش: سآمرهم اليوم بنقله جميعاً إلى المطبخ لذبحه. تفضّل وتغدّ عندنا إذا شئت.

حاكـم المدينـة: وفضلاً عن ذلك قبيـح أن تُنشر مختلف الخرق في مقـرّ عملك، ويتـدلّى سوط الصيـد من فوق الـدولاب الذي تحفظ فيـه أوراقـك. أنا أعرف أنّـك تهوي الصيد. ولكن مـن الأفضل أن ترفعـه مؤقتاً، وتعلّقه ثانية، حـين يرحل المفتّش العامّ. ثمّ إن موظفك المنتخـب... طبعاً إنّه رجل مطّلع، ولكن له رائحة قوية، وكأنّه خرج لتـوّه من مصنـع تخمير. وهذا شيء غير لطيف أيضـاً. كنت أريد أن أكلّمك عنه منذ زمان، لكن كنت مشغول البال بشيء لا أذكره الآن. هناك وسيلة لعلاج ذلك، إذا كانت هذه رائحته الطبيعية، كما يقول، فمـن الممكن أن يُنصح بأكل البصـل أو الثوم، أو أي شيء آخر. وفي هذه الحال يمكن أن يساعده خريستيان إيفانوفيتش بمختلف العقاقير.

(يصدر خريستيان إيفانوفيتش نفس الصوت السابق).

أمّوس فيدروفيتش: لا، من المستحيل التخلّص من تلك الرائحة. يقـول إن أمّـه صدمته، حـين كان طفلاً، ومنذ ذلـك الحين صارت تخرج منه رائحة الفودكا غير القوية.

حاكم المدينة: هذا مـا أردت أن أنبّهك عليه فقط. أما بخصوص الإجراءات الداخلية، وما يسميه آندريه إيفانوفيتش في رسالته بالآثام، فـلا أريد أن أعلّق عليه. فإن ذلك سيكـون غريباً. إذ لا يوجد إنسان خـال من الآثام. هكذا خلقنا الربّ نفسـه. وليس من حقّ أصحاب الأفكار الجديدة أن يعترضوا على ذلك.

أمّوس فيدروفيتش: ماذا تقصـد بالآثام، يا أنتـون أنتونوفيتش؟ هناك فـرق بين آثام وآثـام. وأنا أقـول بصراحة للجميـع: إنّني آخذ

رشــاوى. ولكن أي نوع من الرشاوى؟ جــراء كلاب الصيد. وهذا شيء مختلف تماماً.

حاكم المدينة: كلّها رشاوى سواء أكانت جراء أو غيرها.

أمّوســ فيدروفيتش: لا يــا أنتون أنتونوفيتشــ ولكن لو أن لأحد فروة ثمنها خمسمائة روبل، مثلاً، وللزوجة شال...

حاكم المدينة: ولكن ماذا يجدي أن تقتصر في رشاواك على جراء كلاب الصيــد؟ بينما أنت لا تؤمّن بالــربّ، ولا تذهب إلى الكنيسة أبــداً. بينما أنا، علــى الأقلّ، قوي الايمان، وأذهــب إلى الكنيسة كل يــوم أحد. وأنت... أوه، أعرفك. إذا بدأت بالكلام عن خلق العا لم، وقف شعر الرأس كلّه.

أمّوس فيدروفيتش: ولكن أنا الذي توصّلت إلى ذلك بعقلي.

حاكم المدينــة: حسناً، كثرة العقل، في بعضــ الأحيان، أسوأ من عدمــه. وبالمناسبة أنا لم أذكر محكمة القضاء إلا عرضاً. فمن المستبعد حقــاً أن يطلّ أحد عليها، فهي مــكان آمن والربّ يحرسه بنفسه. أمّا أنت، يالوكا لوكيتش باعتبارك ناظر المؤسّسات التعليمية، فيجب أن تهتم بالمعلّمين بشكل خاصّ. إنّهــم، بالطبع، أناس متعلّمون درسوا في مختلــف دور العلم، ولكن لهــم تصرّفات غريبة جــدّاً لا تنفصل، بالطبع، عن لقبهم العلمي. فأحدهم، مثلاً، وهو ذو الوجه الممتلئ... لا أتذكّــر اسمه، لا يصعد إلى المنصــة إلا وهذه التكشيرة على وجهه (يُمثّــل هذه التكشيرة). ثــمّ يأخذ بتمسيد لحيته بيــده من تحت ربطة عنقــه. لا بأس، بالطبع، لو كان يكشّر هــذه التكشيرة لتلامذته، فقد تكــون التكشيرة ضرورية، وأنــا لا أفهم في هذا. ولكنّهــا قبيحة إذا جابه بهــا أحد الزوّار، فاحكموا بأنفسكم. قد يعتبرها السيد المفتّش العامّ أو غيره مساساً به. وسيحصل من ذلك ما لا يعرفه إلا الشيطان.

لوكا لوكيتشــ: ماذا تريد أن أفعل به، حقّاً؟ لقد تكلّمت معه عن ذلــك عدّة مرّات. وقبل أيّام فقط، حــين دخل عميد الأشراف عندنا

إلى الصفّ، قلّب سحنته قلبة لم أر مثلها قطّ. وقد فعل ذلك عن طيبة قلب. ولكنّني حصلت على توبيخ بدعوى أنه يدخل الأفكار المتحرّرة في عقول النشء.

حاكم المدينة: ثمّ يجب أن ألفت نظرك إلى معلم التاريخ. إنّه عقل نيّر، وذلك واضح، ومعلوماته هائلة، ولكنّه يتحمّس حماساً شديداً، حين يشرح، حتّى يخرج عن أطواره، ذات مرّة استمعت إليه، طيّب، حين كان يتكلّم عن الآشوريين والبابليين لا بأس، ولكن عندما وصل إلى اسكندر المقدوني، لا أقدر أن أصف لكم ماذا حصل له. ظننت أن حريقاً قد شبّ، وحقّ الربّ! نزل راكضاً من المنصّة، وخبط الكرسي بالأرض بكلّ قوّته.

اسكندر المقدوني بطل، بالطبع، ولكن لماذا يكسّر معلّمك الكرسي؟ في ذلك خسارة للدولة.

لوكا لوكيتش: نعم، إنّه حادّ المزاج! وقد نبّهته على ذلك عدّة مرّات... ولكنه يقول: «كما تشاء، ولكنّني لن أبخل بحياتي في سبيل العلم».

حاكم المدينة: نعم، هذه سُنّة القدر التي لا تخضع لتفسير: العالِم إمّا أن يكون سكّيراً، وإمّا أن يقلّب سحنته كالشيطان.

لوكا لوكيتش: عسى الله أن لا يجعل الإنسان يخدم في مؤسسة تعليمية. فهو يخاف من كلّ شيء، لأن أي إنسان يدس أنفه أو يحبّ أن يظهر أنّه هو أيضاً عالم.

حاكم المدينة: هذا لا شيء. والمصيبة هو ذلك الذي يتخفى عنّا. وسيطلّ فجأة ويقول: «آها، أنتم هنا، يالطاف! ومن القاضي بينكم؟» «إنه ليابكين تيابكين» «هاتوا لي ليابيكين تيابكين! ومن راعي المؤسّسات الخيرية؟» «زيملانيكا» «هاتوا لي زيملانيكا!» تلك هي البلية.

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص مع مأمور البريد).

مأمور البريد: أوضحوا لي، يا سادة، أي موظف قادم؟

حاكم المدينة: ألم تسمع حقاً؟

مدير البريد. سمعت من بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي: كان عندي في دائرة البريد قبل لحظات.

حاكم المدينة: طيّب. ما رأيك في هذا؟

مأمور البريد: ما رأيي؟ ستقع حرب مع الأتراك.

أمّوس فيدروفيتش: بالضبط! مثلما فكّرت أنا.

حاكم المدينة: ولكن كليكما لم يصب الهدف.

مأمور البريد: حرب مع الأتراك، حقّاً، وكل ذلك من كيد الفرنسيين.

حاكم المدينة: ما شأن الحرب مع الأتراك هنا! نحن الذين سنتضرر، لا الأتراك، وهذا معروف من الرسالة التي تلقيتها.

مأمور البريد: إذا كان كذلك فلن تقع حرب مع الأتراك.

حاكم المدينة: ماذا ترى في هذا، يا إيفان كوزميتش؟

مأمور البريد: وماذا أنا؟ ولكن كيف ترى أنت، يا أنتون أنتونوفيتش؟

حاكم المدينة: وماذا أنا أيضاً؟ لا أشعر بخوف، ولكن... التجار والأهالي يقلقونني... يقولون إنني ضايقتهم، ولكن والله إن كنت

قـد أخذت رشوى من أحدهـم، فبدون أية ضغينة حقّـاً. حتّى أنّني أفكّر (يتأبـط ذراعه، وينتحي به جانباً).. حتّى أنّنـي أفكّر بأن أحداً مـن الناس ربّما قـد وشّى بي وإلا فلمـاذا يقصدنا مفتش عام حقاً؟ أسمـع، يا إيفان كوزميتش، هل من الممكن، لمصلحتنـا عموماً، أن تفضّ ختم الرسالـة القادمة إليك في دائرة البريد الواردة والصادرة؟ تفضّها قليلاً، وتقرأها، فلعلّ فيها وشاية أو مجرّد إخبارية. وإذا لم تجد شيئاً يمكن أن تختمها من جديد، بل يمكنك أن تسلّمها كما هي، غير مختومة.

مأمـور البريد: أعـرف، أعرف.... لا تعلمني بذلـك. فأنا أفعله لا مـن جانب الاحتراس، بل من جانـب الفضول أكـثر. فأنا مغرم حتّـى الموت بمعرفـة ما هو جديد في الدنيا. وأؤكـد لك أن مثل هذه القـراءة غايـة في المتعـة. بعض الرسائـل تقرأها بتلـذّذ، لأنّها تصف مختلـف الوقائع... فيهـا موعظة وحكمـة... أحسن مـن «الوقائع الموسكوفية»(١)

حاكـم المدينـة: طيـب، ألم تقـرأ شيئـاً عـن موظـف قـادم من بطرسبورغ؟

مأمـور البريد: لا، لا شـيء عن هذا ولكـن أحاديث كثيرة تدور حول موظفـين من كوستروما وساراتوف. علـى كل حال، خسارة أنّـك لا تقرأ رسائل. فيها مواضـع رائعة، أحد الضباط، مثلاً، يكتب لصديقـه، ويصف حفلة راقصة في منتهى الفرفشة... لطيف، لطيف جدّاً. فهو يقول: «الحياة، يا صديقي العزيز، تجري في نعيم. الأوانس

(١) جريدة كانت تصدرها جامعة موسكو منذ عام ١٧٦٦. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كفت الجامعة عن إصدارها، وصارت رجعية تصدرها الحكومة. المعرب.

كثيرات، والموسيقى تصدح، والرايات ترفرف» وصف في منتهى، منتهى العاطفة، أبقيت الرسالة عندي عمداً، هل تريد أن أقرأها؟

حاكم المدينة: ليس وقتها الآن، إذاً، اعمل معروفاً، يا إيفان كوزميتش، إذا وقعت في يديك شكوى أو وشاية، احفظها عندك، دون أي تردد.

مأمور البريد: بكل سرور.

أمّوس فيدروفيتش: انتبه، فقد تتاذى من وراء ذلك.

مأمور البريد: آه، يا أولياء!

حاكم المدينة: لا بأس، لا بأس، شيء آخر لو شهّرت بذلك. ولكنّها قضية عائلية.

أمّوس فيدروفيتش: نعم، وقع ما لا تحمّد عقباه! بنما جئتك، يا أنتون أنتونوفيتش، إذا أردت الصراحة لأهديك كلبة صيد، هي شقيقة الكلب الذي تعرفه. لعلك سمعت بأن تشيبتوفيتش وفارخوفينسكي أقام دعوى على الآخر، وأنا الآن في ترف، أصطاد الأرانب في أراضي هذا وذاك.

حاكم المدينة: آه، يا أولياء، لا تهمني الآن أرانبك. فأنا أفكّر في ذلك المتخفّي اللعين الذي قد يطل علينا من لحظة إلى أخرى...

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص مع بوبتشينسكي ودوبتشينسكي اللذين يدخلان لاهثين).

بوبتشينسكي: حدث خارق!

دوبتشينسكي: نبأ غير متوقّع!

الجميع: ما هو؟

دوبتشينسكي: أمر لا على البال ولا على الخاطر. بينما كنا داخلين إلى الفندق...

بوبتشينسكي: (يقاطعه) بينما كنت وبيتر إيفانوفيتش داخلين إلى الفندق....

دوبتشينسكي: (يقاطعه) اسمح لي، يا بيتر إيفانوفيتش. أنا الذي سيتحدّث.

بوبتشينسكي: لا، لا، اسمح لي، اسمح لي، اسمح لي... ليست لديك أية طريقة في الحديث...

دوبتشينسكي: بينما أنت ستتعثّر في الكلام، ولا تتذكّر كلّ شيء. ولا تتذكّر كلّ شيء.

بوبتشينسكي: أتذكّر، والله، أتذكّر. فلا تعقني، ودعني أحكي، لا تعقني! اعملوا معروفاً، يا سادة، وقولوا لبيتر إيفانوفيتش أن لا يعقني.

حاكم المدينة: ولكن تكلّم، بحقّ الربّ. ماذا عندكما؟ قلبي

خـرج من موضعه. اجلسوا، يا سادة، خذوا مقاعدكم. هاك مقعداً، يا بيتر إيفانوفيتش.

(الجميع يجلسون حول هذين البيترين إيفانوفيتشين كليهما).

الجميع: طيب ، ما هو؟

بوبتشينسكي: اسمح لي، اسمح لي، اسمح لي سأحكي بالترتيب. ما إن تهيّـأ لي الخروج منك بعد أن تفضّلـت وأبديت انزعاجك من الرسالـة التـي تسلّمتها، أي نعم، حتّى أسرعـت... أوه، أرجوك، لا تقاطعني، يـا بيتر إيفانوفيتش! أنا أعرف، أعـرف كلّ شيء... حتّى أسرعـت إلى كوروبكـين. فلم أجد كوروبكـين في البيت، فعرجت علـى راستاكوفسكي، فلم أجد راستاكوفسكـي، فذهبت إلى إيفان كوزميتشـ لأبلغـه بالخبر الـذي وصلك، وحين خرجـت من هناك التقيت ببيتر إيفانوفيتش......

دوبتشينسكي: (يقاطعه) قرب الكشك الذي تباع فيه الفطائر.

بوبتشينسكـي: قـرب الكشك الـذي تباع فيـه الفطائر. وحين التقيـت ببيتر إيفانوفيتش قلت لهك «هل سمعـت بالخبر الذي تلقّاه أنتـون أنتونوفيتش من رسالة موثوقة؟» كان بيتر إيفانوفيتش قد سمع بالخـبر من قهرمانتـك آفدوتيا التي لا أعرف لمـاذا أُرسلت إلى فيليب أنتونوفيتش بوتشيتشويف.

دوبتشينسكي: (يقاطعه) لجلب دنٍّ للفودكا الفرنسية.

بوبتشينسكي: (يبعد يديه). لجلب دنٍّ للفودكا الفرنسية.

فذهبنا أنا وبيتر إيفانوفيتش إلى بوتشيبشويف... أرجوك، يا بيتر إيفانوفيتش، لا تقاطعنـي، لا تقاطعني! ذهبنا إلى بوتشيتشويف وفي الطريـق يقول لي بيتر إيفانوفيتش: «لنذهـب إلى المطعم... لم أضع في معدني طعاماً منـذ الصباح... عندي اضطـراب معدوي» آها، عند

بيتر إيفانوفيتش اضطراب معدوي.... ويقول: «والآن جلبوا إلى مطعم الفندق سمك سلمون طازج، وسنأكل منه». وما كدنا نحطّ في غرفة الطعام حتّى نرى شابّاً فجأة...

دوبتشينسكي: (يقاطعه) له مظهر مقبول، ولباس مدني...

بوبتشينسكي: له مظهر مقبول، ولباس مدني، يتمشّى في الغرفة، وعلى وجهه تفكير عميق... سيماء.... ت صرّفات، وهنا (يدير يده قرب جبينه). أهمّ الأهم. وكأنني حدست، فأقول لبيتر إيفانوفيتش : «شيء غير اعتيادي هنا». آها. وكان بيتر إيفانوفيتش قد أومأ إلى صاحب الحانة فلاس بأصبعه يدعوه إليه. قبل ثلاثة أسابيع وضعت زوجة فلاس طفلاً حركاً للغاية، سيدير حانة مثل أبيه. دعا بيتر إيفانوفيتش فلاس، واستفسر منه بهدوء: «مَنْ ذلك الشابّ؟» فيرد فلاس: «هذا»... أوه، لا تقاطعني، يا بيتر إيفانوفيتشن أرجوك، لا تقاطعني. ولا تتحدث، بحقّ الربّ، لا تتحدّث. أنت تهسهس. أنا أعرف أن إحدى أسنانك تصدر صفيراً... فيقول فلاس: «هذا الشابّ موظّف قادم من بطرسبورغ يُدعى إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف، في طريقه إلى ولاية ساراتوف. يتصرّف بغرابة. نزل في الحانة منذ أكثر من أسبوع، ولا يغادر. يأخذ كلّ شيء على الحساب، ولا يريد أن يدفع فلساً واحداً». وحالما قال لي ذلك، أدركت بوحي سماوي، فأقول لبيتر إيفانوفيتش: «آي»......

دوبتشينسكي: لا، يا بيتر إيفانوفيتش، أنا الذي قلت: «آي!»

بوبتشينسكي: في البداية قلت أنت، وبعد ذلك قلت أنا.

طيب، قلت أنا وبيتر إيفانوفيتش : «آي! ولماذا يظلّ ههنا إذا كان يقصد ولاية ساراتوف؟» نعم، إنّه هو، أقصد ذلك الموظّف.

حاكم المدينة: من هو ذلك الموظّف؟

بوبتشينسكي: الموظّف الذي تلقيت إخبارية عنه. المفتّش العامّ.

حاكم المدينة: (في فزع) الله يحفظنا! ليس هو.

دوبتشينسكي: هو! لا يدفع فلوساً، ولا يسافر. ومَنْ يمكن أن يكون غيره؟ ساراتوف مكتوبة في وثيقة السفر.

بوبتشينسكي: هو، وحقّ الربّ، هو... متفحّص استوعب ببصره كلّ شيء. حين رآنا أنا وبيتر إيفانوفيتش نأكل السلمون، بسبب معدة بيتر إيفانوفيتش على الأكثر... نظر في صحننا أيضاً، فاستولى الذعر عليّ.

حاكم المدينة: يا إلهي، ارحمنا، نحن الآثمين! أين يعيش هناك؟

دوبتشينسكي: في الحجرة رقم خمسة، تحت السلّم.

بوبتشينسكي: في نفس الحجرة التي تعارك فيها الضبّاط المسافرون في العام الماضي.

حاكم المدينة: وهل هو هنا منذ زمان؟د

دوبتشينسكي: منذ أسبوعين. وصل في عيد القدّيس فاسيلي المصري.

حاكم المدينة: منذ أسبوعين! (في ناحية). يا أولياء، يا قدّيسون! أنقذوني، أيّها الشفيعون! في هذين الأسبوعين جُلِدت زوجة ضابط الصفّ[1]! ولم توزع الأرزاق على المعتقلين! وفي الشوارع عربدة ووساخة! عار! مثلبة! (يمسك رأسه)..

ارتيمي فيليبوفيتش: ما رأيك، يا أنتون أنتونوفيتش؟ أنذهب إلى الفندق لنقدم أنفسنا رسمياً؟

---

(١) قبل وقت قصير من ظهور «المفتش العام» صدر قانون يحرم العقوبات الجسدية لزوجات ضباط الصف. المعرب.

أمّوس فيدروفيتش: لا، لا! في البداية نرسل عميد الوجهاء... رجال الدين، التجّار: في كتاب «مآثر يوحنّا ماسون»...

حاكم المدينة: لا، لا، اسمحوا لي أن أتصرف. في الماضي حصلت حالات صعبة، وسُوّيت بل وحصلت على شكر. فلعلّ الربّ ينجيني، هذه المرّة أيضاً. (يخاطب بوبتشينسكي).. تقول إنّه شاب!؟

بوبتشينسكي: شابّ في الثالثة والعشرين أو أكثر من الرابعة والعشرين بقليل.

حاكم المدينة: هذا أفضل. الشابّ أكثر انكشافاً، كلّ شيء فيه ظاهر، ولكن المصيبة إذا كانت داهية عجوزاً. تهيّأوا، أيها السادة، كلّ في دائرة عمله، وسأخرج أنا لوحدي، أو مع بيتر إيفانوفيتش بشكل شخصي، للنزهة، والتعرّف عمّا إذا كان المارّون في مدينتنا يلقون بعض المنغّصات. هاي، يا سفيستونوف!

سفيستونوف: ماذا تحبّون؟

حاكم المدينة: استدع رئيس شرطة المدينة. أو، لا، أنت تلزمني، أطلب أن يُستدعى رئيس شرطة المدينة إليّ بأسرع وقت، وتعال.

(الشرطي يركض بعجالة).

أرتيمي فيليبوفيتش: لنذهب، لنذهب، يا أمّوس فيدروفيتش! قد تحصل مصيبة حقاً.

أمّوس فيدروفيتش: ولكن ممّ تخاف؟ تلبس مرضاك طاقيات نظيفة، وتغطّي على آثامك.

أرتيمي فيليبوفيتش: ليست مسألة طاقيات! الأوامر تنصّ على تقديم شوربة الشعير للمرضى، بينما رائحة الكرنب عندي تملأ الممرّات كلّها حتى تصدم الأنف.

أمّوس فيدروفيتش: أمّا أنا فمطمئن من هذه الناحية، إذا أردت

الواقـع مَنْ يتذكّر محكمة البلـدة فيطلّ عليها؟ وحتى إذا نظر في ورقة فيهـا، فإنّه لن يرى الفرحة في حياته كلّها. أنا منذ خمسة عشر عاماً، أقعد علـى كرسي القضاء، ولكن ما إن أنظـر في سجّل الوقائع حتى أنفـر منه وأعوفـه. سليمان الحكيم نفسه لا يعـرف الصحيح فيه من الكذب.

(يخرج القاضي، وراعي المؤسسـات الخيرية، وناظر المؤسسات التعليمية، ومأمور البريد، فيصطدمون في الباب بالشرطي العائد)

المشهد الرابع

(حاكم المدينة، بوبتشينسكي، دوبتشينسكي، والشرطي).

حاكم المدينة: هل العربة جاهزة؟

الشرطي: جاهزة.

حاكم المدينة: أخرج إلى الشارع... أو، لا، على مهلك... اذهب لجلب... ولكن أين الآخرون؟ هل معقول أنّك وحدك؟ أوعزتُ بأن يكون بروخورروف هنا أيضاً. أين بروخورروف؟

الشرطي: بروخورروف في بيته، ولكنّه لا يستطيع أن يشترك في عمله.

حاكم المدينة: وكيف هذا؟

الشرطي: جلبوه في الصباح كالميّت. صبوا عليه جردلين من الماء، فلم يفق من سكره حتّى الآن.

حاكم المدينة: (يمسك رأسه) أوه، يا ربّي، يا ربّي!

أخرج إلى الشارع على عجل. أو، لا. أركض إلى الحجرة أولاً، سامع! أجلب منها السيف والقبّعة الجديدة، هيا، يا بيتر إيفانوفيتش!

بوبتشينسكي: وأنا أيضاً، وأنا أيضاً... اسمح لي أنا أيضاً، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: لا، لا، يا بيتر إيفانوفيتش، غير ممكن، غير ممكن! هذا إحراج، كما أن ع ربتي الصغير لا تسع.

بوبتشينسكي: لا بأس، لا بأس. سأجري وراءها، لا أحتاج إلا أن

أنظر إليه من خصاص الباب... وأرى تصرّفاته...

حاكم المدينة: (للشرطي، وهو يتناول السيف) اذهب حالاً مع بعض المساعدين، وليأخذ كل واحد منهم.... آه، ما أكثر الخدوش على هذا السيف! اللعنة على التاجر عبدولين. يرى حاكم المدينة يحمل سيفاً عتيقاً، دون أن يرسل له آخر جديداً، آه، محتاولون! أظن هؤلاء الغشاشين يهيّئون الآن الشكاوى خلسة. ليأخذ كلّ واحد في يده شارعاً... أوه، اللعنة، أقصد مكنسة! وليكنسوا كل الشارع المؤدّي إلى الحانة، وليكنسوه بشكل جيّد... تسمع! أمّا أنت فأحذرك، نعم، أنت، أنت. أنا أعرفك. سترفع الكلفة، وتسرق ملاعق فضية، وتخبئها في عنق حذائك الطويل. احذر، فإنّ لي بصراً حادّاً! ماذا فعلت مع التاجر تشيرنياف؟ ها؟ أعطاك ذراعين من الجوخ لتفصلهما بزّة لك، بينما لطشت أنت اللفة كلّها، حذار، أنت تأخذ أكثر ممّا يناسب رتبتك. اذهب!.

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص مع رئيس شرطة المدينة).

حاكم المدينة: آ.... ياستيبان إيليتش! قل لي بحقّ الربّ، أين اختفيت؟ ماذا يعني هذا؟

رئيس الشرطة: كنت هنا، وراء البوّابة.

حاكم المدينة: اسمع، يا ستيبان إيليتش! وصل موظّف من بطرسبورغ. فكيف تهيّأت لذلك؟

رئيس الشرطة: مثلما أمرت. أرسلت الشرطي بوغو فيتسين مع المساعدين لتنظيف الرصيف.

حاكم المدينة: وأين ديرجيموردا؟

رئيس الشرطة: خرج على عربة الإطفاء.

حاكم المدينة: وبروخوروف سكران؟

رئيس الشرطة: سكران.

حاكم المدينة: وكيف تساهلت في ذلك.

رئيس الشرطة: لا أدري، والله، يوم أمس حصل عراك خارج المدينة فذهب إلى هناك ليعيد النظام، فعاد سكران.

حاكم المدينة: طيب، اسمع. افعل كالآتي: اجعل الشرطي بوغوفيتسين يقف على الجسر للوجاهة، لأنّه طويل القامة. وأوعز بتفكيك السياج القديم القائم قرب الإسكاف بسرعة، ونصب عمود

مـن القشّ هناك، ليدلّ على مشروع بنـاء، لأنّه كلّما كَثُر الحطام كان أكـثر دلالة على نشاط القائم علـى أمور المدينة. أوه، يا إلهي، نسيت أن بالقرب مـن هذا السياج مختلف القاذورات تكفي لأربعين عربة. أيـة مدينة حقيرة هذه! ما إن تقيم فيها نصباً تذكارياً، أو مجرّد سياج، حتّـى تجد الناس يحملون إلى هنـاك وساخات لا أحد يعرف من أين جـاءوا بها! (يتنهّـد). وإذا سأل الموظّف المستخدمـين عمّا إذا كانوا مرتاحين، فليقولوا: «مرتاحون، يا صاحب النبالة»، وإذا أعلن واحد منهـم عن عدم رضاه فسيجد منّـي، فيما بعد، مالا يحمّد عقباه.... أوه، أوه، أوهـوه! خاطـئ أنا، خاطئ في أشياء كثـيرة. (يتناول علبة القبّعة بدلاً من القبّعة).. لئن نجّانا الربُّ من هذه الغمة بأقرب وقت، فسأوقـد له شمعـة لم يوقد مثلها قطّ. سأفرض علـى كلّ محتال تاجر ثلاثـة بودرات مـن الشمـع. أوه، يا ربّـي، ياربّي! لنذهـب، يا بيتر إيفانوفيتش. (يهمّ بأن يضع العلبة الورقية بدلاً من القبّعة).

رئيس الشرطة: يا أنتون أنتونوفيتش، هذه علبة وليست قبعة.

حاكـم المدينة: (يلقيهـا)، أهـا، علبة، عليهـا اللعنـة! وإذا سأل الموظّـف: لماذا لم تُبن كنيسة المؤسّسـة الخيرية، وقد خصّص لها مبلغ مـن المال منذ خمسة أعوام، فـلا تنسوا أن تردوا عليـه بأننا قد بدأنا ببنائهـا، ولكنّهـا احترقـت. وقد قدمت أنـا تقريراً بذلـك، أخشى أن يسهـو أحدكـم فيقول بحماقة أننـا لم نشرع في بنائهـا. ثمّ أخبر ديرجيمـوردا أيضاً بأن لا يستخـدم قبضتيه كثيراً، فهو لحفظ النظام، يترك كدمات تحت عيون الناس المذنبين منهم وغير المذنبين. لنذنب، يـا بيتر إيفانوفيتش! (يخرج ويعود) ثـمّ لا تدع الجنود يخرجون إلى الشارع كالعـراة، فهؤلاء الأرذال من جنود الحاميـة يلبسون السترة الرسمية على القميص، ولا شيء في الأسفل.

(الجميع يخرجون).

المشهد السادس

(آنا آندرييفنا. وماريا أنتونوفنا. تدخلان خشبة المسرح راكضتين).

آنـا آندرييفنا: أين هم؟ آه، يا إلهـي!... (تفتح الباب).. زوجي! أنتوشا! أنتون! (تسرع في كلامها). العتب عليك، كل شيء بسببك. رحـت تنبشـين: أريد الدبّوس، أريـد المنديل. (تركض إلى النافذة، وتصيح). أنتـون، إلى أيـن، إلى أين؟ يعني، وصـل؟ المفتّش العامّ؟ ذو شاربين! ما شكل شاربيه؟

صوت حاكم المدينة: فيما بعد، فيما بعد، يا سيدتي.

آنا آندرييفنـا: فيما بعد؟ نورّتني بـ(فيما بعـد) هذه. لا أريد فيما بعد.... كلمة واحدة فقط: هل هو عقيد؟ ها؟ (باستخفاف). ذهب! سأذكِّركَ بهذا! تأخرنا بسببـكِ أنتِ: «ماما، ماما، انتظري، لأدبّس المنديل من الخلف. حالاً» وهذه هي نتيجة حالاً! لم نعرف أي شيء! كلّ ذلـك بسبـب الدلع اللعين. مـا إن سمعت بـأن مأمور البريد في البيت، حتّى وقفتِ أمام المرآة متغنجة تتلوى على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب. تتصوّرين أنّه يغازلك. بينما هو يمطّ لك شفتيه سخرية، حالما تستديرين.

ماريـا أنتونوفنا: وما العمل، يا ماما؟. لا يثهمّ، سنعرف كل شيء بعد ساعتين.

آنـا آندرييفنا: بعد ساعتين! شكراً جزيلاً على هذا الجواب الوافي الشافي! كيف لم تحدسي أن تقولي بعد شهر سنعرف أحسن! (تخرج جسمهـا من النافذة).. يـا آفدوتيا! ها؟ هل سمعـت بوصول أحد؟

لم تسمعـي؟ حمقاء! يعدك بذراعيه؟ وليكـن، ولكن كان عليك أن تسأليـه. لم تستطيعـي أن تعرفي! رأسك معبّـأ بالتوافه لا تفكّرين إلا بالـزواج. ها؟ خرجوا بسرعة؟ كان عليـك أن تركضي وراء العربة. اذهبـي، اذهبي، الآن! اسمعي: اركضـي واستفسري إلى أين ذهبوا، استفسري جيّداً: مَنْ هو القادم وماهو شكله. هل تسمعين؟ بصّي من ثقب الباب، واعرفي كلّ شيء. ما لون عينيه، سوداوان أم بلون آخر. وعودي حالاً. تسمعـين؟ أسرعي، أسرعي، أسرعـي! (تصيح إلى أن تهبط الستارة فتحجب كلتا المرأتين الواقفتين عند النافذة)..

الفصل الثاني

(غرفة صغيرة في فندق. سرير، منضدة، حقيبة زجاجة فارغة، حذاء طويل العنق. فرشاة الثياب، وغير ذلك).

المشهد الأول

(أوسيب منطرح على سرير سيده).

اللعنة! جوعان تماماً. وبطني يقرقر، وكأن فوجاً كاملاً ينفخ بالأبواق. لا أظننا سنصل إلى موطننا! ما العمل إذاً؟ هذا هو الشهر الثاني منذ أن خرجنا من بطرسبورغ! الحلو بذّر فلوسه في الطريق، وهو الآن يقعد فارغ الجيب ولا يهتم. بينما كان لديه ما يكفي ويزيد للتنقّل، جنى عليه حبّه للفخفخة في كل مدينة. (يقلّده): «يا أوسيب، اذهب وابحث لي عن أحسن غرفة، واطلب أحسن غداء. أنا لا أستطيع أن آكل الطعام الغثّ وأريد أحسن طعام». لا يهمّ لو كان موظفاً معتبراً، بالفعل، ولكنّه من الدرجة الدنيا في الوظيفة! يتعرّف على المسافرين، ويلعب القمار معهم، وها هي النتيجة! أوه، ضقت من هذه الحياة! العيش في الريف أحسن، بالتأكيد. صحيح، لا توجد حياة اجتماعية، ولكن الهموم أقلّ. تتزوّج ريفية، وتظلّ طول عمرك راقداً على جنبك، بل وتأكل فطائر علاوة على ذلك. طبعاً، الحياة في بطرسبورغ هي المثلى، إذا أردت الحقيقة. ولا أحد يناقشك في ذلك. فقط أن تكون لديك فلوس، حياة رقيقة مهذّبة. وطوال الوقت

تسمـع كلاماً في غاية الرقـة، لا أحسن منه غـير كلام النبلاء. فأنت تذهــب إلى سوق شوكـين، فتسمع التجار يصيحــون: «يا محترم!». وعندمــا تعبر النهر تجلســ مع الموظّفين في قــارب واحد. وإذا كنت تحــبّ العشرة دخلت حانة، واستمعت إلى جنــدي عجوز يقصّ لك عن المعسكر، ويفسر لك ما تعني كل نجمة في السماء، فترى كل شيء وكأنــه في راحة يدك. وتصادف عجوزاً، هي زوجة ضابط، تتبختر، ووصيفة في بيت نبيل تمر بك أحياناً... آه، ما أحلاها! (يكشّر، ويهزّ رأسه).. أدب.... يا ويلــي، ولطافة! لن تسمع أية كلمة غير مهذّبة. والجميـع يخاطبونك بـ «يا محترم». وحين تضجر من التمشّي توقف عربة، وتجلس فيها كالسيد المعتبر، وإذا لم ترد أن تدفع أجرة الحوذي استطعــت أن تزوغ. فلكلّ بيت منفذ مــن الجهة الأخرى، وتقدر أن تنســلّ منــه ولا يستطيع أي عفريت أن يمســكك. شيء واحد مزعج هــو أنّك تأكل أحياناً حتــى الشبع، وتجوع أحيانــاً حتّى تكاد تموت من الجوع، كما هي حــالي الآن. وكلّ ذلك بسببه. فماذا أفعل معه؟ حــين يرسل له أبوه نقوداً لن يحتفظ بها، ويبدّدها شرّ تبديد! ويركب عربــات الأجرة، وأذهب كل يوم لأشتري لــه تذاكر للمسرح. وبعد أسبــوع تكون الفلوس قد طــارت. فيرسلني إلى السوق لأبيع له بدلة الفــراك الجديدة. وأحيانــاً يبيع كلّ ما لديه ولا يبقــى معه غير السترة الرسميــة والمعطــف... هذا صحيح، وحقّ الــربّ، صحيح! الجوخ معتبر، إنكليزي، الفراك وحده يكلفه مئة وخمسين روبلاً. فيبيعه في السوق بعشرين. أما البناطيل فلا حاجة حتّى لذكرها. يبيعها بقروش زهيــدة. ولم كل ذلك؟ لأنــه لا يزاول عملاً. وبدلاً من أن يذهب إلى وظيفته، يتنزّه في الشــارع العام، ويلعب الورق. آه، لو عرف السيد العجــوز هذا! لن ينظر إلى كونه موظفاً، ويرفع قميصه ويجلده جلداً يظــلّ بعده ثلاثة أيّام يحــكّ جلده. إذا كنت في وظيفــة فداوم فيها.

صاحـب الفندق الآن قال: لن أقدّم لك ما تأكله حتّى تدفع الحساب السابق، طيـب، وإذا لم ندفع؟ (يتحسّر). آه، يا إلهي، على الأقلّ لو كانت عندنـا شوربة كرنب بسيطة! يبـدو لي الآن أنّني ألتهم العالـم كلّه. أسمع طرقاً. نعم، ها هو قادم. (يسرع بالنزول من السرير).

المشهد الثاني

(أوسيب وخليستاكوف)

خليستاكوف: هاك، خذ، (يقدّم له القبّعة والعصا).. آه، مرّة أخرى انطرحت على السرير؟

أوسيب: ولِمَ أنطرح؟ أتحسبني لم أر سريراً في حياتي؟

خليستاكوف: تكذب. كنت منطرحاً عليه. انظر كيف هو مدعوك!

أوسيب: ولكن أي غرض لي به؟ كأنّني لا أعرف ما هو السرير. عندي رجلان، واقدر أن أقف. فما حاجتي إلى سريرك؟

خليستاكوف: (يذرع الحجرة). أنظر في الكيس، ربّما يوجد تبغ؟

أوسيب: ومن أين يأتي هذا التبغ؟ أنت دخّنت آخر ما تبقّى منه قبل أربعة أيام.

خليستاكوف: (يتمشّى ويضمّ شفتيه بأوضاع مختلفة. وأخيراً يقول بصوت عال حازم). اسمع، يا أوسيب.!

أوسيب: بماذا تتكرّم؟

خليستاكوف: (بصوت عال، ولكن بلا حزم كبير). اذهب إلى هناك.

أوسيب: إلى أين؟

خليستاكوف: (بصوت خال من الحزم تماماً، وليس عالياً،

وقريب جدّاً من الرجاء). إلى المشرب، في الأسفل... وأبلغهم... أن يقدّموا لي ما أتغدى به.

أوسيب: لا ، لا أحب حتى أن أتحرّك.

خليستاكوف: كيف تجسر، يا أحمق؟

أوسيب: ولكن، بلا جدوى، حتّى لو ذهبت لن نحصل على شيء... صاحب الفندق قال: لن أقدم أي طعام بعد الآن.

خليستاكوف: وكيف يجسر على ذلك؟ أي سخف هذا!

أوسيب: ويقول أيضاً: وسأذهب إلى حاكم المدينة: سيدك لا يدفع فلوساً منذ أسبوعين. ويقول: أنت وسيّدك محتالان. وسيّدك نصّاب. ويقول نحن نعرف الطفيليين والأوغاد من أمثالكم.

خليستاكوف: وفرحان، أيّها البهيمة، لتعيد لي كلّ ذلك الآن.

أوسيب يقول: «على هذا النحو يأتي مَنْ هبّ ودبّ، وينزل عندنا، ويغرق بالديون، فلا نستطيع أن نطرده بعد هذا. لن أتساهل، وسأرفع دعوى في الحال، لتساقوا إلى مركز الشرطة، وبعد ذلك إلى السجن».

خليستاكوف: كفى، كفى، يا أحمق! اذهب، واطلب منه. يا لك من حيوان فظ!..

أوسيب: الأحسن أن أستدعي صاحب الفندق إلى حجرتك.

خليستاكوف: ولماذا تستدعيه؟ اذهب أنت، واطلب منه.

أوسيب: ولكن، يا حضرة...

خليستاكوف: اذهب، عليك اللعنة! واستدع صاحب الفندق.

(أوسيب يخرج).

المشهد الثالث

(خليستاكوف وحده).

كـم أنا جائع! تمشّيـت قليلاً، وتصوَّرت أن شهيتـي ستنسدّ. لا، عليهـا اللعنة، لا تنسـدّ. آه، لو كنت لم أمرح وأعبـث في بينزا، إذاً، لبقـي عندي من الفلوس ما يكفيني للوصـول إلى البيت. رائد المشاة خدعني خدعة محترمة. المحتال ينازل في الورق بشكل مذهل. جلس ربـع ساعة لا أكـثر، ولفلف كلَّ شيء. ومع ذلـك أودّ كثيراً لو أنازله مرّة أخـرى. ولكن الفرصة لم تسنح. أية بلدة حقيرة تلك! حوانيتها لا تبيـع بالديـن. هـذه وضاعة، تمامـاً، (يصفر في البدايـة لحن أوبرا «روبـرت العفريت»، ثمّ أغنية شعبية روسية، وبعد ذلك ما يأتي على باله). لا أحد يريد أن يأتي.

المشهد الرابع

(خليستاكوف، أوسيب وخادم المطعم).

الخادم: طلب سيدي أن أسألك ماذا تحبّ؟

خليستاكوف: مرحباً، يا أخ، طيّب، كيف صحتك؟

الخادم: الحمد لله.

خليستاكوف: وكيف الأمور في فندقكم؟ كل شيء على ما يرام؟

الخادم: نعم، والحمد لله، كلّ شيء جيّد.

خليستاكوف: النزلاء كثيرون؟

الخادم: نعم، بما فيه الكفاية.

خليستاكوف: اسمع، أيّها الفاضل، لحدّ الآن لم يجلبوا لي الغداء، فاذهب، أرجوك، وعجّل به، فإنّ لي شغلاً يجب أن أنجزه الآن، بعد الغداء.

الخادم: ولكن سيّدي قال إنه لن يقدم له شيئاً بعد الآن. أظنه كان يريد أن يذهب اليوم إلى حاكم المدينة ليقدّم شكوى.

خليستاكوف: ولَمِ الشكوى؟ أحكم بنفسك، أيّها الفاضل، كيف هذا؟ أنا أحتاجَ إلى غداء. وإلا يمكن أن أنحف كلياً. أنا جائع جدّاً.

الخادم: ولكنّه يقول: «لن أقدّم له طعاماً حتّى يدفع لي الحساب السابق». هذا كان جوابه.

خليستاكوف: ولكن إقنعه، جادله.

الخادم: ماذا أقول له؟

خليستاكوف: أفهمه بجدّ أنّني بحاجة إلى طعام. الفلوس شيء آخر منفصل... يتصور أن الآخرين يتحمّلون إذا كان هو، البهيمة يتحمّل الانقطاع عن الطعام يوماً. عجيبة!

الخادم: يمكن أن أقول له.

المشهد الخامس

(خليستاكوف وحده)

حقــارة، حقــاً، إذا كان لا يقدّم لي شيئاً آكله. أنــا جائع جوعاً لم أجابــه بمثله قطّ. هل أتخلّى عن واحد مــن ثيابي؟ أبيع البنطلون؟ لا، الأحســن أن أجوع قليلاً، وأعود إلى بيتــي في البدلة البطرسبورغية. خسارة أنّ أيوخيم لم يؤجرني عربة من عرباته، إذاً، لكان لطيفاً، وحقّ الشيطان، أن أصل إلى بيتي في عربة، وأن أسرح بها حتّى أوقفها عند بوّابــة بيت من بيوت الجيران من أصحاب الأطيان وللعربة مصابيح، وأوسيب واقف في ظهر العربة في بزّة الخدم المرافقين. أتصوّر الجميع سيتهامســون: «من هذا، ماذا حــدث؟» ويدخل الخادم (يرفع هامته ممثلاً الخــادم): «إيفان الكسندروفيتش خليستاكوف من بطرسبورغ يستــأذن بالمثول.» وهؤلاء، الأجــلاف، لا يعرفون ما تعني «يستأذن بالمثول.». فــإنّ أي صاحب أطيان أرعــن يزورهم يدخل عليهم بلا استئــذان. وربّمــا أتقدّم من فتاة حلــوة، وأقول: «يــا آنستي أنا....» (يفــرك يديه، ويشحط بقدمه).. تفو! (يبصق) عندي رغبة في القيء من شدّة الجوع.

المشهد السادس

(خليستاكوف، أوسيب والخادم فيما بعد).

خليستاكوف: ماذا؟

أوسيب: الغداء قادم.

خليستاكوف: (يصفق، ويقفز من على الكرسي بخفّة) قادمَ! قادمَ! قادمَ!

الخادم (يحمل صحوناً وفوطة): سيّدي يقدّم الغداء لآخر مرّة.

خليستاكوف: أوه، سيّدك، سيّدك... بصقة على سيّدك! ماذا جلبت؟

الخادم: حساء وصحناً من اللحم المقلي.

خليستاكوف: صحنان فقط؟

الخادم: فقط.

خليستاكوف: سخافة! أنا لا أقبل بذلك. قل لي ما يعني هذا في الحقيقة! ... هذا قليل.

الخادم: لا، بل يقول سيّدي "وهذا كثير عليه".

خليستاكوف: ولماذا لم تجلب صلصة؟

الخادم: لا توجد صلصة.

خليستاكوف: ولماذا لا توجد؟ رأيت بنفسي، حين مررت بالمطبخ، إن الطبيخ وافر هناك، في صباح اليوم رأيت في المطعم رجلين دحداحين يأكلان السلمون وكثيراً من الأشياء الأخرى.

الخادم: موجود، على ما أعتقد. ولكن غير موجود أيضاً.

خليستاكوف: كيف غير موجود؟

الخادم: غير موجود الآن.

خليستاكوف: السلمون، السمك والكفتة؟

الخادم: هذه للذين أكثر اعتباراً.

خليستاكوف: آه، يا أحمق! أنت خنزير قذر... كيف يأكلان، ولا آكل أنا؟ لماذا لا أقدر أنا، عليك اللعنة؟ أليسا مسافرين مثلي؟

الخادم: ليسا، بالطبع.

خليستاكوف: مَنْ هما؟

الخادم: اعتياديان، يدفعان نقوداً، بالطبع.

خليستاكوف: لا أريد أن أجادل معك، أيها الأحمق. (يصب الحساء ويأكل)... أي نوع من الحساء هذا؟ مجرد ماء صببته في سلطانية. لا طعم له على الإطلاق. مجرّد رائحة عفنة. لا أريد هذا الحساء، أعطني غيره.

الخادم: يمكن أن نعيده. سيّدي قال إذا كنت لا تريده، فلا بأس.

خليستاكوف (يحمي الطعام بيده): كفى، كفى... اتركه، أحمق... أنت تعودت أن تعامل الآخرين بهذا الشكل. ولكنني لست من صنفهم، يا أخ! لا أنصحك أن تفعل ذلك معي... (يأكل). يا ربي، أي حساء هذا (يستمر في الأكل)... لا أظنّ هناك شخصاً في الدنيا أكل مثل هذا الحساء قبلي. بدلاً من الدسم يعوم فيه ريش. (يقطع الدجاجة). ياه، ياه، ياه، أية دجاجة هذه! هات اللحمة المقلية. لم يبق كثيراً من الحساء، خذه لك، يا أوسيب (يقطع اللحمة المقلية).. أية لحمة هذه؟ هذه ليست لحمة مقلية.

الخادم: وما هي، إذاً؟

خليستاكوف: كل شيء إلا اللحمة المقلية. فاس مقلية بدلاً من لحم البقر. (يأكل). بهذا يطعم الناس هؤلاء الغشاشون، المحتالون! إذا أكلت قطعة من هذه تأذى فكاك. (ينقب أسنانه بإصبعه).. أوغاد! كقشرة الخشب تماماً، لا يمكن أن تخرجها بشيء. ستسوَدّ الأسنان بعد هذا الطبق. غشاشون! (يمسح فيه بالفوطة).. لا يوجد شيء آخر؟

الخادم: لا.

خليستاكوف: محتالون، أوغاد! على الأقل لو كان هناك شيء من الصلصة، أو الكعك. طفيليون! لا همّ لهم غير ابتزاز المسافرين.

(الخادم ينظف المائدة، ويحمل الصحون مع أوسيب).

المشهد السابع

(خليستاكوف وأوسيب فيما بعد).

خليستاكوف: كأنّني لم آكل بالفعل، دغدغة شهية فقط. لو كان لديَّ فراطة نقود، لأرسلت لشراء رغيف خبز من السوق، على الأقل.

أوسيب (يدخل): وصل حاكم المدينة لا أعرف لماذا، وهو يستفهم ويستفسر عنك.

خليستاكوف (مذعوراً): هذه هي المفاجأة! يعني أن صاحب الفندق الرذيل أبلغ السلطات! ماذا لو ألقاني في السجن، بالفعل؟ لا بأس لو كان بطريقة مشرفة، لا يهم.... لا... لا، لا أريد! في المدينة يسرح الضباط والناس، وأنا، كما عن قصد، تباهيت أمامهم، وتغامزت مع واحدة من بنات التجار... لا، لا أريد. ثم كيف يفعل هذا؟ كيف يجرؤ حقاً؟ هل يتصورني تاجراً أو حرفياً؟ (يتشجّع وينتصب).. سأقول له في وجهه: «كيف تجرؤ، كيف....» (مقبض الباب يتحرّك. خليستاكوف يمتقع، وينكمش).

المشهد الثامن

(خليستاكوف، حاكم المدينة، دوبتشينسكي، حاكم المدينة، يدخل، ويتوقف. أحدهما ينظر إلى الآخر في ذعر لبضع دقائق، والعيون جاحظة).

حاكم المدينة: (أسبل ذراعيه على جنبيه، بعد أن تمالك نفسه). تحياتي!

خليستاكوف: (ينحني). احتراماتي!..

حاكم المدينة: اعذروني.

خليستاكوف: لابأس....

حاكم المدينة: واجبي كرئيس هذه المدينة، أن أحرص على أن لا يشعر المسافرون وجميع الأشراف بأية مضايقات...

خليستاكوف: (يتلعثم قليلاً في البداية، ولكنّه في آخر كلامه يتكلّم بصوت عال). وما العمل؟ لست ملوماً... بالشرف سأدفع... سيرسلون لي من القرية.

(بوبتشينسكي يطل من الباب).

اللوم عليه أكثر. يقدّم لي قطعة لحم صلبة، كالخشب. والحساء لا أعرف ماذا يصب فيه. كان عليَّ أن أرميه من الشبّاك. وهو يميتني من الجوع أياماً كاملة... والشاي عنده غريب، فيه رائحة سمك، وليس رائحة شاي.... وما علاقتي أنا... عجيبة!..

حاكم المدينة: (بتهيّب). اعذروني ليس هذا ذنبي، حقّاً، عندي، في السوق، لحم بقر جيد دائماً. يأتي به تجّار من خولموغوري في الشمال. أناس معتبرون، وسلوكهم جيّد. لا أدري من أين يأتي

صاحب الفندق بهذا اللحم. إذا كان لا يروق لكم شيء... يمكن أن أقترح عليكم، إذا سمحتم، أن تنتقلوا معي إلى سَكن آخر.

خليستاكوف: لا، لا أريد! أنا أعرف ماذا يعني السَكَنْ الآخر، يعني السجن. ثمّ أي حقّ لك في هذا؟ وكيف تجرؤ أنا... أنا أخدم في بطرسبورغ. (يتشجّع). أنا، أنا، أنا...

حاكم المدينة: (جانباً)[1] أوه، يا ربّي، كم هو شديد الغضب. عرف كلّ شيء. التجّار الملاعين حكوا له كلّ شيء!

خليستاكوف: (متشجّعاً). لن أذهب، حتّى لو جئت بكلّ مَنْ معك! سأتوجّه إلى الوزير، رأساً! (يضرب المائدة بقبضته).. كيف هذا منك؟ كيف؟

حاكم المدينة: (ينتصب، ويرتجف بدنه كلّه). الرحمة، لا تهلكونا! لي زوجة، وأطفال صغار... لا تجعلوني تعيساً.

خليستاكوف: لا، لا أريد! هذا ما ينقصني! وما دخلي أنا؟ تريدني أن أدخل السجن، لأن لك زوجة وأطفالاً، شيء رائع!

(بوبتشينسكي يطل من الباب، ويختبئ بذعر).

لا، وشكراً جزيلاً، لا أريد.

حاكم المدينة: (مرتجفاً).. من قلّة الخبرة، والله العظيم، من قلّة الخبرة. قلّة المورد... أحكموا بأنفسكم، رجاء. راتب الحكومة لا يكفي حتّى للشاي والسكّر. وإذا كانت هناك رشاوى، فأقل ما تكون: ما يضاف إلى المائدة، أو بعض الثياب. أما بخصوص زوجة

(١) مصطلح مسرحي قديم يعني أن الكلمات التي تقال بعد ذلك هي أفكار الشخصية التي تقولها. وكانت تُقال حين يشيح الممثل وجهه عن المتحدث معه، ويتحدّث مع نفسه. المعرب.

ضابـط الصفّ، التـي كانت تزاول المتاجـرة، والتي يزعمـون أنّني جلدتها، فما ذلك إلا افتراء، والله العظيم، افتراء. اختلاق من الأشرار عندي، المستعدين للاعتداء على حياتي.

خليستاكـوف: ولكن ما هذا؟ لا شأن لي بهـؤلاء. (في تفكير). علـى كلّ حـال، لا أدري لمـاذا تتكلّم عـن الأشـرار أو أرملة ضابط صـفّ... زوجة ضابـط الصفّ، شـيء آخر. أمّا أنا فلـن تجرؤ على جلـدي. هيهات لك ذلـك!... سأدفع، سأدفع نقـوداً، ولكن ليس عندي الآن. ولهذا تراني قاعداً هنا، لأنني لا أملك كوبيكاً واحداً.

حاكم المدينة: (جانباً). أوه، الداهية! إلى أين غرَّب! ليموه علينا! وتعـال افهم! لا تعرف من أي جانب تأتيه. ولكن. سأحاول وليكن مـا يكون. سأحـاول فلعلّ وعسـى. (بصوت مسمـوع). إذا كنتم بحاجـة إلى فلوس، بالفعل، أو إلى أي شيء آخر، فأنا مستعدّ في هذه اللحظة. من واجبي أن أساعد المسافرين.

خليستاكوف: هات، أقرضني! وسأصفي فوراً حساب صاحب الفندق. لا أحتاج إلا لمائتي روبل، أو حتّى أقل.

حاكـم المدينة: (يقدّم النقـود الورقية). مئتا روبـل بالضبط، ولا تتعبوا أنفسكم في عدها.

خليستاكـوف: (يتسلّم النقـود) شكراً جزيـلاً. سأبعثها لك من القرية على الفـور... تعرضت فجـأة... أرى أنّك رجل نبيل، الآن شيء آخر.

حاكم المدينة: (جانباً). حمداً لله أنّه قَبِلَ الفلوس. يبدو أنّ القضية الآن ستسير بيسر. على كلّ حال دسست له أربعمئة بدلاً من مئتين.

خليستاكوف: يا أوسيب؟

(أوسيب يدخل).

استــدع خادم المطعم! (لحاكم المدينــة ولدوبتشينسكي).. ولماذا تقفان؟ تكرّما بالجلوس. (لدوبتشينسكي). اجلس، أرجوك.

حاكم المدينة: لا بأس، سنقف.

خليستاكوف: تكــرّم بالجلوس، أرى الآن تمامــاً صراحة خلقك وشهامتك، بينما كنت أظــنّ، وأقولها بصراحة، أنّك جئت لكي... (لدوبتشينسكي) اجلس!

(حاكم المدينة ودوبتشينسكــي يجلسان. بوبتشينسكي يطل من الباب، ويتسمع).

حاكــم المدينة: (جانباً). يجــب أن أتصرّف أجــرأ. يريد أن يُعتبر متخفيــاً. طيب، لنلجأ نحن إلى الحيلــة أيضاً، ونتظاهر بأنّنا لا نعرف هويتــه كلّياً. (بصــوت مسموع). كنّا نتفقّد شــؤون عملنا، أنا وبيتر إيفانوفيتشــ دوبتشينسكي، وهو صاحب أطيان من مدينتنا، فعرّجنا إلى الفنــدق عن قصد لنعرف ما إذا كانوا يحسنون معاملة المسافرين، ذلك لأنّني لست من أولئــك الحكام الذين لا يهمّهم أي شيء. فأنا، إلى جانب ما تمليه عليّ وظيفتي، وأودّ بما لديّ من محبّة مسيحية للناس أن يُستقبــل كلّ فانٍ استقبالاً جيّداً. فأجد المصادفة قد أتاحت لي هذا التعرف الجميل، وكأنما لتكافئني على مسلكي.

خليستاكــوف: وأنا أيضاً مســرور للغاية. وأقولها بصراحة لولاك لبقيــت حبيســ الفندق زمناً طويــلاً. إذ لم أكن أعــرف مطلقاً كيف أغطي الحساب.

حاكــم المدينة: (جانباً). ياله من كــذاب! يزعم أنه لم يكن يعرف كيف يغطي الحسابَ! (بصوت مسمــوع).. هل أجسر أن أسأل إلى أين وإلى أي الأماكن تتكرّمون بالسفر؟

خليستاكوف: أنا في طريقي إلى ولاية ساراتوف، إلى قريتي.

حاكم المدينة: (في ناحية، وقد اكتسى وجهه سيماء السخرية). إلى ولاية ساراتوف! ها؟ ولا يحمر خجلاً! آوه، يجب أن ترهف أذنيك معه! (بصوت مسموع).. نِعْمَ ما تقوم به. ولكن إذا تحدّثنا عن السفر فهو من ناحية، وكما تقول الناس، لا يخلو من متاعب من جراء التأخير في تقديم الخيول للمسافرين، ولكنّه من الناحية الأخرى ينشّط الذهن. أظنكم تسافرون للاستمتاع في الأكثر، أليس كذلك؟..

خليستاكوف: لا، بل بناء على طلب والدي. العجوز غاضب لأنّني حتّى الآن لم أترق في وظيفتي في بطرسبورغ. فهو يظنّ أنّ المرء حالما يصل إلى هناك يعلّقون على صدره نيشان القديس فلاديمير. لا، بودّي لو أبعثه ليعمل هو نفسه في قلم الأوراق.

حاكم المدينة: (جانباً). انظروا، أي أكاذيب يلفق! أشرك أباه العجوز أيضاً! (بصوت مسموع).. وهل ستمكثون مدة طويلة؟

خليستاكوف: لا أعرف حقّاً. فأبي عنود وبليد، عجوز نغضة كالشوكة في الحلق. سأقول له بصراحة: لن أستطيع العيش بدون بطرسبورغ، فافعل ما تشاء، لماذا عليَّ أن أتلف حياتي مع الفلاحين؟ لي متطلبات أخرى الآن. روحي متعطّشة للعلم.

حاكم المدينة: (جانباً)..بمهارة ينسج! يكذب ويكذب، ولا ينقطع منه خيط الكذب! في مظهره غير جذاب، قميء ويمكن أن تقصعه بأظفرك، على ما يتهيأ لك. طيب، على مهلك، سأجعلك تتكلّم! وتقول ما تخفي. (بصوت مسموع) أنتم على حقّ. فماذا يمكن أن يفعل الإنسان في قرية نائية؟ هنا، أيضاً لا أنام الليل، وأسعى في سبيل الوطن، ولا أبخل بأي شيء، ولو كنت لا أعرف متى أكافأ على عملي. (يجيل بصره في الحجرة).. أظنّ هذه الحجرة رطبة قليلاً؟

خليستاكوف: حجرة كريهة، وبقّها لم أر مثله قطّ. يعضك كالكلاب.

حاكم المدينة: تصوّروا! ضيف مثقّف مثلكم، ويعاني، ومن أي شيء؟ من بق حقير لا يستحقّ حتّى أن يولد في هذه الدنيا. هذه الحجرة تبدو مظلمة أيضاً؟

خليستاكوف: نعم، مظلمة تماماً، صاحب الفندق تعود على الامتناع عن تزويدها بالشموع. أحياناً أرغب في أن أفعل شيئاً، أقرأ، أو يسرح بيتر إيفانوفيتش الخيال فأؤلف شيئاً، ولكن لا أقدر. ظلام، ظلام.

حاكم المدينة: هل أجرؤ أن أسألكم... ولكن لا، لستُ أهلاً.

خليستاكوف: ولكن ماذا؟

حاكم المدينة: لا، لستُ أهلاً، لستُ أهلاً!

خليستاكوف: ولكن ماذا؟

حاكم المدينة: ستكون جسارة مني... في بيتي غرفة رائعة لك، منوَّرة، وهادئة... ولكن لا، أحس أن ذلك شرف لي أكثر من اللازم.... لا تزعلوا، والله، اقترحت ذلك بصفاء قلب.

خليستاكوف: بالعكس، تفضّل، بكلّ سرور، السكن في بيت خاصّ أروح لي بكثير من السكن في هذه الحانة.

حاكم المدينة: سأكون في غاية السرور! ستفرح زوجتي أيضاً. هذا هو خلقي حسن الضيافة منذ الصغر، لاسيّما إذا كان الضيف رجلاً مثقّفاً. لا تتصوّروا أنّني أقول ذلك تملّقاً. ليست لديّ هذه النقيصة. بل أقول ذلك من كلّ قلبي.

خليستاكوف: شكراً جزيلاً. وأنا أيضاً لا أحبّ ذوي الوجهين، تعجبني كثيراً صراحتك وشهامتك، وأقول لك بصراحة، أنا لا أطلب غير الوفاء والاحترام، الاحترام والوفاء.

المشهد التاسع

(نفس الأشخاص، وخادم المطعم بصحبة أوسيب. بوبتشينسكي يطلّ من الباب).

الخادم: هل تكرّمت بطلبي؟

خليستاكوف: نعم، هات الحساب.

الخادم: من مدّة قصيرة أعطيتك حساباً آخر.

خليستاكوف: لا أتذكّر حساباتك الحمقاء. قل كم؟

الخادم: في اليوم الأوّل طلبت غداء، وفي اليوم التالي طلبت سلمون فقط، وبعد ذلك صرت تأخذ بالدين، فقط.

خليستاكوف: أحمق! أخذ يحسب الآن، كم مطلوب مني بالمجموع؟

حاكم المدينة: ولكن لا تقلقوا أنفسكم، أرجوكم، سينتظر. (للخادم). أخرج، سيُدفع لك.

خليستاكوف: بالضبط، يمن هذا أيضاً.

(يخبئ الفلوس، يخرج الخادم. يطل بوبتشينسكي من الباب).

المشهد العاشر

(حاكم المدينة، خليستاكوف، دوبتشينسكي)..

حاكم المدينة: لعلكم تحبون أن تشاهدوا بعض المؤسّسات في مدينتنا، الخيرية وغيرها؟..

خليستاكوف: وماذا فيها؟

حاكم المدينة: سترون كيف تجري الأمور عندنا... النظام...

خليستاكوف: بكلّ سرور. (بوبتشينسكي يطل برأسه من الباب).

حاكم المدينة: ومدرسة المدينة، بعد ذلك، إذا كانت لديكم الرغبة، لتروا الطريقة التي تدرس بها العلوم عندنا.

خليستاكوف: تفضّل، تفضّل.

حاكم المدينة: وبعد ذلك، إذا كنتم تحبّون أن تزوروا قلعة المحكومين وسجون المدينة، وترون كيف يعيش المجرمون عندنا.

خليستاكوف: ولكن لِمَ السجون؟ الأفضل أن نتجوّل في المؤسّسات الخيرية.

حاكم المدينة: كما تحبّون. هل تفضّلون أن تذهبوا في مركبتكم أو معي في عربتي الصغيرة؟

خليستاكوف: الأفضل أن أذهب معك في عربتك.

حاكم المدينة: (لدوبتشينسكي). طيّب، يا بيتر إيفانوفيتش ، لم يبق الآن مكان لك.

دوبتشينسكي: لا بأس، أنا لوحدي.

حاكم المدينة: (لدوبتشينسكي، بخفوت). اسمع. أسرع بكلّ

خفّة رجليك، واحمل رسالتين إحداهما لزيملانيكا في المؤسّسة الخيرية، والثانية لزوجتي. (لخليستاكوف).. هل أجرؤ على الاستئذان بكتابة سطر واحد لزوجتي بحضوركم، حتّى تتهيأ لاستقبال الضيف المحترم؟

خليستاكوف: و لِمَ ذلك؟... على العموم يوجد حبر، ولا أعرف فيما إذا كان هناك ورَق.... ربّما على ورقة الحساب هذه؟

حاكم المدينة: سأكتب عليها. (يكتب ويحدّث نفسه في ذات الوقت).. سنرى كيف تجري الأمور بعد الفطور وزجاجة منتفخة البطن! عندنا خمرة «الماديرا» من ولايتنا، قبيحة في المظهر، ولكنها تطرح الفيل. فقط لو أعرف أي شخص هو، وإلى أي حدّ يُخيف (يفرغ من الكتابة، ويقدّم الورقة لدوبتشينسكي الذي يقترب من الباب، ولكن الباب ينخلع في ذلك الوقت، وبوبتشينسكي الذي كان يتسمّع في الجانب الآخر، ينقذف معه على المسرح. الجميع يرسلون آهة التعجب. بوبتشينسكي ينهض)..

خليستاكوف: ها؟ هل أصبت برض؟

بوبتشينسكي: لا شيء، لا شيء، بدون أي خبطة دماغ. خدش صغير فوق الأنف فقط! سأخطف رجلي إلى خريستيان إيفانوفيتش. عنده لزقة، وسيزول.

حاكم المدينة: (يومئ لبوبتشينسكي إيماءة تقريع. لخليستاكوف). لا بأس في هذا. تفضلوا أرجوكم. سأطلب من خادمكم نقل حقيبتكم. (لأوسيب).. يا حضرة الفاضل، أنقل كلّ شيء إلى بيتي، بيت حاكم المدينة سيدلّك أي واحد تسأل. تفضلوا رجاء! (يترك خليستاكوف ليتقدّمه، ويسير وراءه، ولكنّه يلتفت ويقول لبوبتشينسكي معنّفاً).. هكذا تفعل! لم تجد مكاناً تقع فيه إلا هنا! انبطحت بطحة كافرة.

(يخرج وبوبتشينسكي وراءه).. (تنسدل الستارة).

الفصل الثالث

(حجرة الفصل الأوّل).

المشهد الأول

(آنـا آندرييفنـا و ماريـا أنتونوفنـا واقفتان عنـد النافذة في نفسـ الوضع السابق).

آنا آندرييفنــا: ها قد انقضت ساعة كاملــة في الانتظار. وتأخرنا بسبب تصنُّعك الأبله. أكملتِ زينتكِ تماماً، ولكنك كنت ستستمرّين في التزيين.... ما كان علــيَّ أن أنتظرك... يا خسارة! لا يوجد أحد في الشارع كأنما نكاية! لا روح ولا نفس.

ماريــا أنتونوفنا: ولكــن تأكدي، يا ماما، سنعــرف كلّ شيء بعد دقيقتــين، بعــد قليل ستعود آفدوتيــا، حتماً، (تنظر مــن النافذة نظرة متفحصة، وتهتــف).. آه، ماما، ماما! شخص قادم هناك، في أقصى الشارع.

آنا آندرييفنا: أين هــو؟ دائماً لا يعوزك الخيال. ولكن نعم، قادم، مــن هذا القــادم؟ متوسّط القامــة... في بدلة فــراك... من هو؟ ها؟ إزعاج، على كلّ حال! مَنْ يمكن أن يكون؟

ماريا أنتونوفنا: هذا دوبتشينسكي يا ماما.

آنــا آندرييفنا: أي دوبتشينسكي هذا؟ أنت دائماً تتخيلين ما يطرأ

في ذهنـك! ليسـ دوبتشينسكي علـى الإطلاق. (تلـوح بمنديل).. هاي، أنت، تعال إلى هنا! أسرع!

ماريا أنتونوفنا: دوبتشينسكي. بالفعل، يا ماما.

آنـا آندرييفنـا: أنـت تتقصّدين ذلـك لتجادلي، قلـت لك ليس دوبتشينسكي.

ماريا أنتونوفنا: مَنْ هو إذاً، يا ماما؟ ها أنت ترين أنّه دوبتشينسكي.

آنـا آندرييفنا: أي، نعـم، دوبتشينسكـي. أراه الآن، ولأي شيء تجادلين؟ (تصيح من النافذة). أسرع، أسرع! أنت تتماهل، طيّب، أين هـم؟ ها؟ تكلّم من هناك. لا يهمّ. مـاذا؟ صارم جدّاً؟ ها؟ وزوجي، زوجـي؟ (تتراجع قليلاً عن النافذة بانزعـاج). أي بليد هو، لا يقول شيئاً، حتّى يدخل الحجرة.

المشهد الثاني

(المرأتان و دوبتشينسكي).

آنا آندرييفنا: تكلّم. ألا تخجل؟ اعتمدت عليك وحدك، كإنسان معتبر. الجميع خرجوا فجأة، وإذا بك تلحق بهم! وحتّى الآن لم أفهم شيئاً نافعاً من أحد. ألا تستحي؟ عمَّدت لك ابنك وابنتك، بينما أنت تتصرّف بهذا الشكل معي!.

دوبتشينسكي: والله، يا معمّدة أطفالي. جئت راكضاً متقطّع الأنفاس لأؤكّد لك احتراماتي. احتراماتي. يا ماريا أنتونوفنا.

ماريا أنتونوفنا: مرحباً، يا بيتر إيفانوفيتش!

آنا آندرييفنا: تحدث ماذا وكيف هناك؟

دوبتشينسكي: أنتون أنتونوفيتش. أرسل لك مذكّرة.

آنا آندرييفنا: ولكن مَنْ هو؟ جنرال؟

دوبتشينسكي: لا، ليس جنرالاً، ولكنّه لا يقلّ مقاماً عن الجنرال. ثقافة، وتصرّفات وجيهة.

آنا آندرييفنا: أها! يعني هو الذي كتبوا لزوجي عنه؟

دوبتشينسكي: حقيقي. أنا أوّل مَنْ اكتشف ذلك مع بيتر إيفانوفيتش.

آنا آندرييفنا: تحدّث ماذا وكيف؟

دوبتشينسكي: حمداً لله أن كلّ شيء بخير. في البداية استقبل أنتون أنتونوفيتش. بشيء من الخشونة، فقد كان غاضباً ويقول: كلّ

شـيء في الفندق سيئ. هو لا يأتي إليه، هو لا يريد أن يدخل السجن بسببه. ولكن حالما عرف براءة أنتون أنتونوفيتش، وتحدّث معه بإلفة أكـثر، غيَّر فكـره في الحال، وسـار كلّ شيء بشـكل جيّد، والحمد لله... ذهبـوا الآن لتفقـد المؤسسات الخيريـة... بصراحة كان أنتون أنتونوفيتش. يظن أن هناك وشاية سرية.. وأنا أيضاً، خفت قليلاً.

آنا آندرييفنا: ومِمّ تخاف؟ وهل أنت في وظيفة؟

دوبتشينسكـي: ولكـن الإنسـان يشعـر بالخوف، حـين يتكلّم صاحب سلطة.

آنـا آندرييفنـا: لا بأس... كلّ هذا هراء، علـى كلّ حال. حدثني كيف شكله؟ عجوز أم شابّ؟

دوبتشينسكي: شـابّ، في نحو الثالثة والعشريـن. ولكنّه يتكلّم كالشيـخ المجرّب، تمامـاً، يقول: «سأذهـب بكل سـرور إلى هنا وإلى هنا»...(يشـير بذراعيـه).. كلامه رائع. ويقول: «أحـبّ أن أكتب وأقرأ، ولكن الذي يعيقني أن الحجرة مظلمة قليلاً».

آنا آندرييفنا: وما لون شعره؟ أسود فاحم أم أشقر؟

دوبتشينسكـي: لا، بـل كستنـاوي أكـثر، وعينـاه خفيفتان في حركتهما كوحشين صغيرين، حتّى لتثيرا فيك الارتباك.

آنـا آندرييفنا: مـاذا يكتب لي في هذه المذكّـرة؟ (تقرأ).. «أسرع فأبلغك، يا روحي، حالتي كانت بائسة للغاية، ولكنّني بالتوكّل على رحمـة الرب، روبل وخمسة وعشرون كوبيكاً ثمن خيارتين مخلّلتين بطريقـة خاصّـة ونصف صحن كافيـار....» (تتوقّـف) أنا لا أفهم شيئاً. ما علاقة الخيارتين المخلّلتين والكافيار هنا؟

دوبتشينسكـي: لأن أنتـون أنتونوفيتـش كتب ذلـك على ورقة مستعملة بسبب استعجاله. على فاتورة حساب.

آنــا آندرييفنــا: نعــم، بالضبط. (تستمــرّ في القــراءة). «ولكنّني بالتــوكّل على رحمة الربّ أظنّ كل شيء سينتهي نهاية حسنة. هيّئي بسرعة لضيف وجيه الحجرة المبطّنة بورق الحيطان الأصفر، ولا تتعبي نفسك بإضافة شيء على الغداء، لأنّنا سنأكل عند أرتيمي فيليبوفيتش في المؤسســة الخيرية، ولكن اطلبي مزيــداً من الخمرة. أخبري التاجر عبدولين بأن يرسل أفضل خمرة، وإلا فسأقلب كلّ سردابه عاليه على سافله. أقبّل يدك، يا روحــي، وأظلّ المخلص لك أنتون سكفوزنيك دموخانوفسكي...» آه، يا إلهي! على كلّ حال، يجب أن يكون كلّ ذلك بسرعة! هاي، من هناك؟ ميشكا!.

دوبتشينسكــي: (يركض ويصيح في البــاب). ميشكا! ميشكا! ميشكا!.

(ميشكا يدخل).

آنــا آندرييفنا: اسمع. أسرع إلى التاجــر عبدولين... على مهلك، سأعطيــك رسالة (تجلس إلى الطاولــة، وتكتب رسالة وتقول في أثناء ذلــك).. أعط هذه الرسالــة للحوذي سيدور ليهرع بهــا إلى التاجر عبدولين، ويجلب منه الخمرة، واذهــب أنت لترتيب الحجرة للضيف بشكل جيّد. ضع فيها سريراً، ومغسلة، وغير ذلك.

دوبتشينسكــي: آنا آندرييفنا سأسرع أنــا الآن لأرى كيف يتفقّد الأمور هناك.

آنا آندرييفنا: اذهب، اذهب! أنا لا أمسكك.

المشهد الثالث

(آنا آندرييفنا و ماريا أنتونوفنا).

آنا آندرييفنــا: علينا الآن أن نشتغل بزينتنا. إنّه قادم من العاصمة، وقــد يهزأ مــن شيء ما، لا سمــح الله، الأوجَه لــك أن تلبسي ثوبك الأزرق بحواشيه الرقيقة.

ماريــا أنتونوفنا: أعفينــي من الأزرق، يا مامــا! لا أحبّه أبداً، ابنة القاضــي ترتــدي الأزرق أيضاً، وكذلــك ابنة الراعــي. لا، يا ماما، الأحسن أن ألبس المبرقش.

آنــا آندرييفنا: المبرقش!... حقّاً، أنــت لا تتكلّمين إلا لتعترضي. سيكــون الأزرق أحسن بكثير، لأنني أريد أن أرتدي الثوب الأصفر الشاحب، أنا أحبّ الأصفر الشاحب كثيراً.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، لا يناسبك الأصفر الشاحب.

آنا آندرييفنا: لا يناسبني؟

ماريــا أنتونوفنــا: لا يناسبــك، أراهن على كلّ مــا تريدين، إنّه لا يناسبك، هذا اللون ينسجم مع عينين داكنتين تماماً.

آنــا آندرييفنا: وليكن! أليست عيناي داكنتين؟ داكنتان كلياً كلياً. كلامــك هراء! عيناي داكنتان وإلا فلماذا اختار ملكة السباتي عندما أستخير الورق؟

ماريا أنتونوفنا: آه، ماما، تناسبك ملكة الكوبة أكثر.

آنــا آندرييفنا: سخافــة، سخافة تمامــاً! لم أكن ملكة كوبــة أبداً.

(تخـرج على عجـل مع ماريـا أنتونوفنا وتتكلّم مـن وراء المسرح).

دائماً تتخيّل ما يطرأ على ذهنها! ملكة كوبة! الله يعلم ما هذا؟..

(بعـد خروجهما ينفتح الباب، وميشكا يلقي الوساخة منه، ومن الباب الآخر يخرج أوسيب يحمل حقيبة على رأسه).

المشهد الرابع

(ميشكا وأوسيب).

أوسيب: أين أضعها؟

ميشكا: هنا، يا عمّ، هنا

أوسيب: انتظر. دعني أستريح أولاً. أوه، يا للعيشة النكدة! كلّ حمل يبدو ثقيلاً على بطن فارغ.

ميشكا: قل لي، يا عمّ، هل سيحضر الجنرال قريباً؟

أوسيب: أي جنرال؟

ميشكا: سيّدك.

أوسيب: سيّدي؟ وأي جنرال هو؟

ميشكا: معقول أليس جنرالاً؟

أوسيب: جنرال، ولكن من الجهة الأخرى.

ميشكا: يعني أكثر أم أقلّ من الجنرال الحقيقي؟

أوسيب: أكثر.

ميشكا: ياه! ولهذا ثار أسيادنا على هذه الدربكة...

أوسيب: اسمع، يا حلو، أرى أنّك فتى شاطر، هيئ لي شيئاً آكله.

ميشكا: لم يحضر لك شيء يا عمّ. لا أظنك ستقبل ببسيط الطعام. ولكن حين يجلس سيّدك إلى المائدة سيقدّم لك نفس الطعام أيضاً.

أوسيب: طيب، ما هو بسيط الطعام عندكم؟

ميشكا: حساء كرنب، وعصيدة وفطائر.

أوسيب: هات حساء الكرنب والعصيدة والفطائر. لا بأس، سنأكل كلّ شيء، لنحمل الحقيبة، هل يوجد باب آخر؟

ميشكا: يوجد.

(الاثنان يحملان الحقيبة إلى حجرة جانبية).

المشهد الخامس

(شرطيان يفتحان كلتا ضلفتي الباب. يدخل خليستاكوف ووراءه حاكم المدينة وبعدهما راعي المؤسسات الخيرية، وناظر المدرسة، ودوبتشينسكي وبوبتشينسكي وعلى أنفه لصقة، حاكم المدينة يشير للشرطيين إلى ورقة في الأرض، فيركضان ويرفعانها يزحم أحدهما الآخر في عجل).

خليستاكوف: مؤسسات جيّدة. يعجبني أنّكم تفرجون المسافرين على كلّ شيء في المدينة. في المدن الأخرى لم يفرجوني على أي شيء.

حاكم المدينة: أجرؤ أن أقول في المدن الأخرى أكثر ما يهتمّ به الحكّام والموظفون هو منفعتهم بينما نحن هنا، إذا صحّ القول، لا نفكّر إلا بالاعتناء بالنظام وأن يكون حرصنا جديراً باهتمام الرؤساء.

خليستاكوف: الفطور كان محترماً، شبعت تماماً. هل الفطور عندكم بهذا الشكل دائماً؟

حاكم المدينة: خصيصاً لضيف كريم مثلكم.

خليستاكوف: أنا أحبّ الطعام. فالإنسان لا يعيش إلا لاقتطاف زهور اللذّة. ماذا يسمّى هذا السمك؟

أرتيمي فيليبوفيتش: سمك القدّ الطازج المملح.

خليستاكوف: لذيذ جدّاً. أين تناولنا فطورنا؟ في المستشفى؟ أليس كذلك؟

أرتيمي فيليبوفيتش: بالضبط، في المؤسّسة الخيرية.

خليستاكوف: أتذكّر، أتذكّر. كانت هناك أسرّة. والمرضى هل شفوا؟ يبدو لي أنّهم كانوا قليلين.

أرتيمي فيليبوفيتش: لم يبق إلا عشرة، لا أكثر، والبقية شفوا. هذا هو النظام عندنا. منذ أن تسلّمت الرئاسة ولربّما يبدو لك ذلك غير معقول صار الجميع يمتلئون عافية. ما ان يدخل المريض الردهة حتى يشفى بالنزاهة والنظام أكثر منه بالأدوية.

حاكم المدينة: أجسر أن أقول لكم إن مسؤولية حاكم المدينة صعبة وأكثر من صعبة. كم من الأشغال في مجال النظافة وحدها، والترميم، والتصليح.... باختصار أقول حتّى أذكى الناس يجد مشقّة. ولكن الأمور تسير سيراً حسناً، والحمد لله. أي حاكم آخر كان سيهتمّ بمنافعه الخاصّة، طبعاً. ولكن، صدقني، حتّى حين أرقد لأنام، أظلّ أفكّر: «يا إلهي، كيف أفعل لأجعل الرئاسة ترى مثابرتي وتكون مرتاحة؟ ...؟. الأمر متروك لها با لطبع، لتكافئني أو لا تكافئني، ولكنّني، على الأقلّ، سأكون مرتاح الضمير. وهنا يسود النظام في المدينة في المجالات كلها والشوارع نظيفة، والمحجوزون في رعاية جيّدة، والسكارى قليلون... فماذا أريد غير هذا؟ لا أريد أكثر من هذا، قسماً لا أريد أي مكافأة. الإنسان يطمح، بالطبع، ولكن كلّ مكافأة هباء إلى جانب العفّة».

أرتيمي فيليبوفيتش: (جانباً). آه، الخامل، كيف يزوّق! موهبته هذه من نعم الله.

خليستاكوف: هذا صحيح. أنا أيضاً، بصراحة أحبّ التفلسف أحياناً، بالنثر مرّة، وبالقريض مرّة أخرى.

بوبتشينسكي: (لدوبتشينسكي) حق ما يقول يا بيتر إيفانوفيتش! يا لها من ملاحظات... الظاهر أنّه درس العلوم.

خليستاكوف: قل لي، من فضلك، هل توجد لديكم تسليات، جماعات يمكن لعب الورق فيها، مثلاً؟

حاكم المدينة: (جانباً) أها، نعرف يا عزيزي إلامَ ترمي من هذه الخدعة (بصوت مسموع). حاش لله. لا توجد مثل هذه الجماعات هنا. لم أمسك بيدي شدّة ورق قطّ. بل ولا أعرف كيف يلعبون الورق. ولا أقدر أن أراه دون أن أغضب. وإذا صادف أن رأيت ملك الديناري أو غيره يأخذني القرف حتى أبصق تقزّزاً. وذات مرة أردت أن أسلّي الأطفال، فبنيت من الورق كشكاً، وبعد ذلك حلمت به طوال الليل، عليه اللعنة، لا يهمني هذا، كيف يمكن تضييع الوقت الثمين بالورق؟

لوكا لوكيتش (جانباً): الوغد ربح مني أول الأمس مائة روبل.

حاكم المدينة: الأحسن أن أستغلّ هذا الوقت لفائدة الدولة.

خليستاكوف: لا، لا أظنّك على حقّ... كلّ شيء يتوقّف على الطرف الذي ينظر منه المرء إلى المرء. فحين تكفّ عن زيادة الرهان، مثلاً، في الوقت الذي يتعيَّن عليك أن تزيده ثلاث مرات، سيكون ذلك صحيحاً، بالطبع، لا، لا تقل هذا، فاللعب أحياناً مغر جدّاً.

المشهد السادس

(نفس الأشخاص مع آنا آندرييفنا و ماريا أنتونوفنا).

حاكم المدينة: لي الشرف أن أقدّم لكم عائلتي، زوجتي وابنتي.

خليستاكوف: (ينحني). كم أنا سعيد، يا سيّدتي في أن تكون لي هذه البهجة برؤيتك.

آنا آندرييفنا: ونحن أسعد في رؤية وجيه مثلكم.

خليستاكوف: (يتبختر). عفوك، يا سيّدتي، على العكس تماماً. أنا أسعد حظّاً.

آنا آندرييفنا: ما هذا القول! أنتم تقولون ذلك للمجاملة. أرجوكم اجلسوا.

خليستاكوف: الوقوف قربك سعادة، ولكنّني سأجلس، إذا أصرّيتِ على الجلوس. كم سعيد أنا بالجلوس قربك أخيراً.

آنا آندرييفنا: العفو. أنا لا أستحق ذلك... أظنّ السفر كان متعباً لكم بعد العاصمة.

خليستاكوف: متعب للغاية. فأنا الذي تعوّدت على العيش في المجتمع الراقي comprenez vous، أجد نفسي في سفر فجأة، حانات قذرة، وظلام الجهل... وبصراحة لولا هذه المصادفة التي.... (ينظر إلى آنا آندرييفنا ويتغنج) جازتني على كلّ شيء....

آنا آندرييفنا: بالفعل، لابدّ أن يكون متعباً لكم.

خليستاكوف: على كُلّ حال، يا سيدتي، أنا مرتاح جدّاً في هذه اللحظة.

آنـا آندرييفنا: كيف يمكن. أنتم تولونني شرفاً كبيراً. أنا لا أستحقّ ذلك.

خليستاكوف: ولماذا لا تستحقين؟ أنت تستحقّين، يا سيّدتي.

آنا آندرييفنا: أنا أعيش في الريف...

خليستاكـوف: ولكن للريـف أيضاً تلاله وجداولـه. بالطبع، لا أحـد يقارنه ببطرسبورغ. آه، بطرسبـورغ! أي حياة هي، حقّاً! ربّما تظنّين أنني أوسخ يدي بالاستنسـاخ. أبداً. رئيس القسم على علاقة وديّـة معي. يربت على كتفي، ويقـول: «تعال تناول غداءك عندي، يـا أخ!» ولا أمكث في الشعبة إلا دقيقتين لأصدر هذا الأمر أو ذاك! يوجـد هناك موظّـف شغلته الكتابـة، مهمّته أن يشغـل ريشته.... يكتب، يكتب، بـل أرادوا حتّى أن يجعلـوني كبير الموظفين. ولكن قلـت لنفسي: لا حاجة. والحارس يركض ورائي على الدرج ومعه فرشـاة، ويقـول: «اسمح لي، يا إيفـان الكسندروفيتش، أن أنظّف حذاءك». (إلى حاكم المدينـة).. لماذا أنتم واقفون، يا سادة؟ اجلسوا رجاءً.

لوكا لوكيتش: لا تقلقوا أنفسكم.

أرتيمي فيليبوفيتش: سنقف.

حاكم المدينة: سلّم الوظيفة لا يسمح.

خليستاكوف: لا تتقيّدوا بالوظائف، واجلسوا.

(حاكم المدينة والجميع يجلسون).

أنـا لا أحب الرسميات، بل على العكس، أحبّ دائماً أن أزوغ دون أن أُلحـظ. ولكن لا مجال للزوغـان، غير ممكن! ما إن أخرج إلى مـكان ما حتّى يقول الناس: «هذا هو إيفان الكسندروفيتش يسير!» بل وذات مرّة حسبوني القائد الأعلى. خرج الجنود مسرعين من ثكنة

الحجز. شاكي السلاح. وبعد هذا قال لي ضابط من معارفي: أوه، يا أخ، ظنّناك القائد الأعلى تماماً.

آنا آندرييفنا: تصوّروا!

خليستاكوف: يعرفونني في كل مكان، أعرف بعض الممثلات الحسناوات، وأؤلّف أنواع الفودفيلات... وغالباً ما ألتقي بأدباء ولي علاقة وديّة مع بوشكين. غالباً ما أقول له: «كيف حالك يا أخ بوشكين؟» فيجيب: «هكذا، يا أخ، يعني....». نموذج عجيب.

آنا آندرييفنا: يعني تكتبون؟ أظنّ في ذلك متعة! وتنشرون في المجلات أيضاً؟

خليستاكوف: وأنشر في المجلات أيضاً. بالمناسبة، عندي مؤلفات كثيرة. «زواج فيغارو» و«روبرت العفريت» و«نورما». وغيرها لا أذكر حتّى عناوينها. وكلّ ذلك عفو الخاطر. لم أرد أن أكتب، ولكن إدارة المسارح تقول لي: «أرجوك، يا أخ، اكتب لنا شيئاً». فأقول لنفسي: «ممكن، تفضّل، يا أخ». وفي أمسية واحدة، على ما أعتقد، دبّجت كلّ شيء، وأدهشت الجميع. عندي فيض غير اعتيادي في الأفكار. كلّ ما كان باسم البارون برامبوس، «فرقاطة الأمل» و «تلغراف موسكو» كل ذلك من تأليفي.

آنا آندرييفنا: إذاً، فأنتم كنتم تكتبون باسم برامبوس؟

خليستاكوف: بالطبع، أصحح شعرهم جميعاً، سميردين يعطيني أربعين ألف على ذلك.

آنا آندرييفنا: هكذا، إذاً، و«يوري ميلوسلافسكي» من تأليفكم أيضاً.

خليستاكوف: نعم، من تأليفي.

آنا آندرييفنا: حدست حالاً.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، مكتوب عليه من تأليف السيد زاغوسكين.

آنا آندرييفنا: هذا ما عرفته، ستجادلين حتّى في هذا.

خليستاكوف: آه، صحيح، من تأليف زاغوسكين بالضبط. ولكن هناك «يوري ميلوسلافسكي» آخر، من تأليفي.

آنا آندرييفنا: هذا صحيح. قرأت روايتكم. مكتوب بشكل جيّد!

خليستاكوف: آنا آندرييفنا بصراحة أحيا على الأدب، بيتي الأوّل في بطرسبورغ. وهو معروف هناك باسم بيت إيفان الكسندروفيتش (يخاطب الجميع). اعملوا معروفاً، أيّها السادة، وتفضّلوا بزيارتي، حين تكونون في بطرسبورغ، أنا أيضاً أقيم حفلات راقصة.

آنا آندرييفنا: أعتقد أنّكم تقيمون حفلات راقصة في منتهى الذوق والفخامة.

خليستاكوف: ولا حاجة إلى كلام. على المائدة، مثلاً، بطيخة بسبعمائة روبل. والحساء في قدره جاء من باريس مباشرة، بالباخرة. وحين يرفع غطاء القدر يخرج بخار لا مثيل له في الطبيعة كلّها. أنا كلّ يوم في حفلة راقصة. ولنا لعبة ورق خاصة بنا أيضاً، يشترك فيها وزير الخارجية، والمبعوث الفرنسي، والمبعوث الإنجليزي والمبعوث الألماني وأنا. وأظلّ ألعب حتّى أُنهك. حالما أصعد السلّم إلى الطابق الرابع أقول للطبّاخة: «خذي منّي المعطف يا مافروشكا...» أوه، ما هذا الكذب. نسيت. أنا أسكن في الطابق الأوّل... السلم وحده في بيتي يساوي... من المسلّي أن تنظروا في رواق بيتي، حين أكون ما أزال نائماً. تجدون الكونتات والمراء هناك محتشدين يتحدّثون ويطنّون طنين النحل، ولا تسمعون إلا الطنين.. وأحياناً يوجد وزير...

(حاكم المدينة والآخرون ينهضون من مقاعدهم بتهيب).

بل وحين توجه إليّ رسالة يكتبون على الظرف: «صاحب

المعـالي». وفي أحد الأوقات كنـت أدير مديرية كاملـة في الوزارة! الغريـب أن المدير العامّ رحل. إلى أيـن رحل؟ غير معروف. وطبيعي أن تـدور أحاديث عن كيف ومَـنْ سيحتل مكانـه. وكان الراغبون كثيريـن بين الجـنرالات الذين جـاءوا، ثـمّ تراجعوا لأنّهـم وجدوا المهمّـة صعبة. لأنها في الظاهر تبدو سهلـة، ولكنّها عند الممارسة لا تُحتمل أبداً... وحـين تأكّدوا من أنّهم لا يستطيعون القيام بها جاءوا إليَّ... وفي الحـال كان السُعاة يملأون الشـوارع يروحون ويجيئون بالمساعـي... تصوّروا وحدهم يقدّرون بخمسة وثلاثين ألف ساعٍ! وضـع، وأي وضع! ويقولون لي: «يا إيفـان الكسندروفيتش! ترأَّس المديرية العامّة». ارتبكت قليلاً، بصراحة. وخرجت بالروب المنزلي، وأردت أن أرفض، ولكـن فكّـرت. سيسمع مولانـا القيصر... ثمّ لابـدَّ من الترقية في آخر الأمر... قلـت: «طيب، أيّها السادة، سأقبل الوظيفة، سأقبلها. وليكن، سأقبلهـا ولكنني سأجعلهم يرتجفون فأنا صارم متشـدّد فإنّ لي أذنـاً مرهفة! أنا....» وبالفعـل، ما إن أدخل المديرية حتّى يبـدأ الارتجاف والارتعاش، وكأنّـه الزلزال... الجميع يهتزّون كأوراق الشجر.

(حاكم المدينة والآخرون يرتجفون، ويزداد حماس خليستاكوف).

آوه! أنـا لا أحب المـزاح، أصدرت توبيخاً بحـقّ الجميع. حتّى مجلـس الدّولة يخاف منّـي. ولِمَ لا؟ أنا هكذا! لا أبالي بأي إنسان... وأقول للجميع: «أنا أعرف نفسِي، أعرفها» أنا في كلّ مكان، في كلّ مـكان. أزور القصر كلّ يوم، غداً، حالاً، سأرقى إلى فيلدمارشال... (تـزل قدمه، ويـكاد يقع على الأرض، ولكن الموظفـون يسندونه باحترام)..

حاكم المدينة (يقترب ويرتجف بكلّ جسده، ويجاهد لأن ينطق):

صـ... صـ... صـ....

خليستاكوف (بصوت حاد سريع): ما هذا؟

حاكم المدينة: صـ... صـ... صـ.....

خليستاكوف (بنفس الصوت): لا أفهم شيئاً. مجرّد هراء.

حاكـم المدينـة: صـ... صــ... صاحـب المعـالي، ألا تحبّون أن تستريحوا... هذه الحجرة، وكلّ ما هو لازم.

خليستاكـوف: هـراء أن أستريـح.. طيّب، مستعـدّ أن أستريح. فطوركـم، يا سادة، جيّد... أنا راضٍ، أنا راض. (بلهجة خطابية).. سمك القد! سمك القد!

(يدخل في الحجرة الجانبية، وحاكم المدينة وراءه).

المشهد السابع

(نفس الأشخاص ما عدا خليستاكوف و حاكم المدينة).

بوبتشينسكي (لدوبتشينسكي): انظر، يا بيتر إيفانوفيتش، أي رجل هو، هذا هو الرجل الحقّ! في حياتي لم أكن في حضرة رجل مهمّ مثله، حتّى كدت أموت من الرعب. ما رأيك، يا بيتر غيفانوفيتش، من هو من حيث الرتبة؟

دوبتشينسكي: أظنّه في مستوى جنرال.

بوبتشينسكي: أظن رتبة جنرال قليلة جداً في حقّه، وإذا كان في هذه الرتبة فهو جنراليسيموس. هل سمعت كيف ضيّق على مجلس الدولة؟ لنذهب ونخبر أمّوس فيدروفيتش وكوروبكين بأقرب وقت. مع السلامة، يا آنا آندرييفنا.

دوبتشينسكي: مع السلامة، يا معمدة أولادي.

(يخرج الاثنان).

أرتيمي فيليبوفيتش (للوكا لوكيتش): رعب حقيقي! ولا أعرف لماذا. حتّى بزاتنا الرسمية لم نلبسها. فماذا لو سيبلّغ بطرسبورغ بعد أن يستيقظ ويزول عنه السُكر؟ (يخرج ساهماً مع ناظر المدرسة، ويقول): وداعاً، يا سيّدتي!.

المشهد الثامن

(آنا آندرييفنا و ماريا أنتونوفنا)..

آنا آندرييفنا: آه، ما ألطفه!

ماريا أنتونوفنا: آه، ما أحلاه!

آنــا آندرييفنــا: وأي رقّة في السلـوك! تعرفين رأســاً أنّه شخصية مــن العاصمة. طريقة الكلام والمعاملة وكلّ شــيء... آه، رائع! أهيم بمثـل هؤلاء الشبّان! أذوب فيهم. وأنــا أيضاً أعجبته، على كلّ حال، لاحظته يرمقني طول الوقت.

ماريا أنتونوفنا: آه، يا ماما، كان يرمقني أنا.

آنا آندرييفنا: أرجوك، أبعدي عنّي سخافتك! هذا لا يليق أبداً.

ماريا أنتونوفنا: لا يا ماما، حقّاً!..

آنا آندرييفنا: أهوه! لابدّ أن تجادل! غير ممكن، وكفى! وأين له أن ينظر إليك؟ و لِمَ عليه أن ينظر إليك؟

ماريــا أنتونوفنا: حقاً، يا ماما، طــول الوقت كان ينظر إليّ. حالما بــدأ يتكلّم عن الأدب أخذ يرمقني، وبعــد ذلك، حين كان يتحدّث عن لعب الورق مع المبعوثين، في هذه المرّة رمقني أيضاً.

آنــا آندرييفنــا: ربما مــرّة واحــدة، وحتّى هذه من بــاب المسامحة وحدها يقول لنفسه: «لا بأس لو نظرت إليها».

المشهد التاسع

(الاثنتان مع حاكم المدينة).

حاكم المدينة: (يدخل على أطراف أصابعه) شش.... ش...

آنا آندرييفنا: ماذا؟

حاكم المدينة: وحتّى سُكره لم يجلب لي الفرحة. ولكن ماذا لو كان صحيحاً حتّى نصف ما قاله؟ (يغرق في تفكير) ثمّ كيف لا يكون صحيحاً؟ الإنسان إذا سكر باح بكل مافي صدره. ما في قلبه يطفح على لسانه. كلامه لم يخلُ من كذب بالطبع؛ ولكن حين لا يكذب أحد يعني لم يتكلم. يلعب مع الوزراء، ويزور القصر... آوه، حقّاً، كلّما أفكّر في الأمر... اللعنة، لا أعرف ماذا يحصل في رأسي. كأنّني واقف على برج عال، أو أوشك أن أُشنق.

آنا آندرييفنا: بينما أنا لم أشعر بأي تخوّف. لا شيء سوى أنّني وجدت فيه رجلاً مثقّفاً من المجتمع الراقي آداب سلوكه رفيعة. أمّا الرتب فلست بحاجة إليها.

حاكم المدينة: أنتنّ نساء. وهذه الكلمة وحدها تكفي، فالأمر واضح، كلّ شيء لديكنّ هراء وتوافه. وفجأة تصدر منكن كلمة تستحق العقاب فعقابكن جلد لا أكثر، ولكن الزوج يتحمّل التبعة. ويضيع. لا أثر له ولا خبر. كنت، يا روحي، تتصرّفين معه وكأنّه من صنف دوبتشينسكي.

آنا آندرييفنا: أنصحك بأن لا تقلق على ذلك. لسنا جاهلات بكلّ شيء....(تنظر إلى ابنتها)..

حاكم المدينة: (يخاطب نفسه). أوه، لا جدوى من الكلام معكنّ... هذه مصادفة مزعجة في الحقيقة! حتّى الآن لا أستطيع أن أسيطر على الفزع. (يفتح الباب، ويتحدّث عند الباب).. يا ميشكا، استدع، الشرطيين سفيستونوف وديرجيموردا. إنّهما في مكان غير بعيد من هنا، وراء البوّابة. (بعد صمت قصير). كلّ شيء انقلب في هذا العالم بشكل عجيب. على الأقلّ لو كان مهيب الطلعة، ولكنّه نحيف هزيل. فكيف تعرف من هو! العسكري يدل مظهره على ذلك ولكن حين يلبس بدلة الفراك يصير مثل ذبابة مقصوصة الجناحين. ظلّ يتخفّى في الفندق وقتاً طويلاً، و لم يكشف عن نفسه. يلفق الحكايات ويلفّ ويناور حتّى بدا وكأنّه لن ينكشف أبداً. ولكنّه وقع أخيراً. وانفلت لسانه حتّى أكثر من اللازم. الظاهر أنّه شاب غرير.

المشهد العاشر

(نفس الأشخاص مع أوسيب. الجميع يهرعون للقائه، مشيرين بالأصابع).

آنا آندرييفنا: تعال هنا، يا حضرة!

حاكم المدينة: شش! ماذا؟ ماذا؟ نائم؟

أوسيب: لا، لحدّ الآن! يتمطّى قليلاً.

آنا آندرييفنا: ما اسمك؟

أوسيب: أوسيب يا مولاتي.

حاكم المدينة: (لزوجته وابنته). كفى، كفاكما؟! (لأوسيب). طيّب، يا صاحبي، هل أطعموك جيّداً؟..

أوسيب: أطعموني، مع الشكر الجزيل، أطعموني جيداً.

آنا آندرييفنا: قل لي، أظنّ أنّ كونتات وأمراء كثيرين جدّاً يزورون سيّدك؟

أوسيب (جانباً): ماذا أقول؟ إذا كانوا الآن أطعموني بشكل جيّد. فسيطعمونني بشكل أحسن. فيما بعد. (بصوت مسموع). نعم، وكونتات أيضاً.

ماريا أنتونوفنا: أوسيب الحلو، ما أجمل سيّدك!

آنا آندرييفنا: قل لي ، من فضلك، يا أوسيب كيف هو...

حاكم المدينة: ولكن كفّي، رجاء! بأقوالكما الفارغة هذه تعيقانني لا غير.. طيب، ماذا، يا صاحبي؟

آنا آندريفنا: وما رتبة سيدك.

أوسيب: رتبة اعتيادية.

حاكم المدينـة: آوه، يا ربي، ما زلت علـى استفساراتك البلهاء! لا تتركينـي أتكلّـم كلمة في الموضـوع. طيب، يـا صاحبي، كيف سيدك؟... صارم؟ يحب إصدار التوبيخات أم لا؟

أوسيب: نعم، يحبّ النظام. وأن يكون كلّ شيء مضبوطاً.

حاكـم المدينـة: يعجبني وجهـك كثيراً. أظنّـك إنسانـاً طيّباً، يا صاحبي. ماذا....

آنـا آندريفنا: اسمع، يا أوسيب، هل سيّـدك يلبس البزّة الرسمية هناك؟

حاكم المدينة: كفاكِ من هذه الثرثرات، حقّاً! توجد قضية مهمّة، تتعلّـق بحياة إنسان... (لأوسيب).. حقّاً، يا صاحبي، أنت تعجبني كثيراً. الجوّ الآن يميل إلى البرودة. فلا ضير أن تشرب قدحاً أو قدحين من الشاي في الطريق. خذ هذين الروبلين الفضيين للشاي.

أوسيـب (يأخـذ النقود): شكـراً جزيلاً، يا سيّـدي، جعلك الله موفور الصحة، ساعدتم شخصاً بائساً.

حاكم المدينة: طيّب، طيّب، وأنا مسرور أيضاً، يا صاحبي...

آنا آندريفنا: اسمع، يا أوسيب، بأي العيون يعجب سيّدك أكثر؟

ماريا أنتونوفنا: أوسيب يا حلو! أي أنف لطيف لسيدك!

حاكم المدينـة: توقّفا، اتـركاني!.. (لأوسيـب).. طيّب، خبّرني رجاء، يا صاحبي: ماذا يلفت نظر سيّدك أكثر، أقصد أي شيء يعجبه أكثر عند السفر؟

أوسيـب: حسب الظروف. أكثر ما يحبّـه أن يُستقبل جيّداً. وأن تكون المائدة عامرة.

حاكم المدينة: عامرة؟

أوسيب: نعم، عامرة. وحتّى أنا، القنّ، يهتم بأن أُعامل معاملة جيّدة. وحقّ الربّ! يحدث أن نسافر إلى مكان ما، فيسألني: «هل استضافوك بشكل جيّد، يا أوسيب؟» فأقول: «لا، يا صاحب السيادة» فيقول: «آه، يا أوسيب، صاحب هذا البيت سيئ. ذكرني، حين نعود إلى بطرسبورغ». فأقول لنفسي (يلوّح بيده). «عفا الله عنه! أنا رجل بسيط».

حاكم المدينة: لطيف، لطيف، كلامك مضبوط. قبل حين أعطيتك فلوساً للشاي، وهذه علاوة للكعك.

أوسيب: ما هذا الكرم، يا صاحب السيادة؟ (يقبل النقود ويخفيها).. في هذه الحال سأشرب نخب صحّتك.

آنا آندرييفنا: تعال إليّ، يا أوسيب، وسأعطيك أيضاً.

ماريا أنتونوفنا: أوسيب يا حلو، قبّل سيدك.

(يسمعون سعال خليستاكوف الخفيف من الحجرة الأخرى).

حاكم المدينة: شش! (يقف على أطراف أصابعه؛ المشهد كلّه بصوت خافت).. لا تثيرا ضجة. واذهبا. هذا يكفيكما...

آنا آندرييفنا: لنذهب، يا ماشينكا! سأخبرك بما لاحظته على الضيف. شيء لا يمكن التحدث به إلا بيننا، الاثنتين.

حاكم المدينة: أوه، من هذا الكلام! تسمع وتزهد وتسدّ أذنيك. (مخاطباً أوسيب). طيّب، يا صاحبي...

المشهد الحادي عشر

(نفس الأشخاص مع ديرجيموردا وسفيستونوف).

حاكم المدينة: شش! هؤلاء الدببة العُرج كيف يدقّون الأرض بأحذيتهم! تحسّ وكأنّ أثقالاً تقذف من عربة. أين أخذكما الشيطان؟

ديرجيموردا: كنت خارجاً بمهمّة...

حاكم المدينة: ششش (يغلق فمه).. كنعيق الغراب! (يقلّده) كنت خارجاً بمهمّة! كأنه يزعق من برميل! (لأوسيب). طيّب، يا أخ، اذهب وهيّئ ما يحتاجه سيّدك. كلّ ما في البيت يمكن أن تطلبه.

(أوسيب يخرج)

أمّا أنتما، فقفا على مدخل الباب، ولا تغادرا مكانكما! ولا تسمحا لأي غريب، ولاسيّما التجّار، بالدخول إلى البيت! ولو سمحتما، ولو لواحد منهم، فسـ... حالما تريان شخصاً قادماً بعريضة، حتّى ولو بدون عريضة، بمجرّد رجل يُشتَمُّ منه أنّه يريد أن يفعل ذلك، ادفعاه من قفاه! بشدّة! هكذا! (يدفع بقدمه).. هل تسمعان؟ شش!.. (يخرج على أطراف أصابعه وراء الشرطيين)..

الفصل الرابع

(نفس الحجرة في بيت حاكم المدينة).

المشهد الأول

(يدخل بحذر وعلى أطراف الأصابع تقريباً أمّوس فيدروفيتش، وأرتيمي فيليبوفيتش ومأمور البريد، ولوكا لوكيتش، ودوبتشينسكي وبوبتشينسكي في بزّتهم الرسمية الكاملة. كلّ المشهد يجري بأصوات خافتة)..

أمّوس فيدروفيتش (يصف الجميع بنصف حلقة): بحقّ الربّ، يا سادة، أسرعوا في الحلقة، وبأكثر ما يمكن من النظام! أعاذنا الله منه. يزور القصر، ويوبّخ مجلس الدولة! اصطفوا بنظام عسكري، بنظام عسكري من كلّ بد! وأنت، يا بيتر إيفانوفيتش، استدر من تلك الناحية، وأنت يا بيتر إيفانوفيتش الآخر قف هنا.

أرتيمي فيليبوفيتش: حسب ما تشاء، يا أمّوس فيدروفيتش، حبّذا لو نتّخذ شيئاً ما.

أمّوس فيدروفيتش: وما هو بالذات؟

أرتيمي فيليبوفيتش: معروف ما هو.

أمّوس فيدروفيتش: ندهن يده؟

أرتيمي فيليبوفيتش: نعم، على الأقلّ هذا.

أمّوس فيدروفيتش: خطر، واللّه يستر، سيصرخ. فهو رجل دولة، ربما نقوم بذلك على شكل تبرّعات من جانب النبلاء لإقامة نصب تذكاري؟..

مأمور البريد: أو نقول له «هذه نقود جاءت بالبريد من مجهول».

أرتيمي فيليبوفيتش: أخشى أن يرسلك أنت بالبريد إلى مكان بعيد، اسمعوا، هذه الأمور تجري بشكل آخر في دولة يسودها النظام. لماذا جمعنا هنا بكلّ هيئتنا؟ يجب أن نقدّم أنفسنا كلّ على انفراد، وسيعطى له كل واحد ما يلزم لوحده... فلا يتسرّب شيء لأذن زائدة. هذا ما يجري في المجتمع المعتبر. طيّب، كن أنت الأوّل، يا أمّوس فيدروفيتش وابدأ.

أمّوس فيدروفيتش: الأفضل أن تبدأ أنت. الزائر العالي المقام ذاق الخبز والملح في مؤسّستك.

أرتيمي فيليبوفيتش: الأحسن أن يبدأ لوكا لوكيتش باعتباره مربّي الشباب.

لوكا لوكيتش: لا أقدر، لا أقدر، يا سادة، هكذا تربيّت، بصراحة، حالما يتحدّث معي شخص من رتبة أعلى حتى أتلبّخ روحاً ولساناً، وكأنّني وقعت في وحل. لا، يا سادة، اعفوني، اعفوني حقّاً!..

أرتيمي فيليبوفيتش: نعم، يا أمّوس فيدروفيتش لا أحد غيرك. ما إن تنطق بكلمة، حتّى يتدفق شيشرون على لسانك.

أمّوس فيدروفيتش: ما هذا الكلام من جنابك! شيشرون! أي بدعة هذه! أحياناً أتحمّس في الكلام حين أصف كلاب الصيد، أو كلبة طراد...

الجميع (يلحّون عليه). لا، ليس عن كلاب الصيد فقط. بل وعن

برج بابـل أيضاً. لا، يا أمّوس فيدروفيتش لا تتخلَّ عنا، كن أبانا!... لا، يا أمّوس فيدروفيتش.

أمّوس فيدروفيتش: اتركوني يا سادة!

(في تلـك اللحظـة يُسمـع وقع خطـوات ونحنحـة في حجرة خليستاكـوف، الجميع يندفعون نحـو الباب يسبـق بعضهم بعضاً، ويتزاحمـون، ويحاولون أن يخرجوا متدافعـين مضغوطين. تصدر هتافات واطئة).

صـوت بوبتشينسكـي: أوه! بيـتر إيفانوفيتش، بيـتر إيفافيتش! دست على قدميَّ!

صوت زيملانيكا: أطلقوا سراحي يا سادة، حصرتموني تماماً!

(تصدر بعض الهتافات «آه، آه!» وأخيراً يخرج الجميع مضغوطين وتبقى الحجرة فارغة)..

المشهد الثاني

(خليستاكوف وحده يخرج والنعاس في عينيه).

أظنّني نمت نومة لا بأس بها. من أين جاءوا بهذه الحشايا وفرشات الريش؟ جعلتنـــي أتصبّب عرقاً. أظّنهم بالأمس دسّوا لي شيئاً ما على الفطـور. في رأســي مطارق حتّى الآن. من الممكـن قضاء وقت ممتع هنـا حسب مـا أرى. أحبّ حســن المعاملة والكـرم. ويعجبني أكثر بصراحة، أن أُضيّف عن نقاء سريرة، لا عن مصلحة. ابنة حاكم المدينة مليحة جدّاً، والأم أيضاً امرأة من الممكن أن... لا، لا أعرف، ولكن مثل هذه الحياة تعجبني حقاً.

المشهد الثالث

(خليستاكوف والقاضي أمّوس فيدروفيتش).

أمّوس فيدروفيتش (يدخل، ويتوقّف، ويقول لنفسه): يا ربّ، يا ربّ، اجعلها تمرّ بسلام، ركبتايّ خائرتان، (بصوت مسموع، وقد انتصب بقامته، ووضع يده على سيفه).. لي الشرف أن أقدم نفسي: قاضي محكمة القضاء، الموظّف من الدرجة الثامنة، ليابكين تيابكين.

خليستاكوف: تفضّل، اجلسن إذاً، فأنت قاضٍ هنا؟

أمّوس فيدروفيتش: منذ عام ١٨١٦ انتخبني النبلاء لفترة ثلاثة أعوام، ثم أعادوا انتخابي ثلاث مرات فبقيت في المنصب إلى هذا الحين.

خليستاكوف: يعني منصب القاضي نافع؟

أمّوس فيدروفيتش: خلال تسع سنوات رشحّت لوسام فلاديمير من الدرجة الرابعة بتأييد من جانب الرئاسة. (جانباً). النقود في قبضتي، ولكنّني أحسّ بها تلسعني كاللهب.

خليستاكوف: وسام فلاديمير يعجبني، ولكن إعجابي بوسام آنا آندرييفنا من الدرجة الثالثة كان أقل.

أمّوس فيدروفيتش: (يدفع قبضته المضمومة إلى الأمام قليلاً. جانباً). يا إلهي، لا أعرف أين أجلس، كأنّني على جمر متّقد.

خليستاكوف: ما هذا الذي في يدك؟

أمّوس فيدروفيتش: (يرتبك ويسقط أوراق النقد على الأرض). لا شيء.

خليستاكوف: كيف لا شيء؟ سقطت نقود، كما أرى.

أمّوس فيدروفيتش: (يرتجف بكلّ كيانه). لا، مطلقاً! (جانباً). ياربّي! سأحاكم. جاءوا بعربة لأخذي.

خليستاكوف: (يرفعها) نعم، هذه نقود.

أمّوس فيدروفيتش: (جانباً). آوه، كلّ شيء انتهى. وقعت! وقعت!

خليستاكوف: هل تعرف؟ أقرضني إياها.

أمّوس فيدروفيتش: (بعجالة) بالطبع، بالطبع... بكلّ سرور (جانباً) أجرأ، أجرأ! أنقذيني، أيّتها الأمّ الطاهرة!

خليستاكوف: نفدت نقودي كلها أثناء السفر.... أنفقتها على هذا أو ذاك... على كلّ حال، سأرسلها لك من القرية حالاً.

أمّوس فيدروفيتش: أرجوكم، كيف يمكن هذا! هذا شرف عظيم بحدّ ذاته... أحاول أن أكون عند حسن الظنّ، بقوايّ الهزيلة، بالطبع، وبغيرتي، وتحمّسي إلى الرؤساء (ينهض من المقعد، ويقف بهيئة استعداد، وذراعاه مصفوفتان على جانبيه).. لا أجسر على إزعاجكم بوجودي أكثر من ذلك، هل هناك أي أمر؟..

خليستاكوف: أي أمر؟

أمّوس فيدروفيتش: أقصد هل لديكم أي أمر لمحكمة القضاء هنا؟

خليستاكوف: ولِمَ؟ لم أعد بحاجة إليها.

أمّوس فيدروفيتش: (ينحني، وينصرف. جانباً) انتصرنا!

خليستاكوف (لدى خروجه): القاضي رجل جيّد!...

المشهد الرابع

(خليستاكوف، يدخل مأمور البريد، منتصب الجذع في بزّته الرسمية، ممسكاً سيفه).

مأمور البريد: لي الشرف أن أقدّم نفسي: مأمور البريد، الموظّف بالدرجة السابعة شبيكين.

خليستاكوف: ... آ.... تفضّل! أحبّ كثيراً العشْرَة اللطيفة. اجلس. أنت تقيم هنا دائماً؟

مأمور البريد: نعم.

خليستاكوف: مدينتكم تعجبني. ليست كثيرة السكّان. بالطبع. ولكن هل هذا يهمّ؟ ليست هي العاصمة. أليس صحيحاً إنّها ليست العاصمة؟

مأمور البريد: صحيح كليّاً.

خليستاكوف: في العاصمة وحدها لغة الكلام المهذّبة، ولا يوجد فيها بطّ الريف السارح، ألا توافقني على هذا الرأي؟

مأمور البريد: بالضبط. (جانباً). لا يبدو أنّه يستنكف أبداً. يسأل عن كلّ شيء.

خليستاكوف: من الممكن العيش بهناء في المدينة الصغيرة أيضاً أليس كذلك؟ قل لي بصراحة.

مأمور البريد: بالضبط.

خليستاكوف: ما هو الضروري، في رأيي؟ الضروري أن يحترمك الآخرون ويحبّونك بإخلاص. أليس كذلك؟

مأمور البريد: صحيح تماماً.

خليستاكـوف: أنا، بصراحة، مسرور لأنّك متّفق معي في الرأي، الناسـ تنعتني بغرابة الأطـوار، بالطبع، ولكن هـذا خلقي (ينظر في عينيه، ويتكلّم في سرّه) سأطلب من مأمور البريد هذا قرضاً (بصوت مسمـوع).. أي ظرف غريب حصل معـي. نفدت نقودي كلها في الطريق. ألا تقدر أن تقرضني ثلاثمئة روبل؟

مأمـور البريد: وكيف لا؟ هذه سعـادة عظمى بالنسبة لي، ها هي تفضل. أنا مستعدّ لأن أخدم بكلّ قلبي.

خليستاكوف: شاكر كثيراً. أنا، بصراحة، أكره أن أُقتّر على نفسي في السفر. ثمّ لماذا؟ أليس كذلك؟

مأمور البريد: بالضبط. (ينهض، ويأخذ هيئة الاستعداد، يضع يده على السيف). لا أجرؤ على إزعاجكم بحضوري، أكثر من هذا. هل لديكم أية ملاحظة بخصوص إدارة البريد؟

خليستاكوف: لا ، لا شيء.

(مأمور البريد ينحني، ويخرج).

(يشعـل سيكارة). مأمور البريد أيضاً يبـدو لي رجلاً جيّداً جدّاً. خدوم، على أقلّ تقدير، أنا أحبّ مثل هؤلاء.

المشهد الخامس

(خليستاكوف و لوكا لوكيتش الذي انقذف من الباب تقريباً، من الخلف يتردد صوت يكاد يكون مسموعاً «لماذا تتخوف؟»).

لـوكا لوكيتشـ (ينتصب ولكـن ليس بـدون ارتجـاف، ممسكاً السيـف): لي الشـرف بـأن أقـدم نفسي. ناظـر المدرسـة، الموظّف بالدرجة التاسعة خلوبوف.

خليستاكـوف: تفضّل، اجلس، اجلس! ألا تريد سيكارة؟ (يقدم له سيكارة)..

لـوكا لوكيتش (في سره وبـتردّد): أية مفاجئة! لم يخطر هذا على بالي قطّ. آخذها أو لا آخذها؟

خليستاكـوف: خذهـا، خذها. إنهـا سيكارة معتـبرة، بالطبع، ليست مثل السكائر في بطرسبـورغ. كنت أدخن هناك، يا مولاي، سكائر، المئة منهـا بخمسة وعشرين روبلاً. ما ألذها، تدخينها متعة، هذه نار، أشعل. (يقدم له عود شمعة).

(لوكا لوكيتش يحاول أن يشعل السيكارة، وهو يرتجف بكليته).

خليستاكوف: ولكن ليس من هذا الطرف!

لوكا لوكيتشـ (تسقط منه السيكارة من الذعـر. يبصق، ويلوّح بذراعه. مـع نفسه): تخطف الشيطان كلّ شيء! يقتلني هذا التهيّب اللعين!

خليستاكوف: لستَ مولعاً بالسكائر، كما أرى، ولكنّها بصراحة موطـن الضعف فيَّ. و(بخصوص الجنس اللطيف أيضاً لا أستطيع أن

أمـرَّ به مرَّ الكرام. فكيف أنت؟ مَـنْ يُعجبك أكثر، سوداوات الشعر أم الشقراوات؟

(لوكا لوكيتش يتحيَّر تماماً ولا يعرف ماذا يقول).

خليستاكـوف: لا، قـل لي بصراحـة، سـودوات الشعـر أم الشقراوات؟

لوكا لوكيتش: هذا كثير عليَّ.

خليستاكوف: لا، لا، لا تتهرَّب! لابد أن أستأنس بذوقك.

لوكا لوكيتشـ: أجرؤ على القول.... (جانبـاً). ولكن لا أدري ماذا أقول!

خليستاكـوف: ها! ها! لا تريـد أن تقول. ربّمـا أوقعتك إحدى سوداوات الشعر في مقلب صغير. اعترف، هل أوقعتك؟

(لوكا لوكيتش يلزم الصمت).

ها! ها! احمررت. انظر! انظر! لماذا لا تتكلّم؟

لـوكا لوكيتشـ: أخذتنـي الرهبة، يا صاحـب النبـا... المعا... القداس... (جانباً) خانني لساني اللعين! خانني!

خليستاكوف: الرهبة؟ في عينـي ما يوحي بالرهبة، حقّاً أعرف، على أقـلّ تقدير، إن أيّة امـرأة لا تستطيع أن تصمـد أمامهما، أليس كذلك؟

لوكا لوكيتش: بالضبط.

خليستاكـوف: طيّب، حصل لي ظـرف عجيب، بددتُ نقودي أثناء السفر كلياً. ألا تقدر أن تقرضني ثلاثمئة روبل؟

لـوكا لوكيتشـ (يختطف جيبيه، مع نفسـه): مصيبة، إن لم يكن معي! موجود، موجود! (يخرج الفلوس، ويقدّمها مرتجفاً).

خليستاكوف: مع الشكر الجزيل.

لـوكا لوكيتشـ (منتصباً ممسـكاً بسيفه): لا أجـرؤ أن أزعجكم بوجودي أكثر.

خليستاكوف: مع السلامة.

لوكا لوكيتشـ (يبتعد فيما يشبه الركض. جانبـاً). طيّب، حمداً لله، أظنّه لا يزور المدرسة، الآن!

المشهد السادس

(خليستاكوف وأرتيمي فيليبوفيتش منتصباً في هيئة استعداد، واضعاً يده على سيفه).

أرتيمي فيليبوفيتش: لي الشرف أن أقدّم نفسي، راعي المؤسّسات الخيرية، الموظّف بالدرجة السابعة زيملانيكا.

خليستاكوف: مرحباً، اجلس، أرجوك.

أرتيمي فيليبوفيتش: كان لي الشرف بمرافقتكم واستقبالكم شخصياً في مؤسّساتي الخيرية المناطة بي.

خليستاكوف: ها، نعم! أتذكّر. ضيفتني على فطور جيّد جداً.

أرتيمي فيليبوفيتش: مسرور في السعي لخدمة الوطن.

خليستاكوف: هذا موطن ضعفي، بصراحة، أحبّ الطعام الجيّد. قل لي، من فضلك، يبدو لي أنّك كنت في الأمس أقصر قامة بقليل، أليس كذلك؟

أرتيمي فيليبوفيتش: محتمل جدّاً، (بعد صمت قصير).. أستطيع أن أقول إنّني أبذل قصار جهدي، وأؤدي واجبي بإخلاص. (يتقدّم قليلاً مع مقعده، ويتكلّم بصوت خافض). ها هو مأمور البريد هنا لا يفعل أي شيء إطلاقاً. كلّ أعماله في حالة من الإهمال الشديد، والإرساليات تتأخّر... تفضّل. وتأكّد بنفسك خصيصاً... وكذلك القاضي الذي كان هنا قبل مجيئي، ليس له همّ غير صيد الأرانب، ويحتفظ بكلابه في غرفة دائرته. وتصرّفاته، إذا كنت صريحاً معكم وأنا بالطبع، ملزم لأن أفعل لمصلحة الوطن، ولو أنّه قريب لي وصديق

تصرّفاتـه معيبة تماماً. يوجد هنا مالك أراضـي، يُدعى دوبتشينسكي وهو الذي سبـق أن رأيته. ما إن يخرج دوبتشينسكي هذا من البيت حتّـى يكون عند زوجته. أنـا مستعدّ إلى أن أقسـم على ذلك. انظر إلى أطفاله خصيصاً، لن تجد واحداً منهم يشبه دوبتشينسكي، ولكن الجميع، حتى البنت الصغيرة، يشبهون القاضي شبه الحبّة للحبّة.

خليستاكوف: يا لها من مفاجأة، بينما لم أكن أظنّ ذلك قطّ.

أرتيمـي فيليبوفيتـش: وناظر المدرسـة أيضـاً... لا أعرف كيف أمكن للرئاسة أن تأتمنـه على مثل هذه الوظيفة. إنّه أسوأ من اليعاقبة. يلقّن الشبيبة قواعد الخروج على ما هو قائم بشكل يصعب تصويره. أليس من الأفضل أن أضع كل هذا على الورق؟ ماذا تأمر؟

خليستاكـوف: طيّب، وليكن على الورق، هـذا مريح لي جدّاً. أنـا أحبّ أن أقرأ في أوقـات الضجر شيئاً مسلياً، ما اسم عائلتك؟ أنا أنسى دائماً.

أرتيمي فيليبوفيتش: زيملانيكا.

خليستاكوف: آها، نعم! زيملانيكا. قل لي من فضلك، هل لديك أولاد؟

أرتيمي فيليبوفيتش: بالطبع! خمسة. اثنان منهم راشدان.

خليستاكوف: راشدان، تصور! وكيف... كيف هم بـ...

أرتيمي فيليبوفيتش: يعني تريدون أن تسألوا كيف هم بالأسماء؟

خليستاكوف: نعم، كيف هم بالأسماء؟

أرتيمي فيليبوفيتش: نيقولاي، غيفان، يليزافيتا، ماريا، بيرييتويا.

خليستاكوف: هذا لطيف.

أرتيمي فيليبوفيتش: لا أجـرؤ على إزعاجكم بحضوري، وأخذ وقتكم المنذور للواجبات المقدسة. (ينحني ليخرج).

خليستاكـوف: (يرافقه)، لا، لا بأس! كلّ ما قلته مضحك جدّاً. تفضّـل، تعال في وقـت آخر أيضـاً... أنا أحبّ ذلك كثـيراً (يعود، وحـين يفتح البـاب يصيح في أثـره) هاي، أنت! مـا اسمك؟ أنسى دائماً ما اسمك واسم أبيك.

أرتيمي فيليبوفيتش: أرتيمي فيليبوفيتش.

خليستاكـوف: اعمـل معروفاً، يـا أرتيمـي فيليبوفيتش، حصل لي ظـرف غريـب. أنفقت نقودي كلياً أثناء السفـر. هل لديك نقود لتقرضني أربعمئة روبل؟

أرتيمي فيليبوفيتش: لديَّ.

خليستاكوف: يا للمصادفة الحسنة حقّاً. شكراً جزيلاً.

المشهد السابع

(خليستاكوف وبوبتشينسكي ودوبتشينسكي).

بوبتشينسكي: لي الشرف أن أقدم نفسي، بيتربن إيفان بوبتشينسكي من أهل هذه المدينة.

دوبتشينسكي: مالك الأراضي بيتربن إيفان دوبتشينسكي.

خليستاكوف: آه، رأيتك من قبل، أظنّك قد وقعت في حينها؟ كيف حال أنفك؟

بوبتشينسكي: الحمد لله! لا تقلقوا أنفسكم. نشف. هو الآن ناشف تماماً.

خليستاكوف: لطيف أنّه ناشف. أنا مسرور، (فجأة وبلهجة فيها حدة).. هل لديك فلوس؟

بوبتشينسكي: فلوس؟ أي فلوس؟

خليستاكوف: ألف روبل قرضاً.

بوبتشينسكي: لا يوجد هذا المبلغ، والله، ربّما لديك، يا بيتر إيفانوفيتش؟

دوبتشينسكي: ليس معي، لأن فلوسي، لو تفضّلتم أن تعرفوا، موظّفة في الصندوق الخيري.

خليستاكوف: طيّب، إذا لا يوجد ألف، فمائة روبل.

بوبتشينسكي: (يفتّش في جيبه). هل معك، يا بيتر إيفانوفيتش مائة روبل؟ ليس معي غير أربعين من النقود الورقية.

دوبتشينسكي (ينظر في محفظة نقوده الورقية): خمسة وعشرين روبلاً فقط.

بوبتشينسكي: ولكن فتّش أكثر، يا بيتر إيفانوفيتش! أنا أعرف، عندك في الجانب الأيمن من جيبك فتق، لابدّ أن سقط شيء في فتق الجيب.

دوبتشينسكي: في الفتق أيضاً لا يوجد، بالفعل.

خليستاكوف: طيّب، لا يهمّ. مجرد سؤال. طيّب، وليكن خمسة وستين روبلاً. هذا لا يهمّ. (يأخذ النقود).

دوبتشينسكي: أجروؤ أن أترجاكم بخصوص مسألة دقيقة جدّاً.

خليستاكوف: ما هي؟

دوبتشينسكي: المسألة ذات طابع حسّاس جدّاً. ابني الكبير، إذا سمحتم بالقول، أنجبتُه قبل الزواج.

خليستاكوف: صحيح؟

دوبتشينسكي: أقصد، هذا على حدّ تعبير الناس فقط. فقد أنجبته تماماً، وكأنّني متزوّج، وكلّ ذلك قد توّجته فيما بعد بعرى الزواج الوثقى، وحسب الأصول وأنا أريد الآن، إذا سمحتم، أن يكون ابني الشرعي كلياً، وأن يحمل اللقب الذي أحمله "دوبتشينسكي".

خليستاكوف: طيّب، ليحمله! هذا ممكن!

دوبتشينسكي: ما كنت سأزعجكم، ولكن خسارة أن تضيع قابلياته. غلام يبشّر بآمال عظيمة. يستطيع أن ينشد أشعاراً متنوّعة عن ظهر قلب. وإذا وقعت في يده سكّين صنع على الفور لعبة تمثّل عربة صغيرة.بمهارة فائقة وفتنة ساحرة. هذا بيتر إيفانوفيتش يعرف ذلك أيضاً.

بوبتشينسكي: نعم، عنده قابليات كبيرة.

خليستاكوف: طيّب، طيّب! سأحاول في هذا الخصوص، سأتكلّم.... آمل... كلّ ذلك سيتمّ، نعم، نعم... (مخاطباً بوبتشينسكي) هل عندك شيء تقوله لي؟

بوبتشينسكي: طبعاً عندي رجاء متواضع جدّاً.

خليستاكوف: ما هوّ؟

بوبتشينسكي: أرجوكم بكلّ خضوع أن تخبروا، حال وصولكم إلى بطرسبورغ، جميع الوجهاء على اختلافهم، والأعيان، والادميرالات، بأن في المدينة الفلانية، يا أصحاب الفضيلة أو الفخامة، أو ما إلى ذلك، يعيش بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي.. قل لهم هكذا: "يعيش بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي".

خليستاكوف: حسن جدّاً.

بوبتشينسكي: وإذا صادف وأن التقيت بمولانا القيصر، فقل لمولانا أيضاً إن في المدينة الفلانية، يا صاحب الجلالة، يعيش بيتر إيفانوفيتش بوبتشينسكي.

خليستاكوف: حسن جدّاً.

دوبتشينسكي: أعذرونا على مضايقتكم بحضورنا.

بوبتشينسكي: أعذرونا على مضايقتكم بحضورنا.

خليستاكوف: لا بأس، لا بأس، مسرور جدّاً، (يدفعهما للخروج).

المشهد الثامن

(خليستاكوف وحده).

الموظّفـون كثيرون هنا. ويبدو لي، على كلّ حال، أنّهم يعتبرونني رجـل دولة، الظاهر أنّني تباهيت كثـيراً أمامهم بالأمس. أي حمقى هـؤلاء! سأكتب عن كلّ شـيء لتريا بيتشكـين في بطرسبورغ. فهو يدبج مقالات. فليلعَبْهم بشكل محترم. هاي، يا أوسيب أعطني ورقة وحبراً.

(أوسيب يطل من الباب، وينطق «حالاً»).

تريا بيتشكين هذا شديد إذا وقع أحد في يده، لا يرحم حتّى أباه، ويحـبّ الفلوس أيضـاً، هؤلاء الموظفون أناس طيّبون على العموم. والصفـة اللطيفة فيهم أنّهم أقرضوني. تـرى كم عندي من الفلوس؟ لأنظر مـن جديد، للتسلية، ثلاثمئة من القاضي، وثلاثمئة من مأمور البريـد، ستمئة، سبعمئـة، ثمانمائة... أية ورقة مدهنـة هذه! ثمانمئة، تسعمئـة.... أهوه! تعدَّت الألف... تعال نلعـب الآن، يا رائد، آه، لو وقعت في يديَّ الآن! سنرى من يغلب الآخر.

المشهد التاسع

(خليستاكوف وأوسيب ومعه محبرة وورقة).

خليستاكوف: هل ترى، يا أحمق، كيف يستضيفونني ويستقبلونني؟ (يبدأ بالكتابة).

أوسيب: نعم، والحمد لله! ولكنْ هل تدرون، يا إيفان الكسندروفيتش؟

خليستاكوف: ماذا؟

أوسيب: لنرحل من هنا! آن الأوان، وحقّ الربّ!

خليستاكوف (وهو يكتب): هراء! ولماذا!..

أوسيب: هكذا! كفانا شرهم جميعاً! لهوتم هنا يومين، وكفى. فلماذا تطيلون علاقتكم بهم؟ أبصقوا عليهم! أخشى أن يطلّ شخص آخر غفلة... بحقّ الربّ، يا إيفان الكسندروفيتش! فليعطونا خيولاً ممتازة، وسنطير بها.

خليستاكوف (وهو يكتب): لا ، أحبّ أن أعيش هنا أكثر، ليكن في الغد!

أوسيب: ولِمَ في الغد! لنغادر، وحقّ الربّ، يا إيفان الكسندروفيتشَ! صحيح أنهم يضيفونك ضيافة عظيمة، ولكن الأحسن أن نرحل بأقرب وقت ممكن. هم، في الحقيقة، تصوّروكم شخصاً آخر... والدكم سيغضب من تأخّرنا هذا... كم جميل أن نسرع بالخيول، حقّاً! سيعطوننا هنا خيولاً معتبرة، بالتأكيد.

خليستاكوف: (يكتب) حسناً. ولكن احمل هذه الرسالة أوّلاً،

وفي طريقك خذ استمارة سفر أيضاً. واحرص على أن تكون الخيول جيّدة! أخبر الحوذية أنّني سأوزّع على كل واحد منهم روبلاً فضياً، حتّى ينطلقوا كساعي الحكومة، ويغنوا الأغاني أيضاً! (يستمر في الكتابة).. أتصوّر أن ترياببتشكين سيموت من الضحك...

أوسيب: سأرسلها مع شخص من عندهم، يا سيّدي، فالأحسن أن أتفرّغ أنا لإعداد الحقائب، حتى لا يضيع الوقت عبثاً.

خليستاكوف: (يكتب): جيّد. ولكن اجلب شمعة.

أوسيب (يخرج ويتكلّم وراء المسرح): هاي، اسمع، يا أخ! خذ الرسالة إلى البريد، وقل لمأمور البريد أن يقبلها بلا فلوس، ثمّ أخبره أن يجلب إلى السيد فوراً أحسن ثلاثة خيول، من خيول البريد الحكومي المستعجل. وقل له: السيّد لا يدفع أجرة الخيول، لأنّ المهمة حكومية. وليسرع بكلّ هذا، وإلا فسيغضب السيّد. قف، تمهّل، لم تكمّل الرسالة بعد.

خليستاكوف (مستمراً في الكتابة): تُرى أين يعيش الآن في شارع البريد أم في شارع الحمص؟ هو أيضاً يجب أن يتنقّل كثيراً من سكن إلى آخر، دون أن يدفع الأجرة بالكامل. أكتب على عنوان شارع البريد، تخميناً. (يطوي الرسالة ويكتب العنوان).

(أوسيب يجلب شمعة. خليستاكوف يدمغ الرسالة. في ذلك الوقت يسمع صوت ديرجيموردا: «إلى أين، يا أبا لحية؟ قلت لك أمروني أن لا أسمح لأحد بالدخول»).

(يعطي الرسالة لأوسيب): خذ، ابعثها.

أصوات التجّار: اسمح لنا، يا حضرة! لن تقدر أن تمنعنا. فقد جئنا في قضية.

صوت ديرجيموردا: انصرفوا، انصرفوا! لا يستقبل أحداً. نائم.

(الضوضاء تزداد).

خليستاكوف: ماذا هناك، يا أوسيب؟ انظر ما هذه الضوضاء؟

أوسيب (ينظر من النافذة): تجّار يريدون الدخول، ولكن الشرطي يمنعهم. يلوّحون بأوراق، يبدو أنّهم يريدون مقابلتكم.

خليستاكوف (يقترب من النافذة): ماذا تريدون، يا أفاضل؟

أصوات التجار: مقابلة حضرتكم، قولوا لهم، يا مولانا، أن يقبلوا العريضة.

خليستاكوف: أدخلوهم، أدخلوهم! ليدخلوا. أوسيب قل لهم ليدخلوا.

(أوسيب يخرج).

(يتلقى العرائض من النافذة، يبسّط واحدة منها، ويقرأ).
«إلى صاحب النبالة والمقام الرفيع السيّد مدير الخزانة من التاجر عبدولين....» الشيطان يعرف ما هذا. حتّى هذه الوظيفة لا وجود لها.

المشهد العاشر

(خليستاكوف والتجار ومعهم سلّة نبيذ ورؤوس سكّر).

خليستاكوف: ماذا، يا أفاضل؟

التجّار: عندنا رجاء لسيادتكم.

خليستاكوف: ماذا تريدون؟

التجّار: أشفق علينا يا مولانا؟ نتحمّل المهانة بدون أي سبب.

خليستاكوف: ممّن؟

أحد التجّار: من حاكم المدينة هنا؟ لم نشهد مثل هذا الحاكم قطّ، يا مولانا. يعرضنا لمظا لم لا يمكن أن توصف. أنهكنا كلياً بأوامر إيواء الجنـود، حتّى لا نعـرف أين نولّي بوجوهنـا. تصرّفاته لا تتناسب مع العطـاء. يمسك باللحية، ويقول: «آه منك، يـا تتري!» وحقّ الربّ! وليتنـا أسأنا إليه بشيء! بـل نقوم بالواجب دائمـاً. لا نبخل عليه بما ينبغي من الكسوة لزوجته ولابنته. ولكن كل هذا لا يكفيه، صدّقني! يدخل الدكّان، ويأخذ كلّ ما تقع عليه يداه. ويرى لفّة الجوخ فيقول: «هـذا جـوخ فاخر، يـا عزيـزي، احمله إلى بيتـي». وأحمـل اللفّة مضطراً. وفي اللفّة ما لا يقلّ عن خمسين ذراعاً.

خليستاكوف: معقول؟ آه، أي نصّاب هو!

التجـار: والله، لا أحد يتذكّر حاكـم لمدينة مثله. حالما نراه نُخفي كلّ شيء في الدكّان. لأنه لا يقتصر على أخذ الأطايب فقط، بل ينتش أيّة بضاعة تافهة، حتّى الإجاصّ المجفف الذي يظلّ سبعة أعوام وهو في برميله، والذي لا يأكله حتّى الخادم، يدسّ حاكمنا يده في البرميل

ويغرف منه غرفة كاملة. ونحن نعرف أن قديسه الشفيع هو أنتون، فنحمل له في عيد هذا القدّيس أنتون كلّ ما يخطر وما لا يخطر على البال. ومع ذلك لا يشبع، ويقول قدّموا لي الهدايا في عيد القديس أونوفري أيضاً. فماذا نفعل؟ نقدّم له الهدايا في عيد القديس أونوفري أيضاً.

خليستاكوف: هذا حرامي تماماً.

التجّار: بالضبط، ولكن حاول أن تعترض عليه. فسيفرض عليك إيواء فوج كامل في بيتك. وإذا حصل شيء لا يحبه، يأمر بغلق الباب. يقول: «لن أعاقبك عقاباً جسدياً، أو أعرضك لتعذيب، القانون يحرم ذلك، ولكن سأجعلك تأكل الفسيخ، يا حضرة المحترم!..»

خليستاكوف: آه، أي نصّاب هو! هذا يستحق النفي إلى سيبيريا رأساً.

التجّار: إلى أي مكان تشاؤون فسيكون ذلك أحسن، فقط أن ينزاح عنّا. لا تستنكف الخبز والملح، يا مولانا، جئناك بشيء من السكّر وسلّة صغيرة من النبيذ.

خليستاكوف: لا، أبعدوا ذلك عن أذهانكم. أنا لا أقبل قط أية رشوة. ولكن لو عرضتم عليّ، مثلاً، أن تقرضوني ثلاثمئة روبل، فإنّ ذلك شيء آخر تماماً. أستطيع قبول القروض.

التجّار: تفضّل، يا مولانا! (يخرجون الفلوس).. ولكن لماذا ثلاثمئة. خذ خمسمئة وساعِدنا. تساهل فقط.

خليستاكوف: تفضّلوا، لا اعتراض لي على القروض. سآخذها.

التجّار (يحملون له النقود على صينية من فضّة): تفضّلوا. خذوا الصينية معها.

خليستاكوف: والصينية ممكن أيضاً.

التجّار (ينحنون): وخذوا السكّر دفعة واحدة.

خليستاكوف: لا. لا رشوة على الإطلاق...

أوسيب: يا صاحب النبالة! لماذا لا تأخذونه؟ خذوه! كلّ شيء في السفر ينفع، هاتوا رؤوس السكّر، والسلة! هاتوا كلّ شيء، كلّ شيء سينفع. ماذا هناك؟ حبل؟ هاتوا الحبل هو الآخر، سينفع في السفر. تنكسر العربة أو ما إلى ذلك. يمكن شدّها به.

التجّار: ابذلوا جهدكم، يا صاحب السيادة. إذا كنتم أنتم لا تقدرون على تحقيق رجائنا، فإنّنا لا نعرف ماذا نصنع. لا نرى أي مخرج!..

خليستاكوف: حتماً، حتماً، سأحاول.

(التجار يخرجون، يسمع صوت امرأة: «لا، لن تجسر على منعي من الدخول! سأشكوك له، لا تدفعني هكذا، أنت توجعني!»).

خليستاكوف: مَنْ هناك؟ (يقترب من النافذة).. ماذا بك يا عمة؟

صوتا امرأتين: عطفك يا محترم، رجاء! نرجوكم، يا مولانا أن تسمعونا.

خليستاكوف (عند النافذة): اتركوهما تدخلان.

المشهد الحادي عشر

(خليستاكوف، زوجة السمكري، زوجة ضابط الصف).

زوجة السمكري (تنحني إلى الأرض): استرحم....

زوجة ضابط الصفّ: أتظلَّم إليكم...

خليستاكوف: ولكن مَنْ أنتما؟

زوجة ضابط الصفّ: أنا إيفانوفا زوجة ضابط الصفّ.

زوجة السمكري: أنا فيفرونيا بيتروفنا بوشليبكينا زوجة السمكري، من أهل هذه المدينة، يا مولانا...

خليستاكوف: على مهلك، قولي أنت أوّلاً: ماذا تريدين؟

زوجة السمكري: أتظلَّم إليكم. جئت أشكو من حاكم المدينة! عسى الله أن ينزل عليه مصائب الدنيا كلّها! وأن لا يريه أي خير، لا هو، النصّاب، ولا أبناءه، ولا أعمامه ولا عمّاته!

خليستاكوف: ولماذا؟

زوجة السمكري: أمر بتجنيد زوجي. مع أنّ النوبة لم تحلّ علينا! يا للنصّاب حاكم المدينة! والقانون أيضاً لا يجيز تجنيد المتزوّج.

خليستاكوف: وكيف أمكن أن يفعل ذلك؟

زوجة السمكري: فعل، النصّاب، فعل، عسى الله أن يعذّبه في الدنيا والآخرة! وأن يسلّط البلايا على عمّته، إذا كانت له عمّة، وأن يمحق المحتال أباه، إذا كان ما يزال حيّاً، أو يكتم أنفاسه إلى الأبد، النصّاب! كان يجب أن يجند ابن الخيّاط، فهو سكّير، ولكن أبويه

أعطياه هديّة كبيرة، فتحول إلى ابن بانتليفا، زوجة التاجر. ولكن بانتلييفا هذه أرسلت إلى زوجته ثلاث لفّات من القماش، فتحوَّل إليَّ. ويقول لي: «وما حاجتك إلى زوج؟ لا ينفعك الآن» ولكنّني أعرَف منه إن كان ينفعني أو لا ينفعني. هذا شأني. النصّاب! فيقول لي: «إنّه لصّ، وإن كان لم يسرق الآن، ولكنّه سيسرق في كلّ الأحوال. وسيجنّدونه على كل حال في السنة القادمة». ولكن أي شيء أنا بدون زوج! النصّاب! أنا إنسانة ضعيفة، الوغد! عسى الله أن لا يري أهله جميعاً أية نعمة في الدنيا! وإذا كان له حماة فـ.....

خليستاكوف: طيّب، طيّب، وأنت (يسير بالعجوز إلى باب الخروج)..

زوجة السمكري (خارجة): لا تنسَ، يا مولانا، لتكن بك رحمة!.

زوجة ضابط الصفّ: جئت، يا محترم، لأشكو من حاكم المدينة.

خليستاكوف: والسبب؟ ماذا حدث تكلّمي باختصار.

زوجة ضابط الصفّ: جلدني، يا محترم!

خليستاكوف: كيف؟

زوجة ضابط الصفّ: عن طريق الخطأ، يا مولاي! تشاجرت نسوتنا في السوق وتعاركن، ولكن الشرطة تأخّرت في الحضور. فأمسكتني. وكالت لي بالصاع والذراع، حتّى ظللت يومين لا أستطيع الجلوس.

خليستاكوف: وما العمل الآن؟

زوجة ضابط الصفّ: لا يجدي أي عمل، بالطبع، ولكن أطلب منه أن يدفع غرامة على الخطأ. ما وقع من نصيبي لا أستطيع ردّه، ولكن الفلوس ستنفعني الآن نفعاً كبيراً.

خليستاكوف: طيّب، طيّب! اذهبي اذهبي. سأصدر أمري.

(من النافذة تطلع أيد تحمل عرائض).

خليستاكوف: ومَنْ بقي هناك؟ (يقترب من النافذة) لا أريد، لا أريد! لا لزوم، لا لزوم! (يبتعد). ضجرت، اللعنة! لا تدع أحداً يدخل، يا أوسيب..

أوسيب (يصيح من النافذة): انصرفوا، انصرفوا! فات الوقت، تعالوا غداً!

(الباب يفتح، ويطلع شخص في معطف من الجوخ الرخيص الخشن، غير حليق اللحية، متورّم الشفة، مشدود الخدّ، وفي الخلف منه يلوح بعض الشخوص).

انصرفوا، انصرفوا، إلى أين؟ (يسند كلتا يديه على كرش الشخص الأوّل، وينقلع معه إلى الرواق، ويصفق الباب خلفه)..

المشهد الثاني عشر

(خليستاكوف و ماريا أنتونوفنا).

ماريا أنتونوفنا: آه!

خليستاكوف: لماذا ارتعبت بهذا الشكل، يا مولاتي؟

ماريا أنتونوفنا: لا، لم أرتعب.

خليستاكوف (يتثنّى): لطفك يا مولاتي، كم أنا مرتاح، لأنّك اعتبرتني الشخص الذي... هل أجرؤ أن أسألكِ: إلى أين كنتِ تنوين أن تذهبي؟

ماريا أنتونوفنا: لم أكن ذاهبة إلى أي مكان، حقاً.

خليستاكوف: ولماذا لم تكوني ذاهبة إلى أي مكان؟

ماريا أنتونوفنا: كنت أفكّر هل ماما هنا....

خليستاكوف: لا، أود أن أعرف لماذا لم تكوني ذاهبة إلى أي مكان؟

ماريا أنتونوفنا: أعقتكم. كنتم مشغولين بأمور مهمّة.

خليستاكوف (يتثنّى): ولكن عينيك أحسن من الأمور المهمّة... لا يمكن أن تعيقيني. لا يمكنكِ بأي شكل من الأشكال. وعلى العكس من ذلك يمكنكِ أن توفري لي متعة.

ماريا أنتونوفنا: أنتم تتكلّمون على طريقة العاصمة.

خليستاكوف: لامرأة رائعة مثلك، هل أجرؤ أن أُسعد بتقديم مقعد لك؟ ولكن لا، أنت تستحقّين عرشاً وليس مقعداً.

ماريـا أنتونوفنـا: حقّـاً، لا أعـرف... كنتُ بحاجـة شديدة إلى الذهاب.(تجلس).

خليستاكوف: ما أجمل منديلك!

ماريا أنتونوفنا: أنتم تهزلون. لا يهمّكم إلا أن تضحكوا من بنات الأقاليم.

خليستاكـوف: كم أودّ، يـا مولاتي، أن أكـون منديلكِ لأطوق عنقكِ الناصع.

ماريـا أنتونوفنا: أنـا لا أفهم أبداً، عمَّ تتكلّمـون: منديل.... أي طقس غريب اليوم!..

خليستاكوف: ولكن شفتيكِ، يا مولاتي، أحسن من أي طقس.

ماريـا أنتونوفنا: كلامكم دائماً بهذا الشـكل... لو أرجوكم أن تكتبـوا أبياتاً من الشعر في الألبوم للذكـرى. أظنّكم تحفظون الكثير من الشعر.

خليستاكـوف: كلّ مـا تريدينه ميسّر لكِ، يـا مولاتي، اطلبي أي أشعار تحبّين.

ماريا أنتونوفنا: أبياتاً جيّدة، جديدة.

خليستاكـوف: خـذي قدر مـا تشائين! أنـا أعـرف الكثير من الأشعار.

ماريا أنتونوفنا: طيّب، قل لي أي الأشعار ستكتب لي؟

خليستاكوف: وما الحاجة إلى هذا الكلام؟ أنا أعرفها بدون ذلك.

ماريا أنتونوفنا: أنا أحبّها كثيراً.

خليستاكـوف: وعنـدي الكثير مـن أصنافها، طيّـب، تفضلي، خذي هذا البيت على الأقل. «أوه، يا إنسان، يا مَنْ تتذمّر من الربّ، عند الضيـم» وأبيات أخرى... لا أستطيـع أن أتذكّرها الآن. وعلى

العمــوم كلّ ذلك لا يعني شيئاً، الأحســن أن أقدّم لكِ بدلاً من هذا، حبّي الذي من نظرتك... (يقرب المقعد).

ماريــا أنتونوفنــا: حبّ! أنا لا أفهم الحــبّ... لم أعرف قطّ ماهو الحبّ....(تبعد مقعدها).

خليستاكــوف: ولمــاذا تبعدين مقعــدكِ؟ الأحســن أن نجلس عن قرب.

ماريا أنتونوفنا (تبتعد): ولماذا عن قرب؟ لا يهمّ عن بعد أيضاً.

خليستاكوف (يقترب): ولماذا عن بعد؟ لا يهمّ عن قرب أيضاً.

ماريا أنتونوفنا (تبتعد): ولكن لِمَ هذا؟

خليستاكــوف (يقــترب): هذا مجــرد توهّم منكِ أنّــه عن قرب، ولكــن تخيلي أنّه عن بعد. كم سأكــون سعيداً، يا آنستي، لو أعصركِ بين ذراعيّ!

ماريا أنتونوفنا (تنظر من النافذة): ما هذا الذي أحسبه طار هناك؟ عقعق أم طائر آخر؟

خليستاكوف (يقبّل كتفها، وينظر من النافذة): هذا عقعق.

ماريــا أنتونوفنــا (تنهضــ بحنــق): لا، هــذا أكثر مــن اللازم... وقاحة!...

خليستاكــوف (يمسكها): اعذريني، يا آنستــي، فعلت ذلك عن حبّ، عن حبّ بالضبط.

ماريــا أنتونوفنا: أنتم تعتبرونني من بنــات الأقاليم... (تحاول أن تخرج).

خليستاكوف (مــا يزال ممسكاً بها): عن حــبّ، حقّاً عن حبّ. مجــرّد مزاح، يا ماريا أنتونوفنا فلا تزعلي، أنا مستعدّ أن أركع ملتمساً المغفرة منكِ. (يركع) اغفري لي، اغفري لي! هذا أنتِ ترينني راكعاً.

المشهد الثالث عشر

(الشخصان ذاتهما مع آنا آندرييفنا)

آنا آندرييفنا (وقد رأت خليستاكوف راكعاً): آه، ما هذا المنظر!

خليستاكوف (ينهض): اللعنة على الشيطان!

آنا آندرييفنا (لابنتها): ما يعني هذا، يا آنسة؟ ما هذه التصرّفات؟

ماريا أنتونوفنا: أنا، يا ماما...

آنا آندرييفنا: اخرجي من هنا، تسمعين، اخرجي، اخرجي! ولا تجسري أن تريني وجهك.

(ماريا أنتونوفنا تخرج دامعة العينين).

اسمحوا لي بصراحة، أنا مندهشة...

خليستاكوف (جانباً): وهي أيضاً لذيذة جداً، مليحة جداً، (يركع) مولاتي، ها أنتِ تريننّي أحترق من الحب.

آنا آندرييفنا: كيف هذا، تركعون؟ آه، قوموا، قوموا! أرضية الحجرة غير نظيفة كليّاً.

خليستاكوف: لا، بل أركع، لابدّ أن أركع. أريد أن أعرف ما المكتوب لي، أن أحيا أو أن أموت.

آنا آندرييفنا: ولكن اعذروني، ما أزال غير فاهمة كلماتكم تماماً. أنتم، إذا لم أخطئ، تريدون أن تخطبوا ابنتي.

خليستاكوف: لا، بل واقع في غرامكِ. حياتي معلقة بشعرة،

وإذا لا تتوّجين حبّي المقيم فلست أهلاً لوجودي على الأرض. أطلب يدكِ، واللهب يجتاح صدري.

آنا آندرييفنا: ولكن اسمحوا أن أذكركم بأنّني إلى حدّ ما... متزوّجة.

خليستاكوف: هذا لا يعني شيئاً! لا فرق في الحبّ! قال كارامزين «القوانين تُدان» سنفرّ تحت ضجيج النافورة... أطلب يدك. أطلب يدك!.

المشهد الرابع عشر

(الشخصان ذاتهما و ماريا أنتونوفنا تدخل راكضة فجأة).

ماريا أنتونوفنا: ماما، بابا قال....(تصيح بعد أن ترى خليستاكوف راكعاً) آه، ما هذا المنظر!

آنا آندرييفنا: ماذا بك؟ ما هذا الطيش! دخلت فجأة تركضين كالقطة المخبولة. أي شيء مدهش وجدت؟ ماذا خطر في بالكِ؟ أنتِ كطفلة في الثالثة، حقّاً، لا يبدو عليها إطلاقاً أنها بلغت الثامنة عشرة. لا أدري متى ستكونين أعقل، متى ستتصرّفين كآنسة على حظ معتبر من الثقافة والتربية، متى ستعرفين ما هي الأصول الحميدة والرصانة في السلوك.

ماريا أنتونوفنا (من خلال الدموع): ماما، في الحقيقة، لم أكن أعرف......

آنا آندرييفنا: دائماً عندكِ هوس في رأسكِ. تأخذين القدوة من بنات ليابيكن تيابكين. لماذا تنظرين إليهنّ؟ لا حاجة لأن تنظري إليهنّ. عندكِ قدوات أخرى. أمامك أمّك. عليكِ أن تأخذي بهذه القدوات.

خليستاكوف (يمسك يد الابنة): آنا آندرييفنا لا تقفي في طريق هنائنا. باركي الحبّ المقيم.

آنا آندرييفنا (بدهشة): يعني واقع فيها؟...

خليستاكوف: قرّري الحياة أم الموت؟

آنا آندرييفنا: ها أنتِ ترين، يا حمقاء، ترين، من أجلكِ، يا حثالة، تفضّــل الضيف فركع. بينما أنتِ دخلــتِ راكضة فجأة، كالمخبولة، أنتِ في الحقيقة تستحقّين أن أرفض عن عمد، أنتِ لا تستأهلين هذه السعادة.

ماريا أنتونوفنا: لن أفعل، يا ماما، لن أفعلها مرّة أخرى، حقيقة.

المشهد الخامس عشر

(نفس الأشخاص، وحاكم المدينة في عجالة واضطراب).

حاكم المدينة: يا صاحب السيادة لا تتشدّدوا معي!

خليستاكوف: ماذا بكَ؟

حاكم المدينة: التجّار اشتكوا لسيادتكم. أقسم لكم بشرفي لا وجود حتّى لنصف ما يقولونه. هم أنفسهم يحتالون ويغشون الناس. وزوجة ضابط الصف كذبت عليكم حين زعمت أنّني جلدتها. إنّها تكذب، وحق الربّ، تكذب، هي التي جلدت نفسها، بنفسها.

خليستاكوف: دعني من زوجة ضابط الصفّ. لا يهمني شأنها!

حاكم المدينة: لا تصدقوا بهم، لا تصدّقوا! هؤلاء كذّابون.. حتّى الطفل الصغير لا يصدّق بهم. المدينة كلّها تعرف أنّهم كذابون. أمّا بخصوص النصب، فأجروء على القول إن هؤلاء نصّابون لم يشهد العالم لهم مثيلاً.

آنا آندرييفنا: هل تدري أي شرف يمنحنا إيفان الكسندروفيتش؟ يطلب يد ابنتنا.

حاكم المدينة: قفي عند حدّك!.. تخبلت، يا ست! لا تغضبوا، يا صاحب السيادة! فيها شيء من اللوثة، مثلما كانت أمّها.

خليستاكوف: نعم، بالضبط، أطلب يدها. أنا عاشق.

حاكم المدينة: لا يمكن أن أصدّق، يا صاحب السيادة.

آنا آندرييفنا: هذا ما يقولونه لكَ!

خليستاكـوف: لست مازحاً في كلامي لـكَ... يمكن أن يسلب الحب عقلي.

حاكم المدينة: لا أجرؤ أن أصدّق أنني أهل لمثل هذا الشرف.

خليستاكـوف: وإذا كنتَ غـير موافق علـى أن تعطيني يد ماريا أنتونوفنا فالشيطان وحده يعرف أنّني مستعدّ....

حاكـم المدينة: لا يمكـن أن أصـدّق. أنتم تمزحـون، يا صاحب السيادة!

آنا آندرييفنا: دماغ ناشف بالضبط. إذا كانوا يقولون لكَ.

حاكم المدينة: لا يمكن أن أصدّق.

خليستاكـوف: وافق، وافق. أنا إنسان نزق، أقدم على كلّ شيء، إذا أطلقت النار على نفسي ستُقدّم إلى المحكمة.

حاكم المدينة: آه، يا إلهي! لستُ، والحقّ، ملوماً في هذا لا بالقلب ولا بالجسـد، لا تغضبـوا، ولكم أن تتصرفوا كما تشـاؤون. فإن في رأسي الآن، في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف ماذا يحصل. صرت بليداً إلى حد لم أكن عليه من قبل.

آنا آندرييفنا: طيّب، بارك!

(خليستاكوف يقترب مرافقاً ماريا أنتونوفنا).

حاكم المدينة: الله يبارككما، وما أنا بملوم!

(خليستاكوف و ماريا أنتونوفنا يتبادلان القبل. حاكم المدينة ينظر إليهما).

أي شـيء هـذا! في الواقع! (يفـرك عينيه) يتبـادلان القُبل! آه، يا أوليـاء، يتبـالادن القبـل! خطيب حقيقـي! (يصيح، وهـو يقفز من الفرح).. حلو، يـا أنتون! حلو يا أنتون! حلو، يا حاكم المدينة! هذه في النتيجة!

المشهد السادس عشر

(نفس الأشخاص وأوسيب).

أوسيب: الخيول جاهزة.

خليستاكوف: آه، طيب... أنا حالاً.

حاكم المدينة: كيف؟ تسافرون؟

خليستاكوف: نعم، أسافر.

حاكم المدينة: ومتى يعني... أنتم أنفسكم، أظنّ، لمّحتم إلى الزفاف؟

خليستاكوف: ولكن هذا... لدقيقة واحدة فقط... ليوم واحد إلى عمّي، العجوز الثري، وغداً ساعود.

حاكم المدينة: لا نجرؤ على إعاقتكم، أملاً في عودة ميمونة.

خليستاكوف: بالطبع، بالطبع، بسرعة البرق، مع السلامة، يا حبّي... لا، غير قادر على التعبير! مع السلامة، يا روحي! (يقبّل يدها)..

حاكم المدينة: ألا تحتاجون شيئاً للطريق؟ ربّما تحتاجون إلى فلوس؟

خليستاكوف: لا، أبداً، ولِمَ هذا؟ (بعد تفكير قصير).. على العموم ممكن.

حاكم المدينة: كم تريدون؟

خليستاكوف: أعطيتموني مائتين، أقصد أربعمئة لا مائتين، لا أريد أن أستغلّ خطأك. والآن، أعتقد نفس المبلغ، ليصير ثمانمئة بالضبط.

حاكم المدينة: حالاً!.. (يخرج من محفظته النقود).. وهذه خصيصاً أجدّ النقود الورقية.

خليستاكوف: أي، نعم! (يأخذ النقود ويعاينها) هذا لطيف. يقولون النقود الورقية الجديدة تجلب سعادة جديدة.

حاكم المدينة: بالضبط.

خليستاكوف: مع السلامة، يا أنتون أنتونوفيتش.! ممنون جدّاً على حسن الضيافة. وأعترف بكلّ قلبي: لم أحظ أبداً بمثل هذا الاستقبال اللطيف في أي مكان، مع السلامة، يا آنا آندريفنا: مع السلامة، يا روحي يا ماريا أنتونوفنا:

(يخرج الجميع).

(من وراء المسرح).

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا ملاك روحي، ماريا أنتونوفنا.

صوت حاكم المدينة: كيف هذا منكم؟ هل تسافرون على عربة بريد اعتيادية؟

صوت خليستاكوف: نعم، تعوّدت على ذلك. يصيبني صداع من العربة ذات النوابض.

صوت الحوذي: ترر....

صوت حاكم المدينة: على الأقل لو فُرشت بشيء، ولو ببساط صغير، هل آمر بجلب بساط؟

صوت خليستاكوف: لا، ولماذا؟ لا أهمية لذلك، ولكن على العموم، ممكن، ليجلبوا بساطاً.

صوت حاكم المدينة: يا آفدوتيا! اذهبي إلى حجرة المتاع، واخرجي منها أحسن بساط، الفارسي، الأزرق، أسرعي!

صوت الحوذي: ترررر...

صوت حاكم المدينة: متى سننتظركم؟

صوت خليستاكوف: غداً أو بعد «غدرون».

صوت أوسيب: آ.... هـذا بساط؟ هاتيه إلى هنا، افرشيه هكذا! والآن لنضع التبن من هذا الجانب.

صوت الحوذي: ترررر....

صوت أوسيب: من هـذا الجانب! إلى هنا! أكثر! كفاية! ستكون مريحة جدّاً! (يضرب البساط بيده). والآن، اجلس يا صاحب النبالة.

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا أنتون أنتونوفيتش.

صوت حاكم المدينة: مع السلامة، يا صاحب السيادة!

صوتان نسائيان: مع السلامة، يا إيفان ألكسندروفيتش!

صوت خليستاكوف: مع السلامة، يا ماما!

صوت الحوذي: هيَّا، يا خِفاف!

(صوت جرس، الستارة تنزل).

الفصل الخامس

(نفس الحجرة).

المشهد الأول

(حاكم المدينة، آنا آندرييفنا، ماريا أنتونوفنا).

حاكـم المدينة: مـاذا، يا آنـا آندرييفنا؟ ها؟ هـل خطر ذلك على بالـك؟ أية جائزة ثمينة، يـا للعنة! اعترفي بصراحة أن ذلك لم يراودك حتّـى في الحلم. مجرّد زوجة حاكم مدينة وفجأة.... يا للعنة! ... مع مَنْ تناسبت!

آنا آندرييفنا: على العكس تماماً كنت أعرف ذلك منذ زمان! أنتَ الذي انبهرت به، لأنكَ رجل بسيط، لم تر الناس المعتبرين قطّ.

حاكـم المدينة: أنا نفسي إنسان معتبر، يـا ستّي. ومع ذلك، يا آنا آندرييفنا، إلى أيـن حلّقنا أنا وأنتِ! ها يا آنا آندرييفنا.؟ تحليقة عالية، وحـقّ الشيطان! لينظروا الآن كيف سأشيِّط كلّ هؤلاء المحبّين لتقديم الشكاوى والوشايات! هاي، يا مَنْ هناك.

(يدخل شرطي).

هـذا أنت، يا إيفـان كاربوفيتش! استدع التجّـار إلى هنا، يا أخ، سـأُري هؤلاء المحتالـين! يتشكّون منّي؟ هكذا يتصرفـون، يا خونة المسيح الملاعين! انتظروا يا حلوين! من قبل كنتُ أكيل لكم بالصاع،

والآن سأكيل لكم بالصاع والذراع. سجِّل كلَّ الذين كانوا يأتون للتشكّي منّي، وفي المقدّمة أولئك الذين شخبطوا له العرائض، والشكاوى وأبلغ الجميع ليعرفوا ما أرسل الربّ من فضل على حاكم المدينة ليزف ابنته لا إلى رجل بسيط، بل إلى رجل لم تر الدنيا مثيلاً له من قبل، قادر على أن يفعل كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء! أبلغ الجميع ليعرفوا ذلك. اهتف في الناس جميعاً، دقّ الناقوس، ياه! إذا حلَّ عيد، فأهلاً به.

(الشرطي يخرج)

هكذا إذاً، يا آنا آندرييفنا: ها؟ أين سنعيش الآن؟ هنا أم في بطرسبورغ؟

آنا آندرييفنا: طبيعي في بطرسبورغ. وكيف يمكن أن نبقى هنا!

حاكم المدينة: ما دام في بطرسبورغ، فليكن في بطرسبورغ ولو أن العيش طيّب، هنا أيضاً، في هذه الحال ليذهب منصب حاكمية المدينة إلى سقر، ها، يا آنا آندرييفنا؟

آنا آندرييفنا: طبيعي، وما قيمته!

حاكم المدينة: لأنّ في الإمكان الآن اقتناص وظيفة كبيرة، لأنّه على قدم المساواة مع جميع الوزراء، ويزور القصر أيضاً، ولهذا يمكنه أن يرقّيني ترقية كبيرة، حتّى أصل إلى رتبة جنرال بمرور الزمن. ما رأيك، يا آنا آندرييفنا، هل يمكن الوصول إلى رتبة جنرال؟..

آنا آندرييفنا: وكيف لا! ممكن، بالطبع.

حاكم المدينة: ياه، روعة أن يصير الإنسان جنرالاً! فيعلّقون وشاح وسام على كتفه. أي وشاح تفضّلين، يا آنا آندرييفنا: أحمر أم أزرق؟

آنا آندرييفنا: أزرق، بالطبع.

حاكم المدينة: ها؟ بالغتِ في مطلبكِ! الأحمر أيضاً جيّد. هل

تعرفين لماذا أريـد أن أصير جنرالاً؟ لأنّه يحدث أن يسافر الجنرال فلا يـرى أمامه غـير رُسُل الحكومة والمرافقين يسبقونـه يطلبون الخيول. بينمـا في المحطات لا يعطون الخيول إلا لهم، والجميع ينتظرون. كلّ هـؤلاء الموظّفين الصغـار والضباط برتبة رائد، وحـكّام المدن. بينما لجـنرال مطمئنّ البال. يتناول غـداءه عند حاكم الولايـة، أما أنتَ، يـا حاكـم المدينة، فابـق في مكانك وانتظر! ها، هـا، ها! (يغرق في الضحك). يا للعنة هذا شيء مغر!

آنـا آندرييفنا: أنتَ مولع بالفجّ دائمـاً. عليكَ أن تتذكّر أن عليك أن تغـيّر حياتـك كلياً، فلا تصاحـب قاضياً مولعـاً بالكلاب تخرج لاصطيـاد الأرانـب معـه، أو زيملانيـكا بـل على العكـس سيكون أصحابك من ذوي السلوك الرقيق، الكونتات وكلّ وجهاء القوم.... ولكنّني خائفة عليك، حقّاً. أنتَ أحياناً تتفوه بكلمة لن تسمعها أبداً في المجتمع الراقي.

حاكم المدينة: ثمّ ماذا؟ الكلمة لا تضرّ.

آنا آندرييفنـا: هذا صحيح، حين كنتَ حاكم المدينة ولكن الحياة مختلفة تماماً هناك.

حاكم المدينة: نعـم، يقولون هناك صنفان مـن السمك يجعلان لعابك يسيل، حالما تبدئين بالأكل.

آنـا آندرييفنـا: لا همّ له غير السمـك. بينما أريـد أن يكون بيتنا الأوّل في العاصمـة، وأن تفوح رائحة العنـبر في حجرتي بشكل لا يستطيـع الإنسان أن يدخل فيهـا دون أن يقلّص عينيه هكذا (تقلّص عينيها وتتشمّم). آه، ما ألطفه!..

المشهد الثاني

(الشخصان ذاتهما مع التجار).

حاكم المدينة: آ.... مرحباً، يا أحبابَ!

التجار (ينحنون): حياكم الله، يا مولانا!

حاكم المدينة: كيف الأحوال، يا أعزائي! كيف تسير تجارتكم؟ شكوتم يا خاملون يا خردوات؟ يا جذور النصب، وثعالب الاحتيال، وأوباش الخداع! شكوتم؟ وهل حصلتم على الكثير؟ تتصوّرون أنّكم ستزجّونني في السجن! هل تعرفون، يا نسل الشياطين، يا ضرع الجرب أن...

آنا آندرييفنا: آه، يا إلهي، ما هذه الكلمات التي تقولها، يا عزيزي أنتون!

حاكم المدينة (باستياء): لستُ معنياً بالكلمات الآن! هل تعرفون أن الموظّف الذي شكوتم عنده سيتزوّج ابنتي الآن؟ ها؟ ماذا؟ ماذا تقولون الآن؟ سأريكم الآن... تحتالون على الناس... تعقدون مقاولة لتزويد الحكومة، فتخدعونها بمئة ألف، حين تدسّون لها جوخاً متهرّئاً، وبعد ذلك تتنازلون بعشرين ذراعاً هبة، وفوق ذلك تطالبون بوسام؟ آه، لو كانوا يعرفون، إذاً... الواحد منهم ينفخ كرشه ليقول أنا تاجر، فلا تمسني. «نحن لا نقل شأناً حتّى عن النبلاء.» ولكن النبيل... آه، الأوغاد! النبيل يدرس العلوم، وإذا جلدوه في المدرسة، فذلك عن فائدة، ليعرف ما هو النافع. وأنتم؟ تبدؤون حياتكم محتالين، وصاحب المال يضربكم إذا لم تحسنوا

الاحتيال ومنذ الصغر، وقبل أن تعرفوا «أبانا الذي في السماوات!» تطففون بالذراع، وحالما تكبر كروشكم، وتمتلئ جيوبكم بالمال، تختالون عظمة! تفو عليكم أية عظمة هذهَ! تختالون عظمة، لأن الواحد منكم يشرب ستّة عشر سماوراً من الشاي في اليوم؟ بصقة على رؤوسكم وعلى عظمتكم!

التجّار (ينحبون): مذنبون، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: تشتكي؟ مَنْ ساعدكَ على الغشّ، حين بنيت جسراً، وسجّلت عشرين ألف قيمة خشب، بينما لم يكلّفك الخشب حتّى مئة روبل؟ أنا الذي ساعدتكَ، يا ذقن العنزة! هل نسيت هذا؟ لو شهدت بذلك عليك، لأمكن أن تُنفى أنتَ أيضاً إلى سيبيريا. ما رأيك؟ ها؟

أحد التجّار: مذنبون أمام الربّ، يا أنتون أنتونوفيتش. وسوس لنا الشيطان. ولن نشكو بعد الآن ونعاهدك على ذلك. خذ أي تعويض ولكن لا تغضب!.

حاكم المدينة: لا تغضب الآن اركع أنتَ على قدميّ. ولماذا؟ لأن كفتي هي التي رجحت. ولو كان الرجحان مال إلى كفّتك قليلاً، لكنت، أيّها النصّاب، مرّغتني بالوحل، بل ودست على خناقي.

التجّار: (يكبون على قدميه). لا تتشدّد معنا، يا أنتون أنتونوفيتش!

حاكم المدينة: لا تتشدّد! الآن لا تتشدّد! وقبل؟ كنت سأريكم... (يلوح بذراعه). ولكن ليسامحكم الربّ! كفى! أنا لا أضمر حقداً لأحد. ولكن خذوا حذركم الآن! أنا لا أزوّج ابنتي لنبيل اعتيادي. فلتكن التبريكات على قدّ المقام... فاهمون؟ لا دفع الشر بسمكة سلمون مملحة أو رأسلآ سكّر... طيب، اخرجوا، عفا الله عنكم!..

(التجّار يخرجون).

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص، و أمّوس فيدروفيتش وأرتيمي فيليبوفيتش وبعد ذلك راستاكوفسكي).

أمّوس فيدروفيتش (وهو ما يزال عند الباب): هل أصدّق بالشائعات يا أنتون أنتونوفيتش؟ صحيح أنّ سعادة غير مألوفة هلّت عليك؟

أرتيمي فيليبوفيتش: أتشرّف بالتهنئة بهذه السعادة غير المألوفة. فرحت من كلّ قلبي، حين سمعت. (يلثم يد آنا آندرييفنا). آنا آندرييفنا! (يلثم يد ماريا أنتونوفنا). ماريا أنتونوفنا!

راستاكوفسكي (يدخل): تهانيٍّ. يا أنتون أنتونوفيتش! أطال الله عمركم وعمر الزوجين الجديدين، ومنحكم ذرية كثيرة، أحفاداً! آنا آندرييفنا.! (يلثم يد آنا آندرييفنا).. ماريا أنتونوفنا (يلثم يد ماريا أنتونوفنا).

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص وكوروبكين وزوجته، وليوليوكوف).

كوروبكين: أتشرّف بالتهنئة، يا أنتون أنتونوفيتش.! آنا آندرييفنا (يلثم يد آنا آندرييفنا). ماريا أنتونوفنا! (يلثم يد ماريا أنتونوفنا).

زوجة كوروبكين: أهنّئك من كلّ قلبي، يا آنا آندرييفنا بالسعادة الجديدة.

ليوليوكوف: أتشرّف بالتهنئة، يا آنا آندرييفنا (يلثم يدها، وبعد ذلك يدير وجهه إلى المتفرّجين، ويتمطق بلسانه إمارة على الجسارة). ماريا أنتونوفنا.! أتشرّف بالتهنئة. (يلثم يدها، ويدير وجهه إلى المتفرّجين بنفس الإمارة)..

المشهد الخامس

(عدد كبير من الضيوف في السترات الرسمية والفراك يلثمون في البداية يد آنـا آندريـفنا قائلين: «آنا آندرييفنا!» وبعد ذلك يـد ماريا أنتونوفنا قائلين: «ماريا أنتونوفنا»).

(شق بوبتشينسكي ودوبتشينسكي طريقهما بين الضيوف).

بوبتشينسكي: أتشرّف بالتهنئة.

دوبتشينسكي: أنتون أنتونوفيتش، أتشرّف بالتهنئة!

بوبتشينسكي: بالخير واليمن!

دوبتشينسكي: آنا آندرييفنا!

بوبتشينسكي: آنا آندرييفنا!

(الاثنان يتقدّمان في وقت واحد فيتصادمان بالجبين).

دوبتشينسكي: ماريـا أنتونوفنا! (يلثم يدهـا). أتشرّف بالتهنئة. ستريـن عزّاً، عزّاً كبيراً، وتلبسين ثوباً مذهّبـاً، وتأكلين أصنافاً مختلفة من الحساء المترف، وستقضين وقتاً غاية في المتعة.

بوبتشينسكـي: (يقاطعه) ماريا أنتونوفنـا أتشرّف بالتهنئة! كتب الله لـكِ كلّ الثراء والمال النفيس وطفلاً صغيراً بهذا القدّ (يشير بيده حتّى يمكن أن يوضع على الكفّ، نعم! وطوال الوقت يصيح: واع! واع! واع!...

المشهد السادس

(بعض الضيوف الآخرين يلثمون أيدي المرأتين، لوكا لوكيتش وزوجته).

لوكا لوكيتش أتشرّف....

زوجة لوكا لوكيتش (تسبق زوجها راكضة). أهنّئك، يا آنا آندرييفنا!

(تقبّلها).

كم فرحت حقّاً، يقولون لي «آنا آندرييفنا تزوج ابنتها». فأقول في نفسي: «آه، يا إلهي!» وفرحت كثيراً، وأقول لزوجي: «اسمع، يا لوكا لوكيتش العزيز ما أسعد حظّ آنا آندرييفنا.!» وأقول لنفسي: «طيّب، حمداً لله!» وأقول له: «أنا في غاية الابتهاج تحرقني اللهفة لأعرب لآنا آندرييفنا شخصياً.... وأقول لنفسي: «آه، يا إلهي! آنا آندرييفنا بالفعل كانت تنتظر زيجة موفقة لابنتها، والآن جاء هذا الحظّ. تحقّق ماكانت تريده بالضبط». وفرحت بالفعل فرحة شلّت لساني، فأبكي، وأبكي، وتأخذني العبرة فأنتحب تماماً. ويقول لوكا لوكيتش «لماذا تنتحبين، يا عزيزتي؟» فأقول: «يا عزيزي أنا نفسي لا أدري ولكن الدموع تفيض من عيني أنهاراً».

حاكم المدينة: أرجوكم حارّ الرجاء، يا سادة، أن تجلسوا! يا ميشكا، اجلب مقاعد أكثر.

(الضيوف يجلسون).

المشهد السابع

(نفس الأشخاص، رئيس الشرطة، رجال الشرطة).

رئيس الشرطة: أتشرّف بتهنئتكم، يا صاحب النبالة، وأتمنّى اليمن والرفاه لسنين طويلة!

حاكم المدينة: شكراً، شكراً، أرجو أن تجلسوا يا سادة.

(الضيوف يتخذون مقاعدهم).

أمّوس فيدروفيتش: ولكن قل لي، أرجوك، يا أنتون أنتونوفيتش. كيف بدأ كلّ هذا، مجرى كلّ هذا، أقصد، مجرى الأمر، بالتسلسل.

حاكم المدينة: مجرى الأمر استثنائي. هو الذي طلب يدها من تلقاء نفسه.

آنا آندرييفنا: بطريقة مهذّبة جدّاً، وغاية في الرقة. ظلّ يتكلّم بفصاحة استثنائية. يقول: «أنا، يا آنا آندرييفنا من احترامي فقط لمكارمكم...»، رجل رائع مثقّف بأنبل الأصول! «ثقي، يا آنا آندرييفنا أن الحياة بالنسبة لي شيء تافه، مجرّد أنّني أحترم خصالكم النادرة».

ماريا أنتونوفنا: آه، ماما! هذا الكلام قاله لي.

آنا آندرييفنا: قفي عند حدّك، أنتِ لا تعرفين شيئاً، فلا تتدخّلي بما لا يعنيكِ! «آنا آندرييفنا مندهش، يا آنا آندرييفنا...» كان يتدفّق بمثل هذه الكلمات المريحة للنفس.... وحين أردتُ أن أقول: «لا يمكن أن نجرأ على الطموح إلى مثل هذا الشرف»، ركع فجأة، وبطريقة غاية في النبل: «يا آنا آندرييفنا لا تجعليني تعيساً! وافقي على

الاستجابة لمشاعري، وإلا فسأنهي حياتي».

ماريا أنتونوفنا: حقاً، يا ماما، هذا الكلام قاله عني.

آنا آندرييفنا: نعم، بالطبع... وعنكِ أيضاً، وأنا لا أنكر هذا قطّ.

حاكم المدينة: بل وأفزعنا، حين صار يقول: سأطلق الرصاص على نفسي. هكذا: «سأرمي نفسي، سأرمي نفسي!».

الكثير من الضيوف: عجيب!

أمّوس فيدروفيتش: حكاية عجيبة!

لوكا لوكيتش: حقاً، هكذا أراد القدر.

أرتيمي فيليبوفيتش: ليس القدر فالقدر أعمى، ولكنّها المؤهلات. (جانباً) الحظّ دائماً يضع اللقمة في فمّ من لا يستحقّها.

أمّوس فيدروفيتش: أعتقد، يا أنتون أنتونوفيتش. أنّني سأبيعك الكلب الذي أردت أن تشتريه.

حاكم المدينة: لا، لا تهمّني الكلاب الآن.

أمّوس فيدروفيتش: لا تريد هذا، تعال نتّفق على كلب آخر، إذاً.

زوجة كوروبكين: آه، يا آنا آندرييفنا كم أنا مسرورة بسعادتكم! لا يمكن أن تتصوّري.

كوروبكين: أين الضيف المبجّل الآن، إذا سمحتم أن نعرف؟ سمعت أنّه سافر لغرض ما.

حاكم المدينة: نعم، سافر ليوم واحد. في شأن غاية الأهمية.

آنا آندرييفنا: إلى عمّه يطلب مباركته.

حاكم المدينة: يطلب مباركته، ولكنّه غداً... (يعطس).

(التمنيات بالصحة[1] تنصب في طنين واحد)

شكراً كثيراً! ولكنّه غداً سيعود... (يعطس)

(طنين التمنيات، تسمع من خلاله أصوات أقوى).

صوت مدير الشرطة: عامر الصحّة، يا صاحب النبالة.

صوت بوبتشينسكي: مئة عام من العمر، وشليفاً من الذهب.

صوت دوبتشينسكي: أطال الله عمرك!

صوت أرتيمي فيليبوفيتش: في داهية!

صوت زوجة كوروبكين: يخطفك الشيطان!

حاكم المدينة: شكراً جزيلاً! أتمنّى لكم نفس التمنيات.

آنا آندرييفنا: ننوي الآن الإقامة في بطرسبورغ. الهواء هنا، بصراحة، قروي أكثر من اللازم!... إزعاج كبير، بصراحة... وزوجي أيضاً سيحصل هناك على رتبة جنرال.

حاكم المدينة: نعم، بصراحة، يا سادة، أودّ من كلّ قلبي أن أكون جنرالاً، وحقّ الشيطان.

لوكا لوكيتش: طيب، جعل الله هذه الرتبة من نصيبك.

راستاكوفسكي: إذا كان الإنسان غير قادر، فالله قادر.

أمّوس فيدروفيتش: أمام المركب الكبير رحلة كبيرة.

أرتيمي فيليبوفيتش: لكل ما يستحقه.

أمّوس فيدروفيتش: (جانباً). أعجوبة، لو يصير جنرالاً بالفعل! لأنّ الجنرالية تليق به، بقدر ما يليق السرج ببقرة! ولكن، لا يا أخ، ما

(١) عندما يعطس الإنسان يقال له، حسب العادة الروسية القديمة: «مشافي» أو «عندك العافية» المترجم.

يزال الشوط بعيداً. هناك مَنْ أكثر جدارة منك، و لم يصيروا جنرالات حتّى الآن.

أرتيمي فيليبوفيتش: (جانباً) أوه، عليه اللعنة، يرنو إلى الجنرالية! ولكن مَنْ يدري فقد يصير جنرالاً، لأنّ له، الملعون، ما يكفي من العظمة. (يخاطبه). إذاً، يا أنتون أنتونوفيتش. لا تنسنا، نحن أيضاً.

أمّوس فيدروفيتش: وإذا حصل شيء، كأن نحتاج إلى مساعدة في أشغالنا، فلا تتركنا بلا حمايتك.

كوروبكين: في السنة القادمة سآخذ ابني إلى العاصمة بخدمة الدولة، فاعمل معروفاً، واشمله برعايتك. وكن في مقام أبيه الغائب.

حاكم المدينة: أنا مستعدّ من ناحيتي، مستعدّ لأبذل الجهد.

آنـا آندرييفنا: أنتَ، يا عزيزي، دائماً مستعدّ لبذل الوعود. أوّلاً، لن يكون لكَ الوقت للتفكير بذلك. فكيف يمكن ، وبأي موجب، ترهق نفسكَ بهذه الوعود.

حاكم المدينة: ولماذا، يا روحي؟ يمكن أحياناً.

آنـا آندرييفنا: يمكن، بالطبع، ولكن الرعاية لا تقدّم لكل من هبّ ودبّ.

زوجة كوروبكين: هل سمعتم كيف تنظر إلينا؟

إحدى النساء: كانت دائماً بهذا الشكل، أنا أعرفها. إذا أجلستها إلى مائدة، وضعت عليها رجليها أيضاً...

المشهد الثامن

(نفس الأشخاص، يدخل مأمور البريد باستعجال وفي يده رسالة مفضوضة).

مأمور البريد: أمر مذهل، يا سادة! الموظّف الذي حسبناه مفتشاً عاماً. لم يكن مفتّشاً عامّاً.

الجميع: كيف لم يكن؟

مأمور البريد: لم يكن مفتّشاً عامّاً على الإطلاق. وقد عرفت ذلك من الرسالة.

حاكم المدينة: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ من أي رسالة؟

مأمور البريد: من رسالة بخط يده. جاءوا بهذه الرسالة إليّ في البريد. وأنظر إلى العنوان فأرى «إلى شارع البريد».

فشعرت بمثل دبيب النمل في جسمي، وقلت لنفسي: «آها، أظنّه عثر على خروق في قسم البريد، فكتب يبلغ الرئاسة». وفكّكت الختم.

حاكم المدينة: كيف فعلت هذا؟

مأمور البريد: أنا نفسي لا أدري، قوة شريرة دفعتني.

وكنت قد دعوت رسولاً ليحمل الرسالة على جناح السرعة. ولكن فضولاً قوياً استولى عليّ، لم أشعر بأنني لن أصمد ولن أقاوم، هناك شيء يغريني ويغريني! في إحدى أذنيَّ أسمع هاتفاً يقول لي: «يا أنت لا تفكها. سيُقضى عليك، كما يُقضي على دجاجةٍ»؛ وفي الأذن الأخرى أسمع شيطاناً يهمس لي: «فكّها، فكّها، فكّها!»

وحالما ضغطت على شمع الختم، حتّى أحسست بالنار في عروقي. ولكنّني فضضته. وشعرت بقشعريرة، وحقّ الربّ، بقشعريرة. ويداي ترتعشان وكل شيء غام.

حاكم المدينة: ولكن كيف تجاسرت على فض رسالة شخصية مفوّضة مثله؟

مأمور البريد: هذه هي المسألة، ليس هو مفوّضاً، ولا شخصية.

حاكم المدينة: ومَنْ هو، إذاً، في اعتقادك؟

مأمور البريد: لا بالعير، ولا بالنفير. الشيطان يعلم أي شيء هو!

حاكم المدينة (مغتاظاً): كيف لا بالعير ولا بالنفير؟ كيف تجسر أن تنعته لا بالعير ولا بالنفير؟ وتقول أيضاً الشيطان يعلم أي شيء هو؟ سأعتقلك...

مأمور البريد: مَنْ؟ أنتَ؟

حاكم المدينة: نعم، أنا!

مأمور البريد: باعك قصير، فلا يصل!

حاكم المدينة: هل تعرف أنه سيتزوج ابنتي، وأنّني أنا سأصير صاحب مقام كبير، وأزجّك حتّى في سيبيريا؟

مأمور البريد: آه، يا أنتون أنتونوفيتش. أي سيبيريا؟ سيبيريا بعيدة. الأحسن أن أقرأ لك. أيّها السادة! هل تسمحون بأن أقرأ الرسالة؟

الجميع: اقرأ، اقرأ!

مأمور البريد (يقرأ): «أسرع بأن أبلغك، يا عزيزي تريابيتشكين، بالعجائب التي وقعت لي، في الطريق نظفني رائد مشاة من كلّ نقودي، حتّى أن صاحب الحانة أراد أن يرسلني إلى السجن. وفجأة، ومن سحنتي البطرسبورغية ومن بزّتي تحسبني المدينة كلّها جنرالاً وإليا!... وأنا الآن أعيش في بيت حاكم المدينة وأتمتّع بلذائذ

الحيـاة وأغازل زوجته وابنتـه، كما أشتهي، سوى أنّنـي لم أقرّر بعد بمـن أبدأ. واظنّنـي سأبدأ بالأمّ، لأنّها، كما يبـدو، مستعدّة في الحال لكلّ الخدمات، هل تذكر كيف أصابنا الفقر، فكنا نتغدّى متطفّلين، وذات مـرّة أمسكني حلواني من تلابيبي، بسبـب قطع الحلوى التي أكلتها علـى حساب ملك الإنقليز؟ الآن تختلف الحال تماماً. الجميع يقرضوننـي المبالـغ التـي أريدها. نمـاذج عجيبة. تجعلـك تموت من الضحـك. أنا أعرف أنّك تكتب مقـالات، فأدخل هذه النماذج في أدبك. أوّلاً: حاكم المدينة: أبله مكعَّب....»

حاكم المدينة: غير ممكن! لا وجود لهذا في الرسالة.

مأمور البريد: (يشير إلى الرسالة). اقرأ بنفسك.

حاكم المدينة (يقرأ): «مكعَّب» غير ممكن! أنتَ كتبتَ هذا.

مأمور البريد: وكيف أمكن أن أكتب؟

أرتيمي فيليبوفيتش: إقرأ.

لوكا لوكيتش: إقرأ.

مأمور البريد (يستأنف القراءة): « حاكم المدينة: أبله مكعَّب...»

حاكـم المدينة: أوه، اللعنة! لازم أن يعيدها أيضاً؟ وكأنّ ذلك غير موجود فيها أصلاً.

مأمـور البريـد (يستمـر في القـراءة): ... إحـم.... إحـم.... إحـم.... «مكعب. ومأمور البريد رجل طيـب أيضاً....» (يتوقّف عن القراءة). طيّب، عنّي أيضاً يوجد تعبير غير محتشم.

حاكم المدينة: لا، اقرأه!

مأمور البريد: ولكن ما الجدوى؟

حاكم المدينة: لا، عليك اللعنة، إذا كنت تقرأ، فاقرأ كلّ شيء!

أرتيمي فيليبوفيتش: اسمحوا أن أقرأ أنا. (يضع نظّارته، ويقرأ)، «مأمور البريد: نسخة طبق الأصل من حارس المديرية ميخييف. الرذيل سكير أصيل، كما أعتقد.»

مأمور البريد (نحو المتفرّجين): أوه، صبي حقير، يستحقّ الجلد، ولا أكثر!..

أرتيمي فيليبوفيتش: (مواصلاً القراءة) «راعي المؤسسات الخيرية ... يـ... يـ... يـ... يـ...» (يصيبه حصر في الكلام)..

كوروبكين: ولماذا توقّفتَ؟

أرتيمي فيليبوفيتش: الخطّ غير واضح. على العموم يبدو أنّه سافل.

كوروبكين: هاتها لي! أظنّ بصري أقوى! (يمسك الرسالة).

أرتيمي فيليبوفيتش: (لا يتركها له).. هذا الموضع يمكن أن يفوَّت، وبعده يصير الخطّ واضحاً.

كوروبكين: ولكن اسمح. أنا أعرف.

أرتيمي فيليبوفيتش: أقدر أن أقرأ أنا أيضاً. يتوضّح الخطّ بعد ذلك، بالفعل.

مأمور البريد: لا، إقرأ كلّ شيء! السابق كلّه قُرِئَ.

الجميع: أعطها، يا أرتيمي فيليبوفيتش: أعطِ الرسالة، (لكوروبكين). إقرأها.

أرتيمي فيليبوفيتش: الآن. (يعطي الرسالة).. خذها.... (يغطيها بإصبعه).. إقرأ من هنا.

(الجميع يتقدّمون منه).

مأمور البريد: إقرأ، إقرأ! سخافة، إقرأ كلّ شيء!

كوروبكين (يقـرأ): «راعي المؤسسات الخيريـة زيملانيكا خنزير حقيقي في قبّعة مدوّرة»

أرتيمي فيليبوفيتشـ: (إلى المتفرّجين). تنقصه الحذاقة في التعبير! هل يوجد خنزير في قبّعة مدوّرة؟

كوروبكـين (مستمـرّاً في القـراءة): «ناظر المدرسـة مشبّع كليّة برائحة البصل».

لـوكا لوكيتش (إلى المتفرّجـين): قسماً بـالله، لم أضع البصل في فمّي قطّ.

أمّوس فيدروفيتش: (جانباً). حمداً لله، أنّه لم يمسّني، على الأقل.

كوروبكين (يقرأ): «القاضي....»

أمّوس فيدروفيتش: رأسـاً... (بصوت مسموع).. أيّها السادة، أظنّ الرسالة طويلة، ثمّ أيّة أهمية لها، نقرأ مثل القذارة.

لوكا لوكيتش: لا!

مأمور البريد: لا، إقرأ.

أرتيمي فيليبوفيتش: لا، واصل القراءة!

كوروبكـين (مواصلاً): «القاضي ليابكين تيابكين موفي تون في أشدّ درجة...»(١) (يتوقّف) يبدو أنها كلمة فرنسية.

أمّوسـ فيدروفيتش: الشيطان يعرف ماذا تعني! لا بأس لو كانت تعني نصّاباً، ولكن ربّما أسوأ من ذلك.

كوروبكـين (يواصـل القـراءة): «ولكـن الناس، علـى العموم

(١) عن الفرنسية mauvais ton وتعني التناغم السيئ أو النشاز، وقد استخدمها غوغول للتعبير عن إنسان غير المثقّف والذي لا يحسن التصرف في المجتمع. المعرب.

مضيافـون، لطفـاء، وداعاً، يا عزيـزي تريابيتشكين. أنـا أيضاً أريد أن أحتذيـك وأمارس الأدب. فالعيش بهـذا الشكل مضجر، يا أخ. والإنسان، في آخر الأمر، يريد غذاء لروحه. وأرى من الضروري حقّاً أن يمارس الإنسان شيئاً، أكتب لي إلى ولاية ساراتوف. ومن هناك إلى قرية بودكاتيليفكا. (يقلّب الرسالة، ويقرأ العنوان). إلى حضرة السيد المحـترم إيفان فاسيليفتش تريابيتشكين، سانـت بطرسبورغ، شارع البريد، رقم البيت ٩٧، في الفناء، الطابق الثالث إلى اليمين».

إحدى النساء: أية عاقبة غير متوقعة.

حاكـم المدينة: طعن فأصاب المقتل! فأنا الآن قتيل، قتيل تماماً! لا أرى شيئـاً. أرى خطوماً خنزيرية بدلاً من الوجوه، ولا شيء آخر... أعيدوه، أعيدوه! (يلوّح بيده).

مأمور البريد: هيهـات، أن يُعاد! أنا نفسي أوعزت للمشرف على المحطـة خصيصاً بـأن يعطيه أحسـن الخيول. الشيطـان وسوس لي فأعطيت توجيهات مماثلة على طول الطريق.

زوجة كوروبكين: ورطة، بالضبط، ورطة فريدة!

أمّوس فيدروفيتش: خسارة، يا سادة، تسلّف منّي ثلاثمئة روبل.

أرتيمي فيليبوفيتش: ومني أيضاً ثلاثمئة روبل.

مأمور البريد (يزفر): أوه! و مني أيضاً ثلاثمئة روبل.

بوبتشينسكـي: ومنّي ومن بيـتر إيفانوفيتش خمسـة وستّين من النقد الورقي. نعم.

أمّوس فيدروفيتشـ: (يبسط يديه بحيرة). كيـف هذا، يا سادة؟ كيف انجرفنا إلى هذا، حقيقة؟

حاكـم المدينـة (يضـرب جبينـه): وكيف أنـا، الأبلـه العجوز؟ خرّفت، أنا التيس الأخرق! منذ ثلاثين سنة وأنا في الوظيفة، دون أن

يقدر تاجر أو مقاول على التغرير بي. كنت أخدع النصّابين وأساتذة النصّابين، وأوقع بالمصيدة المخاتلين والمحتالين المستعدّين لسلب العالم كلّه. خدعت ثلاثة من حكّام الولايات!... وما أسهل ذلك! (يشمر ذراعه).. خداع حكام الولايات لا يستحقّ حتّى الإشارة...

آنا آندرييفنا: ولكن هذا غير ممكن، يا عزيزي، أعلن خطبته على ابنتنا.

حاكم المدينة: (في غضب). أعلن خطبته! انقعي الخطبة واشربيها، فقد تنفعك! تخشّ في عيني بالخطبة!...(في غاية التهيّج). انظروا، انظروا، العالم كلّه، المسيحية كلّها، انظروا جميعاً، كيف استُهبل حاكم المدينة! اسموه الأهبل، الأهبل، الوغد العجوز! (يلوّح بقبضته مهدّداً نفسه). آه، يا ذا الأنف الضخم! مخطة، خرقة اعتبرتُها رجلاً مهمّاً. وهو الآن ينشر الخبر في الطريق كلّه! وينشر الحكاية في الدنيا كلّها. لا يكفي أن تصير أضحوكة... بل يطلع لك كُوَيْتب أرعن، محبّر ورق، ويضعك في تمثيلية هزلية. هذا هو الموجع! سيهزأ بالرتب والألقاب وسيضحك الجميع، ويصفقون، ممّ يضحكون؟ يضحكون من أنفسكم! آه، الويل لكم!... (يضرب الأرض بقدميه من شدّة الغيظ).. بودّي لو أشد جميع محبّري الورق هؤلاء والكويتبين الرعناء والليبراليين الملاعين أعوان الشياطين. بودّي لو أشدّكم في صرّة، وأطحنكم طحناً، وأحشركم في بطانة الشيطان، بل في قبعته! (يضرب الهواء بقبضته، ويدقّ الأرض بكعبه. وبعد قليل من الصمت). لكنّني لحدّ الآن لم أهدأ، صحيح. إذا أراد الله أن يعاقب أحداً انتزع منه عقله، قبل كلّ شيء. طيّب، أي شيء كان لذلك الأرهن بالمفتّش العامّ؟ لا شيء، حتّى ولا نصف خنصر. ولكن الجميع يهتفون فجأة: المفتّش العامّ! المفتّش العامّ طيّب، مَنْ أوّل مَنْ أشاع أنّه مفتش عامّ؟ أحب أن يتحمل التبعة.

أرتيمي فيليبوفيتش (باسطاً ذراعيه): لا أستطيع أبداً أن أوضح كيف حصل ذلك. كغشاوة غطّت على العيون فجأة، أو وسوسة شيطان.

أمّوس فيدروفيتش: مَنْ أشاع.... هذان الشاطران أشاعا (يشير إلى دوبتشينسكي وبوبتشينسكي).

بوبتشينسكي: والله، لستُ أنا، ولم يخطر ببالي....

دوبتشينسكي: أنا لم... أبداً لا...

أرتيمي فيليبوفيتش: طبعاً، أنتما.

لوكا لوكيتش: طبيعي، جئتما من الحانة كالمجانين «وصل، وصل، ولا يدفع نقوداً....» وجدتما لقطة معتبرة!

حاكم المدينة: بالطبع، أنتما! يا رؤوس الثرثرة في المدينة، أيّها الكاذبان اللعينان!

أرتيمي فيليبوفيتش: يخطفكما الشيطان بمفتشكما العامّ وبحكاياتكما.

حاكم المدينة: لا همّ لكما سوى الجري في المدينة، وإثارة الجميع، أيّها المهذاران اللعينان! تبثّان الأكاذيب، أيّها العقعقان المبربران!

أمّوس فيدروفيتش: المذرّقان اللعينان!

لوكا لوكيتش: الطرطوران!

أرتيمي فيليبوفيتش: برغوثا البحر العفنان!

(الجميع يحيطون بهما).

بوبتشينسكي: لست أنا، والله، هذا بيتر إيفانوفيتش

دوبتشينسكي: لا، يا بيتر إيفانوفيتش أنت أوّل...

بوبتشينسكي: لا، أبداً، كنتَ أنت البادئ....

المشهد الختامي

(نفس الأشخاص مع جندرمة).

الجندرمـة: الموظّف الذي وصل مـن بطرسبورغ بأمر من القيصر يطلب حضوركم في الحال، إنّه نزل في الفندق.

(تنزل هذه الكلمات نزول الصاعقة على الجميع. صوت الدهشة يتدفـق من أفـواه السيدات، المجموعـة كلها تغـيّر أوضاعها فجأة، وتجمد متحجرة).

(حاكـم المدينة يقف في الوسط كالعمود، ذراعاه مبسوطان، ورأسه ملقى إلى الخلـف. وإلى يمينه زوجته وابنته بحركة اندفاعية نحوه في كلّ جسديهما. وإلى جانبهم مأمور البريد وقد تحوّل إلى علامة استفهام، موجهة إلى المتفرّجين، وإلى جانبـه لوكا لوكيتش مذهولاً بطريقة غايـة في السذاجة وإلى جانبه، عند حافـة خشبة المسرح تماماً ثـلاث نساء من المدعوات يلتصـق بعضهنّ ببعض، وقد ارتسم على وجوههن تعبير هجائي إلى أقصى حدّ موجّه مباشرة إلى عائلة حاكـم المدينة.. وإلى يسار حاكم المدينـة. المدينة زيملانيكا مميلاً رأسه قليلاً إلى جنـب، وكأنما يتسمّع لشيء ما، وإلى جانبـه القاضي ملقياً ذراعيه إلى جانبيه، مدلّيـاً جذعه إلى الأرض تقريباً، يحرّك شفتيه، وكأنّما يريد أن يصفر أو يقول: «أردته عوناً فطلع فرعونـاً». وإلى جانبه كوروبكين موجّهاً إلى المتفرّجين عيناً متقلّصـة، وبإيماءة لاذعة إلى حاكم المدينة، وخلفـه، على حافة خشبة المسرح تمامـاً بوبتشينسكـي ودوبتشينسكي وذراعـا أحدهما متّجهتـان إلى ذراعي الآخـر، والفمان فاغـران وعينا أحدهما تبحلقان في عينـي الآخر والضيوف الآخـرون يظلّـون متحجّريـن فقـط، ولدقيقة ونصـف تقريباً تظـلّ الجماعة المتحجّرة على وضعها هذا، وتنزل الستارة).

****

بعد عرض مسرحية جديدة

(رواق مسرح، يظهر من ناحية سلم يؤدي إلى المقصورات والطوابق العلوية، وفي الوسط مدخل إلى القاعة والقسم الخلفي، وفي الناحية الثانية باب خروج. يسمع صوت تصفيق بعيد)..

مؤلف المسرحية[1] (يخرج). كأنني خرجت من حمأة! هذه هي، أخيراً، الهتافات والتصفيقات! المسرح كلّه يهدر!...

هذا هو المجد!... يا رب، كم كان سيخفق قلبي لو كان ذلك قبل سبع أو ثماني سنوات، كم كان سيتحرّك كل شيء في داخلي! ولكن ذلك منذ زمن بعيد. حينذاك كنت شاباً، جريء التفكير كالصبي. حمداً للعناية الإلهية التي تكتب لي أن لا أتذوق المسرات والإطراءات المبكرة! الآن... برد العمر الرشيد يزرع الحكمة في أي إنسان، فتعرف، أخيراً، أن التصفيق لا يعني الكثير. ويصلح أن يكون مكافأة لكل إنسان: للممثل إذا نفذ إلى كل سر الروح والقلب الإنساني، وللراقص إذا بلغ القدرة على الترميز بالقدمين، وللحاوي أيضاً، لكل هؤلاء يتصاعد التصفيق! سواء للرأس وهو يفكر، أو للقلب وهو يشعر، أو لأعماق الروح وهي تصدح، أو للأقدام وهي ترقص أو للأيدي وهي تقلب الأقداح، الكل يشمله تصفيق متساو.

---

(١) من الطبيعي أن يكون المؤلف شخصية مثالية تنعكس عليه وضع الكوميدي في المجتمع، الكوميدي الذي جعل سوء الاستعمال والتصرف في محيط مختلف الفئات والوظائف مادة للإضحاك. (الملاحظة لنيقولاي غوغول). المعرب.

لا، لست الآن براغب في أن أغير مكاني، وأنتقل إلى مقصورة، إلى طابق علوي، إلى قاعة، إلى شرفة، أنفذ إلى كل مكان، وأستمع إلى مختلف الآراء والانطباعات، وهي ما تزال طرية، طازجة، قبل أن تخضع لاجتهادات ونقاشات هواة الفن والصحفيين، حين يكون كل إنسان ما يزال تحت تأثير حكمه الخاص. أنا بحاجة إلى هذا. أنا كوميدي. كل الأعمال والأشكال الأدبية الأخرى تخضع لحكم القلة. والكوميدي وحده يخضع لحكم الجميع. لكل متفرج الحق عليه. كل إنسان مهما كانت رتبته يصير أحد قضاته. آه، كم أود لو يرني كل شخص نقائصي وعيوبي! لا يهم حتى لو يضحك مني، لا يهم لو يحرك شفتيه شعور غير سليم النية، متحامل، مستاء، كريه، كل ما يخطر على باله، فقط أن يعلن عن نفسه. لا يمكن أن تصدر كلمة بدون سبب، وفي كل مكان يمكن أن تنقدح شرارة الحقيقة. ومَنْ يعزم على إظهار الجوانب المضحكة للآخرين يجب، بالطبع، أن يتقبل بعقل سليم الإشارة إلى الجوانب الضعيفة والمضحكة فيه. لأحاول، وأظل هنا في الرواق، طوال خروج الناس من المسرح. لا يمكن أن لا توجد تعليقات على مسرحية جديدة. والإنسان تحت تأثير الانطباع الأول منفعل دائماً، ويتعجل طرحه على آخر. (ينتحي ناحية)..

(يظهر بعض الناس في ملابس معتبرة. يقول أحدهم مخاطباً آخر):

الأفضل أن ننصرف الآن، سيمثلون الآن فودفيل تافهاً.

(الاثنان ينصرفان)

(رجلان معتبران[1] ركينا البنيان ينزلان من السلم).

---

(١) وردت هذه التسمية بالفرنسية. المترجم.

الرجل المعتبر الأول: جيد لو أن الشرطة لم تبعد مركبتي إلى مسافة بعيدة. ألا تعرف ما اسم تلك الممثلة الشابة.

الرجل المعتبر الثاني: لا، ولكنها حلوة جداً.

الرجل المعتبر الأول: نعم، حلوة، ومع ذلك ينقصها شيء ما، طيب، اقترح أن نذهب إلى المطعم الجديد. البارحة قدموا لنا بازلاء طازجة (يقبّل أطراف أصابعه) روعة!.

(الاثنان ينصرفان)

(يجري ضابط يمسكه آخر من يده).

الضابط الثاني: لِنبقَ!

الضابط الأول: لا، يا أخ. الفودفيل لا يمكن أن يستهويني بأي شيء. نحن نعرف هذه المسرحيات التي تقدم المأكولات الخفيفة، والخدم بدلاً من الممثلين، والنساء قبح في قبح.

(ينصرفان).

رجل راق أنيق الثياب (عند نزوله من السلم). الخياط المحتال فصّل البنطلون ضيقاً عليّ. طوال الوقت كنت متضايقاً جداً في الجلوس. سأعاقبه على ذلك فأماطل في دفع ديوني سنتين. (ينصرف).

رجل راق آخر أكثر اكتنازاً (يقول لصديقه بحيوية): صدقني، لن ولن يقعد معك على طاولة القمار. إنه لن يلعب بأقل من مئة وخمسين روبلاً. أنا أعرف ذلك جيداً، لأن صهري بافنوتيف، يلعب معه كل يوم.

مؤلف المسرحية (مع نفسه): حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة عن الكوميديا.

موظف في أواسط العمر (يخرج باسطاً ذراعيه): الشيطان يعلم أي شيء هذا! شيء... شيء.... لا شبيه له مطلقاً. (ينصرف).

سيد قليـل الاهتمام بالأدب (يخاطب آخر): على أية حال، يبدو أنها مترجمة!

الآخـر: يا سلام! كيف أنها مترجمـة! الحدث يجري في روسيا، وفيها عاداتنا ورتبنا أيضاً.

السيـد القليل الاهتمام بالأدب: على أية حـال، أتذكر شيئاً منها باللغة الفرنسية، ليس تماماً من هذا القبيل.

(ينصرفان).

واحـد من متفرجين اثنـين (خارجـين أيضـاً): الآن لا يمكن أن نعرف شيئاً. انتظر ماذا سيقولون في المجلات، وعندئذٍ ستعرف.

اثنـان في معطفين مخوصريـن (أحدهما للآخـر): طيب، كيف؟ بودي لو أسمع رأيك في الكوميديا.

المعطف الثاني (يحرك شفتيه حـركات دالة وترتسم على سيمائه علائـم الوقار): نعم، بالطبع، لا يجوز القـول إنها تخلو من.... إلى حـد ما... ثم مَـنْ يعارض، بالطبع، أن لا يكون هنـاك... أين، كما يمكـن أن يقال... ولكـن عمومـاً.... (يطبق شفتيـه بإيجاب نعم، نعم!...

(ينصرفان).

المؤلـف (لنفسه): طيب، هذان لم يقـولا الشيء الكثير... ولكن ستكون تعليقات: أرى إلى الأمام قليلاً من يلوحون بأذرعهم بحرارة.

(ضابطان).

الأول: لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا.

الثاني: أظنها كوميديا ممتازة.

الأول: لا، لا. لننتظر ماذا سيقولون في المجلات. يجب الخضوع لحكم النقد... انظر، انظر! (يلكزه من يده).

الثاني: ماذا؟

الأول(يشير إلى واحد من اثنين ينزلان من السلم): أديب!

الثاني (باستعجال): مَنْ؟

الأول: ذاك! شش! لنسمع ماذا سيقول.

الثاني: ومن الآخر الذي معه؟

الأول: لا أعرف. شخص نكرة.

(الضابطان ينتحيان جانباً ليفسحا لهما المجال).

النكرة: لا أستطيع أن أحكم على قيمتها الأدبية، ولكن يبدو لي أن فيها ملاحظات لاذعة الذكاء، لاذعة، لاذعة.

الأديب: عفوك، ما هو اللاذع الذكاء فيها؟ ما هؤلاء الناس الوضعاء المصورون فيها، وأية لهجة؟ النكات مسطحة للغاية، بل وسفيهة.

النكرة: هذا شيء آخر، قلت لا أستطيع أن أحكم على قيمتها الأدبية. لاحظت فقط أن المسرحية مضحكة، جلبت المتعة.

الأديب: بل وليست مضحكة. عفوك، ما هو المضحك فيها. وماهو الممتع؟ الموضوع غير محتمل الوقوع. كل شيء متناقض مع التفكير السليم. بلا حبكة، ولا حدث، ولا شيء يستحق الاعتبار.

النكرة: أي نعم، ليس لدي أي اعتراض على ذلك. من الناحية الأدبية، من الناحية الأدبية ليست مضحكة، ولكن من الناحية، إذا أمكن القول، من جهة فيها....

الأديب: ولكن ماذا فيها؟ أرجوك، حتى هذا غير موجود! ثم أية لغة حوار؟ مَنْ يتكلم بهذا الشكل في مجتمعنا الراقي؟ طيب، قل لي أنت، هل أنا وأنت تتكلم بهذا الشكل؟

النكـرة: هذا صحيـح. ملاحظتك دقيقة جـداً. في هذا بالذات فكـرت مع نفســي، الحوار يفتقـر إلى النبـل. كل الشخصيات تبدو وكأنها لا تقدر أن تخفي طبيعتها الوضيعة. هذا صحيح.

الأديب: أها، وتمتدحها أيضاً!

النكـرة: ومَنْ يمتدحهـا؟ أنـا لا أمتدحهـا. أرى الآن بنفسي أن المسرحيـة تافهة. ولكـن لا يمكن الإلمـام بذلك دفعة واحـدة. أنا لا أستطيع أن أحكم على القيمة الأدبية.

(الاثنان ينصرفان).

أديــب آخر (يدخل بصحبة متفرجين يحدثهـم مشمراً ذراعيه): صدقوني أنا أعرف هذا الأمر. مسرحية مقززة! مسرحية قذرة، قذرة! لا يوجـد فيها أي شخص حقيقي. الـكل كاريكاتور! لا يوجد هذا في الواقـع. صدقوني. لا يوجد، وأنا أعـرف ذلك أحسن. أنا نفسي أديب. يقولون: حيوية، حدة البصيرة... ولكن كل ذلك هراء، إنهم أصحابه لا غـير، أصحابه يمتدحونـه، أصحابه فقـط! سمعت أنهم يكادون يرفعونه إلى مصـاف فونفيزين وكوميدياته. ولكن المسرحية لا تستحـق حتى أن تسمى كوميديا. إنهـا مهزلة، مهزلة، ثم مهزلة، وأفضـل مهزلة. أسوأ وأتفه كوميدية لكوتسيبـو[1] هي بالقياس إليها مونبلان أمـام مرتفعات بولكوفو. سأبرهن علـى ذلك لهم جميعاً، أبرهـن حسابيـاً مثل اثنـين في اثنين. مجـرد أن أصدقـاءه وأصحابه امتدحوه أكثر من اللازم والظاهر أنه الآن يعتبر نفسه شكسبير تقريباً. الأصحـاب عندنا يمتدحون دائماً. فمثلاً. هـذا بوشكين أيضاً. لأي شـيء تتحدث كل روسيا عنه الآن؟ كل ذلك من الأصحاب. هتفوا،

---

(١) كوتسيبو كاتب رجعي كانت أعماله الدرامية تتسم بالزيف ورومانسية الشخصيات. المترجم.

وهتفوا، وبعد ذلـك صارت روسيا كلها تهتف في أثرهم. (ينصرف مع المتفرجين).

(الضابطان يتقدمان، ويحتلان مكانهم).

الأول: هذا حق، هذا حق، حق تماماً. مهزلة بالضبط. كنت أقول ذلك من قبل. مهزلة غبية مسنودة من قبل الأصحاب. بصراحة كنت حين أتقزّز من التفرج على أشياء كثيرة فيها...

الثاني: ولكن كنت تقول لم أضحك قط مثلما ضحكت هنا؟

الأول: مـرة أخرى أقول هذا شيء مختلف. أنت لا تفهم، وتحتاج إلى توضيـح. ماذا في هذه المسرحية؟ أولاً بـلا حبكة تماماً، والحدث غير موجـود أيضاً، ولا شيء يستحق الاعتبـار إطلاقاً، كل شيء غير محتمل الوقوع، وكل شيء كاريكاتوري فضلاً عن ذلك.

(ضابطان آخران في الخلف).

أحدهما (للآخر): من يناقش في ذلك؟ واحد من جماعتك، كما يبدو؟

(الآخر بعد أن نظر إلى وجه المتحدث، لوّح بيده).

- يعني، بليد؟

الثـاني: لا، لا بشكل... عنده عقـل، ولكن لدى صدور المجلة، وإذا مـا تأخرت المجلة في الصدور، يفرغ رأسه من كل شيء. ولكن لنذهب على العموم.

(ينصرفان).

(اثنان من هواة الفن).

الأول: لست على الإطلاق من الذين يلجأون إلى الكلمات البذيئة فقـط، من مثل قذرة، مقززة، من أسلوب سـيء. أمر مثبت تقريباً أن مثل هـذه الكلمات، في معظم الأحيان، تخرج مـن أفواه الذين هم

أنفسهم من أسلوب مشكوك فيه، يتحدثون عن الصالونات، ولكن الرواق هو أقصى ما يسمح لهم بدخوله. غير أنني لا أقصدهم في كلامي. أنا أتحدث عن خلو المسرحية من الحبكة تماماً.

الثاني: نعم، إذا فُهمت الحبكة بالمعنى الذي تُفهم به عادة، أي بمعنى وجود عقدة غرامية، فهي غير موجودة بالفعل. ولكن الوقت قد حان كما أظن للكف عن التشبث حتى الآن بتلك الحبكة الأبدية. يكفي أن نتمعّن فيما حولنا لنعرف أن كل شيء في الدنيا قد تغيّر منذ زمان. الدراما تحبك الآن بشكل أقوى بالنزعة إلى الحصول على منصب نافع، بتمجيد النفس وحط الآخر مهما كلّف الأمر، والثأر من الإهمال أو من السخرية. أليست الرتبة، الرأسمال النقدي، الزواج المصلحي أكثر نفعاً من الحب الآن؟...

الأول: كل ذلك جيد. ولكن في هذه الناحية أيضاً لا أجد حبكة في المسرحية، على كل حال.

الثاني: لا أريد أن أؤكد الآن هل الحبكة موجودة في المسرحية أو غير موجودة. بل أقول فقط إن الناس يبحثون عن الحبكة الخاصة، ولا يريدون أن يروا الحبكة العامة. الناس الآن تعوّدوا، ببساطة نفس، على أولئك العشاق الدائميين الذين لا يمكن أن تنتهي مسرحية دون أن يتزوجوا. هذه حبكة، بالطبع، ولكن أية حبكة؟ كحبكة منديل معقود من طرفه بالضبط. ولكن، يجب أن تُحبك الكوميديا تلقائياً، وبكل مجموعها، في عقدة واحدة كبيرة وشاملة. يجب أن تعم الحبكة جميع الشخصيات، لا واحداً أو اثنين منهم، وتمس ما يقلقهم بهذا الشمول أو ذاك. جميع الشخصيات أبطال هنا. انسياب وسير المسرحية يحدثان رجّة في الآلة كلها، وما من دولاب يظل واقفاً باعتباره صدئات، ولا يشترك في العملية.

الأول: ولكن الجميع لا يمكن أن يكونوا أبطالاً. واحد أو اثنان منهم يسيّران الآخرين.

الثـاني: لا يسيّرانهـم قطعاً، بـل يتفوّقان عليهـم. في الآلة توجد دواليـب تتحـرك بشـكل أقـوى وأكثر ظهـوراً، ويمنـك أن تسمى بالرئيسـة فقط، ولكن الفكـرة وحدها تسيّر المسرحيـة. وبدونها لا توجد وحدة في المسرحية. وكل شيء يصلح أن يكون حبكة: الرعب نفسه، خوف التوقّع، خطر القانون المقبل من بعيد...

الأول: ولكن ذلك يعني إعطاء الكوميديا دلالة أكثر شمولاً.

الثـاني: ولكن أليس ذلك هـو رسالتها المباشـرة والحقيقية؟ منذ البدايـة كانت الكوميديا إبداعاً اجتماعياً شعبياً، أو هذا، على الأقل، مـا أبداه أبوها الشرعـي أرسطو فان، وبعد ذلـك دخلت في المضيق الضيّـق للحبكة الخاصـة. وأدخلت موضوعة الحـب حبكة واحدة لازمة. ومع ذلك فما أضعف هـذه الحبكة عند أحسن الكوميديين! وما أتفه أولئك العشاق المسرحيين في حبهم الكارتوني!

الثالـث (يقـترب ويضربه علـى كتفه ضربة خفيفـة): لست على حق. الحب مثل أية عاطفة أخرى يمكن أن يدخل أيضاً في الكوميديا.

الثـاني: أنا لا أقـول لا يمكن أن يدخل. ولكـن الحب والعواطف الأخـرى الأكثر سمـواً، لا تستطيع أن تترك انطباعـاً رفيعاً، إلا حين تتطور بكل عمقها. وإذا ما انشغلت بها، فإنك ستضحّي حتماً بكل الأشيـاء الأخـرى. عند ذاك سيتضاءل كل ما يشـكل بالذات جوهر الكوميديا، وتختفي أهمية الكوميديا الاجتماعية بالتأكيد.

الثالـث: يعني لا بـد أن يكون موضوع الكوميديـا وضيعاً؟ إذاً، ستكون الكوميديا نوعاً وضيعاً أيضاً.

الثاني: هذا سيبدو للذي سينظر إلى الكلمات، ولا ينفذ إلى صلب القضية. ولكن ألا يمكـن للإيجابي والسلبي أن يخدما هدفاً واحداً. ألا يمكن للكوميديا والتراجيديا أن تعبّرا عن نفس الفكرة السامية؟ ألا

ترسم تقلبات نفس الخسيس النذل، كلها حتى أصغر الصغائر، صورة للإنسان النزيه؟ ألا يتيح كل هذا التراكم للحقارات والتجاوزات على القوانين والخروج عن العدالة معرفة واضحة بما يتطلب منا القانون، والواجب والعدل؟ الماء البارد والساخن في يدي طبيب ماهر يعالج نفس الأمراض بنجاح متساو، وفي يدي الموهوب يمكن لكل شيء أن يكون أداة لما هو جميل، شرط أن يستهدي بالفكرة السامية لأن يخدم الجميل.

الرابع (يقترب): ماذا يمكن أن يخدم الجميل؟ عمّ تتحدثون؟

الأول: نشأ نقاش بيننا عن الكوميديا. نحن جميعاً نتكلم عن الكوميديا بشكل عام، وحتى الآن لم يقل أحد شيئاً عن الكوميديا الجديدة. فماذا تقول أنت؟

الرابع: أقول: توجد فيها موهبة، حدة البصيرة للحياة، والكثير من الأشياء المضحكة والصادقة، المستقاة من الواقع ولكن بشكل عام ينقص المسرحية شيء. فأنت لا ترى عقدة ولا حل العقدة. والغريب أن كتابنا الكوميديين لابد أن يتطرقوا إلى الحكومة. بغيرها لا تنعقد عندنا أية كوميديا.

الثالث: هذا صحيح. ولكن هذا من الناحية الأخرى شيء طبيعي جداً. فنحن جميعاً تابعون للحكومة، كلنا تقريباً نخدم. ومصالحنا كلها مرتبطة بالحكومة بهذا القدر أو ذاك. يعني ليس من الغريب أن ينعكس ذلك في أعمال كتابنا.

الرابع: حسناً، لتكن هذه الرابطة محسوسة. ولكن المضحك أن أية مسرحية لا يمكن أن تنتهي بدون الحكومة. إنها تظهر حتماً مثل قدر لا محيص عنه في المسرحيات التراجيدية عند الإغريق القدامى.

الثاني: يعني أن هذا شيء لا إرادي عند كتابنا الكوميديين، يعني

أن هذا يشكل صفة مميزة لمسرحياتنا الكوميدية. صدورنا تنطوي على إيمان خف بالحكومة وماذا في ذلك؟ لا ضير فيه، ياليت الحكومة تسمع دائماً وفي كل مكان تذكيراً لرسالتها لأن تكون ممثل العناية الإلهية على الأرض، وأن نؤمن نحن بها، كما آمن القدامى بالقدر الذي كان يعاقب الجرائم.

الخامس: مرحباً. يا سادة! لا أسمع إلا كلمة «حكومة». الكوميديا أثارت الهتافات والأحاديث...

الثاني: الأفضل أن نتحدث عن هذه الأحاديث والهتافات في بيتي. لا هنا، في رواق المسرح.

(ينصرفون).

(بعض المحترمين الحسني الثياب يظهرون واحداً وراء الآخر).

رقم ١: طيب، هذا رأيي. هذا صحيح وصحيح أن ذلك وما أسوأ منه يحدث عندنا أيضاً في بعض الأماكن. ولكن ما الغاية، ولأي شيء يبرز ذلك؟ ولم هذه العروض ما الفائدة منها؟ وضحوا لي ذلك! أي حاجة لي في أن أعرف أن في مكان ما يوجد محتالون؟ أنا بكل بساطة... لا أفهم ضرورة مثل هذه العروض. (ينصرف).

رقم ٢: لا، هذا ليس استهجاناً للعيوب، بل ازدراء مقزز لروسيا. هذا هو. هذا يعين إظهار الحكومة نفسها في مظهر سيئ. لأن كشف الموظفين السيئين، وأعمال استغلال النفوذ التي تحصل في مختلف الفئات يعني كشف حكومة نفسها. قطعاً لا ينبغي حتى السماح بمثل هذه العروض. (ينصرف).

(يدخل السيد أ والسيد ب، وهما رجلان من رتبتين معتبرتين).

السيد أ: أنا لا أتكلم عن هذا. على العكس نحن بحاجة إلى إظهار أعمال استغلال النفوذ. يجب أن نرى تجاوزاتنا. وأنا لا أشاطر أبداً

آراء الوطنيين الكثيرين المتحمسين أكثر من اللازم، ولكن يبدو لي قد يكون فيها الكثير جداً مما هو محزن.

السيد ب: وددت كثيراً لو كنت قد استمعت إلى ملاحظة رجل متواضع الثياب جداً كان يجلس على مقربة مني في مقاعد القاعة.... آه، هذا هو نفسه!

السيد أ: مَنْ؟

السيد ب: هذا هو الرجل المتواضع الثياب جداً. (يخاطبه) نحن لم ننه بعد الحديث الذي كانت بدايته طريفة بالنسبة لي.

الرجل المتواضع الثياب جداً: وأنا بصراحة، مسرور جداً بأن أواصله. قبل لحظة فقط سمعت كلاماً يقول إن كل ذلك غير صحيح، وإنه استهزاء بحكومتنا، وبعاداتنا، وماكان ينبغي عرضه إطلاقاً. وقد جعلني ذلك أسترجع في ذهني، وأحتوي المسرحية كلها. وأعترف أن ما تعبر عنه الكوميديا يبدو لي الآن أكثر روعة. ففيها، كما يلوح لي، يُنحر النفاق بالضحك أشد وأعمق من أي شيء آخر قناع الاحتشام الذي تختفي وراءه الوضاعة والخسة، المحتال الذي يعوج خده ليتخذ سمة الإنسان الموالي. بصراحة شعرت بالفرح، وأنا أرى كلمات الولاء تخرج مضحكة من شفتي محتال، والقناع الذي يلبسه يثير الضحك الشديد لدى الجميع من أول القاعة إلى أعلى طابق في المسرح. ويوجد بعد هذا أناس يقولون لا حاجة إلى إخراج ذلك على المسرح؟ لقد سمعت ملاحظة أبداها رجل معتبر جداًن كما بدا لي: «ماذا سيقول الشعب حين يرى أن مثل هذه الأعمال لاستغلال النفوذ تحصل عندنا؟».

السيد أ: بصراحة، وأرجو المعذرة، أنا أيضاً أطرح على نفسي هذا السؤال لا إرادياً، ماذا سيقول شعبنا، وهو يرى كل هذا؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: ماذا سيقول؟ (يتنحى)

(يدخل اثنان في قفطانين).

القفطان الأزرق (للقفطان الرمادي): أعتقد أن الرؤساء كانوا شطاراً، ولكنهم امتقعوا جميعاً، حين أطل السيف القيصري.

(ينصرفان).

الرجل المتواضع الثياب جداً: هذا ما سيقوله الشعب، هل سمعتم.

السيد أ: ماذا؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: سيقول: «أعتقد الرؤساء كانوا شطاراً، ولكنهم امتقعوا جميعاً، حين أطل السيف القيصري!» هل سمعتم كم أن الإنسان يصدق بحاسته الطبيعية وبشعوره؟ وكم أن العين البسيطة للغاية صادقة، إذا لم تضببها النظريات والأفكار المستقاة من الكتب، بل تستقيها من طبيعة الإنسان نفسها! ولكن أليس واضحاً بجلاء أن الشعب بعد مثل هذا العرض يحصل على إيمان أكثر بالحكومة؟ إنه بحاجة إلى مثل هذه العروض. وليفصل الحكومة عن السيئين من القائمين بشؤونها. وليرَ أن أعمال استغلال النفوذ لا تأتي من الحكومة، بل من الذين لا يفهمون متطلبات الحكومة، ومن الذين لا يريدون الاستجابة للحكومة. وليرَ أن الحكومة شريفة، وأن عينها الساهرة تراقب الجميع بالتساوي، وأنها ستلاحق عاجلاً أم آجلاً المتجاوزين على القانون وعلى الشرف وواجب الإنسان المقدس، وسيمتقع أمامها ذوو الضمائر الملوّثة. نعم، يجب على الشعب أن يرى هذه العروض. صدقوني. حتى وإن كان قد عانى بنفسه من التضييقات والمظالم فإنه سيخرج منفّساً عن نفسه، بعد مثل هذا العرض، وبإيمان قوي بالقانون السامي الذي لا تأخذه سنة من نوم. وتعجبني أيضاً ملاحظة أخرى: «سيكون

للشعب رأي سيئ في رؤسائه». يعني أنهم يتصورون أن الشعب هنا فقط وهو في المسرح، يرى لأول مرة رؤساءه، وإذا كان أحد العمد المحتالين يعصره بين مخالبه في مكان سكناه، فإنه لن يفطن إلى ذلك، ولكنه يذهب إلى المسرح ليلمّ بالأمر ويفطن. إن هؤلاء في الحقيقة، يعتبرون شعبنا أغبى من خشبة، غبياً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يفرق بين الفطيرة المحشوة باللحم، والفطيرة المحشوة بالعدس. نعم، الآن يبدو لي حتى خلو المسرح من شخصية نزيهة شيئاً جيداً. إذا قدمت للرجل العزيز النفس وسط كثرة من الجوانب السيئة جانباً واحداً حسناً، فإنه سيخرج من المسرح بكبرياء. نعم، جيد أن المسرحية قدمت فقط الشواذ والعيوب التي هي مجلبة عار شديدة، إلى درجة أن الناس لا يريدون أن يتواطئوا معها، ويخجلون حتى من الاعتراف بأن ذلك ممكن.

السيد أ: ولكن هل يعقل أن يوجد عندنا مثل هؤلاء الناس بالضبط؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: اسمحوا لي بأن أقول لكم بخصوص ذلك. أنا لا أدري لماذا أشعر بالحزن، كلما أسمع مثل هذا السؤال. أستطيع أن أتحدث معكم بصراحة: فأنا أرى في ملامح وجهيكما ما يشجعني على الصراحة. الإنسان قبل كل شيء يطرح السؤال: «هل يعقل أن يوجد مثل هؤلاء الناس؟» ولكن هل سمعنا إنساناً يطرح هذا السؤال: «هل يعقل أنني نفسي خال تماماً من هذه العيوب؟» لم نسمع قط، لم نسمع! طيب، سأتحدث معكم بقلب مفتوح، فإن لي قلباً طيباً، وصدري ينطوي على الكثير من الحب، ولكن ليتكم تعرفون أية جهود نفسية وصدمات روحية اقتضتني لأتجنب السقوط في انحرافات معيبة كثيرة، يسقط فيها الإنسان لا إرادياً، في عيشه مع الناس! وكيف يمكن أن أقول الآن إنني في هذه اللحظة مبرأ من

تلك الانحرافات التي كنا نضحك منها جميعاً قبل عشر دقائق فقط، وضحكت أنا أيضاً منها.

السيد أ: (بعد برهة من الصمت). كلماتك تدعو إلى التفكير الشديد، بصراحة، ولمّا أتذكر كلماتك، أتمثل لنفسي كيف جعلتنا التربية الأوربية متكبرين، وكيف حجبتنا عن أنفسنا ذاتها، وكيف ننظر باستعلاء وبازدراء شديد إلى الذين لم يحصلوا على تلميع ظاهري مثلنا، وكيف يعتبر كل واحد منا نفسه قدّيساً إلا شعرة ويتحدث دائماً عن الأعمال والأفعال السيئة عند الآخرين، تغتم نفسي لا إرادياً، بصراحة... ولكن اعذرني على عدم تواضعي فأنت، على كل حال، غير مبرأ منه أيضاً هل لي أن أعرف مع مَنْ يسعدني أن أتحدث؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: لست سوى واحد من أولئك الموظفين الذين تتقمص شخصيات المسرحية وظائفهم ومناصبهم، وقد قدمت من بلدتي منذ يومين.

السيد ب: ما كان هذا ليخطر على بالي. وهل يعقل أنك لا تتصور أن من المهين، بعد هذا، أن تعيش وتخدم مع هؤلاء الناس؟

الرجل المتواضع الثياب جداً: من المهين؟ هذا ما سأقوله لك بهذا الخصوص، أعترف بأنني في أحيان كثيرة أفقد صبري. في بلدتنا ليس كل الموظفين من الصنف النزيه، وغالباً ما تعمل المستحيل لكي تفعل شيئاً طيباً. وقد فكرت في ترك الوظيفة عدة مرات، ولكن الآن، وبعد هذا العرض بالذات، أشعر بهمة ونشاط مع قوة جديدة على مواصلة مجال عملي. وجدت سلواي في التفكير بأن النذالة عندنا لن تظل مستورة، أو طليقة العنان، وأنها على مرأى من جميع الناس الشرفاء مذبوحة بالسخرية، وأن هناك قلماً لا يتماهل عن فضح تصرفاتنا النذلة، على الرغم من أن ذلك لا يرضي كبرياءنا القومية، وأن هناك حكومة شريفة تسعى إلى أن تجعل جميع الذين يعنيهم الأمر

يــرون ذلك رأي العين، وهذا وحده يمدني بالحماس لمواصلة وظيفتي النافعة.

السيــد أ: اسمح لي بأن أعرض عليك اقتراحاً، أنا أشغل وظيفة في جهــاز الدولة مهمة إلى حدّ ما. وأحتــاج إلى معاونين شرفاء ونزيهين حقاً. أقترح عليك وظيفة ستوفر لك مجالاً موسعاً للعمل، ومنفعة أكثر بما لا يقاس، وستكون في موقع مرموق.

الرجــل المتواضع الثياب جداً: اسمــح لي بأن أشكرك بكل ما في قلبــي وروحي على هــذا العرض، واسمح لي، في الوقــت ذاته، بأن أرفضــه. فــإذا كنــت أشعر بأنني نافــع في عملي، فهل مــن النبل من جانبــي أن أتخلــى عنه؟ وكيف أستطيع أن أتركــه، ليست لدي الثقة الراسخــة في أن الذي سيخلفني لن يكون شاطــراً سيأخذ بارتكاب مظــالم؟ أما إذا كنت قد عرضت عليّ ذلــك بشكل مكافأة، فاسمح لي بــأن أقول لك إنني صفقت لمؤلــف المسرحية كما صفق الآخرون علــى حد ســواء، ولكنني لم أطلــب أن يطل على الجمهــور زيادة في الثناء. فما حاجته إلى مكافــأة؟ مسرحيته راقت للناس، فأثنوا عليها. أمــا هو، فقــد أدى واجبه لا غير. ولكن الوضع قــد وصل عندنا في الحقيقــة إلى حد أن الإنسان، ليس فقط حين يجترح مأثرة، بل لمجرد أنــه لا يلحق بأحد أذى في الحيــاة وفي الوظيفة، يعتــبر نفسه فاضلاً لا يضــارع، ويغضب عن جد، حين لا يلتفــت إليه، ولا يكافأ. فتراه يقول: «أواه، لقد عشت طوال عمري بنزاهة، ولم أقدم على أية نذالة تقريبــاً، فكيف لا أمنح رتبة ولا نيشاناً؟» لا، أعتقد أن الذي لا يقدر أن يكون نبيلاً بدون تشجيع، غير أهل لأن أثق بنبله. فإن نبله المزّيف لا يساوي فلساً واحداً.

السيــد أ: على الأقل لا تبخل عليّ بالتعــاون معك؟ اعذرني على لجاجتي، فأنت ترى أنها نتيجة احترامي الصادق. أعطني عنوانك.

الرجـل المتواضـع الثياب جـداً: تفضل هذا عنـواني. ولكن كن علـى ثقـة بأننـي لا أسمح لـك باستغلالـه، فسأجيء إليـك غداً في الصبـاح. أرجـو المعـذرة، لست متربياً علـى المجتمـع الراقي، ولا أحسـن الكلام.... ولكنني صادفت مثل هذا الاهتمام الأريحي في رجل دولـة، هذا الطموح إلى الخير... عسى الله أن يحيط كل عاهل بأمثالك من الناس. (ينصرف مستعجلاً).

السيد أ (يقلب البطاقة في يده): ها أنا أنظر إلى هذه البطاقة، وإلى هـذا الاسم المكتـوب عليها، والذي لا أعرفـه، فأشعر بالانشراح في صدري، فقد انقشع الانطباع المحزن الأول من تلقاء نفسه. حفظك الله، يـا روسيا، يامـن لا نعرفك إلا قليـلاً! في أصقاعك البعيدة، في ركن منسي منك، ينزوي رجل فريد كاللؤلؤة، وليس هو الوحيد، في أغلـب الظن. إن هؤلاء، مثل التماعـات الأحجار الكريمة، منتشرون وسـط غرانيتـه الغليظ الداكن. هنـاك إحساس عميـق بالسلوى من هـذه الظاهرة، وقد تنورت روحي بعد اللقاء مع هذا الموظف، مثلما تنورت روحه بعد العرض. وداعـاً! شكراً لك على إتاحة هذا اللقاء لي. (ينصرف).

السيد ج (يقترب من السيد ب): من هذا الذي كان معكم؟ يبدو أنه وزير؟

السيـد د (يقترب من الجهة الأخرى): رحمـاك، يا أخ، ما هذا؟ خبرني بحق الرب!

السيد ب: ماهو؟

السيد د: طيب، كيف يخرجون ذلك على المسرح؟

السيد ب: و لم لا؟

السيد د: طيب، احكم بنفسك، كيف هذا حقاً؟ دائماً عيوب في

عيوب. وأي قدوة يقدم هذا للمشاهدين؟

السيد ب: ولكن من يتباهى بالعيوب؟ إنها معروضة للسخرية.

السيد د: ومع ذلك، يا أخ، فالاحترام واجب... وهذا العرض يفقد الاحترام نحو الموظفين والوظائف.

السيد ب: هذا لا يفقد الاحترام لا نحو الموظفين ولا نحو الوظائف، بل نحو الذين يسيئون أداء وظائفهم.

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أذكر، على أية حال، أن في كل ذلك قدراً معيناً من الإهانة التي تشمل الجميع إلى هذا الحد أو ذاك.

السيد د: بالضبط. هذا ما أردت أن أبديه بنفسي. هذه إهانة شاملة بالذات. اليوم مثلاً يعرضون على المسرح موظفاً من مرتبة دنيا، وغداً... أظنهم سيعرضون آخر من مرتبة أرقى.

السيد ب: وماذا في ذلك؟ الفرد وحده لا يُمس. ولكن إذا ابتكرت أنا شخصية لا على التعيين ونسبت لها العيوب التي تنشأ بيننا عادة، ومنحتها المرتبة التي طرأت على بالي، ولتكن مرتبة أرقى، وقلت إن هذا الموظف من هذه المرتبة الراقية ليس كما يجب، فماذا في ذلك؟ ألا يوجد محتال من بين موظفي المرتبة الراقية؟

السيد د: ذهبت بعيداً، يا أخ، كيف يمكن أن يكون الموظف في المرتبة الراقية محتالاً؟ الموظف من المرتبة الدنيا، ربما... لا، ذهبت بعيداً!...

السيد ج: لماذا يعرضون السيئ، ولماذا لا يعرضون الحسن، اللائق بأن يُحتذى؟

السيد ب: لماذا؟ سؤال غريب: «لماذا؟» أشياء كثيرة يمكن أن تضع قبال «لماذا» هذه. لماذا لم يلجأ أحد الآباء إلى الكلمات والمواعظ، بغية انتشال ابنة من الحياة غير المستقيمة، بل أخذه إلى مارستان،

حيث برزت أمامه الآثار الرهيبة للحياة غير المستقيمة بكل فظاعتها؟ لماذا أقدم على ذلك؟

السيد ج: ولكن اسمح لي بأن أقول: إن هذه، إلى حد ما، قروحنا الاجتماعية التي يجب أن تخفى، ولا أن تعرض.

السيد د: هذا صحيح. أنا موافق على ذلك كلياً. يجب أن يخفى السيئ عندنا، لا أن يعرض على الملأ.

السيد ب: لو كان أحد غيرك قال هذه الكلمات، لقلت إنها من الرياء، وليس من الحب الحقيقي للوطن. يعني، في رأيك، ينبغي فقط إخفاء هذه التي سميتها قروحاً اجتماعية، وعلاجها من الخارج على نحو ما، حتى لا تكون مرئية في هذه اللحظة، ولا يهم أن تستشري العلة في الداخل. لا يهم أن تنفجر، وتكتشف عن أعراض لا ينفع معها عند ذاك أي علاج. لا يهم هذا. أنت لا تريد أن تعرف أننا بدون العظة المخلصة الصادقة، بدون الفهم المسيحي لخطايانا، بدون تضخيمها في عيوننا، لا نملك القوة على الارتفاع فوقها، ولا القوة على السمو بالروح إلى أعلى ماهو محتقر في الحياة. إنك لا تريد أن تعرف ذلك! وليبق الإنسان أصمّ، وليقض حياته غافياً، ولا يحرك ساكناً حين يرى الفظاعات، دعه لا يبكي في أعماق قلبه، دعه يخدر نفسه، إلى حد لا تحركها الزعازع! لا.... وأرجو المعذرة! الأنانية الباردة هي التي تحرك شفتين تنطقان بمثل هذه الأقوال، لا حب الإنسانية الطاهر التقي. (ينصرف).

السيد د: (بعد صمت قصير). لماذا أنت صامت؟ ياله من شاطر! أية كلمات كبيرة تفوه بها!

(السيد ج يصمت) .

(يتابع) يستطيع أن يقول كما يقال ما يشاء، ولكن هذه هي

قروحنا المشتركة كما يقال.

السيد ج (جانبـاً): أوه، أعجبه النطق بهـذه القروح! وسيقولها للغادي والرائح!..

السيد د: بهذا الشكل أستطيع أن أقول ما شئت من هذه الأقوال. ولكن ما الفائدة؟... آه، هذا الأمير ن: تمهّل، يا أمير!

الأمير ن: ما الخبر؟

السيد د: لنتحدث قليلاً، توقف! ما رأيك في المسرحية؟

الأمير ن: مضحكة.

السيد د: ولكن لماذا يعرض؟ أي شيء هو؟

الأمير ن: ولماذا لا يعرض؟

السيد د:ولكن احكـم بنفسك، كيف يجروؤ هذا؟ نفاجأ بمحتال على المسرح. ولكن هذه قروحنا.

الأمير ن: أية قروح؟

السيد د: هذه قروحنا، قروحنا الاجتماعية، إذا أمكن القول.

الأمـير ن (بانزعاج): خذها لك! ولتكـن قروحك، لا قروحي! لماذا تدسّها عليّ؟ عليّ الآن أ ن أعود إلى البيت. (ينصرف).

السيـد د (يتابـع): ولكن ما هـذا الهراء الذي قاله هنـا؟ يريد أن يقـول: الموظف من المرتبة الراقية يمكن أن يكون محتالاً. طيب، يمكن التساهل مع الموظف من المرتبة الدنيا...

السيد ج: على كل حال لنذهب. كفى كلاماً. أظن الجميع عرغوا الآن أنـك موظف من المرتبة الراقية. (جانبـاً) هناك أناس عندهم فن التشهير بكل شيء. وهم يقدرون أن يجعلوا فكرتك، عندما تكررُها، مبتذلة إلى حد أنك تحمرّ خجلاً منها. وإذا أطلقت قولاً أحمق قد يمرّ

دون أن يلحـظ، ولكن يطلع هاو وصديـق يظل يكرره، حتى يجعله أسوأ مما هو. إن هذا شيء مزعج حقاً، وكأنما أوقعك في وحلة.

(ينصرفان)

(عسكري ومدني يتقدمان سوية)

المدني: هـذا أنتم، السادة العسكريين! تقـول «هذا ينبغي عرضه على المسـرح»، وأنت مستعد مرتـين أن تضحك من موظف مدني. ولكـن إذا مسـوا عسكريـين، أو قالـوا فقـط إن في الفـوج الفلاني ضباطـاً، ولا حاجـة إلى ذكر الانحرافات المعيبة، بـل مجرد القول إن هنـاك ضباطاً من لون سيـئ، بسلوكيات غير لائقـة، فأنت مستعد، لهذا وحده، أن ترفع شكوى إلى مجلس الدولة نفسه.

العسكـري: ولكن اسمع. مَـنْ أنا باعتبـارك؟ بالطبع، بيننا دون كيشوتيـون وعلـى شاكلتهـم، ولكن صدق أيضـاً بأن هنـاك أناساً حصيفـين حقاً سيسرون إذا عُرض للسخرية العامة من يشين رتبتهم. ومـا الضير في ذلك؟ اعرضوه، وسنكون مستعدين إلى مشاهدته كل يوم.

المدني (جانباً): المرء دائماً يصيح: «اعرضوه، اعرضوه!»

وحين يعرض يغضب.

(ينصرفان).

(معطفان مخوصران).

المعطف الأول: عنـد الفرنسيين أيضاً، علـى سبيل المثال، ولكن كل ذلـك عندهم لطيف جداً. أنت تذكـر الفودفيل الذي رأيناه يوم أمس. تخلع ثيابها، وتستلقي في فراشهـا، وتأخذ سلطانية السلاطة مـن الطاولـة، وتضعها تحت السريـر. هذا بالطبع غـير لائق، ولكنه لطيـف. كل ذلك يمكـن أن يشاهد، وليست فيـه إهانة.... زوجتي

وأولادي يذهبـون كل يـوم للمسـرح. أمـا هنا، فمـاذا في الحقيقة؟ خسيسـ، ريفي، ماكنت سأدخله حتى إلى رواق بيتي، يستلقي وهو في حذائـه الطويل، ويتثاءب أو يسلّك أسنانـه. فأي شيء هذا حقاً؟ على أي منوال؟

المعطـف الآخر: عند الفرنسيين شيء آخـر هناك société mon cher . وهـذا عندنـا مستحيـل. فالمؤلفـان عندنـا بلا ثقافـة كلياً. معظمهـم تعلّم في مدرسة دينيـة. فتراه ميّـالاً إلى السكر وفاجراً في نفس الوقت. كان يزور خادمـي أيضاً أحد هؤلاء المؤلفين. فمن أين تأتيه مفهوم المجتمع الجيد؟

(ينصرفان).

سيـدة راقية (بصحبـة رجلين أحدهما في بدلـة فراك والآخر في بزة رسميـة): ولكن ما هؤلاء الناس، ما هـذه الشخصيات المقدّمة! علـى الأقل لو كان بينهـم واحد جذاب... ولمـاذا لا يكتبون عندنا مثلمـا يكتب الفرنسيـون، مثل ديوما مثلاً والآخريـن؟ أنا لا أطالب بنمـاذج للفضيلـة، مثّلوا لي امـرأة أضلّت سواء السبيـل، بل وحتى خانت زوجها، ولنقل استسلمت لحب غاية في العيب والاستهجان، ولكن مثلوها بشكل جذاب، يثير عطفي عليها، وحبي لها... أما في هذه المسرحية فجميع الشخصيات أحدها أبغض من الآخر.

الرجل في البزّة الرسمية: نعم، مبتذل، مبتذل.

السيدة الراقية: قل لي لماذا كل شيء عندنا في روسيا ما يزال مبتذلاً بهذا الشكل؟

الرجـل في بدلـة الفـراك: فيمـا بعد، يـا روحي، نعـرف سبب الابتذال. ينادون الآن على عربتنا.

(ينصرفون)

(يدخل ثلاثة رجال دفعة واحدة).

الأول: ولماذا لا نضحك؟ ممكن أن نضحك. ولكن أي ضحك على موضوع استغلال النفوذ والعيوب؟ ما وجه السخرية هنا؟

الثاني: ولكن مم نضحك؟ من الفضائل، من مكارم الإنسان؟

الأول: لا، ولكن هذا ليس موضوعاً للكوميديا، يا عزيزي! هذا يمس الحكومة، على نحو ما، وكأنما لا توجد مواضيع أخرى يمكن الكتابة عنها؟

الثاني: ماهي المواضيع الأخرى؟

الأول: وهل قلّت المصادفات الدنيوية المضحكة؟ طيب، لنضرب مثلاً أنني خرجت للتنزه في جزيرة ابتيكارسكي، ولكنني أجد سائق عربتي قد أخذني إلى ناحية فيبورغ أو إلى دير سمولني. وهل المفارقات المضحكة قليلة؟

الثاني: يعني تريد أن تنفي عن الكوميديا أية دلالة جدية. ولكن لم يشرّع القانون الذي لا غنى عنه؟ هناك كثرة من الكوميديات على الذوق الذي ترغب فيه. ولماذا لا يسمح بوجود اثنتين أو ثلاث من مثل هذه الكوميديا التي مثلوها الآن؟ وإذا كان يعجبك الكوميديات من النوع الذي تتحدث عنه فما عليك إلا أن تذهب إلى المسرح فإنك سترى كل يوم مسرحية يختبئ فيها شخص تحت المقعد، وآخر يجره من رجله من مخبئه.

الثالث: ولكن يا سادة، ليس هذا المقصود، لكل شيء حدوده. وهناك أشياء لا يجوز، إذا صح القول، الضحك منها، أشياء مقدسة إلى حد معين.

الثاني: (مع نفسه، بسخرية مريرة). هذا ما يحصل دائماً في الدنيا: تضحك على النبيل حقاً، على ما يمثل مقدسات النفس

السامية فلا تجد مدافعاً، وتضحك على الفاسد، الرذيل، الوضيع، فإذا بالجميع يهتفون: «إنه يضحك على المقدسات!».

الأول: ها أنا أرى أنك الآن مقتنع، فأنت لا تتفوه كلمة واحدة. صدقني لا بد من الاقتناع، فإنها الحقيقة. أنا نفسي رجل منصف، وأقول ليست كما... ولكن هذا ليس من شأن المؤلف، ليس موضوعاً للكوميديا. (ينصرفان).

الثاني (مع نفسه): بصراحة ماكنت سأقبل بأن أكون في مكان المؤلف، مهما يكن من شيء. أعوذ بالله! إذا تناول مواضيع دنيوية قليلة الأهمية قال الجميع: «يكتب سخافة، وليس له أي هدف خلقي عميق» وإذا تناول موضوعاً فيه هدف خلقي جدي نوعاً ما، قالوا: «هذا ليس شأنه، دعه يؤلف سفاسف!»...

(ينصرف)

(سيدة شابة من المجتمع الراقي برفقة زوجها).

الزوج: لا أظن عربتنا بعيدة، نستطيع أن نستقبلها قريباً.

السيد ن (يقترب من السيدة): يا سلام! جئتم لمشاهدة مسرحية روسية!

السيدة الشابة: وماذا في ذلك؟ يعني ليست لدي ذرة من الوطنية؟

السيد ن: وإذا كان الأمر كذلك فأنت لم تشبعي وطنيتك كثيراً. أظنك تشتمين المسرحية؟

السيدة الشابة: لا، أبداً، أرى فيها الكثير جداً من الصدق: ضحكت من كل قلبي.

السيد ن: لأي شيء ضحكت؟ ألأنك تحبّين الضحك من كل ماهو روسيّ؟

السيدة الشابة: لأنها فيها ما يُضحك حقاً، ولأنها تعري النذالة

والوضاعـة، اللتين ستظلان نذالـة أو وضاعة مهما كان الثوب الذي تتحليان به، ولو أنهما لم تكونا في بلدة إقليمية، بل هنا، فيما حولنا، وهذا هو ما أضحكني.

السيد ن: قبل حين كانت سيدة ذكية جداً تقول لي إنها ضحكت أيضاً، ولكن المسرحية مع كل هذا تركت في نفسها انطباعاً حزيناً.

السيـدة الشابة: لا أريـد أن أعرف بماذا شعـرت سيدتك الذكية جداً، ولكـن أعصابي ليست حسّاسة جداً، وأنـا دائماً مسرورة من الضحـك مما هو مضحك ضمنياً. أعرف أن هناك طائفة منا مستعدة على أن تضحك من كل قلبها من أنف الإنسان الأعوج ولكن ليست لها القوة الخلقية على أن تضحك من نفس إنسان عوجاء.

(من بعيد تبدو سيدة شابة أخرى مع زوجها).

السيد ن: ها هي صاحبتك قادمة. وددت لو أعرف رأيها.

(السيدتان تمدان يديهما الواحدة للأخرى).

السيدة الأولى: رأيت من بعيد كيف كنت تضحكين.

السيدة الثانية: ومَنْ لم يضحك؟ الجميع كانوا يضحكون.

السيد ن: ألم تشعري بشعور محزن؟

السيـدة الثانية: بصراحة، شعرت بالحـزن بالضبط، أنا أعرف أن كل ذلـك صادق جداً، وأنا نفسي رأيـت الكثير مما يشبه ذلك، ومع كل هذا أحسست بثقل في صدري.

السيد ن: يعني لم تعجبك الكوميديا؟

السيدة الثانية: ولكن اسمـع: مَنْ يقول ذلك؟ لقد قلت لك إنني ضحكـت من كل قلبي، بل وأكثر من الآخرين. أعتقد أنهم اعتبروني مجنونة... . ولكن كان محزناً لي، حتى كنت أود لو استقر نظري على وجه واحد طيب. إن هذا الإفراط والإكثار في ما هو وضيع...

السيد ن: استمري، استمري!

السيدة الثانية: اسمع، انصح المؤلف بأن يصور ولو إنساناً واحداً نزيهاً، قل له إنهم يطلبون منه ذلك، وأن ذلك سيكون لطيفاً، حقاً.

زوج السيدة الأولى: هذا بالذات لا تنصح به، السيدات يهوين أن يكون هناك فارس حتماً، ليظل يكرر لهن كل كلمة عن النبل، ولو بأكثر الأساليب ابتذالاً.

السيدة الثانية: لا، أبداً! ما أقلّ معرفتكم بنا! هذا من عندياتكم! أنتم بالفعل لا تحبون إلا الكلام والحديث عن النبل. لقد سمعت رأي أحدكم. شخص سمين صرخ صرخة جعلت الجميع، على ما أظن، يلتفتون إليه، قائلاً إن كل ذلك افتراء، وأن مثل هذه الوضاعات والنذالات لا وجود لها بيننا. ومَنْ كان يقول ذلك؟ إن أوضع وأنذل إنسان، مستعد لبيع روحه وضميره وكل ما لديه. لا أريد فقط أن أذكر اسمه.

السيد ن: طيب، قولي من هو؟

السيدة الثانية: ولماذا تريد أن تعرف؟ ولكن لم يكن وحده. كنت أسمع باستمرار كيف كانوا يصرخون قربنا: «هذه سخرية مقرفة من روسيا، سخرية من الحكومة! وكيف يسمحون بذلك وماذا سيقول الشعب؟» لماذا كانوا يصرخون؟ ألأنهم كانوا يتصورون ويشعرون بذلك بالفعل؟ آسف، لا أظن! بل لأنهم يريدون أن يثيروا ضجة، ليمنعوا المسرحية، لأنهم، ربما وجدوا فيها شبهاً بهم، هؤلاء هم فرسانكم الحقيقيون، اللا مسرحيون.

زوج السيدة الأولى: أوه! بدأ يظهر عليك غيظ صغير!

السيدة الثانية: غيظ، غيظ بالذات! نعم، أنا مغتاظة، مغتاظة جداً. ولا يمكن أن لا يشعر المرء بالغيظ، وهو يرى النذالة تظهر تحت كل الأقنعة.

زوج السيدة الأولى: أي، نعم، كنت تودين أن يطلع فارس الآن،

ويقفز عبر هاوية، وتنكسر رقبته....

السيدة الثانية: معذرة.

زوج السيدة الأولى: هذا طبيعي! ماذا تريد المرأة؟ تريد حتماً أن تكون في الحياة علاقات غرامية.

السيدة الثانية: لا، ولا ولا! مستعدة أن أكرر لا مئتي مرة! هذه فكرة مبتذلة قديمة، تفرضونها علينا دائماً. للمرأة من الشهامة الأصيلة أكثر مما للرجل. المرأة لا تقدر، ليس لها القوة على ارتكاب النذالات والحقارات التي ترتكبونها أنتم. المرأة لا تستطيع أن تنافق، حيث تنافقون أنتم، ولا تقدر التغاضي عن الوضاعات التي تتغاضون أنتم عنها. عندها من النبل ما يكفي لتفصح عن ذلك كله دون التلفت في الجانبين لترى هل يروق هذا لأحد أم لا لأن ذلك يجب الإفصاح به. الخسة هي الخسة، مهما غطيتم عليها، وأي مظهر أعطيتموها. ستبقى خسة، خسة، خسة!

زوج السيدة الأولى: ولكنني أراك قد غضبت من كل النواحي.

السيدة الثانية: لأنني صريحة، ولا أستطيع التحمل حين يقولون كذباً.

زوج السيدة الأولى: طيب، لا تغضبي، وهاتي يدك! كنت أمزح.

السيدة الثانية: هاك يدي، لست غاضبة. (تخاطب السيد ن) اسمع، انصح المؤلف بأن يضيف للكوميديا شخصاً شريفاً نزيهاً.

السيد ن: وكيف سيفعل هذا؟ طيب، يضيف شخصاً نزيهاً، وإذا طلع هذا الشخص النزيه يشبه فارساً مسرحياً؟

السيدة الثانية: لا، فإن كان سيشعر بقوة وعمق، فإن بطله لن يكون فارساً مسرحياً.

السيد ن: أظن أن ذلك ليس بالأمر السهل.

السيدة الثانية: الأحسن أن تقول ببساطة إن مؤلفك تنقصه العواطف القلبية العميقة والقوية.

السيد ن: ولم ذاك؟

السيدة الثانية: الذي يضحك دائماً وباستمرار ليست له عواطف رفيعة جداً، ولا يستطيع التعرف على ما يشعر به القلب الرقيق وحده.

السيد ن: هذا حسن! يعني في رأيك أن المؤلف لا يمكن أن يكون إنساناً نبيلاً؟

السيدة الثانية: ها أنت تفسّر الكلام بطريقة أخرى. أنا لم أقل كلمة واحدة تشير إلى أن الكوميدي كان مفتقراً إلى النبل والإدراك الواعي للشرف بكل مافي هذه الكلمة من معنى. بل قلت فقط إنه غير قادر على... أن يذرف دمعة صادقة، وأن يحب بقوة، وبكل أعماق قلبه.

زوج السيدة الثانية: ولكن كيف تستطيعين أن تثبتي قولك هذا؟...

السيدة الثانية: أستطيع، لأنني أعرف. كل الذين ضحكوا أو كانوا ساخرين، كانوا جميعاً مغرورين. كلهم تقريباً أنانيون. أنانيون شرفاء، بالطبع، ولكنهم أنانيون، على أية حال.

السيد ن: يعني، أنت تفضلين كلياً ذلك النوع من التأليف الذي لا يعرض إلا عواطف الإنسان الرفيعة؟

السيدة الثانية: نعم، بالطبع! أنا دائماً أسمو بها، وأؤمن إيماناً أكبر بمثل هذا المؤلف، صراحة.

زوج السيدة الأولى: (مخاطباً السيد ن) ألا ترى الآن؟ نفس النتيجة هذا هو ذوقهن. أكثر التراجيديات ابتذالاً هي، بالنسبة لهن، أسمى من أحسن كوميديا، لمجرد أنها تراجيديا....

السيدة الثانية: اسكت. سأغضب ثانية (تخاطب السيد ن) طيب، قل لي أليس كلامي صحيحاً. لأن روح الكاتب الكوميدي لا بد أن تكون باردة حتماً؟

زوج السيدة الثانية: أو حارة، لأن الطبع السريع التهيّج يثير أيضاً السخريات والانتقادات الهجائية.

السيدة الثانية: طيب، أو سريعة التهيج، ولكن ما يعني هذا؟ هذا يعني أن سبب هذه المؤلفات كانت دائماً الروح الصفراوية. التصلّب، السخط وقد تكون لها تبرير من جميع النواحي. ولكن لا دليل على أن ذلك وليد الحب الرفيع نحو الإنسانية، وليد الحب بصفة عامة. أليس صحيحاً؟

السيد ن: هذا صحيح.

السيدة الثانية: طيب قل لي أليس مؤلف الكوميديا بهذه الصورة؟

السيد ن: كيف أقول لكِ؟ أنا لا أعرفه معرفة قريبة، لأستطيع أن أحكم على روحه. ولكن حين أ تمثل إلى ماسمعت عنه فلابد أن يكون أنانياً أو رجلاً سريعِ التهيّج جداً.

السيدة الثانية: ألا ترى أنني كنت على معرفة جيدة بذلك؟

السيدة الأولى: لا أعرف السبب، ولكنني لا أحب أن يكون أنانياً.

زوج السيدة الأولى: هذا هو خادمنا قادم، يعني أن عربتنا جاهزة وداعاً، (يصافح السيدة الثانية) ألا تأتون إلينا؟ تشربون الشاي عندنا؟

السيدة الأولى (منصرفة): أرجوكم!

السيدة الثانية: بالتأكيد.

زوج السيدة الثانية: أظن عربتنا أيضاً جاهزة

(ينصرفان وراءهما)

(يدخل مشاهدان).

الأول: أريد أن تفسّر لي، إذا أخذت أي حدث أو شخصية أو نموذج على انفراد وجدت كل ذلك صحيحاً، حياً، مأخوذاً من الواقع، أما إذا أخذتها مجتمعة بدت لك مضخّمة، مبالغاً فيها، كاريكاتورية إلى درجة أنك تسأل نفسك لدى مغادرة المسرح: هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟ ومع ذلك فليسوا هم أشراراً.

الثاني: ليسوا أشراراً على الإطلاق. بل ينطبق عليهم المثل القائل: «ليس بالشرير ولكنه على النصب قدير»

الأول: ثم هناك شيء آخر. أليس هذا التراكم المضخم، هذا الإفراط هو نقيصة الكوميديا؟ قل لي أين ذلك المجتمع الذي يتألف من هؤلاء الناس فقط، وليس فيه، إن لم نقل النصف، أو على الأقل، جزء يسير من الناس الأسوياء؟ وإذا كانت الكوميديا يجب أن تكون لوحة ومرآة لحياتنا الاجتماعية، فيجب أن تعكسها بكل حقيقتها.

الثاني: أولاً، في رأيي أن هذه الكوميديا ليست لوحة مطلقاً، بل صورة إيضاحية بالأحرى، أنت ترى أن المشهد ومكان الحدث مثاليان. وإلا لما كان المؤلف سيأتي بأخطاء واضحة ومفارقات تاريخية، ولما وضع على لسان بعض الأشخاص أقوالاً لا تعود لهم سواء من حيث طبيعتهم، أو من حيث مرتبتهم ومنصبهم. الانفعال الأول فقط هو الذي شخص ما ليس له أي ظل لشخصية معينة، وما يعود لهذا القدر أو ذاك إلى الناس كلهم. إن هذه الكوميديا مكان تجميع. من كل أصقاع روسيا تقاطرت إليها الشذوذات عن الحقيقة والضلالات وأعمال استغلال النفوذ لتخدم فكرة واحدة، وهي إثارة النفور النبيل القوي في المشاهد إزاء كل ماهو وضيع. ومما زاد هذا الانطباع قوة أن أي واحد من الأشخاص الممثلين على المسرح لم يفقد مظهره الإنساني. فإن الجوهر الإنساني يتبدّى في كل مكان.

وهذا ما جعل خفقـان القلب أعمق. والمشاهد، وهو يضحك، يجد نفسـه يلتفت إلى الوراء دون أن يدري، وكأنمـا يشعر بأن ما ضحك منـه قريـب إليه، وأن عليه أن يظل متيقظـاً في كل لحظة حتى لا ينفذ إلى روحـه. ولعـلّ أضحك ما يوجـه إلى المؤلف مـن انتقادات هو: «لماذا شخوصه وأبطاله غـير جذابين» في حين أنه استخدم كل شيء لينفرعنهم. ولكن لو كانت الكوميديا تضم ولو شخصاً واحداً نزيهاً، ومصـوّراً بكل ما له من جاذبية، لتحوّل الجميع قاطبة إلى جانب هذا الشخص النزيه، ولنسوا كل شيء عن أولئك الذين أرعبوهم الآن هذا الرعـب. ولربما ما كانت هذه الشخوص ستبقى في خيال المشاهدين باستمـرار أناساً أحيـاء، إلى نهاية المسرحية. ولما تولـد لدى المشاهد شعور بالحزن، ولما قال «هل مثل هؤلاء الناس موجودون حقاً؟».

الأول: ولكن ذلك، على أية حال، لا يفهم دفعة واحدة.

الثـاني: طبيعي جـداً. أن المغزى الضمني يُدرك دائمـاً فيما بعد، كلما كانـت الشخوص التي يتجسد فيها ويتـوزع بينها أكثر حيوية وأشد سطوعاً كلما صار الانتباه إلى هذه الشخوص أعمّ وأشمل. إن محصلة الإبداع ومغـزاه لم يتكونا إلا بعد صياغتها سوية. ولكن فهم هذه المفردات وتوضيبها بسرعة، وقراءتها بنظرة شاملة ودفعة واحدة لا تتيسـر لكل إنسـان. وحتى ذلك الحين ولوقـت طويل سيظل هذا الإنسـان يرى المفردات فقط. وسترى، وأنـا أقول لك ذلك مقدماً: قبل كل شيء ستغضـب كل بلدة إقليمية في روسيا، وتؤكد بأن ذلك هجاء حاقد، افتراء مبتذل وضيع موجّه إليها بالذات.

(ينصرفان)

موظف: هذا افتراء مبتذل، وضيع. هذا هجاء، طعن!

موظـف آخـر: الآن، إذاً، لم يبق أي شـيء، لا حاجة إلى قوانين، ولا حاجـة إلى وظيفة. ولا حاجة إلى البزة الرسمية التي عليَّ ويجب

رميها. هي الآن خرقة.

(يركض شابان).

أحدهما. أوه، الجميع تملكهم الغضب، سمعت من الأحاديث، ما يجعلني، إذا نظرت إلى أي إنسان، أن أحدس ما يفكر في نفسه عن المسرحية.

الآخر: طيب، ماذا يفكر هذا؟

الأول: الذي يضع ذراعه في كم معطفه؟

الآخر: نعم.

الأول: هذا يفكر «على مثل هذه الكوميديا تستحق النفي إلى نيرتشينسك[1]....» على كل حال، يبدو أن المشاهدين في طبقات المسرح العليا أخذوا يخرجون. الظاهر أن الفودفيل انتهى. سيتدفق عامة الناس الآن لنخرج.

(ينصرفان).

(يتزايد الضجيج، وتصدر كركبة الأرجل من جميع السلالم. تراكض القفاطين، والمعاطف المدبوغة، والقلنسوات النسائية، وقفاطين التجار الألمانية الطويلة، والقبعات الثلاثية، والقبعات المرّيشة، والمعاطف من شتى الأصناف، اعتيادية وعسكرية ومستهلكة وذات ياقات فرائية. الجمع يدفع سيداً يضع ذراعه في ردن معطفه، فيتنحى السيد، ويواصل لباس معطفه في ناحية. يظهر في الحشد سادة وموظفون من كل الأنواع والأصنافز خدم في بزة خدم يزيحون الناس عن طريق سيداتهم، تردد صيحة نسائية: «يا أولياء، حصروني من كل الجهات»)

(١) منطقة في سيبيريا ، حيث نفي الديسمبريون. المترجم.

موظف شاب ذو طبع مراوغ. (يتقدم من السيد الذي يلبس معطفه). يا صاحب السعادة، اسمحوا لي بأن أسندكم!

السيد ذو المعطف: آه، مرحباً، أنت هنا، جئت لتشاهد المسرحية؟

الموظف الشاب: نعم، يا صاحب السعادة. مسلية بملاحظاتها الدقيقة.

السيد ذو المعطف: هراء! ليس فيها ما يُسلي.

الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة، ليس فيها ما يسلّي إطلاقاً.

السيد ذو المعطف: مثل هذه الأشياء تستحق الجلد، لا الثناء.

الموظف الشاب: هذا صحيح، يا صاحب السعادة.

السيد ذو المعطف: إنهم يسمحون للشباب بالدخول إلى المسرح. لا أراهم يجنون من ذلك فائدة كبيرة. ها أنت مصلاً، ستذهب إلى دائرتك غداً، وتغلظ القول بلا حياء، أليس كلامي صحيحاً؟

الموظف الشاب: غير ممكن، يا صاحب السعادة!... اسمح لي بأن أزيح الناس عن طريقكم! (يدفع هذا وذاك من الناس ويصيح على الجميع). يا هؤلاء، تنحوا، الجنرال قادم! (يقترب باحترام مبالغ من رجلين حسني الهندام). أيها السادة، اعملوا معروفاً، واجعلوا الجنرال يمرّ.

(الرجلان الحسنا الهندام ينتحيان ويفسحان الطريق).

الأول: ألا تعرف أي جنرال هو؟ ربما هو مشهور؟

الثاني: لا أعرف. لم أره من قبل.

موظف كثير الكلام (يتقدم منهما من الخلف): مجرد مستشار مدني، مسجل على الدرجة الرابعة بأحقيته. يالها من سعادة! في خمسة عشر عاماً من الخدمة منح وسام فلاديمير، وآنا، وستانسلاف،

وثلاثة آلاف روبل مرتبـاً، وألفين إضافة للمصروفات الجانبية، ثم ما يطلع له من المجلس، ومن اللجنة، ومن الدائرة.

الرجلان الحسنا الهندام (أحدهما للآخر): لننصرف!

(ينصرفان)

الموظف الكثير الكلام: أظنهمـا مدللين من أمهما. ربما يشتغلان في نِظارة الخارجية. أنا لا أحب الكوميديا، ذوقي يميل إلى التراجيديا أكثر. (ينصرف).

صوت من الزحام: ياه، ما أكثر الناس!

ضابط (يشق طريقه متأبطاً ذراع سيدة): هاي، يا أبا لحية، ما هذا التدافع؟ ألا ترى السيدة؟

التاجر (متأبطاً ذراع سيدة): عندنا أيضاً سيدة.

صوت من الزحام: هاهـي استدارت، هل تراها؟ ازدادت قبحاً، ولكن قبل ثلاثة أعوام....

أصـوات متنوعة: وثلاث قطع نقدية، تسمـع، أخذت منه البقية مسرحية حقيرة شنيعة! مسرحية مسلية! مالك تدوس على خناقي؟

صـوت من أحد طرفي الزحـام: كل هذا سخافة! أيـن أمكن أن يحدث هذا؟ مثل هذا لا يمكن أن يحدث إلا في جزيرة تشوكوتكا.

صـوت من الطرف الآخر: مثل هـذا الحادث بالضبط حدث في بلدتنـا. مـن المحتمل أن يكون المؤلف قد سمع بـه، إن لم يكن نفسه موجوداً هناك.

صـوت التاجـر: ولكنـه هنـا لا مؤاخذة، يُشـدِّد علـى الناحية «الخلاقية»! أكثر، إذا صح القول. ثم ما أكثر ما يحدث في الدنيا، في الحقيقة! هذا قد يقع للرجل النزيه أيضاً، لا مؤاخذة... أما من الناحية «الأخلاقية» فيحصل للنبلاء أيضاً.

صوت سيد مشجّع: لابد أنه مؤلف مكّار غشاش، جرّب كل شيء، ويعرف كل شيء!

صوت موظف مغتاظ: ولكنه مجرّب، على ما يبدو. ماذا يعرف؟ لا يعرف شيئاً إطلاقاً! إنه يكذب، يكذب. كل ما كتبه، كل ذلك أكاذيب. والرشاوى لا تؤخذ بهذا الشكل، إذا أردنا الحقيقة....

صوت موظف آخر من الزحام: ما لك تكرّر: «مضحكة، مضحكة»! هل تعرف لماذا هي مضحكة؟ كلها عن أشخاص معينين. عرض على المسرح جداته وعماته. ولهذا فهي مضحكة.

صوت مجهول: إلحقوني، سرقوا المنديل!

(ضابطان يعرف أحدهما الآخر يتكلمان عبر الزحام).

الأول: ميشيل، إلى هناك؟

الثاني: إلى هناك؟

الأول: وأنا سأكون هناك أيضاً.

موظف وجيه المظهر: لو كان الأمر بيدي لمنعت كل شيء. لا حاجة إلى نشر أي شيء. ا ستفيدوا من التعليم، واقرأوا، ولكن لا تكتبوا. كُتِب ما يكفي من الكتب ولا حاجة إلى المزيد.

صوت من الجمهور: إذا أنت وغد، فأنت وغد على كل حال وحين لا تكونه لا أحد يضحك منك.

سيد جميل مكتنز (يتحدث بحرارة مع آخر دميم قصير): الأخلاق، الأخلاق تعانين هذا هو أهم شيئ!..

السيد الدميم القصير واللاذع اللسان: ولكن الأخلاق شيء نسبي.

السيد الجميل المكتنز: ماذا تعني بصفة «النسبي» هذه؟

السيد الدميم واللاذع اللسان: أقصد أن كل إنسان يقيس الأخلاق على نفسه. وأحد يرى الأخلاق أن يرفع الناس له قبعاتهم عند التقائه في الشارع، والآخر يرى الأخلاق في التغاضي عما يسرقه هو، والثالث يرى الخلاق في الخدمات التي تقدم لمحظيته. أليس من المألوف أني قول أي واحد منا لمرؤوسيه بتعالٍ: «يا حضرة المحترم، اسع إلى القيام بواجبك لما فيه خير ربك والقيصر والوطن». وتعالَ فكر بعد ذلك مع نفسك فيما هو هذا الخير. وعلى العموم هذا ما يحصل في الأقاليم، ولا وجود له في العواصم. أليس كذلك؟ وإذا صار لأحد الأشخاص هنا بيتان فجأة في ظرف ثلاث سنوات فما سببه؟ أظنه نزاهة لا غير أليس كذلك؟

السيد الجميل المكتنز (جانباً): دميم كالشيطان، ولكن له لسان الأفعى.

السيد الدميم اللاذع اللسان (يلكز ذراع رجل غريب عليه تماماً، مشيراً إلى السيد الجميل): أربعة بيوت في شارع واحد، ارتفعت واحداً جنب الآخر خلال ستة أعوام! انظر أي تأثير للنزاهة على مخلوق خامل. ها؟

الغريب (يبتعد مسرعاً): اعذرني، لم أسمع كل كلامك.

الدميم اللاذع اللسان (يلكز ذراع جاره الغريب عليه): كيف استشرى الطرش الآن في المدينة! إنه المناخ الرطب غير السليم يخلف أثره.

الجار الغريب: والزكام استشرى كذلك! جميع أولادي أصيبوا به!

الدميم اللاذع اللسان: نعم، الزكام والطرش. والتهاب اللوزتين أيضاً (يختفي في الزحام).

(حديث في مجموعة في ناحية)

الأول: يقولـون إن الحادث ذاته وقـع للمؤلف نفسه. قضى مدة طويلة في سجن إحدى البلدات.

سيـد في الطرف الآخر مـن المجموعة (يعلق علـى كلامه): لا، لم يكـن هـذا في سجن، بل في برج، وقـد رآه الذين مروا من هناك. يقولـون كان شيئـاً عظيماً. تصوّروا شاعراً علـى أعلى برج، وحوله جبال ومناظر خلاّبة، وهو ينشد الأشعار من هناك، أليست هذه ميزة خاصة بالشاعر؟..

سيد إيجابي: لابد أن يكون المؤلف ذكياً.

سيـد سلبي: ليس ذكياً أبداً أعرف أنه كان في وظيفة، وكاد يُطرد منها، لأنه لم يكن يعرف كتابة الرجاوات.

مجرد كذاب. دماغ فطن، فطن! ظلوا زمناً طويلاً يرفضون إعطاءه وظيفة. فماذا تتصورون؟ كتب رسالة إلى الوزير مباشرة. وأية رسالة! على طريق الإطناب والإسهاب. حالما بدأ بـ «يا صاحب المعالي...» حتى سـال القلم وسـال.... وحبّر ثماني صفحـات. وعندما قرأها الوزير قال «شكراً، شكراً!، ها أنا أرى أن لك أعداء كثيرين: سأعينك رئيس قسم!» وهكذا انتقل رأساً من صنف الكتبة إلى رئيس قسم.

السيـد الطيب القلب (مخاطباً شخصاً آخـر بارد الأعصاب): الله يعلـم بمن يصدق الإنسان! هذا يقـول: كان في السجن، وذاك صعد على برج! وهذا طردوه من الوظيفة، وذاك أسندوا له رئاسة قسم!

السيد البارد الأعصاب: خذ الكلام على عواهنه؟.

السيد الطيب القلب: كيف على عواهنه؟

السيـد البـارد الأعصـاب: أقصد هـم أنفسهم لا يعرفـون ماذا سيسمعون مـن ألسنتهم بعد دقيقتين. اللسان يلوك الأخبار بلا رقابة مـن صاحبه. وصاحبه مرتاح يعود إلى البيت، وكأنه شبع من اللوك.

وفي اليـوم التالي يكون قد نسي ما لفقه. يتصوّر أنه سمعه من آخرين فينشره في المدينة كلها.

السيد الطيب القلب: ولكن من المخجل أن تكذب دون أن تحس أنت بذلك.

السيـد البـارد الأعصـاب: وهناك حساسـون أيضاًز هنـاك مَنْ يحسـون بأنهم يكذبون، ولكن يرونه ضـرورة للحديث، على المثل القائل: السنابل زينة الحقل، والكذب زينة الحديث.

سيـدة من مجتمع وسط: ولكن لابد أن يكـون هازئاً شديد الحقد هـذا المؤلـف! لا أريد بصراحة أن تقـع عيناه عليَّ. فقـد يلحظ شيئاً مضحكاً فيَّ.

سيد ذو اعتبار: أنا لا أعرف أي إنسان هو. هذا، هذا، هذا...... لا شيء مقدس عند هذا الرجل. اليوم يقول هذا الموظف سيئ. وغداً سيقول الله غير موجود. بين هذا وذلك خطوة واحدة.

سيـد ثان: استهزاء! ولكن لا يجوز المـزاح بالاستهزاء. هذا يعني هـدم كل احترام. هذا معناه. وبعد هذا كله سيضربني أي شخص في الشـارع ويقول: «إنهم يضحكون منكـم، فأنت تحمل نفس الرتبة، تلق هذه الصفعة إذاً!»، هذا معناه.

سيـد ثالث: بالطبـعَ هذا شيء خطير! يقولون «هـذه ألعوبة، أمر تافـه، تمثيل مسرحي». لا، هذه ليست ألاعيب بسيطة، ويجب النظر إليـه باهتمام صارم، مثـل هذه الأشياء توجب النفـي إلى سيبيريا. لو كانـت لي سلطة لجعلت هـذا المؤلف لا ينطق بحـف، ولأرسلته إلى مكان لا يرى فيه حتى ضوء النهار.

(تظهـر جماعة من الناس مـن نمط غريب، ولكنهـم ذوو مظهر نبيل، وملبس معتبر).

الأول: الأحسن أن نقف هنا، حتى ينجلي الزحام، ما هذا في الحقيقة! ضجة وتصفيق وكأن في الأمر معجزة أو شيئاً لا يعرفه إلا الله. مسرحية تافهة، فارغة المضمون، ولكنهم يثيرون الضجيج ويصرخون، ويدعون المؤلف إلى الظهور على المسرح. فأي شيء هذا!...

الثاني: المسرحية. على العموم، أشاعت المرح، وأثارت التشويق.

الأول: أي، نعم، أشاعت المرح، مثلما يثيره أي عبث. ولكن لماذا تسبب هذه الصرخات والأقاويل؟ يتناقشون، وكأنما في شيء مهم، ويصفقون.... ولكن ما هذا؟ طيب، أنا أفهم، إذا كان على المسرح مغن أو راقصة. هذا مفهوم، لأن الناس تعجب بالفن، باللدانة، بالخفة، بالموهبة الأصيلة. ولكن ماذا هنا؟ يصيحون: «أديب! أديب! أديب! كاتب!» وأي شيء هو الكاتب؟ كلمة نابهة ترد هنا وهناك، وتصوير منقوش من الواقع.... وأي جهد في هذا؟ ماذا فيه؟ هي أباطيل لا أكثر.

الثاني: صحيح، إنها مسرحية تافهة.

الأول: خذ الراقص، مثلاً، فن، على كل حال. ولا تستطيع أن تقوم بما يقوم به. قد تكون لدي الرغبة، مثلاً، ولكن رجليّ لا تستجيبان لي. أريد أن أقفز، ولكن هيهات. ولكن الكتابة ممكنة حتى لغير المتعلم. أنا لا أعرف مَنْ هذا المؤلف، ولكنني سمعت أنه إنسان جاهل تماماً، ولا يعرف أي شيء. يبدو أنه مطرود من وظيفته.

الثاني: ولكن لابد أن يعرف شيئاً. فبدون ذلك يستحيل أن يكتب.

الأول: أوه، يا صاحبي وماذا يمكن أن يعرف؟ أنت نفسك تعرف ماهو الأديب: أفرغ إنسان. العالم كله يعرف أنه لا يصلح لأي شيء. حاولوا استخدام هؤلاء الناس، وتركوهم. طيب، قل لي، ماهذا الذي

يكتبونه؟ سفاسف، وأباطيل! أنا إذا أردت كتبت حالاً، وأنت أيضاً تقدر، وهو يقدر، وأي شخص يقدر.

الثاني: نعم، بالطبع، و لم لا، ذرة من العقل ونقدر.

الأول: حتى العقل لا حاجة له. وما علاقة العقل هنا؟ هذا مجرد تلفيق أباطيل، قد تكون هناك حاجة إلى العقل إذا كان الأمر يتعلق بعلم ودراسة، مثلاً، بمادة لا تعرفها بعد، أما هذا، فأي شيء هو؟ يعرفه كل مَنْ هب ودب. تراه في الشارع كل يوم. وما عليك إلا أن تجلس عند النافذة، وتكتب كل ما يحصل. وهذا كل مافي الأمر!

الثالث: هذا صحيح. تصوّر، يضيعون الوقت على مثل هذه السخافة!

الأول: ضياع الوقت بالذات، ولا أكثر! هؤلاء صانعو أباطيل وخزعبلات. وما عليك إلا أن تمنعهم من أن يمسكوا الريشة والمحبرة في أيديهم. على كل حال، الناس يخرجون، فلنذهب! ضجيج، وصياح، وتشجيع! بينما لا شيء غير التفاهة! أباطيل!

(ينصرفون. انفضّ الزحام وبعض المتأخرين يركضون).

موظف طيب القلب. على كل حال، لو مثلوا لنا شخصاً واحداً نزيهاً! ولكن الجميع نصابون، ونصابون!

واحد من الشعب: اسمع، انتظرني عند مفرق الطريق! وسآخذ أنا قفازي بسرعة.

واحد من السادة (ينظر في ساعته): الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. لم أتأخر قط في الخروج من المسرح هذا التأخير. (ينصرف).

موظف متأخر: ضاع الوقت هباء! لا، لن أذهب إلى المسرح بعد الآن! (ينصرف).

(الرواق يفرغ).

مؤلـف المسرحية (يتقدم): سمعت أكـثر مما كنت أنتظر. مجموعة شتـى من الأقوال! سعيـد ذلك الكوميدي الـذي يولد في أمة حيث المجتمـع لم يتكـوّر بعد في كتلـة واحدة جامـدة، ولم يتغلّف بقشرة واحدة مـن النعرة القديمة التي تحصر أفـكار الجميع في قالب واحد، ومقياس واحـد، وحيـث لـكل إنسـان رأيـه، وكل إنسـان يخلق شخصيته بنفسه. تنوع كبـير في هذه الآراء، وتألق شامل لهذا العقل الروسـي الركين الصافي، سواء في الطمـوح النبيل لرجل الدولة، أو في التفـاني السامـي للموظف المنـزوي في صقع نـاء! أو في الجمال الرقيق للمـرأة الأريحية النفس! في الشعور الجمالي لهواة الفن! وفي الإحساس البسيط والأصيل للشعـب! وحتى في تلك الآراء السلبية الناكرة الكثير مما ينبغي أن يعرفه الكوميدي! أي درس حيّ هذا! نعم، أنـا مرتاح. ولكن لماذا يثقل الحزن على قلبي؟ من الغريب أن أحداً لم يلحـظ، مع الأسف، وجود أي شخص نزيه في مسرحيتي. بينما فيها شخص واحد نزيه شهم يظهر طوال المسرحية كلها. إن هذا الشخص النزيـه الشهم هو الضحك. كان شهماً، لأنـه عزم على المشاركة في التمثيل، على الرغم من الأهمية الضئيلة التي تُعطى له في الحياة. كان شهمـاً، لأنه عزم على المشاركة، على الرغم من أنه ألحق بالكوميدي صفة مهينة، صفة الأناني البارد، بل وجعل الآخرين يتشككون حتى في امتلاكـه العواطف القلبيـة الرقيقة. إن أ حـداً لم يقف إلى جانب الضحك هـذا. وأنا كوميـدي، خدمته بإخلاص، ولهـذا يجب أن أقـف إلى جانبه. إن الضحـك أكثر أهمية وأعمق ممـا يتصور الناس. وأنـا لا أعني ذلـك الضحك الذي يولـده التهيج المؤقـت، والمزاج الصفـراوي المرضـي، ولا ذلك الضحـك الخفيف الـذي يستخدم للتسليـة الرخيصة وإلهاء الناس. بل ذلـك الضحك النابع بكليته من طبيعـة الإنسـان الوضاءة، النابـع منها، لأن في قاعهـا يوجد ينبوعه المتدفـق أبداً، الضحك الـذي يعمق الموضوع، ويخـرج من الباطن ويجعل ما سيضيع حتماً يتألق ساطعاً، ولولا قوته النافذة، لما أ فزعت

الحيـاة الإنسانية هذا الفزع الرهيب بصغائرها وخوائها. ولما تضخم مـا يصادفه كل يوم من مزدري وتافه، وهو غير مكترث، لينمو أمامه بتلـك القوة الرهيبة، الكاريكاتوريـة تقريباً، ولما صرخ مرتعداً: «هل مـن المعقـول أن هناك مثل هـؤلاء النـاس؟» بينما يوجـد، في وعيه الذاتـي، أناس أسوأ. لا. ليسـوا منصفين أولئك الذيـن يزعمون أن الضحـك يزعجهم. فالمزعج هو الكئيب وحده، أما الضحك فيبهج النفسـ. أشياء كثـيرة لو مثلت في عريها أزعجـت الإنسان، ولكنها ستثـير الطمأنينة في النفس لو نورتها قـوة الضحك. والذي كان من الممكـن أن ينتقم من الشرير سيتسامح معـه، إذا رأى حركات نفسه الدنيئة موضع إضحاك للناس. وليسوا على حق أولئك الذين يقولون بـأن الضحـك لا يؤثر في الذي يُشهر ضـده، والمحتال سيكون أول من يضحك مـن المحتال الذي يُمثّل على المسـرح. إن المحتال القادم قـد يضحك، ولكن ليس في مقدور المحتـال الذي عايش الأحداث الممثلة في المسرحية أن يضحك! فهو يسمع أنه صار لدى جميع الناس صورة ثابتة لا تتغير، وإن أية حركة وضيعة من جانبه تكفي لأن تعلق به هذه الصورة إلى الأبد. إن السخريات مخيفة حتى لمن لا يخاف أيّ شـيء في الدنيـا. أجل، إن النفس الطيبة مـن الأعماق وحدها قادرة على أن تضحك الضحك الطيب المشرق. ولكن الناس لا تستمع إلى قوة هذا الضحك الجبّارة فالمجتمع الراقي يقول: «كل ماهو مضحك وضيع»، والسمو لا يطلق إلا على ما ينطق بالصوت الصارم المتوتر. ولكن، أواه! كم يمرّ أمامنا كل يوم من الذين لا يستشعرون السمو في أي شـيء في الدنيا! فكل ما أبدعه الإلهام الروحي هو، بالنسبة لهم، سفاسف، وأباطيل. أعمال شكسبير عندهم أباطيل، خفقات الروح القدسية عندهم أباطيل. وأنا لا أقول ذلك ثأراً لكبرياء الكاتب المهانة التافهة، ولا لأن أعمالي الضعيفة وصفت قبل لحظات بالأباطيل، بل أرى عيوبي، وما يستحق العتاب والاستنكار، ولكن روحي السمحة لم تستطـع أن تتحمـل بلا اكتراث، حين وصفـت أكمل الإبداعات

بالسفاسف والأباطيل ولم يعترف نجوم المجتمع وأساطينه بغير صانعي الأباطيل! روحي توجعت، حين رأيت كم هم كثيرون هنا أيضاً، وسط الحياة نفسها، أولئك السُوْقة اللامبالين، الأنفس الميتة، المرعبين ببرود روحهم، وعقم قلبهم الفارغ. توجعت روحي، حين لم يرف على وجوههم الخالية من العطف حتى طيف إحساس بما كان يجعل النفس العميقة الحب تذرف الدموع السماوية، ولم يخمد لسانهم من ترداد كلمته المستديمة «سفاسف وأباطيل»! أباطيل!.... وقد مرّت القرون، واندثرت المدن والشعوب، وامحت من وجه الأرض، وتلاشى كل ماكان كالدخان، وهذه «أباطيل» حيّة، وتعاد حتى اليوم، ويستلهمها القياصرة الحكماء، والحكام المتبصرون، الشيخ الجليل، والشاب المفعم بالطموح النبيل. «أباطيل»!.. ولكن ها هي شرفات المسارح وسلالمها تئن، فقد اهتز كل شيء من الأسفل إلى فوق، وتحول إلى شعور واحد، إلى لحظة واحدة، إلى شخص واحد، والتقى جميع الناس، كالأخوة، في عاطفة قلبية واحدة، وينشد التصفيق الجماعي الهادر نشيد الامتنان لذلك الذي غادر الدنيا منذ خمسمئة عام. فهل تسمع هذا النشيد عظامه النخرة في القبر؟ وهل ترد روحه التي عانت من شظف الحياة الفظ؟ «أباطيل»! ... وهنا بين صفوف الحشد المتأثر رجل سحقته المصيبة، ورهق الحياة الذي لا يحتمل، وهيأه اليأس للانتحار، حضر العرض، وطفرت الدموع المنعشة المطهرة من عينيه فجأة، وخرج مطمئناً ومتصالحاً مع الحياة، يسترحم السماء بأن تمتحنه مرة أخرى ببلية وعذابات، لمجرد أن يعيش ويذرف الدموع مرة أخرى من مثل هذه «الأباطيل». «أباطيل!».. ولكن العالم سيغفو بدون هذه «الأباطيل»، وتضمحل الحياة، ويخيم على النفوس العفن والحمأة. «الأباطيل»!.. ألا فلتبق مخلدة مقدسة في الأجيال القادمة أسماء الذين استلهموا هذه «الأباطيل» بإخلاص وعطف. ولتظل يد العناية الإلهية تبارك مبدعيها أبد الآبدين. وحتى في لحظات المآسي والمضايقات كانت تجد الحماية، قبل كل شيء،

لــدى أ نبل مــن في الدولة: لــدى العاهل المتوج الــذي كان يحميها بدرع مُلكه من علياء عرشه المنيع.

فســر في طريقــك أكــثر حيويــة! ولا تتكــدر روحك مــن اللوم والعتــاب، ولكــن تقبــل بسماحة نفــس الإشــارة إلى النقائص، ولا يحزنــك حتى لو أنكرت عليها الخلجــات السامية، وحب الإنسانية المقدس! إن الدنيا كالدوامة تتقلب فيها الآراء والأقوال دائماً. ولكن الزمــن يطحــن كل شيء. الــكاذب منهــا يتطاير كالقشــور، وتبقى الحقائــق الدامغة كالحبــوب الصلبة. وقــد يكتسب أهميــة بالغة في المستقبــل مــا كان يسمى تافهاً ومجرداً من المغــزى وقد تنشأ في عمق الضحك البارد الشرارات اللاهبة للحب الأبدي الجبار. ومَنْ يدري، فقــد يعترف الجميع فيمــا بعد بمفعــول القوانين التي تجعــل الإنسان المتكبر القوي تافهاً وضعيفاً عند البلية، ويشتد الضعيف بين النكبات ويصير كالعملاق. قد يعترفــون بموجب تلك القوانين ذاتها بأن: من يذرف الدموع القلبية الصادقة غالباً، يكون أكثر الناس ضحكاً، على ما يبدو!

***

خطوبة

قصة غير محتملة الوقوع إطلاقاً في فصلين

(كُتبت في ١٨٣٣).

الشخصيات

آغافيا تيخونوفنا	ابنة تاجر، الخطيبة.
أرينا بانتيليمونوفنا	عمتها.
فيكلا ايفانوفنا	الخطابة.
بودكليسين	موظف من الدرجة الراقية.
كوتشكاريوف	صديقه.
بايتشنيتسا	مسؤول إدارة.
انوتشكين	ضابط مشاة متقاعد.
جيفاكين	بحارز
دونياشكا	وصيفة.
ستاريكوف	تاجر في سوق المدينة.
ستيبان	خادم بودكليسين.

الفصل الأول

المشهد الأول

(غرفة أعزب).

بودكليسين (يرقد وحده على الأريكة يدخن غليوناً).

حالمـا تخلو إلى نفسـك في أوقات الفراغ لتفكـر حتى ترى من الضروري أن تتزوج في آخر المطاف. وماذا في ذلك في الواقع؟ أنت تقضي أيامك ولياليك، إلى أن تسوء حالتك في النهاية. آه، فوّت عليَّ عيد الفطر مرة أخرى. يبدو أن كل شيء جاهز، والخطّابة تتردد عليَّ منذ ثلاثة أشهر. أشعر بالخجل من نفسي حقاً. أسمع، يا ستيبان.

المشهد الثاني

(بودكليسين و ستيبان).

بودكليسين: ألم تأتِ الخطابة؟

ستيبان: لا.

بودكليسين: هل كنتَ عند الخياط؟

ستيبان: كنتُ.

بودكليسين: هل هو يشتغل في خياطة الفراك؟

ستيبان: نعم.

بودكليسين: وأنجز كثيراً؟

ستيبان: نعم، إلى حد ما. بدأ يدرز العروات.

بودكليسين: ماذا تقول؟

ستيبان: أقول بدأ يدرز العروات.

بودكليسين: ألم يسأل لماذا يحتاج سيدك إلى بدلة فراك؟.

ستيبان: لا، لم يسأل.

بودكليسين: ربما قال ألا يحب السيد أن يتزوج؟

ستيبان: لا، لم يقل شيئاً.

بودكليسين: على كل حال، هل رأيت عنده بدلات فراك أخرى؟ فهو يخيط للآخرين أيضاً؟

ستيبان: نعم، عنه بدلات فراك كثيرة معلّقة.

بودكليسين: على العموم أظن قماشها أسوأ من قماش بدلتي؟

ستيبان: نعم، قماش بدلتك يبدو أكثر رونقاً.

بودكليسين: ماذا تقول؟

ستيبان: أقول قماش بدلتك يبدو أكثر رونقاً.

بودكليسين: طيب، طيب. ألم يسأل لماذا يفصّل سيدك بدلة فراك من قماش ناعم فاخر؟

ستيبان: لا.

بودكليسين: ولَمْ يتطرق إلى أنني أريد أن أتزوج؟

ستيبان: لا، لم يذكر ذلك.

بودكليسين: على كل هل قلت ما هي رتبتي، وفي أي دائرة أعمل؟

ستيبان: قلت.

بودكليسين: وبماذا علّق؟

ستيبان: يقول سأبذل جهدي.

بودكليسين: طيب، اطلع، الآن.

(ستيبان ينصرف).

المشهد الثالث

(بودكليسين وحده).

أعتقـد بدلة الفراك السوداء أكثر اعتبـاراً، الملوَّنة تليق أكثر بذوي الرتب الصغيرة، بأناس تافهين. وذوو الرتب الأعلى يجب أن يراعوا مـاذا يسمونـه... أوه، نسيت الكلمة! كلمة لطيفـة، ولكن نسيتها. نعم، يا مولاي، مهما قلّبـت الأمر مع نفسك فإن رتبتك تعادل رتبة عقيد. سوى أن بزّتك بلا كتافيات. ستيبان، تعال!.

المشهد الرابع

(بودكليسين وستيبان).

بودكليسين: اشتريت دهاناً للحذاء؟

ستيبان: اشتريت.

بودكليسين: من أين اشتريته؟ من الدكان الذي قلت لك عنه، في شارع فوزنسينسكي؟

ستيبان: نعم، منه بالضبط.

بودكليسين: والدهان جيد؟

ستيبان: جيد.

بودكليسين: وهل جربت دهن الجزمة به؟

ستيبان: جرّبت.

بودكليسين: وتلمع؟

ستيبان: تلمع جداً، على أحسن ما يرام.

بودكليسين: وحين أعطاك الدهان ألم يسأل لماذا يحتاج سيدك إلى مثل هذا الدهان؟

ستيبان. لا.

بودكليسين: ألم يقل أن سيدك ينوي الزواج؟..

ستيبان: لا ، لم يقل شيئاً.

بودكليسين: طيب، اطلع.

المشهد الخامس

(بودكليسين وحده).

الجزمـة تبدو لا شـيء في الوهلة الأولى، ولكـن، إذا كان فصالها رديئـاً، والدهان عـلاوة على ذلـك أصفر على أحمـر، عند ذاك لا تجـد احترامـاً في المجتمع الراقـي. لا يستقبلونك بالقـدر اللائق من الاحـترام... ولكـن لا شيء اكـثر إزعاجاً حين تخلـف في قدميك مسامـير. أنا مستعد أن أتحمـل كل شيء ما عدا مسامير القدم. تعال، يا ستيبان.!

المشهد السادس

(بودكليسين و ستيبان).

ستيبان: ماذا تأمر؟

بودكليسين: هل قلت للإسكاف أن يصنع جزمة لا تخلف مسامير في القدم؟

ستيبان: قلت.

بودكليسين: وماذا يقول؟

ستيبان: يقول، حسناً.

(ستيبان ينصرف).

المشهد السابع

(بودكليسين، وبعد ذلك ستيبان).

بودكليسين: الزواج شيء متعـب، عليه اللعنة! تقوم بهذا وتفعل ذاك. ليكـون سليمـاً صالحـاً. أوه، مـا ألعنـه، ليس بالسهولة التي يتصورها الناس. اسمع، يا ستيبان!.

(ستيبان. يدخل).

أردت أن أقول لك أيضاً...

ستيبان: العجوز وصلت.

بودكليسين: ها، وصلت، أدعها إلى هنا.

(ستيبان ينصرف).

آوه، هذا شيء... يعني شيء.... شيء صعب.

المشهد الثامن

(بودكليسين وفيكلا)

بودكليسين: أهلا، أهلا، يا فيكلا إيفانوفنا. طيب؟ كيف؟ تناولي مقعداً، واجلسي، واحكي لي. طيب، كيف وكيف؟ كيف هي، اللي اسمها... نسيت... ملانيا؟

فيكلا: أغافيا تيخونوفنا.

بودكليسين: نعم، نعم، أغافيا تيخونوفنا. أظنها آنسة في الأربعين؟

فيكلا: لا، أبداً. يعني إذا تزوجتها ستمتدحني وتشكرني طوال عمرك.

بودكليسين: تكذبين يا فيكلا ايفانوفنا.

فيكلا: كبرت على الكذب، يا عم، الكلب يكذب.

بودكليسين: وجهاز العروس، الجهاز؟ أعيدي الكلام عنه مرة أخرى.

فيكلا: جهاز العروس بيت آجري في الحي الجنوبي، من طابقين، يأتي بأرباح تفتح النفس، أحد التجار يدفع سبعمئة على حانوته فيه. وحانة في سرداب تجذب الزبائن الراقيين. وملحقان من الخشب، الملحق الأول خشبي كله، والملحق الثاني له أساس من الحجر. كل واحد منهما يعطي أربعمئة روبل ربح. ويوجد أيضاً بستان خضراوات في ناحية فيبرغسكايا استأجره تاجر قبل سنتين كان يزرع الكرنب فيه، ويا عيني عليه من تاجر، لا يضع قطرة خمر في فمه، وله ثلاثة أبناء. زوّج اثنين منهم، والثالث يقول عنه ما يزال صبياً،

ويتركـه في حانوتـه ليساعده في البيع. يقول أنـا عجوز فليجلس في الدكان ليسهل عليَّ البيع.

بودكليسين: وهي، كيف هي؟

فيـكلا: مثل السكر الصافي! بيضاء مـوردة، جمال وعافية. آخر حلاوة! يعجز اللسان. ستكون مرتاحاً إلى هنا (تشير إلى حنجرتها). أقصـد ستقـول للصديق والعـدو: «الشكر، الشكـر الجزيل لفيكلا ايفانوفنا».

بودكليسين: ولكنها ليست من عائلة راقية.

فيـكلا: ابنة تاجـر عال العال، حتى الجـنرال لا يأنف من الزواج منهـا. لا تريد حتى أن تسمع باسم تاجر إذا تقدم لخطبتها. تقول لي: «أريـد زوجاً مـن الأشراف حتى لو كان دميـم الخلقة». وأي ظرف وكياشـه! وفي أيام الآحاد حين تلبـس فستانها الحريري وتهفهف به وحق المسيح لا تحسبها إلا أميرة.

بودكليسين: أنـا أسألك لأنني مستشار برتبـة مقدم، يعني أريد، أنت تفهمين...

فيـكلا: أكيد أفهم وكيف لا أفهم. كان عندنا خطيب برتبة مقدَّم أيضـاً، ولكنهم رفضوه، لم يعجبهم. وكان لـه طبع عجيب غريب، لا يقـول كلمة إلا ويكـذب، بينما كان لطيف الشـكل من الخارج. ما العمل؟ هكذا خلقـه الله. هو نفسه غير مرتاح من ذلك، يعني من كذبه المستمر ولا يقدر أن يقاوم نفسه، هذه إرادة ربنا.

بودكليسين: طيب، غيرها، لا توجد أخريات؟

فيكلا: ولماذا تريد غيرها؟ هذه أجمل البنات.

بودكليسين: تظنينها أجمل البنات؟

فيكلا: حتى ولو فتشت الدنيا كلها، لن تجد مثلها.

بودكليسين: سنفكر يا امرأة سنفكّر. تعالي بعد غد. أنا وأنت بهذا الشكل، يعني تعرفين. أنت تحكين لي، وأنا مستلق...

فيكلا: ولكن، اعذرني يا محترم! أنا منذ شهرين أجيء إليك. وما من فائدة، أراك دائماً في روبك، تدخن الغليون، ولا يطلع منك شيء.

بودكليسين: وأنت تتصورين الزواج مثلما أقول للخادم «اسمع، يا ستيبان، هات الجزمة!» وألبسها وفي أمان الله؟ يجب أن أفكر، أعاين.

فيكلا: ولم لا؟ عاين، إذا كنت تريد. ما وجدت البضاعة إلا لهذا. اطلب قفطانك مادام الوقت صبحاً، واذهب وعاين.

بودكليسين: الآن؟ انظري أي جو ماطر الآن. أخرج ويصيبني المطر فجأة.

فيكلا: ولكن ستندم! الشيب يطل في رأسك، وعن قريب إذا فاتك الزواج لا تعتب علي. وكأن الدنيا قحطت من رتبة مقدّم! مثلك من العرسان نغرفهم غرفاً، أما خطيبتنا فنختار لها عريساً فاخراً.

بودكليسين: ما هذه الثرثرة؟ ماذا جرى لك لتقولي فجأة أن الشيب قد خط رأسي. أين الشيب في شعري؟ (يتلمّس شعره)..

فيكلا: لا يمكن بدون شعر أشيب، هذا مصير الإنسان. فلا تتعنّت! هذه لا تعجبك وتلك لا تعجبك. عندي ضابط قبطان لا تصل أنت حتى إلى كتفه. وإذا تكلم كان عالي الصوت كالبوق. يشتغل في الأميرالية.

بودكليسين: أنت تكذبين، سأنظر في المرآة، من أين اختلقت الشعر الأشيب؟ يا ستيبان، هات المرآة! لا، انتظر، سأذهب بنفسي. لا سمح الله، هذه أسوأ من الجدري. (ينصرف إلى حجرة مجاورة).

المشهد التاسع

(فيكلا وكوتشكاريوف يدخل راكضاً).

كوتشكاريـوف: كيف الحال يـا بودكليسـين؟.. (يرى فيكلا) كيف، أنت هنا؟ آه، يا لك! ... يا رب! لماذا زوجتني؟

فيكلا: وما وجه العيب؟ قمت بما يقتضي الشرع.

كوتشكاريـوف: قمـتُ بما يقتضي الشـرع! وكأن الزوجة روح الحياة! ألم يكن في إمكاني الاستغناء عنها؟

فيكلا: ولكن أنت الذي كنت تلح! زوّجيني يا جدة، زوجيني.

كوتشكاريوف: آه منـك، أيتها الفارة الملعونـة... طيب، ولماذا أنت هنا؟ هل معقول بودكليسين يريد...

فيكلا: و لم لا؟ نعمة من الله.

كوتشكاريـوف: الله! آه، الحقـير، لم يقـل لي شيئاً عـن هذا. أي شخص هو؟ شاطر! يعني بالخفية؟..

المشهد العاشر

(نفس الشخصين و بودكليسين يحمل مرآة يتمرّى فيها باهتمام شديد).

بودكليسين: أين الشعر الأشيب؟ لماذا تكذبين؟ لا أثر له أبداً!.

كوتشكاريوف: (يتسلل من الخلف، ويثب عليه) بووم!

بودكليسين (يصرخ وتقع المرآة من يده): مجنون! لِمَن لم هذا.. ما هذه السخافة؟ أرعبتني، حقاً، حتى طفرت روحي إلى حلقي.

كوتشكاريوف: طيب، لا بأس، كنت أمزح.

بودكليسين: وأي مزاح هذا؟.. حتى الآن لم أصح من خوفي. والمرآة انكسرت، و لم يأتني بها أحد هدية. مشتراة من المخزن الإنجليزي.

كوتشكاريوف: طيب، يكفي. سأجد لك مرآة أخرى.

بودكليسين: أي نعم، تجد. وأنا أعرف المرايا الأخرى. تجعلك أكبر من عمرك عشر سنين بالتمام، وتعوج خِلْقتك.

كوتشكاريوف: اسمع، كان بالأحرى أن أزعل أنا عليك أكثر. فأنت تخفي عني كل شيء، وأنا صديقك. نويت أن تتزوج؟..

بودكليسين: آوه، هراء. لم أنوِ إطلاقاً.

كوتشكاريوف: دليل الاتهام موجود. (يشير إلى فيكلا، ها هي واقفة. ومعروف مَنْ هي، طيب، لا بأس، لا بأس. لا يوجد ما يحرج. هذا ما أمر به الدين، بل وضروري للوطن. كلفني بالأمر. سأقوم أنا بكل شيء نيابة عنك. (إلى فيكلا). طيب، تكلمي عن

الحيثيـات، كيف وكيف؟ أهي من الأشـراف، أو من عائلة موظفين، أو من أهل التجارة، وما اسمها؟..

فيكلا: أغافيا تيخونوفنا.

كوتشكاريوف: أغافيا تيخونوفنا. براندا خليستوفا؟

فيكلا: لا ، كوبردياغينا.

كوتشكاريوف: تسكن في شارع الدكاكين؟..

فيكلا: لا، قطعاً، أقرب إلى شارع بيسكي، في زقاق ميلني.

كوتشكاريوف: أي، نعم، في زقاق ميلني، وراء الدكان مباشرة، بيت خشبي؟

فيكلا: لا وراء الدكان، وراء حانة في سرداب.

كوتشكاريوف: كيف وراء حانة في سرداب. لا أعرف ذاك.

فيـكلا: اسمع حـين تستدير إلى الزقاق سيكـون أمامك كشك، وحين تعـبر الكشك، انعطف إلى الشمـال، وسيكون أمامك، يعني سيكون أمامك بيت خشبـي تسكن فيه خياطة كانت تعيش من قبل مع سكرتير في المحكمة العليا لا تدخل إلى بيت الخياطة، ولكن وراء بيتهـا رأساً بيت ثان، حجري، هذا هو بيتها، أقصد الذي تسكن فيه العروسة أغافيا تيخونوفنا.

كوتشكاريوف: طيب، طيب، سأتصـرف أنا بكل هذه الأشياء. والآن انصرفي. لا نحتاج إليك بعد الآن.

فيكلا: كيف كيف؟ يعني أنت الذي سيقوم بالخطوبة؟

كوتشكاريوف: أنا، أنا، شرط أن لا تعرقلينني.

فيـكلا: آه، يا كافر! هذا ليس من عمـل الرجال. تخلَّ، يا شيخ، أرجوك.

كوتشكاريـوف: اطلعـي، اطلعـي! أنـت لا تفهمـين شيئـاً، لا تعرقليني! قفي عند حدك. انصرفي.

فيـكلا: لا تعرف إلا قطع رزق الناس، أيها الكافر! يدخل نفسه في هذه الوحلة. لو كنت أعرف لما قلت له. (تنصرف مغتاظة).

المشهد الحادي عشر

(بودكليسين وكوتشكاريوف).

كوتشكاريـوف: طيـب، يـا أخ، لا يجـوز تأجيل هـذه المسألة لنذهب.

بودكليسين: ولكنني لم أقرر بعد. مجرد أنني فكرت...

كوتشكاريـوف: بسيطة، بسيطة. فقـط أن لا ترتبك سأزوجك قبـل أن تعرف. سنذهـب إلى العروسة الآن، وسـترى كيف يتم كل شيء في لحظة خاطفة.

بودكليسين: وما الداعي الآن!

كوتشكاريـوف: طيب، وماذا في ذلك، أرجوك وماذا في ذلك؟ انظـر إلى حالك: أي فائدة من حالـة العزوبية؟ انظر إلى غرفتك. أي شـيء فيها؟ هـا هي جزمتك غـير منظّفة. وها هو حوض الغسيل، وكومـة من التبغ على الطاولة. وأنت راقـد كالخُلْد في جحره طوال النهار على جنبك.

بودكليسين: هذا صحيح. أموري بلا ترتيب. أنا أعرف ذلك.

كوتشكاريـوف: طيب، وحالما تكون لك زوجة يتغير عندك كل شيء فـلا تعرف حتى نفسك. ستكون لديـك أريكة، وكلبة صغيرة وحسّـون صغير في قفصـ، وشغل إبرة.. وتخيّـل أنك جالس على الأريكة، وإذا بابونه حلوة تجلس قربك، وتأخذ بيدها...

بودكليسين: نعم، وحق الشيطان. أية أيد حلوة، بالفعل كالحليب، يا أخ، حقيقة.

كوتشكاريوف: وأين أنت من هذا! وكأنما الأيدي فقط!..

لهن، يا أخ... طيب، لا فائدة من التعداد!... عندهن أكثر مما يعرفه الشيطان نفسه.

بودكليسين: إذا أردت الحقيقة. أنا أحب أن تجلس حلوة بقربي....

كوتشكاريوف: انظر كيف استوعبت الموضوع... والآن ما عليك إلا أن تقرر. لن تتعب نفسك بأي شيء. أنا الذي سأرتب مأدبة الزفاف وغير ذلك... دوزينة من قناني الشمبانيا، ولا يمكن أقل من ذلك في أي حال من الأحوال، ولك أن تفعل ما تشاء. ونصف دوزينة من نبيض «المادير ا» الحلو من كل بد. لأن للعروسة، على الأغلب، جمعاً من العمات والخالات والقريبات. وهنّ لا يتنازلن عن شرب النبيذ. أما نبيذ الرين، فسأهمله، وإلى جهنم. كلامي صحيح؟ ها؟ أما فيما يتعلق بالطعام فأنا أعرف نادلاً لدى القصر، يملك، ابن الكلب، قدرة على الإشباع حتى لا يجعلك تقدر أن تقوم من المائدة.

بودكليسين: عجيب، أنت تتكلم بحرارة شديدة، وكأن الزفاف صار أمراً واقعاً.

كوتشكاريوف: ولِمَ لا؟ ولِمَ التأجيل؟ فأنت موافق؟

بودكليسين: أنا؟ لا، أبداً... أنا حتى الآن لم أوافق نهائياً.

كوتشكاريوف: غريبة جداً! ولكنك قبل لحظات أعلنت أنك تريد.

بودكليسين: كنت أقول فقط لا ضرر منه!

كوتشكاريوف: كيف هذا، أرجوك! كانت المسألة كلها... ثم كيف؟ معقول أن الحياة الزوجية لا تعجبك؟

بودكليسين: لا... تعجبني.

كوتشكاريوف: ماذا، إذاً، ما الذي أوقفك؟

بودكليسين: لم يوقفني شيء... ولكن غريب...

كوتشكاريوف: ما وجه الغرابة؟

بودكليسين: غريب طبعاً، كنت طول عمري أعزب. والآن على غفلة أصير متزوجاً.

كوتشكاريوف: آوه، آوه، ألا تخجل من نفسك؟ يتهيأ لي أن الكلام معك يجب أن يكون بجد. سأتكلم بصراحة، كما يتكلم أب مع ابنه، طيب، انظر، انظر إلى نفسك بإمعان، كما تنظر إليّ الآن، مثلاً، أي شيء أنت الآن؟ مجرد خشبة، وليست لك أية أهمية. طيب، أي شيء أنت الآن؟ مجرد خشبة، وليست لك أية أهمية. طيب، لأي شيء تعيش؟ طيب، انظر إلى نفسك في المرآة، ماذا ترى أمامك؟ وجه أبله ولا أكثر. في حين، ولك أن تتخيل، سيكون حولك أطفال، وليس اثنين أو ثلاثة، بل ستة، ربما، وكلهم يشبهونك شبه قطرة بقطرة. أنت الآن وحيد، موظف من الدرجة الراقية، رئيس أو مدير إدارة والله أعلم. ولكن عندما ستتزوج، تصوّر، سيحوم حولك ستة صغار ممن سيكونون موظفين من الدرجة الراقية، ومدراء إدارات ورؤساء أقسام، وصغير آخر عفريت يمد لك يديه الصغيرتين يريد أن يمسك فودك، بينما أنت تنبح عليه كالكلب لتخيفه: واو، واو، واو! طيب قل لي: هل هناك أحسن من هذا؟..

بودكليسين: لن يكونوا إلا شاطرين في المشاكسة. يتْلِفون كل شيء، ويبعثرون الأوراق.

كوتشكاريوف: ليشاكسوا. ولكنهم سيكونون مثلك في الشكل. وهذه هي النعمة.

بودكليسين: صحيح، بالفعل، بل ومضحك. الشيطان يعلم. وربما سيكون لي طفل صغير، ذو وجه مدور، جرو، يشبهني في الشكل.

كوتشكاريوف: وكيف لا، مضحك بالطبع، طيب، لنذهب.

بودكليسين: اتفقنا، لنذهب.

كوتشكاريوف: يا ستيبان! أسرع وساعد سيدك على ارتداء ملابسه.

بودكليسين (يرتدي ملابسه أمام المرآة): أظن أحسن لو لبست الصدار الأبيض.

كوتشكاريوف: سخافة. لا أهمية لذلك.

بودكليسين: (يلبس الياقة) الغسالة الملعونة نشّت الياقة بشكل سيء فلا تنتصب على رقبتي. قل لهذه الحمقاء يا ستيبان، إذا كانت ستكوي البياضات بهذا الشكل فسأستخدم غسالة أخرى. أظنها تقضي وقتها مع عشيقها ولا تكوي.

كوتشكاريوف: طيب، يا أخ، استعجل! أنت بطيء!...

بودكليسين: حالاً، حالاً (يلبس سترة الفراك، ويجلس) اسمع، يا إيليا فوميتش، أتدري؟ اذهب أنت لوحدك.

كوتشكاريوف: معاذ الله، هل فقدت عقلك؟ اذهب لوحدي! ولكن مَنْ سيتزوج من بيننا: أنا أم أنت؟

بودكليسين: في الحقيقة، ليست لدي رغبة، الأفضل أن نؤجلها إلى الغد.

كوتشكاريوف: هل لديك ذرّة من العقل؟ أهبل أنت أم كيف؟ تهيأت تماماً، وفجأة «ليس لدي رغبة!» قل لي أرجوك ماذا أسميك بعد هذا، خنزيراً أم وغداً؟

بودكليسين: ولم هذه الشتيمة؟ بأي موجب؟ ما فعلت لك؟

كوتشكاريوف: احمق، أحمق مكعب. كل إنسان سيصفك بذلك. بليد، بليد تماماً، ولو أنت رئيس قسم. ولأي شيء أجاهد أنا؟ لفائدتك. اللقمة تستل من فمك. الأعزب الملعون مستلق على فراشه! خبرني أرجوك، أي شيء أنت؟ خرقة، طرطور، كنت أريد أن أستعمل كلمة أخرى... ولكن لا يليق بي. حرمة! أسوأ من حرمة!

بودكليسين: وأنت صاف مصفى! (بصوت خافت) هل عقلك معك؟ الخادم واقف هنا، وأنت تشتم في حضوره، وبأية كلمات أيضاً. لم تجد مكاناً آخر تشتم فيه.

كوتشكاريوف: وكيف لا أشتمك؟ ومَنْ يمكن أن لا يشتمك؟ ومَنْ يصطبر عليك ولا يشتمك؟ أنت كرجل معتبر قررت أن تتزوج، واستهديت بالعقل والحصافة، وفجأة، فقدت رشدك، يا رأس الخشب...

بودكليسين: طيب، يكفي. أنا ذاهب، فلِمَ هذه الشتيمة؟..

كوتشكاريوف: ذاهب! بالطبع. لابد أن تذهب (لستيبان) أعطه القبعة والمعطف.

بودكليسين: (عند الباب) أي إنسان غريب، حقاً! معاشرته مستحيلة تماماً. يشتم فجأة بلا سبب ولا موجب. لا يفهم أية معاملة.

كوتشكاريوف: بالطبع، لا أشتم الآن.

(ينصرفان).

المشهد الثاني عشر

(غرفة في بيت أغافيا تيخونوفنا).

(آغافيا تيخونوفنا تستخير الورق، ومن فوق يدها تنظر عمتها أرينا بانتيليمونوفنا)..

آغافيا تيخونوفنا: مرة أخرى يكشف الورق عن طريق، يا عمة، وملك ديناري مهتم، دموع، ورسالة غرام. ومن الجانب الأيسر ملك آخر اسباتي يظهر حنّية كبيرة. ولكن إحدى الشريرات تعيقه.

أرينا بانتيليمونوفنا: ومَنْ سيكون الملك الاسباتي حسب ظنك؟

آغافيا تيخونوفنا: لا أعرف.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن أنا أعرف مَنْ؟

آغافيا تيخونوفنا: مَنْ؟

أرينا بانتيليمونوفنا: التاجر اللطيف في سوق الأقمشة، الكسيدميتريفيتش ستاريكوف.

آغافيا تيخونوفنا: قطعاً لا! أراهن بكل شيء على ذلك.

أرينا بانتيليمونوفنا: لا تجادلي، يا آغافيا تيخونوفنا. شعره أشقر كتاني، لا يوجد ملك اسباتي غيره.

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يا آغافيا تيخونوفنا. ماكنت ستقولين ذلك، لو كان المرحوم أبوك تيخون بانتيليمونوفيتش على قيد الحياة. كان سيضرب بكل أصابعه الخمس على الطاولة ويصرخ قائلاً: «ابصق على الذي يخجل من كونه تاجراً، ولن أزوج ابنتي على

عقيـد. وليفعل الآخرون ذلك. وابني أيضاً لـن أسمح له بأن يخدم. يعنـي ألا يقدم التاجر خدمة للدولـة كأي شخص آخر؟». ومرة ثانية كان سيضـرب بـكل أصابعه الخمسـ على الطاولـة، وينتهي الأمر. كانت يده بحجم الجـردل، عملاقة! إذا أردت الحق هو الذي أهلك أمك من الضرب المستمر. ولولاه لعاشت المرحومة والدتك أكثر.

آغافيـا تيخونوفنا: وتريدين أن يكون لي مثـل هذا الزوج الغليظ القبيح! لن أتزوج تاجراً أبداً.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكن ألكسي دميتريفيتش ليس كذلك.

آغافيـا تيخونوفنا: لا أريد، لا أريد! له لحية[1]، وحين يأكل يسيل كل شيء على لحيته، لا، لا، لا أريد!..

أرينـا بانتيليمونوفنا: ولكـن من أين نحصل علـى نبيل جيد. لن تجديه مبذولاً في الشارع.

آغافيا تيخونوفنـا: ستجده فيكلا ايفانوفنـا. وعدتني بأن تجد لي أحسن نبيل.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولكنها كذابة، ياعمري.

---

(١) كان التجار في ذلك العهد يطلقون لحاهم. المترجم.

المشهد الثالث عشر

(الاثنتان وفيكلا).

فيكلا: لا، يـا أرينـا بانتيليمو نوفنا. عيب عليـك أن تفتري عليَّ بدون داع.

آغافيـا تيخونوفنا: آه، هذه فيكلا ايفانوفنـا.! هيا، حدثيني! هل يوجد؟

فيـكلا: يوجد، يوجـد، دعيني ألتقـط أنفاسـي أولاً. تعبت من المشاوير! بنـاء على ما طلبت مني مررت علـى كل البيوت وبحثت في الدوائـر، وفتشت في الوزارات، ومشيـت إلى الحرس... وليتك تعرفين، يـا ابنتـي، كادوا يضربوننـي، وحق الـرب! والعجوز التي زوجت ابـن افيروف هاجمتني شائمة: «أنت يـا كذا وكذا، تقطعين الرزق عني، تحولي في حدود منطقتك». فقلت لها على المشكوف: «أنا مستعدة لمولاتي، فلا تغضبـي، مستعدة دائماً لإرضاء رغبتها». على كل حال، وفرت لـك عرساناً وأي عرسان! أقصد الدنيا كانت قائمـة، وما تـزال قائمة، لكن لم تشهـد مثلهم قط، اليـوم سيزورك بعضهم. جئت خصيصاً لأنبهك.

آغافيـا تيخونوفنا: كيف اليوم؟ يا روحين يا فيـكلا ايفانوفنا. أنا خائفة.

فيـكلا: لا تخافي، يا ابنتي المسألة بسيطة. سيأتون ويعاينون، ولا أكثر. وأنت أيضاً ع ايني، وإذا لم يعجبوك، اتركيهم يذهبون.

أرينا بانتيليمونوفنا: أظن الذين أغريتهم أناس معتبرون.

آغافيا تيخونوفنا: وكم عددهم؟ كثيرون؟

فيكلا: ستة رجال.

آغافيا تيخونوفنا: (تندّ عنها صرخة) آوه!

فيكلا: و لِمَ هذه الرفرفة، يا بنتي؟ الاختيار أحسن. إذا لا يعجبك هذا، يعجبكَ ذاك.

آغافيا تيخونوفنا: وهل هم نبلاء؟

فيكلا: واحد أحسن من الآخر. نبلاء كبار بلا مثيل.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، كيف هم، كيف هم؟

فيكلا: أماجد كلهم، لطيفون، مهندمون، الأول بالتازاروفيتش جيفاكين، ممتاز، خدم في البحرية. على مرامك تماماً. يقول إنه يحتاج إلى عروس ممتلئة الجسم، ولا يحب النحيفات أبداً. وإيفان بافلوفيتش، الذي يعمل مسؤول إدارة، في غاية الوقار يخاف الناس حتى الاقتراب منه. مهيب الشكل سمين، يصيح بي على حين غرة: «لا تثرثري علي بأنها كذا وكيت! وقولي صراحة كم لديها من المنقولات وغير المنقولات؟» فأقول: «كذا، وكذا، يا مولانا» فيقول: «تكذبين، يا بنت الكلب!» وشتمني بكلمة عيب عليَّ أن أقولها لك. وحدست رأساً أنه سيد وجيه من كل بد.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، ومَنْ بعد؟

فيكلا: يوجد، بعد، نيكانور ايفانوفيتش انوتشكين. وهو مهذَّب جداً! وشفته حمرة مثل الرمان تماماً، يا بنتي! لطيف ظريف. يقول لي: «أريد عروساً حلوة متعلّمة، تعرف الكلام بالفرنسي». صحيح، رجل صافي الأخلاق، تحفة ألمانية! وهو نحيف، ورجله نحيلة، عصاية.

آغافيا تيخونوفنا: لا، هـؤلاء النحاف لا يحلوون في العين... لا أعرف... لا أرى فيهم شيئاً.

فيـكلا: إذا كنـت تريديـن اسمـن، خـذي إيفـان بافلوفيتشـ يايتشنيتسا[1].

آغافيا تيخونوفنا: أي اسم هذا؟

فيكلا: اسمه هكذا.

آغافيـا تيخونوفنا: آوه، يا ربـي، أي اسم عائلة هذا! كيف إذاً، يا فيـكلا، إذا تزوجته وأخذت اسم عائلته يسمونـنـي آغافيا تيخونوفنا بايتشنيتسا؟ أي شيء هذا!

فيكلا: ولكن في روسيا، يـا عزيزتي، ألقاب إذا سمعتها تبصقين فقـط وترسمين علامة الصليب. تفضلـي، إذا كان اللقب لا يعجبك خذي بالتازاروفيتش جيفاكين عريس ممتاز.

آغافيا تيخونوفنا: واي شعر له؟

فيكلا: شعر لطيف.

آغافيا تيخونوفنا: وأنفه؟

فيكلا: وأنفه لطيف أيضاً. كل شيء في مكانه. وهو نفسه لطيف. لكن لا تغضبي. في شقته لا يوجد غير غليون واحد، ولا أي أثاث.

آغافيا تيخونوفنا: ومَنْ بعد؟

فيكلا: إكينف ستيبانوفيتش بانتليف، موظف من رتبة متوسطة، ولكنه يتمتم قليلاً، ومقابل ذلك متواضع بالشكل...

أرينـا بانتيليمونوفنا: ما هذا الإلحاح، موظف، موظف! خير لك أن تخبرينا: يحب أن يشرب أم لا؟

---

(١) بالعربية تعني البيض المقلي.

فيـكلا: يشرب، ولا أنكر. ولمـاذا لا يشرب فهو موظف من رتبة متوسطة ولكنه صموت لا ينطق بكلمة.

آغافيا تيخونوفنا: لا، لا أريد أن يكون لي زوج سكير.

فيـكلا: كما تريدين، يا بنتي! إذا لا تريد واحداً خذي آخر. على العمـوم لا يهم إذا شرب أكثر من اللازم أحياناً، ما هو طول الأسبوع سكران. في بعض الأيام يكون صاحياً.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، ومَنْ بعد؟

فيكلا: يوجد آخر، ولكن ليس عليه حسرة! هؤلاء أنبل وأحسن.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، مَنْ هو؟

فيـكلا: ما أردت أن أتكلم عنه، أظنه برتبة مقدَّم. ويحمل شارة، لكنه ثقيل جداً في الحركة، لا يخرج من البيت.

آغافيا تيخونوفنا: ومَنْ بعد؟ هؤلاء خمسة فقط. وأنت قلت ستة.

فيكلا: قليلون عليـك؟ عايني كيف انفتحت شهيتك على غفلة. بينما كنت في الأول خائفة.

أرينا بانتيليمونوفنا: وماذا في هؤلاء، أصحابك النبلاء؟ ولو كانوا ستة تجار واحد يعادل الجميع فعلاً.

فيكلا: لا، يا أرينا بانتيليمونوفنا. النبيل أكثر احتراماً.

أرينـا بانتيليمونوفنـا: ومـاذا يعنـي الاحـترام؟ هـذا ألكسـي دميتريفيتشـ يلبس قبعة من فراء السمـور، وله زلاجة يروح ويجيء فيها...

فيكلا: والنبيل يمر به والنوجرم تلمع على كتفه، ويقول: «ما هذا يا تاجـر حقير؟ اطلع عن طريقـي!» أو «يا معلِّـم، أرني قوام أحسن مخمل عندك!» والتاجر يقول: «يا مولاي، تفضل!» ويقول له النبيل. «اخلع قبعتك يا قليل الأدب!»

أرينـا بانتيليمونوفنا: ولكن إذا أراد التاجر امتنع عن البيع له، عند ذاك سيسير النبيل عارياً، ولا يجد ما يلبسه!

فيكلا: النبيل سيطعن التاجر.

أرينا بانتيليمونوفنا: والتاجر سيشتكيه عند الشرطة.

فيكلا: والنبيل سيشتكي على التاجر عند الحاكم.

أرينا بانتيليمونوفنا: والتاجر عند الوالي حاكم الولاية.

فيكلا: والنبيل....

أرينا بانتيليمونوفنا: تكذبين، تكذبين... النبيل... حاكم الولاية أعلـى من الحاكم. انظري إلى أين صعـدت بنبيلك! بينما نبيلك هذا هو، عند الحاجة، يرفع قبعته أيضاً.

(رنين جرس في الباب).

يتهيأ لي أن الجرس يدق.

فيكلا: ياه، هؤلاء هم!

أرينا بانتيليمونوفنا: مَنْ هم؟

فيكلا: هم.... واحد من الخطّاب.

آغافيا تيخونوفنا: (تندُّ عنها صرخة) العياذ!

أرينـا بانتيليمونوفنـا: يـا قديسـون، ارحمونـا، نحـن المذنبين! الحجـرة غير مرتبة أبداً. (تلتقط كل مـا على المائدة وتركض متململةً في الحجـرة). والفوطـة، والفوطة على المائدة سـوداء من الوساخة. دونياشكا، دونياشكا!

(تظهر (دونياشكا)..

هاتي فوطة نظيفة بسرعة! (ترفع الفوطة وتتململ في الحجرة).

آغافيـا تيخونوفنا: آه، يا عمة، ماذا أفعـل؟ ليس عليَّ غير قميص النوم!

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يا بنتي، أسرعي والبسي ثيابك! (تركض في الحجرة).

(دونياشكا. تجلب فوطة، رنين جرس في الباب).

اذهبي وقولي. «حالاً»!

(دونياشكا. تصيح من بعيد: «حالاً»!).

آغافيا تيخونوفنا: ولكن فستاني بلا كوي، ياعمتي.

أرينا بانتيليمونوفنا: آه، يارب يا ساتر، لا تتركنا نضيع. البسي فستاناً آخر.

فيكلا: (تدخل راكضة). لماذا لا تأتين؟ آغافيا تيخونوفنا. أسرعي، يا بنتي!

(رنين جرس).

ياه، لسه ينتظر على الباب!

أرينا بانتيليمونوفنا: دونياشكا. أدخليه، وترجيه أن ينتظر قليلاً.

(تهرع دونياشكا إلى الرواق، وتفتح الباب. تسمع أصوات: «الآنسة موجودة؟» تفضلوا إلى الغرفة، النساء الثلاث يحاولن جميعاً النظر من ثقب المفتاح).

آغافيا تيخونوفنا: (تصيح) آه، سمين جداً!

فيكلا: إنه يقترب!

(جميعهن يهرولن).

المشهد الرابع عشر

(إيفان بافلوفيتش يايتشنيتسا والخادمة).

الخادمة: انتظروا هنا. (تخرج).

يايتشنيتسا: تفضلي، ننتظر، فقط أن لا يطيلوا. تغيبت عن الدائرة لبعض الوقت فقط. ربما سيقول الجنرال[1] «أين مسؤول الإدارة؟» «ذهب ليعاين عروسة». وستقوم القيامة! على كل حال لأنظر في قائمة الموجودات مرة أخرى. (يقرأ) «بيت آجري على أساس حجري... (يرفع ناظريه إلى الأعلى ويفحص الغرفة) موجود! (يتابع القراءة)» جناحان: «جناح بأساس حجري، وجناح خشبي...» الجناح الخشبي في حالة سيئة. «عجلة صغيرة، زلاجة ذات مقعدين فيها نحوت ببساط كبير، وبساط صغير...» ربما تكون غير صالحة إلا للخردة؟ على كل حال، العجوز تؤكد أنها من أول صنف. طيب، ولتكن من أول صنف. «دزّينتان من الملاعق الفضية...» بالطبع، البيت يحتاج إلى ملاعق فضية. «معطفان من فراء الثعلب....» احم.... «أربع حشايا من الريش كبيرة، واثنتان صغيرتان...» (يطبق شفتيه بدلالة). ستة من الفساتين الحريرية، وستة من الفساتين القطنية، وروبان للمنام، واثنان...». هذه الخانة لا تهمني! «بياضات، فوط...» ليكن ذاك كما تريد. على العموم يجب التأكد من ذلك كله بعيني. اليوم يعدون البيوت والعربات، ولكن حالما تتزوج لا تجد غير حشايا ومخدات الريش.

---

(١) كان للسلك العسكري والمدني في الجهاز القيصري نفس الرتب. المترجم.

(رنين جرس. تركض دونياشكا خلال الحجرة على عجل، وتفتح الباب. يتردد صوتان: «الآنسة موجودة؟»، «نعم، موجودة»)

المشهد الخامس عشر

(إيفان بالملوفيتش وانوتشكين).

دونياشكا: انتظروا هنا. ا لآنسة ستحضر حالاً. (تنصرف).

أنوتشكين: هل الذي أتشرف في الحديث معه والد ربة البيت الفاتنة؟

يايتشنيتسا: لا، أبداً. ليس لي أولاد بعد.

أنوتشكين: آه، أرجو المعذرة! المعذرة!

يايتشنيتسا: (جانباً). خلقة هذا الرجل تريينيز ربما جاء لنفس الغرض الذي جئت من أجله. (بصوت مسموع).. لعلك تحتاج إلى ربة البيت في شأن من الشؤون؟

أنوتشكين: لا.... أبداً... لا يوجد اي شأن. مجرد أنني مررت بعد النزهة.

يايتشنيتسا: (جانباً). يكذب، يكذب. بعد النزهة! السافل يريد أن يتزوج!

(رنين جرس. تركض دونياشكا. عبر الحجرة لتفتح الباب. صوتان في الرواق: «الآنسة موجودة؟»، «نعم، موجودة»)

المشهد السادس عشر

(نفس الشخصين مع جيفاكين ترافقه الخادمة).

جيفاكين (للخادمة): أرجوك، يـا روحي، نظفيني قليلاً... أنت تعرفـين: الغبار في الشارع كثير. هنا، أرجـوك، انفضي تلك الريشة الصغـيرة. (يستديـر).. حسناً، شكـراً، يا روحـي! وانظري هناك، أحسـ وكأن عنكبوتـاً صغيراً يـدبّ! وفي الخلـف، ألا يوجد شيء علـى الطرفين؟، شكراً، يا عزيزتي! وهنا أيضاً، على ما يبدو. (يمسّد بيده على ردن فراكـه، ويختلس النظر إلى أنوتشكين و يايتشنيتسا). الجوخ إنكليزي! ممتاز متين!... في عام ١٧٩٥ عندما كانت عمارتنا الحربيـة راسيـة في صقلية، اشتريته وأنا مـا أزال ضابط صف آنذاك، وفصلـت منهبزة. في عام ١٨٠١، في عهـد القيصر بافل بيتروفيتش كنـت قد ترقيـت إلى ملازم، والجوخ ما يزال جديـداً للغاية. في عام ١٩١٤ قمـت بجولة حـول العالم، عند ذاك فقط ظهـر تآكل بسيط علـى الدروز. في عـام ١٩١٥ تقاعـدت فبعد هذا فقـط قلبته على وجهـه الاخر، وهاقد مضيت عشر سنين وأنـا ألبسه، فهو حتى الآن جديـد تقريباً. شكـراً، يا روحي، يا... سـت الحسن! (ويربت على خدها، ويتقدم من المرآة، وينفش شعره قليلاً)..

أنوتشكـين: وكيـف صقلية، لـو سمحت بأن نعـرف؟.. فأنت تكرمت وقلتك صقلية. أهي بلاد جميلة؟

جيفاكـين: آه، رائعة! بقينا هناك أربعـة وثلاثين يوماً. أؤكد لكم إنهـا فاخرة! جبال هنـا وشجرة رمان هنـاك.. والإيطاليات في كل مكان، الورد آخر حلاوة تود لو تقبلهن.

أنوتشكين: ومثقفات جيداً؟

جيفاكين: بشكل فاخر جداً! مثقفات في مستوى الكونتيسات عندنا ولا أقل. أحياناً أسير في الشارع، يعني ملازم روسي... بالطبع، كتافية هنا وكتافية هنا، (يشير إلى كتفيه).. مطرزة بالذهب... وتطل الحسناوات السمراوات.. عند كل بيت لهن شرفة صغيرة، والسطوح مثل أرض الغرفة هذه مسطحة كلياً. وألقي نظرة كالعادة، فأرى حسناء مثل الوردة قاعدة. وأنحني... طبيعي لا أمرغ وجهي بالوحل... هكذا (ينحني ويرسل قراعه في الهواء). وهي أيضاً نفس الحركة. (يحرك يده حركة انسيابية ليصور رد التحية).. ملابسها تحفة: قطعة قماش ناعم وخيوط وأقراط نسائية متنوعة... يعني باختصار، قطعة حلوى...

أنوتشكين: هل يمكن أن أطرح على حضرتك سؤالاً: بأية لغة يتفاهمون في صقلية؟

جيفاكين: الجميع بالفرنسية، بالطبع.

أنوتشكين: وجميع الأوانس يتكلمن دون استثناء الفرنسي؟

جيفاكين: الجميع دون استثناء. بل وربما لا تصدقونني حين أقول لكم: بقينا أربعة وثلاثين يوماً، وطوال هذه المدة لم نسمع منهم ولا كلمة واحدة بالروسي.

أنوتشكين: ولا كلمة؟

جيفاكين: ولا كلمة. وأنا لا أتحدث عن النبلاء والسينيورين الآخرين، أقصد ضباطهم من مختلف المراتب، ولكن خذوا أي موجيك، أي فلاح بسيط على سبيل المثال، وهو يحمل على عاتقه مختلف الأشياء الحقيرة؛ وحاولوا أن تقولوا له بالروسية: «أعطني، يا أخ، قطعة من الخبز». لن يفهمك قطعاً، لن يفهمك والله العظيم،

ولكن قولوا له بالفرنسية: DATECI DEL PANE PORTATE VINO [1] يفهم، ويركض ويجلب لكم ما تريدون بالضبط.

يايتشنيتسا: من كلامك لابد أن تكون صقلية هذه بلاد ممتعة تثير الفضول. أنت تقول موجيك. فكيف هو.... مثل الموجيك الروسي عريض المنكبين للغاية ويحرث الأرض؟

جيفاكين: لا أستطيع أن أجيبك. لم ألحظ ما إذا كان يحرث الأرض أم لا. ولكن إذا سألتني عن استنشاق السعوط، فأقول لك عن علم: كلهم جميعاً لا يستنشقون السعوط فقط، بل ويضعونه خلف شفاههم. النقل أيضاً رخيص جداً. المياه في كل مكان تقريباً، والجندولات...، طبيعي أن ترى إيطالية، مثل الوردة، لابسة صداراً حلواً وشالاً لطيفاً. وكان معنا ضباط إنكليز. خلق مثل رجالنا، بحارة، في البداية كانت الحالة غريبة جداً. أحدنا لا يفهم الآخر. ولكن فيما بعد تعارفنا جيداً. بدأنا نتفاهم بطلاقة. حين تشير إلى زجاجة أو قدح، يعرفون حالاً أن ذلك يعني تريد أن تشرب، وحين تضم قبضتيك قرب فمك بهذا الشكل، وتحرك شفتيك فقط: باف، باف، يعني تريد تدخين الغليون. وعلى العموم اللغة الإنكليزية سهلة جداً. بحارتنا خلال ثلاثة أيام صاروا يتفاهمون تماماً.

يايتشنيتسا: يعني من كلامك، الحياة في البلدان الأخرى رائعة جداً. أنا مسرور للغاية بمعاشرة رجل شاف الدنيا. هل لي أن أعرف مع من أتشرف بالكلام؟

جيفاكين: جيفاكين ملازم متقاعد. ومن جانبي اسمح لي أن أسأل مع من أسعد بمبادلة الكلام؟

---

(١) أعطني خبزاً... اجلب لي نبيذاً. (بالإيطالية).

يايتشنيتسا: مسؤول الإدارة إيفان بافلوفيتش يايتشنيتسا.

جيفاكين (لم يسمع جيداً): نعم، وأنا أيضاً أكلت[1]. أنا أعرف الطريق سيكون مرهقاً نوعاً ما. والجو يميل إلى البرودة. فأكلت سمك رنجة مع الخبز.

يايتشنيتسا: يبدو لي أنك أخطأت الفهم. اسم عائلتي يايتشنيتسا.

جيفاكين (ينحني): آه، اعذرني! أنا ثقيل السمع قليلاً. فتصورت بالفعل أنك أكلت بيضاً مقلياً، يايتشنيتسا.

يايتشنيتسا: ما العمل؟ أردت أنا أن أطلب من الجنرال أن يسمح بأن يدعوني «ياتيشني تسين». ولكن زملائي منعوني من ذلك قائلين أنه سيشبه «سباتش سين»[2].

جيفاكين: على كل حال، هذا يحصل! عمارتنا الحربية الثالثة كلها، جميع الضباط والبحارة كانت لهم أسماء عوائل غاية في الغرابة! المزبل، سكيروف، الملازم متعفنوف. كان المرحوم ألكسي ايفانوفيتش قائد عمارتنا يقول عادة: «يبدو أن الشيطان قد عمد جميع أفراد عمارتي البحرية الثالثة!» بل إن أحد ضباط الصف، وكان ضابط صف جيداً، كان يدعى «الثقب». فكان القبطان، يناديه «أنت، يا ثقب، تعال إلى هنا!»، وكانوا يمزحون معه دائماً ويقولون: «آه، منك، يا ثقب!».

(رنين جرس في الرواق، تركض فيكلا عبر الحجرة لتفتح الباب)

يايتشنيتسا: مرحباً، يا محترمة!

جيفاكين: مرحباً، كيف الحال، يا روحي؟

---

(١) فهم من اسم العائلة معناه المباشر: «البيض المقلي». المترجم.
(٢) بالروسية، تعني ابن الكلبة. المترجم.

أنوتشكين: مرحباً، يا ست فيكلا ايفانوفنا.

فيكلا: (تركض مستعجلـة).. شكراً، يا حضرات! بخير، بخير. (تفتح الباب)..

(يصـدر في الرواق صوتان: «الآنسـة موجودة؟»، «موجودة». ثـم بعض الكلمات غير المسموعة تقريباً ترد عليها فيكلا في انزعاج: «آه، يالك!».

المشهد السابع عشر

(نفس الأشخاص وكوتشكاريوف و بودكليسين وفيكلا).

كوتشكاريـوف: (لبودكليسـين). تذكر، ما عليـك إلا التظاهر بالشجاعـة، ولا أكـثر (يتلفـت، ويـوزع الانحنـاءات في شيء من الاستغراب، يقـول مع نفسه). أوه، كم من الناسـ! ماذا يعني هذا؟ كلهم خطاب؟ (يلكز فيكلا، ويقول لها بخفوت).. من كل القيعان جمعت الغربان. ها؟

فيـكلا: (بصـوت خافت).. لا يوجـد غربان هنا، كلهـم أناس نزيهون.

كوتشكاريوف: (لها). الضيوف أرتال والقفاطين أسمال.

فيكلاز انظر إلى غطاك ولا تحاسب سواك. ليس لك ما تفخر به. هندام بلا ادام.

كوتشكاريـوف: أظن زبائنـك النبلاء الموسرون هـؤلاء بجيوب فارغـة. (بصوت مسموع). طيب، ماذا تفعل الآن؟ أظن هذا الباب يؤدي إلى مخدعها؟ (يقترب من الباب).

فيكلا: عديم الحياء! قيل لك ما تزال تلبس ثيابها.

كوتشكاريوف: وكأنهـا مصيبة! ماذا في ذلك؟ انظر، ولا أكثر. (ينظر في ثقب المفتاح)..

جيفاكين: اسمح لي أن أتطلع أيضاً.

يايتشنيتسا: اسمح لي أنا أن ألقي نظرة.

كوتشكاريوف: (يتابع النظر). ولكن لا شيء يرى، يا سادة، غير معروف ما هذا الأبيض هناك: امرأة أم مخدة؟

(ومع ذلك يتجمهر الجميع في الباب ويتزاحمون لينظروا).

شش... شخص قادم.

(الجميع يتراجعون).

المشهد الثامن عشر

(نفس الأشخاص مع أرينا بانتيليمونوفنا وآغافيا تيخونوفنا، الجميع يتبادلون الانحناءات).

أرينا بانتيليمونوفنا: أية مناسبة دعتكم إلى تكريمنا بالزيارة؟

يايتشنيتسا: عرفت من الجرائد أنكم ترغبون في الحصول على مقاولة تزويد أخشاب وحطب، وبما أنني أشغل وظيفة مسؤول إدارة في دائرة حكومية، فقد جئت لأستفسر عن نوع الخشب وكميته، والموعد الذي يمكن أن تنجزوا فيه هذه العملية.

أرينا بانتيليمونوفنا: نحن مسرورون بالمجيء، وإن كنا لا نتعهّد بأية مقاولات. ما اسم حضرتك؟

يايتشنيتسا: إيفان بافلوفيتش يايتشنيتسا مسؤول إدارة.

أرينا بانتيليمونوفنا: تفضلوا بالجلوس. (تتحول إلى جيفاكين. وتنظر إليه).. وهل يمكن أن أعرف...

جيفاكين: أنا أيضاً قرأت في الجرائد عن شيء ما. فقلت لنفسي، لأذهب وأرى. والجو جميل. وفي كل مكان في الطريق يطلع عشب غض...

أرينا بانتيليمونوفنا: وكيف أدعوك؟

جيفاكين: الملازم المتقاعد بالتازار بالتازاروفيتش جيفاكين. الثاني. كان عندنا جيفاكين الأول، وقد خرج إلى التقاعد قبلي، جرح، يا محترمة، تحت الركبة، والرصاصة، وهذا شيء غريب، مرت دون أن تصيب الركبة، ولكنها أصابت العرق، وكأنما خيطته بإبرة،

فكان الواحد، إذا وقف جنبه، يتصور دائماً أنه يريد أن يرفسه بركبته من الخلف.

أرينـا بانتيليمونوفنا: تفضلوا بالجلوس (تلتفت إلى أنوتشكين). وأنتم بأي مناسبة؟

أنوتشكين: بدافع الجوار. أنا قريب جداً منكم...

أرينـا بانتيليمونوفنـا: ألعلّكـم تسكنـون في بيت زوجـة التاجر تولوبوفا، المقابل لبيتنا؟

أنوتشكـين: لا، أنا ما أزال في مسكني القديم في بيسكي، ولكن لـديَّ نيـة أن أنتقل،بمرور الزمن، إلى جواركـم هنا في هذا الجزء من المدينة.

أرينـا بانتيليمونوفنـا: تفضلـوا، بالجلوس. (تتحـول إلى كوتشكاريوف). واسمح لي بأن أعرف....

كوتشكاريـوف: ولكن هل معقول أنـك لم تعرفيني؟ (ملتفتاً إلى آغافيا تيخونوفنا.) وأنت، أيضاً، يا آنسة؟

آغافيا تيخونوفنا: بقدر ما يتهيأ لي لم أرك من قبل قط.

كوتشكاريـوف: على كل حال تذكري. أعتقـد أنك رأيتني في مكان ما.

آغافيا تيخونوفنا: في الحقيقة، لا أدري، إلا إذا عند آل بيريوشكين؟

كوتشكاريوف: بالضبط، عند آل بيريوشكين.

آغافيا تيخونوفنا: آه، ربما لا تعرف أي حكاية حصلت لها.

كوتشكاريوف: بالطبع. تزوجت.

آغافيـا تيخونوفنـا: لا، سيكون ذلـك جيداً، لـو حصل. ولكن رجلها انكسرت.

أرينا بانتيليمونوفنا: والكسر شديد. كانت عائدة إلى البيت في عربة. في ساعة متأخرة إلى حد ما، وكان الحوذي سكران، فأسقطها من العربة.

كوتشكاريوف: بالضبط، هذا ما أتذكره: أما أن تكون قد تزوجت أو انكسرت رجلها.

أرينا بانتيليمونوفنا: ما اسم حضرتك؟

كوتشكاريوف: كيف، اسمي ايليا فوميتش كوتشكاريوف: نحن أقارب. زوجتي تتحدث دائماً عن... عن إذنك، عن إذنك (يأخذ بيد بودكليسين، ويقربه) هذا صديقي بودكليسين إيفان كوزميتش الموظف من الدرجة الراقية، رئيس شعبة، وحده يقوم بكل الأعمال، ويحسن القسم المناط به بشكل ممتاز جداً.

أرينا بانتيليمونوفنا: ولقبه؟

كوتشكاريوف: بودكليسين. إيفان بافلوفيتش المدير نصب لمجرد الرتبة، بينما هو يقوم بكل الأعمال، إيفان بافلوفيتش بودكليسين.

أرينا بانتيليمونوفنا: طيب، تفضلوا بالجلوس.

المشهد التاسع عشر

(نفس الأشخاص مع ستاريكوف).

ستاريكوف (ينحني بحيوية وعجل، على طريقة التجار، متخوصراً قليلاً): مرحباً، أيتها المحترمة أرينا بانتيليمونوفنا. الزملاء في سوق المدينة قالوا إنك تعرضين صوفاً للبيع، يا محترمة!.

آغافيا تيخونوفنا: (تستدير عنه باستهانة، وتقول بصوت خافت، ولكنه مسموع له).. ليس بيتنا دكان بيع وشراء!

ستاريكوف: عجيبة! لم نأت في الوقت المناسب؟ أم الطبخة تمت بدوننا؟

أرينا بانتيليمونوفنا: تفضل، تفضل، يا ألكسي دميتريفيتش. ولو أننا لانبيع صوفاً، ولكننا مسرورين بقدومك، تفضل اجلس.

(جلس الجميع. صمت).

يايتشنيتسا: الطقس غريب اليوم. في الصباح، كان ينذر بالمطر تماماً، والآن يبدو وكأن الغيوم قد تبددت.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، هذا الطقس متقلب جداً. صاح أحياناً، وممطر كلياً في أحيان أخرى. شيء غير مريح مطلقاً.

جيفاكين: في صقلية، يا محترمة، كنا مع العمارة الحربية في فصل الربيع، وهو قياساً إلى ما عندنا مثل شهر شباط. أحياناً كنا نخرج لنتنزه، والنهار مشمس، وبعد ذلك ينزل مطر خفيف. وبالفعل تنظر، فإذا بالجو ماطر.

يايتشنيتسا: أزعج الحالات، حين ينغلق الإنسان في بيته وحيداً في مثل هذا الطقس. حالة المتزوج تختلف تماماً، لا يضجر، بينما في الوحدة، المسألة تماماً...

جيفاكين: أوه، موت، موت مؤكد!

أنوتشكين: نعم، يمكن أن يقال...

كوتشكاريوف: يا ويلاه! عذاب أليم! لن تسرك الحياة. الله يعوذنا من ذلك الوضع...

يايتشنيتسا: طيب، ماذا، يا آنستي، لو كان عليك أن تختاري القريب إلى قلبك؟ اسمحي لنا أن نعرف ذوقك، واعذريني على الصراحة. أي وظيفة تعتبرينها أليق بزوجك؟

جيفاكين: أتريدين، يا آنستي، أن يكون لك زوج شهد العواصف البحرية؟

كوتشكاريوف: لا، لا، في رأيي أحسن زوج هو الرجل الذي يدير لوحده تقريباً كل شؤون الدائرة.

أنوتشكين: ولم هذا التحامل؟ لماذا تريد أن تستهين بالرجل الذي، وإن كان قدخدم في سلاح المشاة، إلا أنه، مع ذلك، يحسن التصرف في المجتمع الراقي.

يايتشنيتسا: يا آنستي، كوني حكماً!

(إيفان بافلوفيتش تصمت).

فيكلا: أجيبي، يا كريمتي. قولي لهم شيئاً.

يايتشنيتسا: كيف، يا محترمة؟...

كوتشكاريوف: ما رأيك، يا آغافيا تيخونوفنا.

فيكلا (تقول لها بصوت خافت): قولي، قولي، أشكركم، أنا

سعيدة جداً، غير لطيف أن تسكتي هكذا.

آغافيا تيخونوفنا: (بخفوت).. اخجل، صحيح، اخجل، سأنصرف، انصرف حقاً، ا جلسي، يا عمة، نيابة عني.

فيكلا: ياه، لا تفضحينا، هذه الفضيحة. لا تنصرفي. يا له من عيب، الله يعلم ماذا سيفكرون.

آغافيا تيخونوفنا (بنفس الصوت الخافت): لا، سأنصرف، حقاً، انصرف، انصرف! (تركض هاربة).

(فيكلا و أرينا بانتيليمونوفنا تنصرفان في أثرها).

المشهد العشرون

(نفس الأشخاص ما عدا النساء).

يايتشنيتسا: عجيبة! انصرفن كلهن! ماذا يعني هذا؟

كوتشكاريوف: أظن شيئاً قد حصل.

جيفاكين: شيء يتعلق بزينة السيدات. يعني، يعدلن شيئاً... يدبسن... قبة صدار.

(تدخل فيكلا. يسألونها جميعاً «وماذا حصل؟»).

كوتشكاريوف: هل حدث شيء؟

فيكلا: وكيف يمكن أن يحدث. لم يحدث شيء، والله!

كوتشكاريوف: فلماذا خرجت إذاً؟

فيكلا: أربكتموها، ولهذا خرجت، ارتبكت تماماً، فلم تقدر أن تبقى في مكانها. ترجو الاعتذار. تفضلوا على قدح شاي في المساء. (تنصرف).

يايتشنيتسا: (جانباً) يا ويلي من قدح الشاي هذا! للسبب ذاته لا أحب الخطوبة. تطويل دائم. اليوم غير ممكن، تفضل غداً، ثم بعد غد على قدح شاي، ثم لازم أن أفكر. بينما القضية بسيطة، ولا تحتاج إلى وجع دماغ. اللعنة، وأنا صاحب وظيفة، وليس عندي وقت.

كوتشكاريوف: (لبودكليسين) العروسة حلوة، ها؟

بودكليسين: نعم، حلوة.

جيفاكين: العروسة جميلة.

كوتشكاريوف: (جانباً) عليه اللعنة. وقع الأحمق في غرامها. أظنه قد يعرقلنا. (بصوت مسموع) غير جميلة مطلقاً، غير جميلة أبداً.

يايتشنيتسا: أنفها كبير.

جيفاكين: لا، أبداً، الأنف لم يلفت نظري، إنها مثل... الوردة.

أنوتشكين: رأيي من رأيهما. ليست كما يجب، لا... بل واستبعد أنها تحسن التصرف في المجتمع الراقي. ثم هل تعرف الكلام بالفرنسي؟..

جيفاكين: طيب، لو سمحت أن أسأل لماذا لم تجرب و لم تتكلم معها بالفرنسي؟ ربما هي تعرف.

أنوتشكين: وتحسبني أعرف فرنسي؟ لا، لم يسعدني الحظ لأتلقى هذا التعليم. كان أبي حقيراً، بهيمة، فلم يخطر على باله قط أن يعلمني اللغة الفرنسية. كنت آنذاك ما أزال طفلاً، وكان من السهل تعليمي. ماكان سيكلفه الأمر إلا أن يجلدني جلداً جيداً، وعند ذلك سأتعلم. سأتعلم حتماً.

جيفاكين: طيب، وإذا كنت لا تعرف الفرنسي، فماذا سنربح، إذا كانت...

أنوتشكين: لا، لا. الأمرمع المرأة يختلف تماماً، يجب أن تعرف حتماً، بدون هذا، عندها كذا وكذا... (يشير بإيماءات) غير مناسب قطعاً.

يايتشيتسا (جانباً): دع غيري بهذا. سأذهب أنا إلى الفناء لأتفقد البيت، والجناحين، وإذا كان كل شيء على ما يرام، سأتم المسألة اليوم مساءً. هؤلاء الخطاب غير خطرين عليّ أناس خفاف. لا وزن لهم تقريباً، والعرائس لا يحببن مثل هؤلاء.

جيفاكين: أنا ذاهب لأدخ غليوني. ألا يوجد أحد في طريقي؟ أين تسكن، لو سمحت؟

أنوتشكين: في بيسكي، زقاق بيتروفسكي.

جيفاكين: آها فيها لفة لو مشينا سوية، أنا في جزيرة فاسيليفسكي، الشارع الثامن عشر، ومع ذلك سأرافقك.

ستاريكوف: لا، الجو كلّه عجرفة. فيما بعد ستتذكريننا نحن أيضاً، يا آغافيا تيخونوفنا: احتراماتين يا سادة (ينحني مودعاً وينصرف).

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين و كوتشكاريوف)

بودكليسين: طيب، لننصرف نحن أيضاً، فماذا أنتظر؟

كوتشكاريوف: بالفعل العروسة جميلة، أليس كذلك؟

بودكليسين: يعني! بصراحة لم تعجبني

كوتشكاريوف: عجيبة! ما هذا؟ أنت نفسك وافقت على أنها جميلة

بودكليسين: ولكنها ليست كما يجب، أنفها طويل، ولا تتكلم بالفرنسي.

كوتشكاريوف: أي شيء هذا بعد؟ وما يهمك أن تتكلم بالفرنسي؟

بودكليسين: على كل حال، العروسة لازم تعرف فرنسي.

كوتشكاريوف: ولماذا؟

بودكليسين: لأنه... لا أعرف لماذا، ولكن لن تكون كما يجب.

كوتشكاريوف: هكذا، أحد الحمقى قال ذلك قبل لحظات، فالتقف كلامه، إنها ست الحسن، ست الحسن تماماً، لن تجد مثل هذه العروسة في الدنيا كلها.

بودكليسين: أنا أيضاً أعجبني شكلها في البداية، ولكن بعد أن أخذوا يقولون: أنفها طويل، أنفها طويل، دققت النظر فرأيت بنفسي أنفها طويلاً.

كوتشكاريوف: آه، منك، نصاب، لم تعثر على الباب! هم يقولون ذلك عن عمد ليصرفوك، وأنا أيضاً لم أمتدحها. هذه هي الأصول. إنها، يا أخ، آنسة وأية آنسة! أمعن النظر في عينيها: الشيطان وحده يعرف أية عينين لها: تنطقان، تتنفسان! والأنف، أحار كيف أصفه، في نصاعة المرمر الأبيض! ولكن كيف يمكن تشبيه المرمر به. تمعن بنفسك جيداً.

بودكليسين: (مبتسماً) أي نعم، يبدو لي ثانية أنها جميلة.

كوتشكاريوف: طبيعي، جميلة! اسمع، ماداموا قد انصرفوا كلهم، تعال نذهب إليها، ونطرح عليها الموضوع، وننهي كل شيء.

بودكليسين: أوه، لن أفعل هذا.

كوتشكاريوف: والسبب؟

بودكليسين: ما هذه الوقاحة منا؟ نحن كثيرون، فليكن الاختيار لها.

كوتشكاريوف: ولأي شيء تكترث بهم. تخاف المزاحمة؟ هل تريد أن أصرفهم جميعاً في لحظة واحدة؟

بودكليسين: وكيف ستصرفهم؟

كوتشكاريوف: هذا شأن يخصنيز فقط أن تقطع لي عهداً بأنك لا تمتنع بعد ذلك.

بودكليسين: ولم لا أقطع؟ تفضل. لا أمتنع. أريد أن أتزوج.

كوتشكاريوف: هات يدك!

بودكليسين: (يمد يده) هاك!.

كوتشكاريوف: هذا الذي أريده بالضبط.

(ينصرفان).

الفصل الثاني

(حجرة في بيت آغافيا تيخونوفنا).

المشهد الأول

(آغافيا تيخونوفنا. لوحدها، ثم كوتشكاريوف).

آغافيا تيخونوفنا: صحيح، أي صعوبة في الاختيار! لو كان رجل واحد، اثنان، ولكنهم أربعة، فتفضلي واختاري. نيكانور أيفانوفيتش ليس قبيحاً، ولو أنه نحيف، بالطبع، وإيفان كوزميتش ليس قبيحاً أيضاً. وكذلك إيفان بافلوفيتش، إذا أردت الحقيقة، ولوأنه سمين، ولكنه بارز الطلعة جداً، فماذا أفعل، يا ترى؟ وبالتازار بالتازاروفيتش هو الآخر رجل له محاسن، الاختيار صعب بشكل لا يوصف، صعب، فلو تجمع شفتانيكانور ايفانوفيتش مع أنف إيفان بافلوفيتش وشيء من طلاقة بالتازار بالتازاروفيتش، ثم تضاف إلى ذلك ضخامة إيفان بافلوفيتش، لاتخذت قراري في الحال! ولكن الآن عليّ أن أقعد وأفكر! رأسي صار يوجعني حقاً، أحسن طريقة، في رأيي أن أسحب قرعة. وأترك كل شيء لمشيئة الله وأتوكل عليه! ومن يطلع اسمه بالقرعة أتزوجه. سأكتب أسماءهم جميعاً على قصاصات ورق، وألفّها، وليكن ما يكون. (تقترب من الطاولة، وتأخذ من هناك مقصاً وورقة، وتقصّها إلى قصاصات، وتلفها، ماضية في الكلام) ما أعس حظ الفتاة، لاسيما إذا كانت

عاشقة. لا أحد من الرجال يفهم ذلك، بل ولا يريد أن يفهمه. الآن هيأتهم جميعاً، و لم يبق إلا أن ألقيهم في حقيبة يدوية، وأغمض عيني، وليكن ما يكون. (تضع قصاصات الورق في حقيبة يدوية، وتخلطها بيدها).. أنا خائفة... آه، لو أن الله جعلني أسحب نيكانور ايفانوفيتش. لا، و لم هو بالذات؟ إيفان كوزميتش أحسن. و لم إيفان كوزميتش؟ وهل الآخرون سيئون؟ وبأي شيء؟ لا، لا أريد... من يطلع في يدي سيكون هو الفائز. (تخلط قصاصات الورق بيدها في الحقيبة، وبدلاً من أن تخرج قصاصة واحدة تخرج القصاصات كلها) أوه! طلع الجميع! وقلبي شديد الخفقان! لا، واحد واحد!.. لا بد أن أسحب واحداً!.. (تضع قصاصات الورق في الحقيبة اليدوية وتخلطها)..

(في ذلك الوقت يدخل كوتشكاريوف خلسةً، ويقف وراءها).

آه، لو أسحب بالتازار... ماذا جرى لي؟ أردت أن أقول نيانور ايفانوفيتش... لا، لا أريد، لا أريد.... ليقرر القدر من!..

كوتشكاريوف: اختاري إيفان كوزميتش. فهو أحسنهم.

آغافيا تيخونوفنا: آه! (تندّ عنهم صرخة، وتغطي وجهها بيديها، خائفة من النظر إلى الخلف)..

كوتشكاريوف: و لم ارتعبت؟ لا تخافي، هذا أنا، صحيح، اختاري إيفان بافلوفيتش.

آغافيا تيخونوفنا: آه، أنا خجلانة. كنت تتسمع وأنا لا أدري.

كوتشكاريوف: لا شيء، لا شيء! فأنا من الأهل، من أقربائكم، ولا حاجة إلى الخجل مني. اكشفي عن وجهك.

آغافيا تيخونوفنا: (تكشف نصف وجهها) صحيح، أنا خجلانة.

كوتشكاريوف: طيب، اختاري إيفان بافلوفيتش.

آغافيـا تيخونوفنا: آه! (تندّ عنها صرخة فتغطي وجهها بيديها من جديد)..

كوتشكاريوف: رجل رائع حقاً، كم أنيط به من أعمال... رجل عجيب حقاً.

آغافيـا تيخونوفنـا: (تكشـف وجههـا تدريجياً). كيـف هذا، والآخر؟ نيكانور ايفانوفيتش؟ هو أيضاً رجل جيد.

كوتشكاريوف: أرجوك، هذا تافه بالقياس إلى إيفان بافلوفيتش

آغافيا تيخونوفنا: والسبب؟

كوتشكاريوف: السبب واضح، إيفان بافلوفيتش رجل بصراحة، رجل... لن تجدي له مثيلاً.

آغافيا تيخونوفنا: طيب، و إيفان بافلوفيتش؟...

كوتشكاريـوف: إيفان بافلوفيتش تافه هو الآخر! كلهم تافهون. تافهون.

آغافيا تيخونوفنا: معقول كلهم؟

كوتشكاريـوف: نعم، وما عليك إلا أن تحكمي، أن تقارني. هذا هـو إيفان بافلوفيتش، علـى كل حال، وليس تافهاً مـن يدعى إيفان بافلوفيتش، أو نيكانور إيفانوفيتش، ومن على هذه الشاكلة!

آغافيا تيخونوفنا: صحيح أنهم... متواضعون جداً.

كوتشكاريـوف: أي متواضعين هم! إنهـم معربدون متهورون للغاية. وكأنك تريدين أن تضربي في اليوم الثاني بعد الزفاف.

آغافيـا تيخونوفنا: آه، يا ربي! هذه مأساة! هذا أتعس ما يمكن أن يكون.

كوتشكاريـوف: بالطبـع! لا يمكن أن تتصوري شيئـاً أتعس من ذلك.

آغافيا تيخونوفنا: إذاً، تنصحني باختيار إيفان بافلوفيتش؟

كوتشكاريوف: إيفان بافلوفيتش طبيعي إيفان بافلوفيتش (جانباً) أظن المسألة مشت. بودكليسين جالس في محل حلويات، سأذهب وأجيء به.

آغافيا تيخونوفنا: إذاً، تعتقد أن اختار إيفان بافلوفيتش؟

كوتشكاريوف: من كل بد، إيفان بافلوفيتش

آغافيا تيخونوفنا: وارفض الآخرين؟

كوتشكاريوف: ارفضيهم، بالطبع.

آغافيا تيخونوفنا: ولكن كيف أفعل ذلك؟ اخجل.

كوتشكاريوف: ولماذا تخجلين؟ قولي لهم: ما زلت شابة، ولا أريد الزواج.

آغافيا تيخونوفنا: ولكنهم لا يصدقون. سيسألون: كيف ولماذا؟

كوتشكاريوف: طيب، إذا كنت تريدين أن تنهي المسألة دفعة واحدة قولي: «اغربوا عني، يا حمقى!».

آغافيا تيخونوفنا: وكيف يمكن أن أقول ذلك؟..

كوتشكاريوف: طيب، حاولي. أؤكد لك أنهم سيولون هاربين جميعاً.

آغافيا تيخونوفنا: ولكن هذه كالشتيمة في حقهم.

كوتشكاريوف: أنت لن تريهم بعد ذلك. فما الفرق عندك؟

آغافيا تيخونوفنا: على كل غير لطيف... سيغضبون.

كوتشكاريوف: وماذا يهم، إن غضبوا؟ لو كان سينجم شيء عن ذلك، لكان الأمر يختلف، ولكن أسوأ الاحتمالات أن يبصق أحدهم في عينيك، لا أكثر.

آغافيا تيخونوفنا: ها أنت ترى!

كوتشكاريـوف: أيـة مشكلـة في هذا؟ هنـاك أشخاصـ تلقوا البصقـات عدة مرات، وحق الرب! بـل أعرف أحدهم. وهو رجل رائـع الجمال، متـورد الخدين تمامـاً، كان يزعج ويتزلـف إلى رئيسه ليظفـر بزيادة في مرتبـه، حتى ضجـر الرئيس، ونفد صـبره أخيراً، فبصق في وجهه فعلاً، والله، قائلاً: «هذه هي الزيادة لك، فحلّ عني، يـا شيطان!»، ولكنه خصص له الزيادة علـى كل حال. يعني ماذا لو بصقـوا؟ سيختلف الأمر لو كان المنديل بعيداً، ولكن المنديل موجود في الجيبن فأخرجه، وامسح البصقة.

(رنين جرس في الرواق).

الجرس يرن. أظن أحدهم قادماً. لا أحب أن ألتقي بهم الآن، هل في بيتكم مخرج آخر؟

آغافيا تيخونوفنا: يوجد سلم خلفي. ولكن جسمي كله يرتعش، حقاً.

كوتشكاريـوف: لا بأس. المهم أن تسيطري علـى نفسك. إلى اللقاء! (جانباً) سأسرع في الإتيان ببودكليسين.

المشهد الثاني

(آغافيا تيخونوفنا و يايتشنيتسا)..

يايتشنيتسا: جئت، يا سيدتي، مبكراً قليلاً عن قصد، لأتحدث إليك على انفراد، في وقت الفراغ، طيب، يا سيدتي، أفترض أنك تعرفين رتبتي: أنا موظف من الدرجة الراقية، محبوب من الرؤساء، مطاع من المرؤوسين.. ينقصني فقط رفيقا حياة لي.

آغافيا تيخونوفنا: نعم.

يايتشنيتسا: والآن أجد هذه الرفيقة. رفيقة حياتي أنتِ. قولي لي بصراحة: نعم أم لا؟ (ينظر من خلال كتفها. ويقول جانباً) آها، ليست هي كالألمانيات النحيلات. يوجد عليها شيء!.

آغافيا تيخونوفنا: أنا ما أزال في أول الشباب، ولا يجدر أن أتزوج في الوقت الحاضر.

يايتشنيتسا: يا سلام! ولماذا تتعب الخطابة نفسها؟ ولكن ربما تريدين أن تقولي شيئاً آخر؟ وضحي...

(رنين جرس).

اللعنة، لن يتركوني أشوف شغلي.

المشهد الثالث

(نفس الشخصين وجيفاكين).

جيفاكين: اعذريني، يا سيدتي، ربما جئت مبكراً جداً. (يلتفت ويرى يايتشنيتسا).. آه، يوجد زائر... احتراماتي لإيفان بافلوفيتش!

يايتشنيتسا: (جانباً) أوه، ليأخذك الشيطان أنت واحتراماتك! (بصوت مسموع) إذاً، يا سيدتي؟ قولي كلمة واحدة: نعم أم لا؟

(رنين جرس. يايتشنيتسا. يبصق في غيظ).

الجرس مرة أخرى.

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص مع أنوتشكين)..

أنوتشكين: بما، يا سيدتي، أبكر مما تقتضي وتسمح أصول اللياقة... (وحين يرى الآخرين تندّ منه آهة استغراب، وينحني لهما)، احتراماتي!

يايتشنيتسا: (جانباً) ابق احتراماتك لك! لعنة الله على الذي جاء بك. أتمنى أن تنكسر رجلاك المصوصتان! (بصوت مسموع) قرري، إذاً، يا سيدتي، أنا رجل مرتبط بوظيفة، ووقتي قليل. نعم أم لا؟

آغافيا تيخونوفنا: (في الارتباك) غير لازم.... غير لازم.... (جانباً) لا أفهم شيئاً مما أقول.

يايتشنيتسا: كيف غير لازم؟ بأي خصوص غير لازم؟

آغافيا تيخونوفنا: لا شيء، لا شيء... لم أرد.. (تستجمع شجاعتها) اغرب عني!... (جانباً) آه، يا إلهي، ما هذا الذي قلته؟

يايتشنيتسا: كيف «اغرب عني»؟ ماذا يعني «اغرب عني»؟ اسمحي لي أن أعرف ماذا تقصدين بهذا؟ (يتخوصر، ويتقدم نحوها مهدداً).

آغافيا تيخونوفنا: (بعد أن تحدق في وجهه تصيح). أوه، يضربني يضربني! (تخرج راكضة).

(يايتشنيتسا يقف فاغر الفم. تركض أرينا بانتيليمونوفنا داخلة

علــى الصيحــة، وتحدق في وجهــه، وتصيح أيضــاً «أوه، يضربني!» وتخرج راكضة)

يايتشنيتسا: أي لغز هذا. والله حكاية!

(رنين جرس في الباب، وأصوات تسمع).

صوت كوتشكاريوف: ادخل، ادخل، لماذا توقفت؟

صوت بودكليسين: ادخل أنت في المقدمة. سأتأخر دقيقة، أصلح هندامي، انحلت حمالة الجورب.

صوت كوتشكاريوف: وتهرب من جديد.

صوت بودكليسين: لا، لن أهرب! وحق الرب لن أهرب!

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص مع كوتشكاريوف).

كوتشكاريوف: وكأنه ضروري جداً أن يشدّ الحمالة.

يايتشنيتسا: (مخاطباً إياه) قل لي من فضلك: هل العروس بلهاء أم ماذا؟

كوتشكاريوف: وكيف؟ هل حصل شيء حقاً؟

يايتشنيتسا: تصرفات غير مفهومة. ركضت، وهي تصرخ «يضربني، يضربني!» الشيطان يعرف ما هذا!

كوتشكاريوف: أي نعم، هذا ما يلاحظ عليها. إنها بلهاء.

يايتشنيتسا: قل لي هل أنت قريبها؟

كوتشكاريوف: قريبها، بالطبع.

يايتشنيتسا: وأية قرابة، لو سمحت أن أعرف؟

كوتشكاريوف: في الحقيقة لا أعرف. إحدى عمات أمي هي إحدى أقارب أبيها، أو أبوها أحد أقارب عمتي. زوجتي تعرف ذلك. هذا شغلهن.

يايتشنيتسا: والبله عندها منذ زمان؟

كوتشكاريوف: منذ الصغر.

يايتشنيتسا: نعم، كان الأفضل بالطبع، لو كانت أكثر ذكاء. ومع ذلك فالبلهاء أيضاً مقبولة. شرط أن يكون صداقها في حالة جيدة.

كوتشكاريوف: ولكنها لا تملك شيئاً.

ياتشنيتسا: وكيف ذاك، والبيت الآجري؟

كوتشكاريوف: بيت آجري بالاسم فقط. ولكن ليتك تعرف كيف بُني، الجدران أقيمت بقشرة من الآجر فقط، وفي الوسط حشيت بمختلف النفايات ونشارة الخشب.

ياتشنيتسا: معقول؟

كوتشكاريوف: طبيعي. وكأنك لا تعرف كيف يبنون البيوت في هذه الأيام؟ لا لشيء إلا ليرهنوها في المصرف العقاري.

ياتشنيتسا: على كل، البيت غير مرهون.

كوتشكاريوف: ومن قال لك؟ هذا هو صلب الموضوع. ليس فقط مرهوناً، بل ولم توضع عليه الفوائد المصرفية المفروضة لمدة سنين. كما أن لها أخاً في المحكمة العليا يضع عينه على البيت أيضاً، لا مثيل له في الولع بإقامة الدعاوى في المحاكم. انتزع، الكافر، من أمه آخر تنورة لها.

ياتشنيتسا: وكيف قالت لي العجوز الخطابة.... آه، إنها مكارة، حثالة جنس البشـ...(جانباً) ومع ذلك يمكن أن يكذب... سأستجوب العجوز استجواباً عسيراً، ولو طلع ذلك حقيقة... طيب... سأريها النجوم في الضحى.

أنوتشكين: اسمح لي أيضاً أن أضايقك بسؤال، بصراحة لكوني لا أعرف الفرنسية يصعب عليّ جداً أن أعرف بنفسي ما إذا كانت المرأة تعرف الفرنسية أم لا، فكيف ربة البيت، هل تعرف؟...

كوتشكاريوف: لا ، ولا حرف.

أنوتشكين: صحيح؟.

كوتشكاريوف: وكيف لا؟ أنا أعرف ذلك جيداً. كانت تتعلم مع

زوجتـي في مدرسة داخلية واحدة، وكانت معروفة بالكسل. كانت دائماً تعاقب. بل كان معلم الفرنسية يضطر إلى ضربها با لعصا.

أنوتشكين: تصور أنني أول ما رأيتها كنت أتحسس أنها لا تعرف الفرنسية.

يايتشنيتسا: طيـب، لتذهب الفرنسيـة إلى الجحيم! ولكن كيف الخطابـة الملعونـة... آه، أيتها المكارة، يا مشعـوذة! ليتك تعرف بأية كلمـات رسمتها لي. كما يرسم رسام بالضبط! «بيت، جناحان على أسس، ملاعق فضيـة، زلاجة» والآن اجلس فيها وتتنزه! وباختصار نادر ما تجد مثل هذه البلاغة في رواية. آه، منك، أيتها السافلة الهرمة! فقط لو أظفر بك...

المشهد السادس

(نفس الأشخاص مع فيكلا).

(حين يرونها يخاطبونها جميعاً بهذه الكلمات).

يايتشنيتسا: آي! هذه هي! تعالي إلى هنا، أيتها الزنديقة العجوز! تعالي إلى هنا!

أنوتشكين: كيف خدعتني، يا فيكلا إيفانوفنا؟

كوتشكاريوف: أي نعم، شددوا الخناق عليها!

فيكلا: لا أفهم أي كلمة، طرشت تماماً!

يايتشنيتسا: البيت مبني بقشرة من الآجر، أيتها السافلة الهرمة. بينما كذبت وقلت بشرفات وبهذا وذاك.

فيكلا: لا أدري بذلك، لم أبنه أنا، ربما كان من الضروري أن يبنوه بقشرة آجر فقط، فبنوه بهذا الشكل.

يايتشنيتسا: ومرهون أيضاً! عسى أن يبتلعك الشيطان، يا مشعوذة، يا ملعونة! (يضرب الأرض بقدمه).

فيكلا: قف عند حدك! غيرك كان سيشكرني بارتياح على همتي نحوه.

أنوتشكين: نعم، يا فيكلا ايفانوفنا. ولي أيضاً قلت إنها تعرف اللغة الفرنسية.

فيكلا: تعرف، يا عزيزي، كل شيء تعرف، بالألماني وبكل شيء، تعرف تتصرف بأية طريقة تريدها.

أنو تشكين: لا، أظنها لا تتكلم إلا بالروسي.

فيكلا: وما العيب في ذلك؟ الإنسان بالروسي يفهم أحسن، ولهذا تتكلم بالروسي. وإذا كانت تعـرف بالأعجمي، سيكون أسوأ لك. لن تفهم منها شيئاً. ليس هناك داع لأن تثرثر عن الإنسان الروسي! معروف أي لسان هو. كل القديسين كانوا يتكلمون بالروسي.

يايتشنيتسا: تعالي هنا، يا ملعونة! اقتربي مني!

فيكلا (تتراجع باتجاه البـاب): لا تقترب، أنا أعرفك، أنت رجل قبيح، تضرب بدون أي سبب.

يايتشنيتسـا: طيـب، انتظري، يا حلـوة، لن تسلمـي من ذلك! عندما أحيلك إلى الشرطة ستعرفين أي جزاء ستلقين من خداع الناس الشرفـاء. سترين! وقولي للعروس إنها سافلة! قـولي لها من كل بد. (ينصرف).

فيـكلا: قف عند حدك! يا للشجاعـة! لأنه سمين يتصور لا أحد يوازيه. طيب، أقول لك أنت نفسك سافل، هكذا!

أنو تشكين: بصراحة، يـا محترمة، ما كنت أتصور أنك ستخدعين بهـذا الشكل. لو كنت أعرف أن العروس بهذا المستوى من التعليم ما كنت... نعم، ما كانت قدمي تطأ هذا البيت. هكذا! (ينصرف).

فيـكلا: هل جنوا أو شربوا أكثر من اللازم! يا لهم من متحذلقين! القراءة والكتابة لخبطت عقولهم.

المشهد السابع

(فيكلا و كوتشكاريوف و جيفاكين)

(كوتشكاريوف يضحك بملء حنجرته، وهو ينظر إلى فيكلا ويشير إليها بإصبعه).

فيكلا (في غيظ): ما لك تمزق حنجرتك؟

(كوتشكاريوف ماضٍ في قهقهته. أصابته نوبة!)

كوتشكاريوف: أما والله خطابة! خطابة! أستاذة في الزواج! تعرف كيف تدير الأمور! (ويمضي في قهقهته).

فيكلا: ساح في الضحك، يبدو أن المرحومة أمك فقدت عقلها، ساعة ولدتك! (تخرج مغتاظة).

المشهد الثامن

(كوتشكاريوف و جيفاكين)..

كوتشكاريوف (وهو ما يزال يقهقه): أوه، سأموت من الضحك، أموت، حقاً! طاقتي لا تتحمل، أشعر بالضحك يمزقني! (يمضي في ضحكه).

(جيفاكين يبدأ بالضحك أيضاً، وهو ينظر إليه).

(يسقط على المقعد من الإعياء) أوه، صحيح، قواي خارت. أشعر بأن آخر عروقي ستتمزق لو واصلت الضحك.

جيفاكين: يعجبني مرح طبعك. كان عندنا في عمارة القبطان بولديريف ضابط صف يدعى بيتوخوف أنتو إيفانوفيتش. هو أيضاً كان مرح الطبع. كان ما إن تريه إصبعاً واحدة هكذا دون أي شيء آخر، حتى ينفجر ضاحكاً، وحق الرب، يضحك حتى المساء. وإذا نظرت إليه تشعر أنت نفسك برغبة في الضحك، وإذا بك الآخر تضحك بعد برهة، نعم، في الحقيقة.

كوتشكاريوف: (يلتقط أنفاسه). أوه، يا إلهي، ارحمنا، نحن الخاطئين! طيب، ماذا تصورت، الحمقاء؟ هيهات أن تزوج أحداً، وهل هي بقادرة على ذلك؟ أنا إذا أخذت على عاتقي، سأزوج حسب الأصول.

جيفاكين: الله؟ يعني تقدر أن تزوج بجد؟

كوتشكاريوف: مؤكد! أي رجل على أي امرأة.

جيفاكين: طيب، إذا كان كذلك زوجني ربة البيت هذه.

كوتشكاريوف: أزوجك أنت؟ ولكن لماذا تريد أن تتزوج؟

جيفاكين: كيف لماذا؟ دعني أقـول لك: سؤال فيه بعض الغرابة! معروف لماذا.

كوتشكاريوف: ولكنك سمعت أنها بلا جهاز بالمرة.

جيفاكـين: وليكـن ما دام هو والعـدم سواء. بالطبـع، هذا شيء مؤسـف. ولكن يمكن بلا جهـاز أيضاًن لما للآنسة مـن لطف شديد وحسـن سلوك. الحجرة صغيرة (يقيسهـا بذراعيه). يعني هنا رواق صغير، وحاجز نوم صغير، أو شيء فاصل...

كوتشكاريوف: وما الذي أعجبك فيها بهذا الشكل؟

جيفاكين: إذا أردت الحقيقة، أعجبتني لأنها امرأة ممتلئة. وأنا غاو كبير من ناحية امتلاء المرأة.

كوتشكاريوف: (ينظر إليه من طـرف عينه، ويقول جانباً)..هو نفسـه لا يملأ العين أبداً، مثل كيس تبغ أفرغت منه محتوياته. (بصوت مسموع)، لا، لا يجوز لك أن تتزوج إطلاقاً.

جيفاكين: ولماذا؟

كوتشكاريـوف: هكذا. وأي قـوام لـك، إذا كان الكلام بيننا؟ الساق كساق الديك...

جيفاكين: ساق الديك؟

كوتشكاريوف: بالطبع. وأي شكل لك!

جيفاكين: كيف ساق الديك على كل حال؟

كوتشكاريوف: بالضبط، ساق الديك.

جيفاكين: يبدو لي، على أية حال، أنك تهين كرامتي..

كوتشكاريـوف: وأنا أقول ذلك لأنني أعرف أنك رجل متفهم.

لغيرك ما كنت سأقوله أبداً. تفضل، سأزوجك، ولكن امرأة أخرى.

جيفاكين: لا، لم أطلب أن أزوج امرأة أخرى، اعمل معروفاً! زوجني هذه.

كوتشكاريوف: تفضل، أزوجك! فقط على شرط أن لا تتدخل في أي شيء، وأن لا تقع عين العروسة عليك. وسأفعل كل شيء بدونك.

جيفاكين: كيف تقوم بكل شيء بدوني؟ على كل حال لازم أريها نفسي.

كوتشكاريوف: غير لازم أبداً، اذهب إلى بيتك وانتظر هناك. وفي هذا المساء سيتم كل شيء؟

جيفاكين: (يفرك يديه) هذا شيء لا أروع منه! يعني لا تلزم الشهادة بالمؤهلات ولا سجل الخدمة؟ ربما العروسة تحب الاطلاع؟ سأهرب لجلبها حالاً.

كوتشكاريوف: لا لزوم لأي شيء. المهم أن تتوجه إلى البيت. واليوم أخبرك بالنتيجة. (يرافقه في الخروج) العين بصيرة واليد قصيرة، لن يكون ذلك! ما هذا؟ لماذا لا يأتي بودكليسين. شيء غريب، على كل حال. معقول لحد الآن مشغول بشدّ الحمالة؟ يعني لازم أركض وراءه؟...

المشهد التاسع

(كوتشكاريوف و آغافيا تيخونوفنا).

آغافيا تيخونوفنا: (تجيل النظر فيما حولها) يعني انصرفوا؟ لا يوجد أحد؟

كوتشكاريوف: انصرفوا، انصرفوا، لايوجد أحد.

آغافيا تيخونوفنا: آه، ليتك تعرف كم كنت أرتجف بكل جسمي. لم يحدث هذا معي قط. ولكن أي إنسان مخيف يايتشنيتسا هذا! لا بد أنه سيكون طاغية على زوجته. حتى الآن يبدو لي أنه سيعود من لحظة إلى أخرى.

كوتشكاريوف: أوه، لن يعود أبداً. أراهن على رأسي، إذا مد واحد منهما أنفه هنا.

آغافيا تيخونوفنا: والثالث؟

كوتشكاريوف: أي ثالث؟

جيفاكين: (يمد رأسه من الباب) كم أود أن أعرف ماذا ستقول عني بفمها الجميل يا وردة الحب!

آغافيا تيخونوفنا: وبالتازار بالتازاروفيتش؟

جيفاكين: حلت اللحظة! حلت اللحظة! (يفرك يديه).

كوتشكاريوف: أوه، أزعجتني! تصورت أنك تتكلمين عن إنسان محترم. الشيطان نفسه يعرف أي شخص هو. أحمق راسخ.

جيفاكين: ما هذا؟ بصراحة، لا أفهم أي شيء هذا.

آغافيا تيخونوفنا: ولكنه من حيث الشكل يبدو إنساناً جيداً جداً.

كوتشكاريوف: سكير!.

جيفاكين: لم افهم، وحق الإله!

آغافيا تيخونوفنا: وعلاوة على ذلك سكير؟ معقول؟

كوتشكاريوف: صدقيني، حقير متأصل في حقارته.

جيفاكين: (بصوت عـال)، لا، يا حضرة المحترم. لم أرد منك أن تقـول هذا أبداً. مسألة أخرى أن تقـول شيئاً لصالحي. أن تمتدحني. أما هذه الطريقة، هذه الكلمات فأطلقها على شخص آخر غيري، أما بخصوصي فلا مؤاخذة، لا داعي!

كوتشكاريـوف: (جانبـاً) ما الـذي وسوس له ليعـود؟ (لاغافيا تيخونوفنا بصوت خافت) عاينـي عايني، لا يكاد يقف على قدميه. كل يـوم يترنح بهـذا الشـكل. اطرديه، وينتهـي الأمـر! (جانباً) و بودكليسين لم يأتِ لحد الآن، آه، الحقير! سأنتقم منه! (يخرج).

المشهد العاشر

(آغافيا تيخونوفنا و جيفاكين).

جيفاكين (جانباً): أردته عوناً طلع لي فرعونا! رجل في منتهى الغرابة! (بصوت مسموع) يا سيدتين لا تصدقي...

آغافيا تيخونوفنا: اعذرني. أنا متوعكة... عندي صداع (تهم بالخروج).

جيفاكين: ربما يوجد شيء لا يعجبك في؟ (يشير إلى رأسه) لا تنظري إلى بقعة الصلع الصغيرة في رأسي. إنها لا شيء، آثار حمى ولت، وسينمو الشعر حالاً.

آغافيا تيخونوفنا: لا يهمني أي شيء عندك.

جيفاكين: أنا، يا سيدتي، إذا ارتديت بدلة فراك سوداء لاح لون وجهي أكثر بياضاً.

آغافيا تيخونوفنا: هذا أحسن لك. مع السلامة. (تخرج).

المشهد الحادي عشر

(جيفاكين. وحده، يقول في أثرها).

سيدتـي، من فضلك، قـولي السبب، لمـاذا؟ لأي شيء؟ هل عليَّ مأخـذ كبير؟ انصرفت!... غريبة جداً! هذا يحدث لي للمرة السابعة عشرة، في كل مرة بنفس الطريقة تقريباً. في البداية يبدو كل شيء على ما يرام، وما إن تصل المسألة إلى نقطة الحسم، حتى أجد بنفسي مرفوضاً. (يروح ويجيء في الحجرة في تأمل)، نعم، هذه هي الخطيبة السابعة عشرة، بالتأكيد! على كل حال، ماذا تريد؟..

مـاذا كانت يعني، مثلاً... السبب والمسبّب. (بعد تفكير قصير). مسألـة تحير، تحـير إلى أبعد حـد! لا بأس لو كان لي عيـب أو نقيصة (يجيل البصر فيما حوله) لا أظن أن هذا موجود، كل شيء بحمد الله، الطبيعة لم تبخل عليَّ بشيء. غريبة! ربما أذهب إلى البيت، وأفتش في صندوقـي؟ كانت فيه أشعار، تعويذة، لا تصمد أيـة امرأة أمامها... والله، هـذا لا يتقبّلـه العقل! في البداية وفقت، فيمـا بدا... والظاهر أنني سأعود بخفّي حنين. خسارة، بالفعل خسارة! (ينصرف).

المشهد الثاني عشر

(بودكليسين و كوتشكاريوف يدخلان، والاثنان يلتفتان إلى الخلف).

كوتشكاريوف: لم يلحظنا! هل رأيت كيف طلع خائباً؟

بودكليسين: معقول أنه رفض أيضاً مثل هؤلاء؟

كوتشكاريوف: رفض رفضاً باتاً.

بودكليسين: (بابتسامة الرضى عن النفس) على كل حال، لا بد أن يكون مربكاً جداً أن يرفض من الخاطب.

كوتشكاريوف: بالطبع!

بودكليسين: لحد الآن لا أصدق أنها أعلنت صراحة بأنها تفضّلني على الجميع.

كوتشكاريوف: لا تفضلك فقط! بل هي مدلهة بك كلياً. حب مشبوب. أنت لا تدري بأي أسماء تحبب سمّتك! غرام عاصف فوار، بالفعل!

بودكليسين: (فاغراً فمه بارتياح) صحيح، إذا أحبت المرأة لن تبخل بالكلمات. تبتكر ما لا تبتكره أنت طول عمرك من أسماء الولع: يا حلاوة بوزك، يا صريصور، يا سمرمر...

كوتشكاريوف: قليلة هذه الكلمات! ستتزوج وسترى بنفسك في الشهرين الأولين أي أسماء ستطلق عليك. تجعلك تذوب، يا أخ، بالتأكيد.

بودكليسين: (يبتسم بشيء من التشكك) معقول؟

كوتشكاريـوف: كلمة شرف مـن إنسان شريف! على كل حال، اسمع الآن، لندخل الموضـوع بسرعة. ابح لها بحبك، واكشف لها مشاعرك على الفور، واطلب يدها.

بودكليسين: ولكن كيف على الفور؟ ما هذا منك!..

كوتشكاريوف: على الفور، حتماً... هاهي نفسها قادمة.

المشهد الثالث عشر

(نفس الشخص مع آغافيا تيخونوفنا)..

كوتشكاريوف: جئتك يا سيدتي، بعبدك الذي ترينه، لم يقع أحد في العشق الذي وقع فيه مطلقاً. الله يستر، لا أريد ذلك حتى لعدوّي.

بودكليسين: (يلكز من يده، ويقول بخفوت) أوه، يا أخ، زودتها كثيراً!..

كوتشكاريوف: (له) لا بأس، لا بأس. (لها، بخفوت) كوني أجرأ. إنه وديع جداً. حاولي أن تكوني معه على أكثر ما يمكن من الطلاقة. يعني، اقلبي حاجبيك بهذا الشكل، خفّضي بصرك، ارفعيه عليه، السافل، أو مطي كتفك بشكل ما، ودعي هذا الرذيل، يرى! خسارة إنك لم تلبسي فستاناً بردنين قصيرين. ولكن هذا جميل، على كل حال. (بصوت مسموع). طيب، سأترككم في صحبة لطيفة! لحظة لألقي نظرة على غرفة الطعام عندكم، وعلى المطبخ. يجب أن أدبّر الأمور. بعد قليل سيأتي النادل الذي أوصيته ليخدمنا في العشاء. وقد تكون زجاجات النبيذ قد وصلت. إلى اللقاء! (لبودكليسين). شد حيلك، تجرّأ أكثر. (يخرج).

المشهد الرابع عشر

(بودكليسين و آغافيا تيخونوفنا).

آغافيا تيخونوفنا: تفضل بالجلوس.

(يجلسان ويصمتان).

بودكليسين: أتحبين الركوب، يا سيدتي؟

آغافيا تيخونوفنا: ماذا تقصد بالركوب؟

بودكليسين: في الريف كم يحلو ركوب الزورق صيفاً!

آغافيا تيخونوفنا: نعم، أحياناً نتنزه مع الأصحاب.

بودكليسين: غير معروف أي صيف سيكون هذا العام.

آغافيا تيخونوفنا: حبذا لو كان لطيفاً.

(الاثنان يصمتان).

بودكليسين: أية زهور تحبين أكثر يا سيدتي؟

آغافيا تيخونوفنا: التي لها أريج أكثر، زهور القرنفل.

بودكليسين: السيدات تناسبهن الزهور كثيراً.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، هواية تحلو للنفس.

(صمت).

آغافيا تيخونوفنا: في أية كنيسة صليت يوم الأحد الماضي؟

بودكليسين: في كنيسة فوزنيسينسكي. وقبل أسبوع صليت في كاتدرائية كازان. على العموم، لا يهم في أي كنيسة يصلي المرء. سوى أن الزينات فيها أجمل.

(صمت، بودكليسين ينقر بأصابعه على الطاولة).

عن قريب سيحل موعد الحفلة في ايكاترينغوف.

آغافيا تيخونوفنا: نعم، أظن بعد شهر.

بودكليسين: وحتى أقل من شهر.

آغافيا تيخونوفنا: لابد أن تكون حفلة ممتعة.

بودكليسين: اليوم اليوم الثامن من الشهر. (يعد بأصابعه) التاسع، العاشر، الحادي عشر... بعد اثنين وعشرين يوماً.

آغافيا تيخونوفنا: تصور، قريب جداً!.

بودكليسين: وأنا لم أحسب هذا اليوم.

(صمت)

أي شعب جسور هذا الشعب الروسي!

آغافيا تيخونوفنا: كيف!

بودكليسين: أقصد الشغيلة. واحد يقف في الأعلى تماماً. كنت أمر أمام البيت، فرأيت ملاطاً هناك، ولا يخاف شيئاً.

آغافيا تيخونوفنا: غير معقول! في أي مكان؟

بودكليسين: في الطريق الذي أسلكه كل يوم في الذهاب إلى الدائرة. فأنا كل يوم أذهب للدوام.

(صمت. ويعود بودكليسين ينقر بأصابعه من جديد، وأخيراً يتناول قبعته، وينحني مودعاً).

آغافيا تيخونوفنا: يعني تنصرف...

بودكليسين: نعم، اعذريني، ربما أضجرتك.

آغافيا تيخونوفنا: مستحيل! على العكس يجب أن أشكرك على تمضية الوقت بهذا الشكل.

بودكليسين: (مبتسماً) بينما، في الحقيقة، ظننت أنني أضجرتك.

آغافيا تيخونوفنا: لا، بالفعل.

بودكليسين: طيب، إذا كان لا، فاسمحي لي أن أزورك مرة أخرى، في إحدى الأماسي...

آغافيا تيخونوفنا: مسرورة جداً.

(يتبادلان الانحناءات، بودكليسين ينصرف).

المشهد الخامس عشر

(آغافيا تيخونوفنا وحدها).

أي رجـل معتبر! الآن فقط عرفته جيداً. حقاً، لا يمكن إلا أن تقع في حبـه. متواضع وحصيف. وصديقـه كان محقاً في قوله قبل حين. خسـارة فقط إنه انصرف بهـذه السرعة، بينما كنت أريـد أن أستمع إليه أكثر. ما ألطف الحديث معه! المهم واللطيف فيه أنه لا يتكلم أبداً كلامـاً فارغاً. وكنت أيضاً أريد أن أقول له كلمة أو كلمتين، ولكنني تهيبـت، بصراحـة، وصـار قلبي يدق بسرعـة... رجل ممتـاز حقاً! لأذهب إلى عمتي، وأحكي لها (تخرج).

المشهد السادس عشر

(بودكليسين و كوتشكاريوف، يدخلان).

كوتشكاريــوف: و لِمَ ذهابك إلى البيــت؟ أي سخافة هذه! لِمَ إلى البيت؟

بودكليسين: ولماذا أبقى هنا؟ قلت كل شيء حسب الأصول.

كوتشكاريوف: يعني فتحت قلبك لها؟

بودكليسين: إلا هذا، لم أفتح قلبي بعد.

كوتشكاريوف: يا سلام! لماذا لم تفتحه؟

بودكليســين: كيف تريــدني أن أعلــن لها دفعة واحــدة «دعيني أتزوجك يا سيدتي» دون مقدمات عن أشياء أخرى؟

كوتشكاريــوف: ماهــي التوافه التي تحدثت عنهــا طوال نصف ساعة؟

بودكليســين: طيــب، تحدثنــا عــن كل شــيء، وأنا مرتــاح جداً بصراحة، قضيت الوقت بمتعة كبيرة.

كوتشكاريــوف: طيب، اسمع، احكم بنفســك متى سنلحق أن تقوم بــكل هذا؟ بينما يجب علينا أن نذهــب إلى الكنيسة بعد ساعة لعقد القران.

بودكليسين: هل جننت؟ اليوم عقد القران!

كوتشكاريوف: و لِمَ لا؟

بودكليسين: اليوم عقد القران!

كوتشكاريوف: ولكن أنت الذي قطعت العهد، وقلت سأتزوج حالما يطرد الخطاب.

بودكليسين: وأنا الآن أيضاً عند عهدي. ولكن ليس حالاً. بعد شهر، على الأقل. يجب أن أعطي فترة استراحة.

كوتشكاريوف: لشهر!

بودكليسين: نعم، بالطبع.

كوتشكاريوف: هل فقدت عقلك أم كيف؟

بودكليسين: نعم، لا يمكن أقل من شهر.

كوتشكاريوف: ولكنني أوصيت النادل على عشاء، يا بليد! طيب، أرجوك، يا إيفان كوزميتش، لا تعاند، يا روحي، وتزوج الآن.

بودكليسين: أرجوك، يا أخي، ما هذا الذي تقوله؟ كيف الآن؟

كوتشكاريوف: إيفان كوزميتش، أتوسل إليك، إذا كنت لا تريد لنفسك، فلخاطري على الأقل.

بودكليسين: ولكن غير ممكن، وحق الرب.

كوتشكاريوف: ممكن، يا روحي، كل شيء ممكن. طيب، أرجوك، لا تركب رأسك، يا قلبي!

بودكليسين: ولكن غير ممكن فعلاً. فيه إحراج. إحراج خالص.

كوتشكاريوف: ماهو الإحراج؟ من قال لك هذا؟ احكم بنفسك، فأنت رجل ذكي. وأنا أقول لك ذلك لا تزلّفاً إليك، ولا لأنك رئيس شعبة، بل عن حب لا غير... طيب، كفاية، يا روحي، قرر، وانظر بعين الرجل الحصيف.

بودكليسين: لو كان ذلك ممكناً لما...

كوتشكاريوف: إيفان بافلوفيتش! يا حياتي، يا روحي! هل تريد أن أركع أمامك؟

بودكليسين: ولِمَ هذا؟...

كوتشكاريوف: (يركع) طيب، ها أنا ذا راكع! ها أنت ترى، أتوسل إليك. لن أنسى فضلك مدى العمر، لا تعاند، يا روحي!

بودكليسين: غير ممكن، يا أخ، غير ممكن حقاً.

كوتشكاريوف: (ينهض، غاضباً) خنزير!

بودكليسين: تفضل، اشتم كما تريد.

كوتشكاريوف: غبي! لم أر مثلك في حياتي.

بودكليسين: اشتم، اشتم.

كوتشكاريوف: لمن إذاً جاهدت، لأي شيء بذلت قصارى جهدي؟ كل ذلك لمنفعتك، أيها الأحمق. فأي مصلحة لي بذلك؟ سأتركك حالاً، فماذا يهمني؟

بودكليسين: ومن طلب منك أن تتعب نفسك؟ تفضل، اتركني.

كوتشكاريوف: ولكنك ستهلك، بدوني لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إذا لم أزوجك، ستظل أحمق طول عمرك.

بودكليسين: وما يخصك في هذا؟

كوتشكاريوف: أنا أسعى لصالحك، يا رأس الخشب.

بودكليسين: لا أريد مساعيك.

كوتشكاريوف: طيب، اذهب في ستين داهية!

بودكليسين: طيب، اذهب.

كوتشكاريوف: هيا، اطلع.

بودكليسين: طيب، سأذهب.

كوتشكاريـوف: اذهب، اذهب، عسى أن تنكسر رجلك حالاً. مـن صميم قلبي أتمنى لك أن يغـرز عربجي سكران عريش عربته في لوزتـك! أنت خرقة، لا رجل! أقسم لك أن كل شيء بيننا قد انتهى، فلا ترني وجهك بعد الآن.

بودكليسين: طيب. لن أريك. (ينصرف).

كوتشكاريوف: إلى جهنم، سلم على الذي هناك! (يفتح الباب، ويصيح في أثره) أحمق!...

المشهد السابع عشر

(كوتشكاريوف لوحده، يسير رواحاً ومجيئاً في انفعال شديد).

معقول أن الدنيا شهدت في يوم ما مثل هذا الرجل؟ أحمق حقيقة! أي نعم، ولكن الحقيقة أنا أيضاً لا أصنّف مع الرجال الأسوياء. قولوا لي من فضلكم وأنا أستشهدكم جميعاً، ألست أهبل، ألست أحمق. لأي شيء أجاهد، أصيح، حتى جفّت حنجرتي؟ قولوا لي: من هو بالنسبة لي؟ قريبي؟ وهل أنا له دادة، عمة، حماة، عرابة؟ أي شيطان، أي شيء جعلني أتعب نفسي من أجله، ولا يقر لي قرار، عساه يروح في داهية؟ لا أدري لأي شيء وحق الشيطان! حاولوا أن تسألوا إنساناً لماذا يفعل هذا أو ذاك! يا وضيع! يا بوز الحقارة والسفالة! بودّي لو أمسكك، يا بهيمة الغباء، وأنقرك بإصبعي على أنفك، على أذنيك، على فمك، على أسنانك، وعلى كل كيانك! (ينقر بأصابعه عدة نقرات في الهواء بغضب). والمزعج أنه خرج غير مبالٍ بشيء، صافياً مصفى وكأن لم يكن شيء، وهذا الذي لا يحتمل! وسيذهب إلى شقته، ويتمدد، ويشعل غليونه. أي مخلوق كريه! أحياناً تصادف سحنات كريهة، ولكن لا يمكنك أن تبتكر مثل سحنته، مستحيل أن تركبها، مستحيل، والله! ولكن سأذهب قصداً، وأعيده، الخامل. ولن أتركه يزيغ، أنا ذاهب لأجلب السافل.

المشهد الثامن عشر

(آغافيا تيخونوفنا تدخل).

هـذا الخفقان الشديد في قلبي يصعب علـيّ أن أدركه حقاً. أينما أديـر وجهي أرى إيفان بافلوفيتشـ ماثلاً أمامي. صحيح ما يقال، لا مفـر من القدر. قبل حين، كنـت أريد أن أفكر في شيء آخر، والآن، مهمـا وبأي شيء اشتغلـت ألف خيوطاً أو أخيط محفظـة أجد إيفان بافلوفيتشـ يمثل أمامي. (تصمت قليـلاً) ها أنذا أجابه أخيراً بتغير في حالتي! سيأخذونني، ويقودونني إلى الكنيسة... وبعد ذلك يتركونني لوحـدي مع رجل. أوف! كياني يرتجف كله. وداعاً، يا حياة بكارتي السابقـة! (تبكي) كـم من سنة قضيتها بهـدوء... عشت، وعشت، والآن علـيّ أن أتزوج! المشاغل وحدهـا ما أكثرها: أطفال، صبيان، مشاكسـون ميالـون إلى العراك، وقـد أرزق ببنـات أيضاً. ويكبرن، وتعـالي زوجيهن. لطيف، لو تزوجن طيبـين، ولكن ماذا لو تزوجن سكـيراً أو شخصـاً مستعـداً في الحال أن يقامر بكل مـا لديه وعليه! (تعـود شيئاً فشيئاً إلى النحيب مجدداً) لم ألحق أن أتمتع بحالة العزوبة، حتـى الآن لم أتم السابعة والعشرين... (تغير صوتها) لماذا تأخر إيفان بافلوفيتش هذه المدة الطويلة؟

المشهد التاسع عشر

(آغافيا تيخونوفنا و بودكليسين)..

(كوتشكاريوف يدفعه من الباب إلى المسرح بكلتا يديه).

بودكليسين (يتلعثم): جئت، يا سيدتي، لأوضح لك أمراً... أودّ فقط أن أعرف قبل هذا ألا يبدو ذلك غريباً لك؟

آغافيا تيخونوفنا: (تخفض بصرها) ما هو؟

بودكليسين: لا، يا سيدتي، قولي مقدماً ألا يبدو غريباً لك؟

آغافيا تيخونوفنا: (في نفس الوضعية) لا أقدر أن أعرف ما هو.

بودكليسين: ولكن أجيبي هل يبدو لك غريباً بالفعل ما سأقول لك.

آغافيا تيخونوفنا: أرجوك، كيف يمكن أن يكون غريباً، كل ما أسمعه منك لطيف.

بودكليسين: ولكن هذا لم تسمعيه مني قط.

(آغافيا تيخونوفنا تغض بصرها أكثر، وفي تلك اللحظة يدخل كوتشكاريوف خلسة، ويقف وراء كتفيه).

بودكليسين: المسألة... ولكن الأحسن أن أخبرك فيما بعد.

آغافيا تيخونوفنا: ولكن ما هو؟

بودكليسين: هو... بصراحة كنت أريد أن أعلنه لك الآن. لكن ما زلت متشككاً.

كوتشكاريوف (مع نفسه، طاوياً ذراعيه): أوه، يا ربي، أي

رجـل هذا! هذا مجرد جزمة نسائية باليـة، لا إنسان بل أضحوكة من الإنسان، هجاء للإنسان.

آغافيا تيخونوفنا: ولماذا تتشكك؟

بودكليسين: الشك يساورني على أية حال.

كوتشكاريوف (بصوت مسموع): ما أسخف هذا، ما أسخفه! ولكنـك يا سيدتي ترين، أنه يطلب يدك، يريد أن يعلن إنه لا يستطيع العيش بدونـك، لا يستطيع البقـاء في الوجود. وهـو لا يسأل إلا: موافقة أنت على إسعاده؟..

بودكليسـين: (يـكاد يكـون مذعـوراً، يلكـزه وينبـس ببعض الانفعال) أرجوك، ما هذا منك!

كوتشكاريـوف: كيـف، إذاً، يا سيدتي! هـل تعزمين على توفير السعادة لهذا العبد الفاني.

آغافيـا تيخونوفنا: لا أجرؤ أبـداً أن أتصور أن في إمكاني أن أوفر سعادة... ولكنني موافقة.

كوتشكاريوف: رائع! عظيـم! كان الأحرى أن يكون ذلك منذ زمان. هاتا يديكما!

بودكليسين: حالاً! يريد أن يسر له شيئاً في أذنه. كوتشكاريوف، يلوح له بقبضته، ويعقد حاجبيه. (بودكليسين يعطي يده).

كوتشكاريـوف: (يجمـع اليديـن) الله يبارككمـا!. أنـا موافق وأصـادق على رباطكمـا. الزواج قضيـة مهمة... وهـو ليس مثل استئجـار عربـة، وركوبها إلى حيث يريـد المرء. إنه التـزام من نوع مختلـف تماماً، إنـه التزام... طيـب، ليس لي وقـت الآن، وفيما بعد سأخـبرك أي التزام هو. حسناً، يا إيفـان بافلوفيتش، قبّل عروستك. الآن تقدر أن تفعل ذلك، بل الآن يجب أن تفعل ذلك.

(آغافيا تيخونوفنا تخفض بصرها).

لا شيء، لا شيء، يا سيدتي. هذا ما ينبغي. دعيه يقبّلك.

بودكليسين: نعم، يا سيدتي، لازم أن تسمحي لي الآن. (يقبلها ويمسك يدها) أية يد جميلة! لماذا لك هذه اليد الجميلة يا سيدتي؟... نعم، اسمحي لي، يا سيدتي، أريد أن أعقد القران عليك الآن، والآن بكل تأكيد.

آغافيا تيخونوفنا: كيف الآن؟ ربما سيكون ذلك استعجالاً بالغاً.

بودكليسين: لا أريد أن أسمع شيئاً! أريد أسرع، ليعقد القران في هذه اللحظة.

كوتشكاريوف: أحسنت! ممتاز! رجل نبيل. وبصراحة كنت دائماً أنتظر منك الكثير في المستقبل! بالفعل، يا سيدتي، استعجلي الآن، والبسي بسرعة. وإذا أردت الحقيقة فقد أرسلت في طلب مركبة، ودعوت الضيوف. وجميعهم الآن في الطريق إلى الكنيسة مباشرةً. وملابس الزفاف جاهزة عندك على حد معرفتي...

آغافيا تيخونوفنا: نعم، جاهزة منذ زمان، سألبس حالاً.

المشهد العشرون

(كوتشكاريوف و بودكليسين).

بودكليسين: شكراً، يا أخ! الآن أستطيع أن أقدر أية خدمة قدمت لي. ما كان أبي الحقيقـي سيفعل ما فعلته أنت. وأنا متأكد أنك كنت تتصـرف بوحي الصداقة. شكراً، يـا أخ، سأظل أتذكر فضلك طول عمري. (متأثراً) في الربيع القادم سأزور قبر أبيك مؤكداً.

كوتشكاريوف: لا بأس، يا أخ، أنا نفسي مسرور، طيب، تقرب لأقبلـك. (يقبله من هذا الخد ثـم من الخد الآخر) حفظك الله لتعيش في رغـد (يتبادلان القبلات) في راحة واكتفـاء، وأن يرزقك بالكثير من الأطفال...

بودكليسين: أشكرك، يا أخ، الآن فقط عرفت أخيراً ماهي الحياة. الآن انفتـح أمامي عالم جديد تمامـاً. الآن أشعر أن كل شيء يتحرك، يحيـا، يشعر، فيتصاعد منه البخـار، هكذا، بحيث لا تعرف نفسك ماذا يجري. من قبل لم أكن أرى شيئاً من هذا، ولا أفهم، يعني كنت مجـرد إنسان محروم من أية معرفـة، لم أكن أناقش، ،لا أتعمق، وكنت أعيش كأي إنسان يعيش.

كوتشكاريـوف: مسـرور، مسرور. الآن أنـا ذاهب لأرى كيف رتبـوا المائـدة، وسأعـود حـالاً. (جانباً) الأفضـل أن أخبـئ قبعته، للاحتياط. (يتناول القبعة ويأخذها معه).

المشهد الحادي والعشرون

(بودكليسين وحده).

صحيح ماذا كنت إلى هذه اللحظة؟ هل كنت أفهم معنى الحياة؟ لم أكن أفهم، لم أكن أفهم شيئاً. وماذا كانت حياتي العزوبية؟ ماذا كنت أساوي، مـاذا كنت أعمل؟ كنت أعيش، وأعيش، وأخدم، وأتردد علـى الدائرة وأتغدّى، وأنام، وباختصار كنـت أتفه إنسان في الدنيا وأكثر الناس ابتذالاً. والآن فقط، أرى كم هم حمقى أولئك الذين لا يتزوجـون، ولكن إذا أمعنت النظر وجـدت كم من الناس ما يزالون في عماهم هذا. ولو كنت ملكاً أو قيصراً لأصدرت أمري بأن يتزوج الجميـع، كلهـم دون استثناء، فـلا يبقى في دولتي أعـزب واحد... صحيح، يصعب أن أتصور، بعد بضع دقائق أصير متزوجاً. وأتذوق النعيم الذي لا يوجد إلا في الحكايات، والذي لا يمكن أن تصفه، ولا تجد الكلمات للتعبير عنه. (بعد صمت قصير) مع ذلك، فمهما قلت، فإنه لشيء رهيب، إذا فكرت في المسألة جيداً. فأنت على كل حال، ستربط نفسك طول الحياة، طول العمر وبعد ذلك لا تنفع ذرائع ولا حجـج، ولا توبة، ولا حاجة. حسم الأمر وانتهى إلى الأبد الآبدين. وحتـى الآن لا يمكن التراجع إطلاقـاً، بعد دقيقة، سيعقد القران، ولا رجـوع عن الموضوع. وصلت المركبـة وكل شيء جاهز وعلى أهبة الاستعـداد. يعني صحيح لا يمكن الرجوع عـن الموضوع؟ بالطبع، لا يمكن. الناس واقفـون على الأبواب وفي كل مكان. وسيسألونك مـا هذا؟ ممنوع. ولكـن الشباك مفتوح. ماذا لو مـن الشباك؟ لا، لا يجـوز، غير لائق، والشبـاك مرتفع أيضاً. (يتقدم مـن الشباك) أوه،

ليس مرتفعاً جداً، في مستوى الأساس فقط، والأساس واطئ، لا، لا يمكن. حتى القبعة ليست معي. وكيف أخرج بدون قبعة؟ غير لائق. طيب، وماذا تعني بدون قبعة؟ وماذا لو أجرب؟ أجربها؟ (يقف على قاعدة الشباك، بعد قوله: «باركني، يارب» يقفز إلى الشارع. يتنحنح ويتأوه وراء خشبة المسرح)، أوه، صحيح مرتفع! هاي، يا عربجي!

صوت العربجي: إلى أين؟

صوت بودكليسين: إلى كانوفكا، قرب جسر سيمينوفسكي.

صوت العربجي: عشرة كوبيكات، بدون بقشيش.

صوت بودكليسين: موافق. تحرك!

(تتردد قرقعة عربة مبتعدة).

المشهد الثاني والعشرون.

(آغافيا تيخونوفنا تدخل في ثوب العرس خجولة مطرقة الرأس).

أنــا نفسي لا أعرف مــاذا يحصل لي! من جديــد أشعر بالخجل، وأرتجــف بكل كيــاني. آه! أتمنــى أن لا يكــون الآن في الحجرة، ولو لدقيقــة، أتمنى أن يكــون قد خرج لشأن من الشــؤون! (تجيل بصرها بتهيــب) نعم، أين هــو؟ لا يوجد أحد، إلى أين خــرج؟ (تفتح الباب المــؤدي إلى المدخل، وتقول لمن هناك) أيــن خرج إيفان بافلوفيتش يا فيكلا؟

صوت فيكلا: موجود هناك.

آغافيا تيخونوفنا: وأين هناك؟

فيكلا (داخلة): كان جالساً هنا، في الحجرة.

آغافيا تيخونوفنا: ولكنه غير موجود، ها أنت ترين.

فيكلا: لم يخرج من الحجرة أبداً. كنت جالسة في المدخل.

آغافيا تيخونوفنا: ولكن أين هو؟

فيكلا: لا أدري أين. ربما خرج من منفذ آخر، من السلم الخلفي، أم لعله يجلس في حجرة أرينا بانتيليمونوفنا.؟

آغافيا تيخونوفنا: يا عمة، يا عمة!

المشهد الثالث والعشرون

(المرأتان مع أرينا بانتيليمونوفنا)..

أرينا بانتيليمونوفنا: (في ثياب أنيقة) ماذا هناك؟

آغافيا تيخونوفنا: إيفان بافلوفيتش عندك؟

أرينا بانتيليمونوفنا: لا، لا بد أن يكون هنا، لم يأتِ إلى حجرتي.

فيكلا: وفي المدخل لم يكن أيضاً. كنت جالسة هناك.

آغافيا تيخونوفنا: غير موجود هنا إطلاقاً، هل أنتما تريان.

المشهد الرابع والعشرون

(نفس الأشخاص مع كوتشكاريوف)..

كوتشكاريوف: ماذا حصل؟

آغافيا تيخونوفنا: إيفان كوزميتش غير موجود.

كوتشكاريوف: كيف غير موجود؟ خرج؟

آغافيا تيخونوفنا: لا ولم يخرج أيضاً.

كوتشكاريوف: كيف غير موجود ولم يخرج أيضاً؟

فيكلا: وأين يمكن أن يروح؟ هذا لا يدخل في عقلي. طوال الوقت كنت جالسة في المدخل، ولم أترك مكاني.

أرينا بانتيليمونوفنا: من غير الممكن أن يطلع من السلم الخلفي أبداً.

كوتشكاريوف: وكيف إذاً؟ ومن غير الممكن إطلاقاً أن يختفي، إذا لم يخرج من الحجرة. ربما اختبأ؟ يا إيفان بافلوفيتش! أين أنت؟ لا تتحامق، يكفي، اخرج بسرعة! ما هذه الألاعيب؟ وقت التحرك إلى الكنيسة حان منذ زمان. (ينظر وراء الدولاب، بل وينظر من طرف عينه تحت المقاعد) غير مفهوم! من غير الممكن أن يكون قد خرج، غير الممكن إطلاقاً. إنه هنا. وقبعته في الحجرة المجاورة أيضاً. وضعتها هناك خصيصاً.

أرينا بانتيليمونوفنا: هل نسأل الخادمة؟ كانت طوال الوقت في الشارع، فلربما تعرف... دونياشكا! دونياشكا!

المشهد الخامس والعشرون

(نفس الأشخاص مع دونياشكا)..

أرينا بانتيليمونوفنا: أين إيفان بافلوفيتش ألم تريه؟

دونياشكا: قفز من الشباك.

(آغافيا تيخونوفنا تصرخ، وتبسط يديها).

الثلاثة جميعاً: من الشباك؟

دونياشكا: نعم، وبعد أن قفز استقل عربة، ورحل.

أرينا بانتيليمونوفنا: أصحيح ما تقولينه؟

كوتشكاريوف: تكذب! غير ممكن!

دونياشكا: والله، قفز! والبائع في دكان الخرداوات رآه أيضاً، اتفق مع العربجي على عشرة كوبيكات، ورحل.

أرينا بانتيليمونوفنا: (تتقدم من كوتشكاريوف). ما هذا، يا حضرة؟ ضحك على الذقون؟ عنّ لكم أن تضحكوا منا؟ هل تريد أن تفضحنا أمام الناس؟ أنا الآن في العقد السادس من عمري، ولم أشهد حتى الآن مثل هذا العار. على ذلك سأبصق بوجهك، يا حضرة المحترم، إذا أنت إنسان شريف. ولكنك سافل بعد هذه الفعلة، وإن كنت إنساناً شريفاً. تشين فتاة أمام العالم كله! أنا من أصل فلاحي، ولكني لا أقدم على ذلك. وتقول إنك نبيل! الظاهر أن نبلك لا يكفي إلا للخساسة والنصب، لا أكثر (تنصرف غاضبة، وتأخذ معها العروسة).

(كوتشكاريوف يقف كالمصعوق).

فيـكلا: ها؟ هـذا الذي يعرف كيـف يقوم بالأمـر! يطبخ عرساً بدون خطابة! طيب، ليكن خطابي مَنْ هب ودبّ، منفوشي الريش، وغير ذلك، ولكن أن يطفروا من الشباك؟ لا والعياذ بالله.

كوتشكاريوف: هذا غير معقول، لابد في المسألة خطأ، سأجري وراءه وأعيده! (يخرج).

فيكلا: أي نعم، يعـوده! كأنك لا تعرف كيف تتم الخطبة؟ شيء آخر لو هرب من الباب، وإن يطفر العريس من الشباك يعني خلاص! ومع السلامة!

****

شارع نيفسكي

لا أفضل من شارع نيفسكي، في بطرسبورغ على الأقل، فهو كل شيء بالنسبة لها، وبأي شيء لا يتألق هذا الشارع، درة عاصمتنا! أنا أعرف أن أي ساكن من سكانه الشاحبي الوجوه وذوي المناصب العالية لا يستبدل بشارع نيفسكي كل خيرات الدنيا. ليس فقط مَن له من العمر خمسة وعشرين عاماً، وشاربين جميلين، وبزة مفصَّلة بشكل رائع، بل ومَنْ تطلع الشعرات البيض على ذقنه، ورأسه أملس كماعون من فضة، فحتى هذا في غبطة عظيمة بشارع نيفسكي. والسيداتَ آوه، إنه أكثر متعة وجاذبية بالنسبة للسيدات. ولكن مَنْ من الناس لا يجد متعة في شارع نيفسكي؟ ما إن تخرج إليه حتى تراه يعبق بالنزهة وحدها. وحتى لو كان لديك شغل شاغل لا غنى عنه، فإنك عندما تطلع إليه ستنسى، في الغالب، أي شغل لديك. إنه المكان الوحيد الذي يظهر فيه الناس لا بحكم الضرورة ولا بدافع الحاجة والمنفعة التي تأكل بطرسبورغ كلها. والرجل الذي تلقاه في شارع نيفسكي يبدو أقل أنانية من الذي تلقاه في شارع مورسكايا، وغوروخوفايا، وليتيني، وميشانسكايا، وفي الشوارع الأخرى، حيث ينعكس الطمع والجشع والمنفعة على السائرين والمنطلقين في المركبات والعربات. وشارع نيفسكي موضع تلتقي فيه بطرسبورغ كلها.

فساكن ناحية بطرسبورغ أو ناحية فيبورغ الذي لم يزر صديقه في بيسكي أو بوابة موسكو، لسنين عديدة قد يكون متأكداً من أنه

سيلتقيه هناك لا محالة. ما من دليل عناوين ولا مكتب استعلامات يقدم الخبر الصحيح مثلما يقدمه شارع نيفسكي. شارع نيفسكي القدير على كل شيء! السلوى الوحيدة لبطرسبورغ الفقيرة إلى الحفلات والتنزه! ما أنظف أرصفته المكنوسة جيداً، وما أكثر الأقدام التي تترك آثارها عليه! جزمة قذرة بالية لجندي متقاعد يبدو وكأن الغرانيت نفسه يتصدع تحت ثقلها، وحذاء صغير، خفيف كالدخان، لسيدة شابة تدير رأسها الجميلة نحو نوافذ مخزن لامعة، مثلما يدير عباد الشمس رأسه إلى الشمس، وسيف مجلجل لضابط صغير مفعم في الآمال، يترك فيه حزاً حاداً كل شيء يخلف آثاره من جبروت قوة إلى سلطان ضعف. وما أسرع ما يجري فيه من تقلبات عجيبة خلال اليوم الواحد! وكم من التغيرات يتحمل خلال نهار وليلة! لنبدأ من بكرة الصباح، حيث تكون بطرسبورغ كلها فواحة برائحة الخبز الساخن المخبوز لتوه، مملوءة بعجائز في ملابس ممزقة يقمن بغزواتهن على الكنائس والسابلة الحنونين. شارع نيفسكي خالٍ في تلك الساعة. أصحاب المخازن المكتنزون ومساعدوهم ما يزالون نائمين في قمصانهم الهولندية أو يصوبنون خدودهم الكريمة، ويحتسون القهوة. والمتسولون يجتمعون عند أبواب حوانيت الحلويات، حيث الخادم الناعس الذي جرى وركض البارحة كالذباب بالشوكولاته، يخرج والمكنسة في يده بلا ربطة عنق، ويقذف لهم بالكعك اليابس، والفضلات. والشعب العامل يسير في الشوارع في ونى، وأحياناً يقطعه حرفيون روس مسرعون إلى العمل في جزم ملطخة بالجص لا تستطيع أن تغسلها حتى مياه قناة يكاترينا المعروفة بنقائها. وفي هذا الوقت لا يليق عادة بالسيدات أن يخرجن إلى الشارع، لأن الشعب الروسي يجب أن يستخدم تعابير حادة لا تسمع، في أغلب الظن، حتى في المسرح. وأحياناً يمر موظف ناعس متأبطاً محفظته، إذا كان

طريقه إلى دائرته يمر عبر شارع نيفسكي. ويمكن القول بثقة إن شارع نيفسكي، في هذا الوقت، أي حتى الساعة الثانية عشرة قبل الظهر، لا يُستهدف من قبل أحد، أياً كان، فهو ليس إلا معبراً، يمتلئ شيئاً فشيئاً بأناس لهم أشغالهم، وهمومهم، ومتاعبهم غير مفكرين به أبداً، الريفي الروسي يتحدث عن قطع زهيدة من النقود، والشيوخ والعجائز يشمرون أذرعهم أو يتكلمون مع أنفسهم، وأحياناً بإشارات دقيقة بما فيه الكفاية، ولكن أحداً لا يستمع إليهم ولا يضحك منهم ما عدا الصبيان من الخدم في جلابيبهم المخطّطة من القماش الخشن حاملين الدنان الفارغة أو الأحذية الجاهزة، راكضين خطفاً في شارع نيفسكي. في ذلك الوقت لا يلحظ أحد ما أنت لابسه، حتى ولو كان على رأسك ما يشذ عن بقية هندامك، أو كان طرفا ياقتك بارزين عن ربطة عنقك أكثر من اللازم.

في الساعة الثانية عشرة يتعرض شارع نيفسكي إلى تدفق موجات من مربي الأطفال الخصوصيين من مختلف الأمم، ومعهم تلامذتهم بياقاتهم الشفافة. الإنجليز من غرار «جونس» والفرنسيون من غرار «كوك» يسيرون متأبطين أذرع الصغار الذين عهدت إليهم رعايتهم الأبوية، ويوضحون لهم برصانة محتشمة أن اللافتات تعلق فوق المخازن لكي يكون في الإمكان أن يعرف الناس بواسطتها ما يوجد داخل المخازن. والمربيان سواء الإنجليزيات الشاحبات أو السلافيات المتوردات يسرن بعظمة ووقار وراء فتياتهن الخفيفات الكثيرات الحركة، مشيرات لهن بأن يرفعن أكتافهن قليلاً إلى الأعلى، ويسِرْنَ منتصبات. وخلاصة القول إن شارع نيفسكي تربوي في هذا الوقت. ولكن كلما دنت الساعة من الثانية قلَّ عدد المربين والمعلمين والأطفال، وأخيراً تصبح الغَلبة لآبائهم الأرقاء الذين يسيرون متشابكي الأذرع مع زوجاتهم المبرقشات الملوّنات، الضعيفات

الأعصـاب. وشيئـاً فشيئاً ينضم إليهـم جميع الذين أنهـوا أشغالهم البيتية المهمة بما فيه الكفاية، من مثل التحدث مع طبيبهم عن الطقس وعن بثرة صغـيرة طلعت على الأنف، والتعرف على صحة خيولهم وأطفالهـم الذين ظهـرت عليهـم، بالمناسبة، مخايـل مواهب كبيرة، وقـراءة الإعلانات ومقالة مهمة في الجرائد عن القادمين والمغادرين، وشـرب فنجـان من القهـوة أو الشـاي أخـيراً، يلتحق بهـم أولئك الذين شـاء القدر الأريحي أن يحملوا الرتبـة المباركة، رتبة الموظفين للمهمات الخاصة. وينضم إليهم أيضاً أولئك الذين يعملون في نظارة الشـؤون الخارجية، ويتميزون بنبل أشغالهم وعاداتهم، آوه، يا رب، كـم من الوظائف والمناصب الرائعة! وكـم تسمو بالنفس وتؤنسها! ولكن، واحسرتـاه! لست موظفاً، وأنا محروم مـن الاستمتاع برؤية الرؤسـاء يعاملونني هـذه المعاملة الرقيقة. إن كل مـا تلقاه في شارع نيفسكـي يطفح حشمـة: الرجـال في سترات طويلـة، وأيديهم في جيوبهم، والسيدات في ردينغوتات مـن الأطلس الوردي والأبيض والأزرق الشاحـب، وقلنسـوات. وتجد في الشارع أفـواداً فريدة، مرسلـة إلى تحت ربطة العنـق بحذق عجيب مذهل، أفـواداً مخملية، ملساء، سوداء كفراء السمور أو الفحم، ولكنها، وا أسفاه وقف على موظفي نظارة الخارجية فقط. فإن العناية الإلهية حرمت الموظفين في الدوائـر الأخرى من الأفواد السود، وصار عليهـم أن يطلقوا أفواداً صهباء، على الرغم من كل ما يسبب ذلك لهم من إزعاج. وتلتقي في الشـارع بشوارب في منتهى الروعة لا تستطيع أية ريشة أو فرشاة أن ترسمهـا، وشوارب كُرّس لها النصـف الأفضل من العمر، وصارت موضـع رعاية أبدية في الليل والنهار، شـوارب سكبت عليها عطور وطيـوب في منتهى السحـر، وطليت بكلٍ صنـوف المراهم الشذية الغاليـة والنادرة إلى أقصى حد، شوارع تغلّـف في الليل بدرق رقيق

أبيض، وتمشي بافتتان أصحابها المؤثر والكلي بها، وتُثير حَسَد المارة. آلاف الأصناف من القلنسوات والفساتين والمناديل الزاهية، الخفيفة، التي تظل صاحباتها مفتونات بها خلال يومين أحياناً، تغشي بصر أي إنسان في شارع نيفسكي. فكأن بحراً متكاملاً من الفرشات قد ارتفع فجأة من سيقان العشب، وتماوج كالغيمة اللامعة فوق الخنافس السود من الجنس الخشن. هنا تلتقي بخصور لا تراودك أبداً حتى في الحلم. خصور نحيلة رقيقة لا تزيد عن سُمك عنق زجاجة، تجد نفسك، حين تلتقي بها، تتنحى عنها باحترام، خشية أن تبدو منك حركة ساهية فتمسها بكوع غير مؤدبة، وتعتري قلبك حيرة ورعب، حتى من أن يفسد نَفَسُك غير الحذر هذه التحفة الفريدة الخلاَّبة للطبيعة والفن. ثم أية أكمام نسائية تلتقي في شارع نيفسكي! آه، الفتنة بعينها! لها بعض الشبه بمنطادين يمكن أن ترتفع السيدة بهما في الهواء بغتة، إذا لم يمسكها رجل، لأن رفع سيدة في الهواء أمر يسير ومريح كقدح مملوء بالشمبانيا مرفوع إلى الفم. ما من مكان تتبادل فيه الانحناءات عند الملتقى بنفس القدر من الرشاقة والنبل، كذلك الذي تشعر به في شارع نيفسكي. فيه تلتقي بابتسامة فريدة، بابتسامة ما فوق الفن، بابتسامة يمكن أحياناً أن تذوِّبك من اللذة، وأحياناً تجد نفسك فجأة أوطأ من العشب، فتنكس رأسك، وأحياناً تشعر بنفسك أعلى من برج الأدميرالية، فترفعه إلى فوق. هنا تلتقي بمن يتحدثون عن الحفلات الموسيقية، أو عن الطقس بنبل غير اعتيادي، وشعور بكرامة النفس. هنا تلتقي بآلاف من الشخصيات والظواهر الخارقة، يارب الخليقة! بأية شخصيات غريبة يحفل شارع نيفسكي! هناك عدد كبير من الناس، إذا التقيت بهم، تجدهم ينظرون إلى حذائك لا محالة، وحين تتخطاهم يلتفتون إلى الخلف لينظروا إلى شق سترتك الخلفي. وأنا لحد الآن لا أعرف لِمَ

يحـدث هـذا. في البداية كنت أظنهم إسكافيـين، ولكن لا شيء من هـذا، البتـة، معظمهم يتردد على مختلـف الدوائـر والكثيرون منهم يستطيعـون أن يكتبوا كتباً وعرائض رسمية ممتازة من دائرة حكومية إلى دائـرة حكومية أخرى، أو أناس يمارسون النزهات وقراءة الجرائد في محـلات الحلويات، وباختصار معظمهـم أناس معتبرون. في هذا الوقت المؤاتي من الساعة الثانية حتى الثالثة بعد الظهر، والذي يمكن أن يُسمى وقت الزحام المتحركة في شارع نيفسكي، يجري المعرض الرئيسـي لجميع النمـاذج الفُضلى لبني البشـر. أحدهم يعرض سترة أنيقة بأحسـن فراء القندس، وآخر أنفاً إغريقيـاً رائعاً، وثالث فودين رائعـين، ورابعة عينين جميلتين وقلنسـوة مدهشة، وخامس طُلسَّماً في خـاتم على خنصر بظفر طويـل، وسادسة ساقـاً في حذاء ساحر، وسابـع ربطة عنق تثير الدهشة، وثامـن شاربين تدفعان إلى الذهول. ولكـن الساعة تدق معلنة الثالثة، وينتهـي المعرض، ويقل الزحام... وفي الساعة الثالثة تغير جديد. يهل الربيع على شارع نيفسكي فجأة. فيتغطـى كلية بالموظفين في بزاتهم الخضر. الموظفون الجياع من شتى الرتـب يجاهدون حث الخطى بكل ما لديهـم من قوة. والشبان من ذوي الرتـب الصغـيرة يسرعون أكـثر مستغلين الوقـت ليتمشوا في شارع نيفسكي بهندام لا يشي بأنهم قعدوا ست ساعات في الدائرة. ولكن الموظفين الأكثر رتبة وعمراً يسيرون بسرعة منكسي الرؤوس، لا تعنيهـم رؤية السابلة. فهم لم ينقطعوا نهائياً عن متاعبهم بعد، وفي رؤوسهـم ضوضاء، وأرشيف كامل مـن القضايا التي بدئت و لم تنتهِ بعـد. و ستظل تتراءى لهم طويلاً صورة ملفّ الأوراق أو وجه مدير المكاتبات الممتلئ بدلاً من اللافتات.

منـذ الساعـة الرابعة يفـرغ شـارع نيفسكي، ومـن المستبعد أن تصـادف فيه حتى موظفـاً واحداً. تعبر خياطة أحـد المخازن شارع

نيفسكـي تحمـل علبـة، وموظـف بائـس يسترحـم حاكمـاً مغرماً بالرشـاوى يسير في هذا العالم بمعطف مـن القماش الخشن، وغريب أطـوار جـاء من بعيـد، كل الساعات لديـه سواء، وإنجليـزي طويلة القامـة تحمل بيديها حقيبتها اليدوية وكتاباً، وكاسب، روسي الأصل في سـترة طويلة من القماش القطني المتـين مخصوصرة عند الظهر ذو لحيـة ضئيلة يقضي حياته كلها على سد الرمق، يرتجف كل شيء فيه: ظهـره، ويداه، ورجـلاه، ورأسه، حين يسير علـى الرصيف بوقار، وأحيانـاً يظهر حرفي قصير، ولن تصـادف أكثر من هؤلاء في شارع نيفسكي.

ولكن حالما يهبط الغسق على البيوت والشوارع، ويتغطى شرطي الحراسة بقماشة من الجنفاص، ويصعد السلم ليشعل مصباح الشارع، وتطـل من النوافـذ الواطئة للمخازن تلك الرسـوم التي لا تجرؤ على الظهـور في وضح النهار، تعود الهمّة إلى شارع نيفسكي من جديد، ويبدأ بالتململ. عند ذاك يحل ذلك الوقت الغامض الذي تضفي فيه المصابيح على كل شيء ضوءاً خادعاً عجيباً. ستلتقي بالعديد جداً من الشبان، معظمهم عزّاب، في سترات دافئة ومعاطف. في ذلك الوقت يتولّد شعور بوجود غاية، في سترات دافئة ومعاطف. في ذلك الوقت يتولّـد شعور بوجود غاية، أو الأفضل، بوجـود ما يشبه الغاية، شيء غـير محسوس بشكل مفرط: خطوات الجميع تتسارع وتصير عموماً جـد متخلخلة. والظلال الطويلة تتراءى على الجدران والجادة، حتى لتـكاد تصل برؤوسهـا إلى جسر بوليتسيسكـي. والموظفون الصغار الشبـان يتمشون لوقت طويل جداً، ولكـن الموظفين الشيوخ الأكثر رتبـة، يلازمون بيوتهـم في الأغلب، إما لكونهـم متزوّجين، أو لأن الطباخـات الألمانيات اللواتي يعشْـنَ في بيوتهم يحسنَّ طهي الطعام لهم. ستلتقي هنا شيوخـاً محترمين كانوا يتنزهون في شارع نيفسكي

بعظمــة ووجاهة مذهلة في الساعــة الثانية بعد الظهر. وستراهم الآن يســيرون في خطو حثيث كالموظفــين الشبان ليسترقــوا النظر إلى ما تحــت قبعة سيدة رأوها مــن بعيد تحظى شفتاهــا الممتلئتان ووجنتاها المضرجتــان بالحمرة بإعجاب العديدين مــن المتنزهين، ولاسيما باعة المخــازن، والكسبة، والتجار الذين يتنزهــون دائماً في سترات ألمانية جماعات، متلازمي الأيدي.

في ذلــك الوقت صاح المــلازم بيروغوف وقد جــذب شاباً كان يصاحبه في بدلة فراك ومعطف خريفي من ردنه:

ـ قف! هل رأيت؟

ـ رأيت. مذهلة، كبيانكا في لوحة بريشة بيروجينو تماماً.

ـ ولكن عَمَّنْ تتحدث؟

ـ عنها، عن ذات الشعر الأسود. ثم أي عينين! يارب، أي عينين! السمت، الأعطاف، تقاطيع الوجه، كل ذلك أعاجيب!

ـ أنــا أكلمك عــن الشقراء التي سارت وراءهــا في ذلك الجانب. ولمــاذا لا تلاحــق ذات الشعر الأســود إذا كانت قــد أعجبتك بهذا الشكل؟..

ـ أهــذا ممكن! هتــف الشاب في بدلــة الفراك وقــد احمرَّ وجهه كأنهــا من اللواتي يتمشّين في شارع نيفسكي في المساء. أظنها سيدة مــن عائلة راقية جداً مضى يقول متنهــداً المعطف الذي تلبسه وحده يساوي ما يصل إلى ثمانين روبلاً.

ـ ســاذج! صاح بيروغوف، وهو يدفعه قهــراً إلى الجهة التي كان يرفرف فيها المعطــف الزاهي اذهب، يا أهبل، ستفوتك! وسألحق أنا الشقراء.

وافترق الصديقان.

«نحـن نعرفكن قاطبة» كان بيروغوف يفكـر مع نفسه بابتسامة الكبرياء والاعتداد بالنفس، واثقاً من أن أي جمال لن يقاوم وسامته.

سار الشاب في بدلة الفـراك والمعطف الخريفي بخطوات متهيبة متحـيرة إلى الجانب الآخر من الشـارع، حيث كان المعطف النسائي الزاهي يرفرف من بعيد ملتمعاً تارة في سطوع بمقدار اقترابه من ضوء المصباح، وغارقاً في الظلام فوراً بمقدار ابتعاده عنه. كان قلب الشاب يخفق، فكان يغذ خطاه لا إرادياً. كان لا يجرؤ حتى على التفكير بأن يكون له حق في التفات اهتمام هذه الحسناء المنطلقة في البعيد، وأكثر مـن ذلك تقبُّل الفكـرة السوداء التي لمَّح له الضابـط بيروغوف بها، ولكنـه كان يريد فقط أن يرى البيت، ويلحظ أين يسكن هذا الكائن الفاتـن الذي بدا وكأنه هبـط من السماء إلى شـارع نيفسكي رأساً، وسيمضـي، في الأغلب، مختفياً في مكان مجهـول. كان يسير بسرعة خاطفـة، حتى كان على الدوام يدفع سادة رصينين ذوي أفواد شائبة مزيحاً إياهم عن الرصيـف. كان هذا الشاب ينتمي إلى طبقة تشكل عندنـا ظاهـرة غريبة بما فيه الكفايـة، وانتماؤه إلى أهـل بطرسبورغ لا يزيـد عـن انتماء شخص نراه في الحلم إلى العـالم الواقعي. إن هذه الفئـة الاستثنائية غير مألوفة جداً في مدينـة كل مَنْ فيها إما موظفون أو تجـار أو حرفيون ألمان. إنه رسام. أفليـس هو ظاهرة غريبة؟ رسام بطرسبورغـي! رسـام في أرض الثلـوج، رسام في بـلاد الفنلنديين، حيث كل شيء رطـب، صقيل، منبسط، شاحب، رمادي، مضبب. إن هـؤلاء الرسامين لا يشبهون على الإطـلاق الرسامين الإيطاليين، الأنوفين، المضطرمين كإيطاليا وسمائها. إنهم على العكس من ذلك، أناس معظمهم طيبون وادعون، خجولون، خليو البال، يحبون فنهم بهـدوء، ويحتسـون الشاي مـع صديقين مـن أصدقائهم في حجرة صغـيرة، ويتحدثـون بتواضع عـن الموضوع المحبـب، ولا يهتمون

بالشيء الزائد. إنه على الدوام يدعو إلى بيته متسولة عجوزاً، ويجعلها تجلس طوال ست ساعات لينقل إلى الجنفاص سحنتها البائسة العديمة الإحساس، ويرسم منظر حجرته من الداخل، وفيها تظهر التفاهات الفنية بكل أنواعها: أيدٍ وأرجل من الجبس جعلها القِدَم والغبار بلون القهـوة، ومنصـات رسم مكسـورة، ولوحة مقلوبة لمـزج الألوان، وصديق يعزف على القيثـار، والجدران الملطخة بالأصباغ، والنافذة المفتوحة يتراءى من ورائها نهـر النيفا الشاحب، والصيادون الفقراء بقمصـان حمراء. جميـع هؤلاء الرسامين تقريبـاً يفضلون، وفي كل شيء، الألوان الرمادية الكدرة طابع

الشمـال الراسخ لا يمحـى. ومع كل ذلك ينكبـون على عملهم بمتعة حقيقية، وينطوون، في الغالب، على موهبة أصيلة. فلو أن هواء إيطاليـا النقي هبَّ عليهم، لتفتحت، بالتأكيـد، بتلك الحرية والسعة والسطوع التـي يتفتح فيها نبات أُخرج أخـيراً إلى الهواء الطليق من حجـرة مغلقة. هؤلاء عموماً هيَّابون كثـيراً. النياشين والرتب العالية توقعهم في ارتباك شديد، حتى إنهم يخفِّضون ثمن أعمالهم بشكل لا إرادي، ويحبون إظهار الأناقة في اللباس، ولكن هذه الأناقة الظاهرية تبدو دائماً صارخة غريبـة، فكأنها رقعة إلى درجة ما. تلقاهم أحياناً في بدلـة فراك ممتـازة، ومعطف مبقع، في صـدار مخملي غالي الثمن وسترة طويلة مـزررة ملطخة كلها بالأصباغ. وبنفس هذا الاستهتار في اللبس ترى أحدهم يعالج منظراً طبيعياً لم يتمّ رسمه بعد، قد رسم عليـه تخطيطات صورية مقلوبة الرأسـ على الطلاء المبقع لعمل كان قـد بدأ في رسمه باستمتاع في وقت ما دون أن يجد لها مكاناً آخر. إنه لا ينظر في عينيك مباشرة، وإذا نظر فبكدر وبشكل غير محدد. إنه لا يغرز فيك نظـرة المراقب، الشبيهة بنظرة الصقـر، أو نظرة ضابط الخيالة، الشبيهة بنظرة الباز، وذلك لأنه، في آن واحد، يرى ملامحك

وملامـح هرقل من الجبس واقف في حنجرته، أو يتخيل لوحة لم يبدأ في رسمها بعـد. وبسبب ذلك غالباً ما يردّ بـلا ترابط، وأحياناً بغير مقتضى الحال، والمواضيع المضطربة في رأسه تزيد من تهيبه. من هذا القبيـل كان الشاب الذي وصفته، الرسـام بيسكاريوف، الخجول، المتهيب، والمنطوية نفسه، في ذات الوقت، على شرارات من العاطفة متهيـأة، في اللحظة المناسبة، إلى أن تنقلـب ضراماً. أسرع في انفعال خفي يحث الخطـى وراء بُغيته التي بهرته بشدة، بدا وكأنه هو نفسه مندهشـاً مـن جسارته هـذه، وفجـأة أدارت رأسها هـذه المخلوقة المجهولة التـي جذبت إليها بهذا الشكل عينيـه وأفكاره ومشاعره، ورمقتـه بنظرة، يارب، أية قسمات إلَهيـة! كان الجبين الفتّان ببياضه الباهـر للأبصار محفوفاً بشعر رائـع كالعقيق تتلوى خصلاته المذهلة، ويتساقـط بعضـه من تحت القلنسـوة، ويلامس الوجنـة التي مستها بـرودة المساء بحمرة خفيفـة نضرة. وكانت الشفتـان مطبقتين على أطياف أجمل الأحلام.

الغريـب. كان يسود كل شيء نوع مـن الإهمال المذموم كذلك الـذي يمكن أن تجده في حجرة أعـزب غير مكترث. كان الغبار يعلو قطـع الأثاث الجيد إلى حد ما ونسيـج العنكبوت يبرقع إفريزاً جبسياً مزخرفـاً ومن خلال بـاب مفتوح لحجرة أخـرى التمع حذاء طويل العنق بمهمـاز، ولاحت حاشية حمراء لسـترة رسمية. ارتفع صوت رجالي عال وضحك نسائي بدون أي تحفظ.

يـا رب، أين دخل الفتى! في بادئ الأمر لم يرد أن يصدق، وأخذ يتمعّـن أكـثر في الأشيـاء التي تملأ الحجـرة. ولكن الجـدران العارية والنوافـذ الخالية من الستائـر لم تكن تدل على أي وجـود لربّة بيت مهتمـة بأمور بيتها. والوجوه المحولة لهـذه المخلوقات الباسة التي كانـت إحداهن أمـام أنفه تقريباً تتفحصه بلا اكـتراث كما تتفحص

بقعة في ثوب أخرى، كل ذلك كان يؤكد له أنه دخل وكراً كريهاً عشش فيه الفجور الحقير وليد التعليم الكاذب المبهرج واكتظاظ العاصمة الرهيب بالسكان. هنا، في هذا الوكر، سحق الإنسان بفظاظة وكفر، وسخر من كل ماهو طاهر ومقدس يزين الحياة، وتحوّلت المرأة، حسناء العالم، جوهرة الخليقة إلى كائن غريب مزدوج، وتجردت إلى جانب نقاء الروح من كل ماهو أنثوي، واتخذت لنفسها بشكل مقزز عادات ووقاحة الرجل، ولم تعد ذلك الكائن الضعيف الجميل المتميز عنه بشدة. تفحّصها بيسكاريوف من أخمص قدميها حتى رأسها بعينين مذهولتين، وكأنما ما يزال يريد أن يعرف بشكل مؤكد أهي نفس المرأة التي سحرته وجذبته في شارع نيفسكي بذلك القدر؟ ولكنها وقفت أمامه جميلة كما هي. شعرها جميل كما كان، وعيناها ما تزالان على سماويتهما العُلْوية. كانت غضة، لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة، والظاهر أن الفجور المريع لم يكن قد أصابها منذ زمن بعيد. لم يجرؤ بعد أن يمسّ وجنتيها، اللتين كانتا نضرتين ملونتين بحمرة خفيفة، لقد كانت رائعة الحسن.

وقف أمامها بلا حراك، وكان متهيئاً إلى أن يسرح عقله بسذاجة، كما سرح من قبل. ولكن الحسناء سئمت هذا الصمت الطويل، وابتسمت ابتسامة ذات مغزى، ناظرة في عينيه. غير أن ابتسامتها هذه كانت تنم عن وقاحة حقيرة. كانت غريبة جداً، ولا تناسب وجهها إلا بقدر ما تناسب التقوى وجهَ مرتشٍ أو دفتر الحسابات شاعراً. سرت فيه رعشة. أفرجت شفتيها الجميلتين، وأخذت تتكلم عن شيء ما. غير أن كل ذلك كان سمجاً مبتذلاً... كأن عقل الإنسان يفارقه مع طهارته. لم يعد الشاب يريد أن يسمع شيئاً. كان مضحكاً إلى أقصى حد، وساذجاً كالطفل. وبدلاً من أن يستفيد من هذه الحظوة، وبدلاً من أن يغتبط بهذه الفرصة التي سيغتبط بها،

دون شك، أي إنســان آخر في مكانه، أطلق رجليه للركض، كالماعز الوحشي، وخرج إلى الشارع مسرعاً.

جلس في حجرته منكســ الرأس، مرتخي اليدين، كالفقير الذي وجـد لؤلؤة لا تقدر بثمن، وفي اللحظة التالية سقطت منه في البحر. «مثـل هذه الحسنــاء، مثل تلـك القسمــات الإلهية. وأيــن؟ في أي مكان!...» وهذا كل ما استطاع أن يقوله.

وبالفعـل لا يتملكنــا الرثاء بتلك القــوة التي يتملكنــا بها، حين نرى جمــالاً مسّه زفير الفجـور المهلك. والأمر يهــون لو صاحب الفجـور القُبح، ولكن الجمال، الجمــال الرقيق.. لا يمتزج في أذهاننا إلا بالطُهْر والنقاء. إن الحسناء التي فتنت بيسكاريوف المسكين بهذا القــدر كانــت، بالفعل، ظاهرة مذهلــة غير مألوفــة. ودخولها ذلك الوســط الحقير بدا أكثر بعداً عن المألــوف. كانت قسماتها كلها غاية في الكمال ومسحة وجهها البديع كلها موسومة بالنبل الرفيع، حتى ليتعــذر التفكير أبداً في أن الفجور أنشب فيهــا أظافره الرهيبة. كان مــن الممكن أن تكون جوهــرة لا تقدر بثمن، أن تكــون العالم كله، الجنة كلهــا، كل الثروة لزوج مشبوب العاطفــة. كان من الممكن أن تكون نجمة جميلة هادئة في وسط عائلي منزوٍ، تصدر بحركة واحدة مــن شفتيها الجميلتين أوامر حلوة. كان من الممكن أن تكون آلهة في صالــة كثيرة الناس، على أرضية وضــاءة، في ألق الشموع، في وسط الإجلال الصامت لجمهور عشاقهــا المرتمين على قدميها. ولكن، وا أسفاه! لقد شاء جني من الجحيم متعطش لتحطيم الحياة المستقيمة أن يلقيها، بمشيئته المريعة، في هاويتها السحيقة وهو يقهقه ملء صدره.

جلس بيسكاريوف أمــام شمعة مسخمّة الفتلة يغمره رثاء ممزق. انتصــف الليل منذ زمان، ودقّ جرس البرج نصف الساعة الواحدة، وهــو ما يزال جالساً جامداً، أَرِقــاً، خامل الحياة. وحين أخذ النعاس

يتسلـل إليه من خلال خموله ويغلبه، والحجرة تبدأ بالاختفاء، وصار ضـوء الشمعة وحـده شاهداً على الأحلام التـي غمرته، جعله طرق مفاجـئ على الباب يجفـل، ويفيق من نومه، انفتـح الباب، ودخل خـادم في بزة خدم فاخرة. لم يحصـل قط أن دخلت حجرته المنعزلة بـزة خدم فاخرة، وعلى الأخص في هـذا الوقت غير المعتاد... تحيَّر، نظر إلى الخادم بفضول عجول.

قال الخادم بانحناءة احترام:

ـ السيـدة التي كنت عندها قبل ساعات أمرت بأن أرجو منك أن تزورها، وأرسلت عربة لتقلّك.

وقـف بيسكاريـوف في دهشـة صامتـة: «عربة، خـادم في بزة خدم!... أظن في الأمر خطأ...»

قال في ارتباك:

ـ اسمع، يا محترم! أظنك قد أخطأت العنوان. سيدتك أرسلتك إلى شخص آخر دون شك وليس إليّ.

ـ لا، يـا مولاي، أنا لم أخطئ. هل أنت الذي تفضلت وصاحبت السيدة إلى بيتها في شارع ليتينايا، إلى حجرتها في الطابق الرابع؟

ـ نعم.

ـ إذاً، أرجو أن تسرع، فإن السيدة تود أن تراك من كل بدّ ورجت أن تتفضل إلى بيتهم رأساً.

هبط بيسكاريوف السلم راكضاً. كانت هناك عربة واقفة في الفناء فعـلاً. ركب فيها. وأغلقت الأبـواب، وقرقعت أحجار الجادة تحت العجـلات والحوافر. وتلاحق من وراء نوافـذ العربة الامتداد المضاء للبيوت بلافتاتها اللامعة. أخذ بيسكاريوف يفكر طوال الطريق، ولم يعرف كيف يوضح هذه المغامـرة. البيت المملوك، والعربة، والخادم

ببزته الفاخرة كل ذلك لم يستطع أن يربطه بالحجرة في الطابق الرابع، بالنوافذ المغبرة، بالبيانو غير المضبَّط.

توقفت العربة أمام مدخل مبنى ساطع الإضاءة، بهره على الفور صف العربات، وثرثرة الحوذية، والنوافذ الساطعة الأنوار، وأصوات الموسيقى. أعانه الخادم ذو البزة الفاخرة في النزول من العربة، وقاده باحترام إلى رواق ذي أعمدة مرمرية، فيه حاجب مكسو بالذهب، ومعاطف وفروات مبعثرة، ومصباح ساطع. وثمة سلم رشيق ذو سلالم لامعة، معطر بالطيوبن يؤدي إلى الأعلى.

تسلَّقه، ودخل الصالة الأولى، وإذا به يرتد مذعوراً منذ الخطوة الأولى لاكتظاظها بالناس. أسلمته برقشة الوجوه غير الاعتيادية إلى الارتباك التام، فقد بدا له وكأن عفريتاً سحق العالم كله إلى قطع عديدة، وجمع كل هذه القطع سوية دون معنى ولا مغزى. أكتاف نسائية لامعة، بدلات فراك سود، ثريات مصابيح، ثياب خفيفة طائرة، شرائط شفافة، وكونترباس سميك يلوح من وراء سلالم شرفة للموسيقى رائعة كل ذلك بهر بصره. رأى في نظرة واحدة قدراً عظيماً من الشيوخ المحترمين وأشباه الشيوخ والنياشن تزين بدلاتهم الفراك، وقدراً عظيماً من السيدات يتخطرن بخفة وأنفة وظرف أو يجلسن صفوفاً، وسمع قدراً عظيماً من الكلمات الفرنسية والإنجليزية، كما رأى الشبان أيضاً في بدلات الفراك السوداء كانوا مفعمين نبلاً، يتحدثون أو يصمتون بعزة رائعة، ويشطون عن الإفراط في كلامهم، يمزحون بعظمة، ويتسمون بجلال، ويزدهون بأفوادهم الطويلة الرائعة، ويحسنون، في حذق، عرض أيديهم الممتازة، يعدلون بها ربطات عنقهم، والسيدات كم كن خفيفات، مفعمات براحة النفس التامة والنشوة، يغضضن أبصارهن بشكل فاتن حتى إن... ولكن

منظـر بيسكاريوف الخنوع وحده، وهو يتكـئ على عمود بتهيب، وشـي بذهوله التام. في ذلك الوقت تجمـع الجمهور ليحيط بجماعة راقصـة. فاندفعت ملفوفة بإبداع باريس الشفاف، بأثواب منسوجة مـن الهواء نفسـه، وتمس الأرضـ بأقدامها اللامعة بـدون اكتراث، وحتى لو لم تمسسها لكانت أخف من الأثير. ولكن واحدة من بينهن أحسن الجميع، وأترف الجميع، وأبهى ثياباً اتساق في الذوق مرهف يتعـذر وصفـه كان يشيع في ملبسهـا بكامله، ومـع كل ذلك بدت وكأنهـا لا تحفل بذلـك مطلقاً فكان يتجلّى من تلقـاء نفسه، وبدون إرادة منهـا، كانـت ترمق جمهـور المتفرجين المحيطـين بها بنصف نظرة، وتنسبل رموشها الطويلـة الجميلة بلا اكتراث، وتصير نصاعة وجههـا المتألقة أكثر إبهـاراً للأبصار، حين يغشى ظل خفيف جبينها الفاتن، عند انحناءة رأسها.

استخـدم بيسكاريـوف كل قواه ليشق الحشـد ويتمعنها. ولكن رأسـاً ضخماً ذا شعر أجعد داكن كان يحجبهـا باستمرار، مما سبب انزعاجـاً شديـداً له، وفضلاً عن ذلك كان حشـد الناس يضغط عليه فلـم يستطع التقـدم إلى الأمام ولا التراجع إلى الخلـف، خائفاً من أن يدفـع بشكل من الأشكال موظفاً عاليَّ المقـام. ولكنه أفلح أخيراً في الانسـلال إلى الأمام، ونظـر إلى ثيابه يريد أن يعـدّل هندامه. يا رب الخليقـة، ما هذا! كان في سترة مبقعة كلهـا بالأصباغ، فقد نسي في عجالة الخروج حتى إن يستبدل لباسه بثياب لائقة. احمّر حتى أذنيه، وأطـرق رأسـه، وأراد أن يغيب عن الأنظار، لكـن لم يكن ثمة مجال علـى الإطلاق، فإن بعض النبلاء الشبـان في بزات لامعة تراصوا من خلفه كجدار متين. كان يود أن يبتعد قدر الإمكان عن الحسناء ذات الجبـين الجميل والرموش. رفع بصره بخوف ليعرف هل كانت تنظر إليـه. يارب! كانت تقف أمامه... ولكن ما هذا؟ «هذه هي!» صاح

بأعلى صوته تقريباً وفي حقيقة الأمر كانت هي، تلك التي التقاها في شارع نيفسكي، ورافقها إلى عقر دارها.

وخلال ذلك رفعت رموشها، ورمقت الجميع بنظرة صافية. «ياه، يـاه، ما أجملها!...» لم يستطع إلا أن ينطـق بذلك مبهور الأنفاس. طافـت بعينيها على كل الحلقة التي كانت تتنافس متعطشة لتستوقف انتباههـا. ولكنهـا سرعان ما عافتهـم بشيء من التعـب والإهمال، والتقى بصرها ببصر بيسكاريـوف. آوه، أية سماء، أي فردوس! أيها الخالق، هبني القوة لأتحمل هذا! الحياة لا تستوعبه. سيحطم النفس، ويزهق الروح! أشارت لا بيدها، ولا بانحناءة من رأسها، ولكن هذه الإشـارة انعكست في عينيها المدمرتين بتعبـير دقيق مستتر لم يستطع أحد أن يراه. ولكن بيسكاريوف رآه، وفهمه. امتدت الرقصة طويلاً، والموسيقـى المتعبة بدت وكأنها قد انطفأت كلياً وهمدت، ثم طلعت ثانية، وزعقت، وهدرت، وأخيراً جاءت النهاية! جلست، وصدرها يعلو ويهبط في الغبش الخفيف للقماش الشفاف. ويدها (أيها الخالق أي يـد رائعة!) سقطت على ركبتها. حشـرت ثوبها الخفيف تحتها، فبـدا وكأن الثـوب يستنشق موسيقى، ولونـه الليلكي الخفيف عمَّق أكـثر النصاعة الباهرة ليدها الجميلة. فليتـه يمسها، ويكتفي! وما من رغائـب أخرى، فكلها طائشة... وقـف وراء مقعدها، غير متجرئ على الكلام، غير متجرئ على التنفس. ونطقت هي:

- هـل ضجرت؟ أنـا أيضاً ضجرت وأضافت تقـول وقد أسبلت رموشها الوُطْف أرى أنك تكرهني...

- أكرهك! أنا؟ أنا... أراد بيسكاريوف المربوك كلياً أن ينطق ولا طلق حتماً، جملة من الكلمات المفككة تماماً، ولكن واحداً من نبلاء البـلاط أقبل في تلك اللحظة بملاحظات حادة لطيفة، والناصية على رأسـه ملتفة، وبطريقـة لطيفة بما فيه الكفاية أبـدى صفاً من الأسنان

اللطيفــة بما فيه الكفاية. وغرز بكل ملاحظــة حادة مسماراً حاداً في قلبه. وأخيراً، ولحسن الحظ تقدّم أحد الغرباء من هذا النبيل في مسألة.

ـ لا أتحمّــل ذلك أبداً! قالت بعد أن رفعت إليه عينيها السماويتين سأجلســ في الطرف الآخر مــن الصالة، فكن هنــاك! وانسلّت بين حشد الناســ، واختفت. دفع زحــام الناس كالمجنــون، ووصل إلى هناك.

تلك هي! كانــت تجلس كالقيصرة أفضل الــكل، وأجمل الكل، وتبحث عنه بعينيها.

تلك هي! كانــت تجلس كالقيصرة أفضل الــكل، وأجمل الكل، وتبحث عنه بعينيها.

ـ أنــت هنا نبســت بصوت خافت سأكــون صريحة معك. أظن ا لظروف التي أحاطت بلقائنــا كانت غريبة عليك. هل يعقل أن تظن أن مــن الممكن أن أكون من تلك الطبقة المحتقرة من المخلوقات التي وجدتنــي بينها؟ تصرفاتي تبــدو لك غريبة، ولكنننــي سأكشف لك السر. فهل ستقدر نطقت بذلك متفرّسة بعينيه أن تصونه إلى الأبد؟

ـ أوه، أقدر! أقدر! أقدر!

غــير أن رجــلاً في ذرى الكهولــة تقــدم في تلك اللحظــة وأخذ يتحدث معها بلغة غير مفهومــة لبيسكاريوف، وقدَّم لها يده. ألقت علــى بيسكاريوف نظرة متضرعة، وأشارت لــه بأن يبقى في مكانه، وينتظــر مجيئهــا، ولكنه في نوبة نفاد الصبر لم يكن قــادراً على إطاعة أيــة أوامر حتى مــن شفتيها، سار في إثرها، ولكــن الحشد فصلهما. فلــم يعد يبصر الثــوب الليلكي، تنقل من حجــرة إلى أخرى في قلق، ودفــع كل مَنْ التقاه بلا رحمة، ولكن وجهــاء القوم كانوا يجلسون في الحجرات كلهــا وراء طاولات لعب الــورق، غارقين في صمت

الأمـوات. وفي أ؛د أركان حجـرة كان بعض الكهول يتجادلون عن أفضليـة الخدمة العسكريـة على الخدمة المدنيـة، وفي ركن آخر كان رجال آخرون في بدلات فـراك فاخرة يلقون ملاحظات خفيفة عن أعمـال شاعر دؤوب تضـم مجلدات كثيرة. وشعـر بيسكاريوف أن كهـلاً ذا مظهـر جليل أمسك بزرّ مـن أزرار فراكه، وراح يطرح في حكمـة ملاحظة له منصفة جـداً، إلا أن بيسكاريـوف دفعه بغلظة، حتـى دون أن يلحظ الوسـام الرفيع المعلق على رقبتـه. انتقل مسرعاً إلى حجرة أخرى، فلم يجدهـا. وفي الثالثة أيضاً. «أين هي؟ هاتوها لي! آه، لا أستطيـع أن أعيش دون أن أتطلـع إليهـا! أودّ أن أسمع ما كانـت تريـد أن تقولـه». إلاّ أن كل بحوثه لم يـأتِ بطائل. انكمش في زاويـة قلقاً متعبـاً، وأخذ ينظـر إلى جمهور الناس. ولكن عينيه المشدودتين أخذتا تصوران له كل شيء بشكل غير واضح. وفي آخر الأمـر أخذت تتراءى له بوضوح جـدران حجرته. رفع بصره، فرأى أمامـه الشمعدان تكاد النار تخمد في أعماقـه. ذابت الشمعة كلها، وانسكب الشمع المذاب على منضدته.

كان نائمـاً، إذاً! يـارب، أي حلم هـذا! ولَمَ استيقـظ من نومه؟ ولم ينتظـر دقيقة واحدة، فقد تظهـر من جديد! أطل من نافذته ضوء مرهـق بألقه الشاحب الكريه. الحجـرة في فوضاها الرمادية الكالحة إلى درجـة أن... أوه، أي واقع مقزز! وما هـو إزاء الحلم؟ خلع ثيابه سريعاً، واستلقى على سريره، وقد التفّ في اللحاف، يريد أن يسترجع الحلـم الخاطف لحظة واحدة، وبالفعل لم يتأخر الحلم في المجيء إليه، ولكنـه تمثّـل له على عكس مـا كان يريده تماماً. فمـرة يظهر الضابط بيروغوف ومعه غليون، ومرة حارس أكاديمية الفنون، ومرة موظف مـن رتبة معتبرة، ومرة رأس الفنلندية التـي رسم لها صورة في وقت ما، وغير ذلك من السفاسف.

ظل راقداً في السرير حتى الظهر يريد أن يستدرج النوم، ولكن النوم لم يأتِ، على الأقل لو أبدت قسماتها الرائعة لحظة، وهفهفت مشيتها الخفيفة لحظة، على الأقل لو لمعت أمامه ذراعها العارية الناصعة كثلج قمم الجبال، وراء الغمام.

وظل جالساً زاهداً في كل شيء ناسياً كل شيء، مسحوقاً بادئ اليأس، يملؤه الحلم الذي رآه وحده. و لم يفكر في أن يمس أي شيء. كانت عيناه تنظران بدون أي إحساس، بدون أي حياة، في النافذة المطلة على الفناء، حيث كان السقاء القذر يصب ماء يتجمد في الحال، وحيث كان صوت البائع المتجوِّل الشبيه بصوت الماعز يهزج: «اللي عنده أشياء قديمة للبيع». كانت أصوات الواقع اليومية تشده سمعه بشكل غريب. وهكذا ظل قاعداً حتى المساء، وبعدها ارتمى على السرير بشوق. صارع الأرق طويلاً، وتغلب أخيراً. وحلم مرة أخرى بحلم، حلم مبتذل حقير. «إرفق بي، يارب، وأرِنها دقيقة واحدة، على الأقل، لحظة واحدة». وعاد ينتظر المساء من جديد، وغفا مرة أخرى، وحلم مرة أخرى بموظف كان موظفاً ومزماراً في آن واحد. آوه! هذا لا يطاق! وأخيراً تراءت! رأسها وخصلات شعرها... تنظر... ولكن لوقت قصير! ومرة أخرى ضباب، ومرة أخرى حلم سخيف.

وأخيراً... صارت الأحلام حياته كلها، ومنذ ذلك الحين اتخذت حياته كلها انعطافاً غريباً. فقد كان، كما يقال، ينام في اليقظة، ويستيقظ في النوم. فلو أن أحداً رآه نائماً في صمت أمام المنضدة الفارغة أو ماشياً في الشارع لاعتبره بالتأكيد سائراً في نومه أو رجلاً حطمته المشروبات القوية. كانت نظرته خالية من أي مدلول، والذهول الطبيعي قد اشتد، وتسلطن وأفرغ وجهه من كل المشاعر، من كل عاطفة. فلم يكن ينتعش إلا عند حلول الليل.

زعزعت هذه الحال قواه، وجابه أفظع عذاب له، حين أخذ النوم أخيراً يتخلى عنه كلياً. فصار يستخدم كل الوسائل لإعادته رغبة منه في إنقاذ ثروته الوحيدة هذه. سمع أن هناك وسيلة لإعادة النوم، تحتاج إلى تعاطي الأفيون لا غير، ولكن أين يحصل على هذا الأفيون؟ تذكر فارسياً صاحب مخزن للشالات، كان إذا التقاه يطلب منه دائماً تقريباً أن يرسم له حسناء. فعزم على التوجه إليه مفترضاً أن لديه، بالتأكيد، هذا الأفيون، استقبله الفارسي، وهو متربع على أريكة، سأله:

ـ وما حاجتك إلى الأفيون؟

فحكى له بيسكاريوف عن أرقه.

ـ طيب، سأعطيك الأفيون، شرط أن ترسم لي حسناء. على أن تكون الحسناء حلوة! وأن يكون حاجباها أسودين، وعيناها واسعتين كزيتونتين، وأن أكون أنا مستلقياً جنبها، أدخّن الغليون! تسمع؟ شرط أن تكون حلوة! وأن تكون حسناء!

وعده بيسكاريوف بكل شيء، صبَّ جزءاً منه في علبة أخرى بحرص، وأعطاها بيسكاريوف مع وصية بأن لا يتناول منها أكثر من سبع قطرات في الماء. اختطف بيسكاريوف بلهفة هذه العلبة الفائقة الثمن التي ما كان سيتخلى عنها لقاء كومة من الذهب، وانطلق يعدو إلى بيته.

وحين وصل إلى البيت صبَّ بضع قطرات في قدح من الماء، وجرعة، وانطرح لينام.

يا رب، أية بهجة! هي! مرة أخرى هي! ولكنها في هيئة مختلفة تماماً. آه، ما ألطف جلوسها عند نافذة بيت ريفي وضاء! هندامها يشي ببساطة لا تتمثل إلا في ذهن الشاعر. وتصفيفة شعرها... أيها

الخالـق، كم هي بسيطة هذه التصفيفة، وكم هي تناسبها! كان شالها القصير ملقى بخفة على جيدها الأهيف، وكل ما فيها متواضع، كل ما فيهـا مفعم إحساساً بالـذوق خفياً لا يدرك. ومـا ألطف مشيتها الرشيقـة! وكم هـو موسيقي حفيـفُ خطوها وثوبهـا البسيط! وما أحلى يدها المطوَّقة بسـوار من الخيوط المفتولة! وتقول له، والدموع في عينيها: «لا تحتقرني! أنا لست التي حسبتني إياها مطلقاً. انظر إليّ، انظـر إليَّ أمعـنَ، وقل لي: أحقاً أنني قادرة علـى ما تظن بي؟» «أوه! لا! لا! عسى ذلك الذي يتجاسر على الظن، عسى ذلك...». ولكنه استيقـظ متأثراً، متمزقاً، مغرورق العينين بالدموع «كان من الأفضل أن لا تكوني موجودة أبداً! أن لا تعيشي في العالم، بل أن تكوني صنع رسـام ملهم! عندئذٍ كنت سألازم اللوحة، أتطلع إليك أبداً، وأقبلك. عندئذٍ كنـت سأعيش وأتنفس بـك، كأروع حلـم، عندئذٍ سأكون سعيـداً. وما كنت لأطمـح بأية أمنيات أخـرى. وكنت سأستدعيك كملاكـي الحارس قبيل النوم وعند اليقظة، وأنتظرك حين يحدث أن أصـور شيئاً أُلوهياً قدسياً. ولكـن الآن... أية حياة فظيعة! ما الفائدة مـن أنها تعيش! وهل حياة المجنون مريحة لأقربائه وأصدقائه، الذين كانوا يحبونه في وقت ما؟ يارب، أية حياة نحيا! الحلم في نزاع أبدي مع الواقع».

مـن مثل هـذه الأفكار كانت تشغل باله دائمـاً. لم يكن يفكر في شيء، ولا يكاد يأكل شيئاً، ويظل ينتظر المساء والحلم المرغوب بلهفة وهوى عاشـق. وأخيراً اكتسـب انصباب أفـكاره الدائم على شيء واحد سلطاناً قوياً علـى معيشته كلها ومخيلته، حتى صارت الصورة المحببة تتراءى له كل يوم تقريباً، ودائماً في وضع يناقض الواقع، لأن أفكاره كانت نقية للغاية كأفكار طفل. ومن خلال هذه الأحلام صار المحلوم به نفسه أكثر نقاءً، وصورته تتغير كلياً.

كانت جرعـات الأفيون تلهب أفكاره أكثر، وإذا كان هناك متيَّم إلى آخـر درجات الجنون يعشـق باندفاع وبطريقـة مريعة، ساحقة، متمردة، فإن ذلك التعيس كان هو، بيسكاريوف.

ومـن بين جميع الأحلام كان ثمة حلـم هو الأبهج له، حين كان يحلم بمرسمـه، وبنفسه مرحاً باستمتاع بالـغ ولوحة مزج الأصباغ في يده! وهي هناك أيضاً، وقد أصبحت زوجته. تجلس بالقرب منه، تستند بكوعها الساحر على ظهر مقعده، وتنظر إلى عمله. وفي عينيها الرقيقتين المتعبتين يرتسم رَهق الهناءة. كل ما في حجرته يعبق بالجنة. فقد كانت غاية في النظافة، نيّرة وضاءة. يارب الخليقة! أسندت على صـدره رأسها الفاتن.. و لم يكن قد رأى قـط أحسن من هذا الحلم. نهضـ بعده أكـثر نضارة وأقل ذهولاً من ذي قبـل. تولَّدت في رأسه أفـكار غريبة. فراح يفكـر: «ربما أوقعتها في الفسـق مصادفة مريعة ضـد إرادتها. ربما نزعات روحها ميَّالـة إلى الندم، ربما كانت نفسها تـود أن تفلت من حالتها المريعة. وهل مـن المعقول أن يتركها تهلك بدون اكتراث، لاسيما وأن إنقاذها من الهلاك لا يكلفه إلا أن يمد يده إليها؟ وسارت أفكاره إلى أبعد من ذلك، فراح يقول لنفسه: «لا أحد يعرفنـي، ثم أي شأن لأحد بي، كمـا لا شأن لي بأحد. وإذا ما أبدت ندمهـا الحقيقي، وغيرت حياتها، فسأتزوجهـا. يجب أن أتزوجها، والحقيقة أنني بذلك سأفعل أفضل كثيراً من العديدين الذين يتزوجون قهرماناتهـم، وحتى أحقر البهائـم في بعض الحالات، ولكن مأثرتي ستكون منزَّهة، بل وربما عظيمة. فسأعيد إلى العا لم أروع زيناته»

وبعـد أن وضع هذه الخطة الطائشة أحس بالحمرة تلهب وجهه، فتقدم من المـرآة، وأفزعه تغوُّر خديه، وشحوب وجهه. فأخذ يهندم نفسه بعناية، اغتسـل، وصفَّف شعره، ولبس فراكاً جديداً، وصداراً أنيقاً، وألقى معطفـاً على كتفيه، وخرج إلى الشارع، استنشق الهواء

الطلـق، وأحس بطراوة في قلبـه، كالناقة الذي عزم على الخروج إلى الشــارع لأول مرة، بعد مرض طويل. خفـق قلبه، حين كان يقترب من الشارع الذي لم يطرقه منذ ذلك اللقاء الوبيل.

بحـث طويلاً عن المبنى، تبيَّن أن ذاكرتـه قد خانته. قطع الشارع مرتـين، و لم يعرف أمام أي مبنى يتوقف. وأخـيراً، بدا له أحد المباني شبيهـاً ببيتها. ركض بسرعة على الـدرج، وطرق الباب فانفتح. فما خـرج لاستقباله؟ مثالـه، صورته الخفية، أصـل لوحاته الحالمة، تلك التـي عاشها برعب، عاشهـا بعذاب وعذوبة، كانـت بنفسها تقف أمامـه. سرت الرعشــة في أوصاله فـكان لا يكاد يقــف على قدميه من الضعـف، مأخوذاً بموجة فرح. وكانت هي تقــف أمامه، بنفس الجمال، على الرغم من أن النعاس في عينيها، ودبيب الشحوب على وجهها الذي لم يكن بنضارته السابقة، ولكنها كانت رائعة الحسن.

ـ ها! صاحت، حين رأت بيسكاريوف، وفركت عينيها، (كانت الساعـة الثانية بعد الظهـر آنذاك) ولِمَ هربت منـا حينذاك؟ ولضعفه جلس على مقعد، ونظر إليها.

ـ استيقظت لتوي. جاءوا بي في الساعة السابعة صباحاً وأضافت بابتسامة كنت في سكر شديد.

أوه، أن تكوني خرساء محرومة من النطق تماماً أفضل من أن تنطقي هذه الكلمات! فجأة أظهـرت له كل حياتها بالتمام. ومع ذلك فقد ضغـط على قلبه، وعزم علـى أن يجرب ما إذا كانــت مواعظه تؤثر فيهــا. جمع شجاعته، وبدأ يصوِّر لهــا بصوت راعش ومتحمّس في آن واحد بشاعة وضعها. أصغت إليه بادية الاهتمام، وبذلك الشعور من الدهشــة الذي نظهره عادة عند رؤية شــيء غير متوقع وغريب. نظرت، بابتسامة خفيفــة، إلى صاحبتها التي كانت تجلس في زاوية،

والتـي تركت تنظيـف مشطها، وراحـت تصغي أيضـاً إلى الواعظ الجديد بانتباه.

وأخيراً قال بيسكاريوف بعد وعظ طويل فيه عبرة:

ـ أنا فقير، بالفعل، ولكننا سنشتغل، ونجاهد، يسابق أحدنا الآخر، في تحسين حياتنا. ليس هناك ألطف من أن يكون الإنسان مديناً لنفسه في كل شيء. سأعكف أنـا على رسم اللوحات، وأنت في جلوسك قربـي تطرزين أو تمارسين أي شغل إبرة تبثين الروح في أعمالي. ولن يعوزنا شيء عند ذاك.

ـ غـير ممكن! قاطعت كلامه بشـيء من الازدراء لست غسالة ولا خياطة لأمارس شغلاً.

يا رب! كانت هذه الكلمات تعكس كل الحياة الوضيعة المحتقرة، الحياة التي يملؤها الفراغ والتكاسل أليفا الفجور الوفيان.

ـ تزوجنـي! بـادرت صاحبتها بوقاحة، بعـد أن ظلت صامتة في الزاوية وقتاً طويلاً حين سأكون زوجة سأجلس هذه الجلسة!

وأبدت سحنـة بليدة على وجهها الحقـير أضحكت بها الحسناء كثيراً.

آوه، غايـة في الوقاحـة! لا يمكن أن يطاق، فاندفـع خارجاً فاقد الشعـور والعقل. تشوش ذهنـه، فراح يهيم النهار كلـه ببلاهة وبلا هـدف، لا يرى ولا يسمـع ولا يشعر. ولم يتمكن أحد من أن يعرف هـل قضى ليلته في مـكان ما، أم لا، وفي اليوم التـالي فقط، وبغريزة متبلـدة جاء إلى بيته شاحبـاً مرعب المنظر، منفوشـ الشعر، وعلائم الجنـون باديـة وجهه. أغلـق عليه بـاب حجرتـه، ولم يسمح لأحد بالدخـول، ولم يطلب شيئاً. ومرَّت أربعة أيام، وحجرته المغلقة تفتح قط، وأخيراً انقضى أسبوع، والحجرة ما تزال مغلقة. هرع الناس إلى

باب حجرته، ونادوه، و لم يظفروا بجواب وفي آخر الأمر كسروا الباب ووجدوا جثته الهامدة وحنجرته منحورة. والموسى المدماة ملقاة على الأرض. وكان من الممكن الاستدلال من ذراعه المطروحة بتشنج، ومن منظره المشوه الرهيب أن يده لم تكن تطيعه، وأنه ظل يتعذب طويلاً قبل أن تغادر روحه الخاطئة جسده.

وبهذا الشكل هلك ضحية للهوى المجنون بيسكاريوف المسكين، الهادئ، المتهيب، المتواضع، البسيط القلب كالطفل، الذي كان ينطوي على شرارة نبوغ كان من الممكن، مع مرور الوقت، أن يتوهج في سطوع واتساع. لم يبك أحد عليه، و لم يُشاهد قرب جثته الهامدة غير الشخص المعتاد للشرطي المكلف بحراسة الحيّ والسحنة اللاابالية للطبيب الشرعي. ونُقِل تابوته إلى أوختا[1] بهدوء، وحتى بدون المراسيم الدينية. و لم يبك وراء نعشه غير الجندي الحارس، وحتى هذا لم يبك إلا لأنه احتسى دورقاً من الفودكا زيادة. وحتى الملازم بيروغوف لم يأتِ ليلقي نظرة على جثمان المسكين البائس الذي كان يخلع عليه رعايته السامية في حياته. وبالمناسبة لم يكن له الوقت لذلك. فقد كان مشغولاً بحادثة استثنائية. سنعود إليه بعد حين.

أنا لا أحب الجثث والأموات، وأشعر دائماً بعدم الارتياح حين يعترض طريقي موكب تشييع طويل وجندي معوّق، يرتدي قلنسوة فضفاضة، يستنشق التبغ بيده اليسرى، لأن اليمنى مشغولة بالمشعل. وأشعر بضيق في قلبي دائماً، حين أرى عربة فاخرة لنقل الموتى، وتابوتاً مخملياً، ولكن ضيقي هذا يخالطه الأسى، حين أرى سائق كرَّاجة تجر تابوتَ فقيرٍ أحمر عارياً لم يغط بشيء، ولا يسير وراءه

---

(١) حي في بطرسبورغ كان يسكن فيه الفقراء وعامة الناس. المترجم.

إلا متسولة تصادفه في مفترق الطريق، لأنه ليس لها عمل آخر تفعله.

يبدو أننا تركنا الملازم بيروغوف عند افتراقه عن بيسكاريوف المسكين، وملاحقته الشقراء. كانت هذه الشقراء مخلوقة نحيفة القوام وجذابة بما فيه الكفاية. كانت تتوقف أمام كل مخزن، وتتفرج على ما تعرضه الواجهات من أحزمة ومناديل رأس، وأقراط، وقفازات، وغيرها من الخرداوات وتستدير باستمرار، تنظر في كل الجهات، وتلتفت إلى الخلف. وكان بيروغوف يقول بغرور «أنت لي، يا حلوة!» ويستمر في ملاحقتها مغطياً وجهه بياقة معطفه، حتى لا يلتقي أحداً من المعارف. ولكن لا ضير في تعريف القارئ بالملازم بيروغوف.

إلا أنه قبل أن نقول من هو الملازم بيروغوف لا ضير في أن نتحدث عن ذلك المجتمع الذي ينتمي إليه بيروغوف. هناك ضباط يؤلفون في بطرسبورغ طبقة متوسطة من المجتمع. وأنتم ستجدون دائماً واحداً منهم في أُمسية أو غداء عند موظف متوسط الدرجة كسب هذه الوظيفة بأربعين عاماً من الخدمات. له بضع بنات شاحبات، وبلا لون تماماً كبطرسبورغ نفسها، بعضهن تجاوز سن الحلم منذ زمان طويل، ترتبط عنده طاولة الشاي الصغيرة، والبيانو، والرقصات البيتية ارتباطاً لا فكاك له بالكتافية العسكرية المتألقة التي تتلألأ في ضوء المصباح بين الشقراء المستقيمة الخلق وبدلة الفراك السوداء لأخيها أو لواحد من معارف العائلة. إن هؤلاء الآنسات الباردات يصعب للغاية تحريكهن أو حملهن على الضحك. فإن ذلك يحتاج إلى حذاقة كبيرة، والأصح القول، لا يحتاج إلى أي حذاقة إطلاقاً. يجب أن تتكلم بطريقة غير مفرطة في الذكاء، ولا في الإضحاك، وأن يكون في كل شيء تقوله تلك الصغائر التي تحبها النساء. وفي هذا المضمار ينبغي الإقرار بفضل سادة معينين

فهم يملكـون مقدرة خاصة لحمـل هؤلاء الحسنـاوات الخاليات من أي لـون على الضحك وقدرة على الاستماع إليهن. والهتافات التي يطلقنهـا مخنوقة بالضحك: «آهـ يكفـي! ألا تخجل من أن تضحكنا بهذا الشكل؟» هي في الغالـب المكافأة الكبرى لهؤلاء السادة. وفي الطبقة العليا نادراً ما تجدونهم، والأصح القول، لا تجدونهم إطلاقاً. يقصيهـم عنهـا كلياً ما يسمـون في ذلك المجتمـع بالأرستقراطيين، ولكنهـم يعتبرون، على كل حال أناسـاً متعلمين ذوي تربية، يحبون التحدث عـن الأدب، ويمتدحون بولغاريـن، وبوشكين، وغريتش، ويتحدثـون عن الأديـب أورلوف بـازدراء، وبلذعـات مستطرفة. وهـم لا يفوتون أيـة محاضرة عامة سـواء أكانت عـن الحاسبة وحتى عـن رعاية الغابات، ودائمـاً تجدون واحداً منهـم في المسرح، مهما تكـن المسرحيـة، إلا إذا كانـوا يمثلون فودفيلاً على غـرار «فيلاتكا» يهين كثـيراً ذوقهم المرهف. إنهم في المسرح علـى الدوام. فهم أنفع الناس بالنسبة لإدارة المسرح. وهـم يحبون في المسرحية بشكل خاص الأشعار الجيدة، كما يحبون أيضاً أن يستدعوا الممثلين بأصوات عالية للطلوع علـى المسرح. والكثيرون منهـم، في تدريسهم بالمؤسسات التعليمية الحكوميـة، أو التحضير إلى المؤسسات التعليمية الحكومية، يقتنـون في آخر الأمر عربة مـن ذوات العجلتين وزوجاً من الخيول. وعنـد ذاك تصير دائرتهم أوسع، ويتوصلون أخيراً إلى الزواج من ابنة تاجـر تجيد العـزف على البيانو، ولها مئة ألف روبـل أو نحوها نقداً بـدلاً من الصداق، وثلّة من الأقارب الملتحين. إلا أنهـم لا يستطيعون بلـوغ هذا الشرف إلا بعد أن يصلـوا في خدمتهم إلى رتبة عقيد على الأقل. لأن الملتحـين[1] الروس، على الرغم من أن رائحة الكرنب ما

(١) يقصد التجار الروس فقد كان هؤلاء في الماضي يطلقون لحاهم عادة. المترجم.

تزال تصدر منهم بعض الشيء، لا يريدون، بأي صورة من الصور، أن يروا بناتهم متزوجات بغير الجنرالات أو العقداء، على أقدر تقدير. تلك هي الصفات الرئيسة لهذا الصنف من الشبان. ولكن الملازم بيروغوف كان يملك عدداً من المواهب العائدة له خصيصاً. فقد كان ينشد بشكل ممتاز أشعاراً تعود إلى بعض الشعراء الروس، وله فنه الخاص في نفث الدخان من غليونه بحلقات وبتوفيق شديد، يصل بها إلى حوالي عشر حلقات أحياناً ينظمها واحدة وراء الأخرى دفعة واحدة. ويحسن أن يروي بطريقة طريفة جداً نادرة عن أن المدفع شيء، ووحيد القرن شيء آخر. وعلى العموم يصعب إلى حد ما تعداد المواهب التي وهبها القدر لبيروغوف. كان يحب الحديث عن الممثلة والراقصة، ولكن ليس بالقطعية التي يعبر فيها عادة الضابط الشاب الأقل رتبة، حين يتكلم في هذا الموضوع. وكان راضياً جداً برتبته، التي رُقِي إليها قبل وقت ليس بالطويل، وعلى الرغم من أنه كان يقول أحياناً، حين يستلقي على الأريكة: «أوه، أوه، هباء، كل شيء هباء. فما النفع في أن أكون بهذه الرتبة؟» إلا أن المنقبة الجديدة كانت ترضي غروره في قرارة نفسه، فكان في حديثه غالباً ما يلمح إليها وكأنما عرضاً، وذات مرة صادفه في الشارع كاتب أوراق بدا له غير مهذب وقليل الأدب، فأوقفه على الفور، وبكلمات مقتضبة ولكنها حادة، جعله يلتفت إلى أن الواقف أمامه ملازم وليس ضابطاً برتبة أخرى. وقد جاهد، بشكل خاص، لأن يعرض ذلك بمزيد من البلاغة، لأن سيدتين على قدر كبير من الملاحة كانتا تمران به في ذلك الوقت. وبيروغوف، عموماً، كان يبدي ولعاً بكل ماهو بديع، وكان يشجع الرسام بيسكاريوف. وعلى كل حال، ربما كان ذلك بسبب رغبته القوية في رؤية سيمائه الرجولية في صورة شخصية. ولكن كفانا حديثاً عن صفات بيروغوف. الإنسان مخلوق مدهش إلى حد

يتعـذر معه تعداد جميع مناقبـه دفعة واحدة، وكلمـا تفحصته ظهر الجديد من خصائصه وصار وصفها لا ينتهي.

وهكـذا واصـل بيروغوف ملاحقـة الغريبـة، شاغـلاً إياها من حـين لآخر بالأسئلة التي كانت تـرد عنها بحدة، وتقطع، وهمهمة. عـبرا بوابة قـازان المعتمة إلى شـارع ميشانسكايا، شـارع حوانيت التبغ والخـردوات والحرفيين الألمان والحوريـات الفنلنديات. كانت الشقـراء تسرع أكثر، حـين دلفت إلى بوابة بيت مبقـع كثيراً. وحذا بيروغـوف حذوها. صعـدت سلَّماً ضيقـاً مظلماً، ودخلـت باباً، انسـلَّ فيه بيروغـوف أيضاً بجـرأة. فوجد نفسـه في حجرة كبيرة، جدرانهـا سوداء، وسقفها مسودّ بالسخام. وعلى منضدة فيها كومة من القلاويظ الحديدية، وأدوات السمكـرة، وأباريق القهوة اللامعة والشمعدانات. والأرض مقذَّرة بقراضات النحاس والحديد. حدس بيروغوف علـى الفور أنها بيت حرفي. وبعد ذلـك اندفعت الغريبة في بـاب جانبي. تريث بيروغـوف لحظة، ولكنه عـزم على التقدم، مستهديـاً بالقاعـدة الروسية. فدخل حجرة لا تشبـه الحجرة الأولى على الإطلاق. حجرة مرتَّبة جيداً كانت تدل على أن صاحبها ألماني. وانبهر بمنظر غريب إلى حد غير اعتيادي.

رأى شيللـر جالسـاً أمامه، ليس شيللر الذي كتـب «هِيّوم تل» و«تاريخ حرب الثلاثين عاماً» بل شيللر المعروف، الماهر في السمكرة في شـارع ميشانسكايـا. وقد وقف إلى جانبـه هوفمان، لا هوفمان الكاتب، بـل الإسكاف المعتبر مـن شـارع اوفيتسرسكايا، وصديق شيللر المقرب. كان شيللر سكران يجلس على كرسي ضارباً الأرض بقدمـه، متحدثاً بشيء في حماس. وكل ذلـك لم يدهش بيروغوف بعد، ولكن الذي أدهشه وضـع الشخصين الغريب للغاية. فقد كان شيللـر يجلس وقد رفع رأسـه إلى فوق، وعَرَض أنفـه اللحيم بما فيه

الكفايـة. أما هوفمان، فقد كان يمسك هـذا الأنف بإصبعين، ويدير حـدَّ سكينه الذي يشق بها الجلد على سطح أنفه تماماً. وكان كلاهما يتكلـم باللغة الألمانيـة، ولهذا فـإن الملازم بيروغـوف الذي كان لا يعـرف مـن الألمانية غير «غوت مورغين» لم يفهـم شيئاً من كل هذه الحكايـة. وكلمات شيللر، علـى كل حال، كانت تتلخص فيما يلي. كان يقول مشمراً ذراعيه:

ـ لا أريـد، لست بحاجة إلى أنـف. أنا أصرف على الأنف وحده ثلاثة أرطـال من النشوق في الشهر. وأنا أدفـع لمخزن روسي عفن، لأن المخـزن الألماني لا يبيع النشوق الروسـي. أنا أدفع لمخزن روسي عفـن، أربعـين كوبيـكاً للرطل الواحد. هـذا يعني روبـلاً وعشرين كوبيـكاً واثنتا عشرة مرة روبل وعشريـن كوبيكاً تساوي أربعة عشر روبلاً وأربعـين كوبيكاً. هل تسمع يا صديقي هوفمان؟ على الأنف وحـده أربعة عشـر روبـلاً وأربعين كوبيـكاً! كما أننـي في الأعياد استنشـق سعوطاً غالياً، لأننـي لا أريد أن أستنشـق النشوق الروسي العفـن في الأعياد! أستنشـق سنوياً رطلين من السعـوط الغالي، بسعر روبلين للرطل الواحد. ستة وأربعة عشر، يعني عشرين روبلاً وأربعين كوبيكاً، للتبغ وحـده. هذا نهب! أسألك يا صديقي هوفمان، أليس كذلـك؟ فـكان هوفمان الـذي كان نفسه سكران يـرد بالإيجاب، عشرين روبـلاً وأربعين كوبيـكاً! أنا ألماني شفابـي وعندي ملك في ألمانيا، أنا لا أريد أنفاً! اقطع أنفي! هذا أنفي أمامك!».

ولولا ظهور المـلازم بيروغوف المفاجئ لـكان هوفمان قد قطع أنـف شيللر حتماً، وبدون أي شـك، لأنه كان يمسك السكين وكأنه يريد أن يقطع نعالاً.

وبدا لشيللر أن من المزعج جداً أن يظهر شخص غريب غير مدعو في هـذا الوقت المناسب ويعيقـه. وعلى الرغم من أنه كان في السديم

المسكـر للبيرة والنبيـذ، فقد شعر ببعض الحرج مـن الظهور في هذه الهيئـة وفي هذه الفعلة بحضـور شاهد غريـب. وفي أثناء ذلك حيَّا بيروغوف بانحناءة خفيفة، وقال باللطف المطبوع عليه:

ـ اعذروني...

أجابه شيللر ماطاً كلمته:

ـ انقلع!

أذهل ذلك الملازم بيروغوف. فإن هذه المعاملة جديدة عليه تماماً. فجـأة غارت الابتسامة التي كانت قد أطلت على وجهه قليلاً. وقال بشعور الكرامة المكلومة:

ـ أنا أستغرب، يا حضرة المحترم... أظنك لم تنتبه... أنا ضابط...

ـ ومـاذا يعني الضابـط! أنا ألمـاني شفابي... أنـا نفسي (وبذلك ضـرب شيللـر الطاولة بقبضتـه) سأكـون ضابطاً، سنـة ونصف في المدرسة العسكرية، وسنتـان ملازماً، وغداً، حالاً، ضابط. ولكن لا أريـد أن أخدم. أنا مع الضابـط أ نفخ هكذا: فو! وخلال ذلك بسط كفه، ونفخ عليها.

رأى الملازم بيروغوف أنه لم يبق له، بعد هذا، غير الانصراف. إلا أن هـذا التصرف غير اللائق برتبته إطلاقاً أزعجه، فتوقف على السلم عـدة مرات، وكأنما يريد أن يلمَّ شتات نفسه، ويفكر في طريقة يشعر بهـا شيللر بوقاحته. وأخـيراً اهتدى إلى أن من الممكـن إعذار شيللر لأن رأسـه كان مملوءاً بالبيرة، وفي الوقت ذاته تخيَّل الشقراء الجميلة، وعـزم على نسيان الإهانـة. وفي اليوم التالي جـاء الملازم بيروغوف إلى ورشـة السمكري في الصباح الباكر. استقبلته الشقراء الجميلة في الحجرة الأولى، وسألت بصوت صارم جداً يناسب وجهها كثيراً:

ـ ماذا تريد؟

ـ مرحباً ياعزيزتي، ألم تعرفيني يا شاطرة؟ يا لها من عينين رائعتين!

ولـدى ذلك أراد الملازم بيروغـوف أن يرفع ذقنها إلى الأعلى بلمسة من إصبعه غاية في الرقة والرشاقة. إلا أنه ندَّت عن الشقراء آهة متهيّبة وهي تسأل بنفس الصوت الصارم:

ـ ماذا تريد؟

ـ لا أريد أكثر من أن أراك. قال الملازم بيروغوف مبتسماً ابتسامة علـى قدر كاف من اللطافة، متقدماً منها، ولكنه أضاف حين لمح أن الشقراء المتخوفة تريد الانسلال من الباب أريد، يا عزيزتي، أن أوصي على مهمازين. هل تستطيعـون أن تصنعوا لي مهمازين؟ على الرغم من أن حبك لا يحتاج إلى أي مهماز، بل إلى شكيمة في الأحرى. أية يدين لطيفتين لك!.

كان المـلازم بيروغـوف دائمـاً دمثـاً جـداً في هـذا النـوع من المكاشفات.

ـ سأدعو الآن زوجي نادت الألمانية، وانصرفت. وبعد بضع دقائق رأى بيروغوف شيللر يخـرج بعينين ناعستين، وهو لم يكد يفيق من سكر البارحة. نظر إلى الضابط، وتذكر ماحصل يوم أمس، وكأنما في حلـم مغبَّش. لم يكن يتذكر في أي هيئـة كان، ولكنه كان يشعر بأنه فعل حماقة، ولهذا استقبل الضابط بمظهر شديد الصرامة.

ـ لا يمكننـي أن آخـذ على المهمازين أقل مـن خمسة عشر روبلاً، قال راغبـاً في التملص من بيروغوف، لأنـه، كألماني شريف، يخجله كثـيراً أن ينظـر إلى مَنْ رآه في هيئة غير لائقة. فقـد كان شيللر يحب أن يشـرب بدون أي شهود، مع صديقـين أو ثلاثة، وينقطع في ذلك الوقت حتى عن شغيلته.

قال بيروغوف بلطف:

ـ و لِمَ بهذا الغلاء؟

ـ شغل ألماني قال شيللر ببرود أعصاب، ممسداً على ذقنه الروسي يقبل عما ذلك بروبلين.

ـ موافق! كي أبرهن على أنني أحبكم، وأود التعارف معكم، أدفع لكم خمسة عشر روبلاً.

لبث شيللر دقيقة واحدة يتأمل، فهو، كألماني شريف، أحس بشيء من الخجل. فأراد نفسه أن يقدم صاحب الطلب على التخلي عن طلبه، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتهي منه إلا بعد ما لا يقل عن أسبوعين. إلا أن بيروغوف أعلن عن موافقته التامة دون أي اعتراض. استغرق الألماني يفكر وراح يتأمل طريقة فضلى لجعل عمله يساوي خمسة ع شر روبلاً بالفعل. وفي تلك اللحظة دخلت الشقراء الورشة، وأخذت تنبش في المنضدة المتناثرة عليها أباريق القهوة. استغل الملازم استغراق شيللر في التفكير وتقدم منها، وضغط على ذراعها المعراة حتى الكتف. امتعض شيللر من ذلك كثيراً. صاح:

ـ يا زوجتي!

أجابت الشقراء:

ـ ماذا تريد؟

ـ اذهبي إلى المطبخ[1]!

انصرفت الشقراء. قال بيروغوف:

ـ إذاً، بعد أسبوعين؟

ـ نعم، بعد أسبوعين، أجاب شيللر في تأمل عندي الآن أشغال كثيرة جداً.

---

(١) وردت الجمل الثلاث في الأصل باللغة الألمانية تلفظاً. المترجم.

- إلى اللقاء! سآتي إليك.

- إلى اللقاء!

وردَّ شيللر، وهو يغلق الباب خلفه.

عزم الملازم بيروغوف على مواصلة ملاحقة الشقراء، على الرغم من صدود الألمانية الواضح عنه. لم يستطع أن يفهم كيف يمكن صده، لا سيما وأن لطفه ورتبته اللامعة كانا يعطيانه تمام الحق في الإلتفات إليه. ومع ذلك يقتضي القول أيضاً إن زوجة شيللر كانت بلهاء جداً على الرغم من ملاحتها. وللبلاهة، بالمناسبة، سحر خاص في الزوجة المليحة. فأنا، على الأقل، أعرف أزواجاً كثيرين في غ بطة شديدة من بلاهة زوجاتهم، ويرون فيها كل علائم البراءة الطفولية، والجمال يصنع عجائب حقيقية. وجميع النقائص الروحية في الحسناء تصير جذابة إلى حد بعيد، بدلاً من أن تثير الاشمئزاز، والعيب نفسه يطفح حلاوة فيها، ولكن إذا اختفى الجمال، احتاجت المرأة إلى أن تكون عشرين مرة أذكى من الرجل لتوحي بالاحترام، على الأقل، إن لم يكن بالحب. وزوجة شيللر كانت، على العموم، وفية دائماً برابطتها، على الرغم من كل بلاهتها، ولهذا كان صعباً على بيروغوف بما فيه الكفاية التوفيق في مشروعه الجريء، ولكن التغلب على العقبات ينطوي على متعة دائماً، وصارت الشقراء أمتع في عينيه من يوم إلى يوم، أخذ يستفسر عن المهمازين بكثرة حتى ضجر شيللر أخيراً. فكان يستنفر كل جهوده لينتهي في أقرب وقت من المهمازين اللذين بدأ في صنعهما، وفي آخر الأمر صار المهمازان جاهزين.

صاح الملازم بيروغوف حين رأى المهمازين:

- آه، أي عمل ممتاز! أيٌ صناعة جيدة، يارب، ليس لجنرالنا مثل هذين المهمازين.

شاع الشعور بالرضى في نفس شيللر. وأخذت عيناه تنظران بمرح كاف، وتصالح مع بيروغوف كلياً، وكان يفكر مع نفسه: «الضابط الروسي رجل ذكي».

- يعني وتستطيع أن تصنع قراباً للخنجر، أو للأشياء الأخرى.؟

قال شيللر بابتسامة:

- جداً.

- طيب، اصنع لي قراباً للخنجر، سأجلبه لك، عندي خنجر تركي جيد جداً، ولكن كنت أريد أن أصنع له قراباً آخر.

وقع ذلك على شيللر وقوع الصاعقة. تغضّن جبينه فجأة، وفكر مع نفسه: «أخذني من حيث لا أدري!» وشتم نفسه سراً على تورطه بنفسه في هذا العمل. ولكنه اعتبر الرفض غير لائق، لا سيما وأن الضابط الروسي امتدح عمله. هزَّ رأسه قليلاً، وأبدى قبوله. ولكن القبلة التي طبعها بيروغوف على شفتي الشقراء الجميلة بطريقة وقحة، أوقعته في حيرة تامة.

لا أرى من نافلة القول تعريف القارئ على شيللر تعريفاً أوثق. كان شيللر ألمانياً قحاً. بكل معنى هذه الكلمة. منذ أن كان في العشرين من العمر، منذ تلك السن السعيدة التي يتيه فيها الروسي خلي البال، نظم شيللر كل حياته، ولم يخرج عن هذا النظام قط. عزم على أن يستيقظ في الساعة السابعة، ويتناول غداءه في الثانية، وأن يكون دقيقاً في كل شيء، ويسكر كل يوم أحد. لقد ألزم نفسه على أن يجمع خلال عشرة أعوام رأسمالاً من خمسين ألف روبل، وكان ذلك قراراً طبيعياً لا مردَّ له كالقدر، لأن تهاون الموظف في الاهتمام برئيسه أقرب من أن يتخلى الألماني عن كلمته. لم يكن يزيد مصروفاته في أي ظرف كان، وإذا ارتفع سعر البطاطس أكثر من

المعتاد بمقدار كبير، لم يكن يضيف كوبيكاً واحداً، ولكنه كان يقلل من كمية البطاطس فقط، وعلى الرغم من أنه كان يظل جائعاً بعض الشيء، إلا أنه كان يتعود ذلك. وقد وصلت دقته إلى حد أنه قرر أن لا يقبل زوجته أكثر من مرتين في اليوم، ولكي يجنب نفسه قبلة زيادة، كان لا يضع في حسائه أكثر من ملعقة من الفلفل؛ غير أنه كان في أيام الآحاد لا يتمسك في هذه القاعدة بصرامة شديدة، لأن شيللر كان يشرب في ذلك اليوم زجاجتين من البيرة، وزجاجة من الفودكا المطعمة بالأعشاب التي كان يشتمها دائماً. وكان في شربه يختلف تماماً عن الإنجليزي الذي يغلق عليه الباب بالمزلاج بعد الغداء مباشرة، ويسكر وحده. كان على العكس من ذلك، فهو، باعتباره ألمانياً، كان يشرب دائماً بأريحية إما مع الإسكاف هوفمان وإما مع النجار كونتس الألماني أيضاً، والسكير الضليع. ذلك هو خلق شيللر النبيل الذي وجد نفسه أخيراً في ورطة كبيرة. وعلى الرغم من أنه كان بارد المزاج وألمانياً، إلا أن تصرفات بيروغوف أثارت فيه ما يشبه الغيرة. أتعب ذهنه، ولم يستطع أن يهتدي إلى طريقة يتخلص بها من هذا الضابط الروسي. وخلال ذلك، كان بيروغوف، وهو يدخن غليونه وسط رفاقه لأن العناية الإلهية شاءت أن توجد الغلايين حيث يوجد الضباط يلمح بدلالة وابتسامة لطيفة عن علاقته الغرامية مع ألمانية مليحة رفع الكلفة معها كلياً، على حد تعبيره، بينما كان، في واقع الأمر، يكاد يفقد الأمل في جذبها إليه.

وذات يوم، بينما كان يتمشى في شارع ميشانسكايا ينظر إلى البيت الذي كانت تزدهي عليه لافتة شيللر بأباريق القهوة والسماورات، رأى، وسط فرحه الشديد، رأس الشقراء يطل من النافذة، ويتطلع إلى السابلة. توقف، وأومأ لها بيده، وقال: «غوت مورغين!» فانحنت له الشقراء كأحد المعارف.

- هل زوجك في البيت؟

أجابت الشقراء:

- نعم.

- ومتى يغيب عن البيت عادة؟

- في أيام الآحاد يغيب عن البيت عادة.

قالت الشقراء البلهاء، ففكر بيروغوف مع نفسه: «هذا لا بأس به، ويجب استغلاله».

وفي يوم الأحد التالي هبط على الشقراء هبوط الثلج على الرأس. وكان شيللر متغيباً عن البيت بالفعل. فزعت ربة البيت الجميلة. ولكن بيروغوف تصرف في هذه المرة بحذر كافٍ، وتعامل باحترام شديد، ولدى انحنائه أبدى كل جمال قوامه اللدن الممشوق المحزم عند الخصر. ومزح مزاحاً لطيفاً جداً ومهذباً، إلا أن الألمانية البلهاء كانت ترد على كل شيء بكلمة من مقطع واحد. وأخيراً، وبعد أن جرب كل شيء، ووجد أن لا شيء يستهويها، عرض عليها أن يرقصا. وافقت الألمانية على الفور، لأن الألمانيات يهوين الرقص دائماً. وكان بيروغوف يبني آماله على ذلك إلى درجة كبيرة جداً. فإن ذلك، أولاً، يوفر لها متعة، وثانياً، يمكن أن يظهر قوامه وخفته، وثالثاً في الرقص يكون على أقرب مسافة ممكنة منها، يحتضن الألمانية الجميلة، ويضع الأساس لكل شيء. وباختصار كان يؤدي كل ذلك إلى نجاح وفي أكمل وجه. بدأ رقصة فرنسية قديمة عارفاً أن الألمانية تحتاج إلى تدرج. طلعت الألمانية الجميلة إلى منتصف الحجرة، ورفعت ساقاً رائعة. وقد أعجب بيروغوف بهذا الوضع حتى إنه اندفع يقبلها. بدأت الشقراء في الصراخ وزادت بذلك فتنتها وسحرها في رأي بيروغوف فأغدق عليها التقبيل. وإذا بالباب يُفتح،

ويدخـل شيللر وهوفمان والنجار كونتس. وجميع هؤلاء الحرفيين المعتبرين كانوا سكارى، بالشكل الذي يسكر به الإسكافيون عادة.

ولكننـي أترك للفقـراء أنفسهـم أن يتصوروا مـدى غيظ شيللر وحنقه.

ـ جلـف! صاح بحنق بالغ كيف تجسر علـى تقبيل زوجتي؟ أنت نـذل، ولست ضابطاً روسياً، اللعنة، يـا صديقي هوفمان، أنا ألماني، ولست خنزيراً روسياً.

وافقه هوفمان على ذلك.

ـ أوه، أنا لا أريد أن تطلع لي قرون! امسكه، يا صديقي هوفمان، من ياقته، أنا لا أريد مضى يقول مشمراً ذراعيه بقوة، بينما كان وجهه أحمـر بلون قماشة صداره أعيش في بطرسبـورغ منذ ثمانية أعوام، وعنـدي في شفابيا أم، وعمي في نيورنبورغ وأنا ألماني، ولست ثوراً مقرناً! جرده من ثيابه، يا صديقي هوفمان، أمسكه من يده ورجله، يا رفيقي كونتس!

وأمسك الألمان بيروغوف من يديه ورجليه.

جاهـد بيروغـوف ليخلص نفسه ولكـن هيهـات. كان هؤلاء الحرفيـون الثلاثة أقـوى الألمان في بطرسبورغ جميعـاً، وقد تصرفوا معه بخشونة وفظاظة حتى إنني، بصراحة، لا أجد الكلمات لتصوير هذه الحادثة المأساوية.

وأنـا واثق من أن شيللر كان في اليوم التالي مصاباً بحمى شديدة، وأنـه كان يرتجـف كالورقـة، متوقعاً من لحظـة إلى أخـرى وصول الشرطـة، والله يعلم كم كان سيدفع ليكـون كل ما حدث مجرد حلم رآه في نومـه. ولكـن ما وقع يستحيل الرجوع عنـه. ولا شيء يمكن أن يقـارن بغيظ بيروغوف واستيائـه. كان مجرد التفكير بهذه الإهانة

الفظيعة يسعّر الحنق في نفسه. كان يعتبر النفي إلى سيبيريا، والجلد أصغر عقوبتين في حق شيللر. انطلق إلى بيته، ليغير ملابسه، ويذهب من هناك إلى الجنرال مباشرة، ويصف له بأكثر الألوان تعبيراً عربدة الحرفيين الألمان. وكان يريد أن يقدم في الوقت ذاته طلباً خطياً إلى الأركان العامة. وإذا ما أصدرت الأركان العامة عقوبة غير كافية، فإنه سيلجأ إلى مجلس الدولة رأساً، وإلا فإلى القيصر نفسه.

ولكن كل ذلك انتهى بنهاية غريبة. ففي طريقه إلى البيت دخل محل حلويات، وأكل قطعتين من الفطائر المطبّقة، وقرأ شيئاً من صحيفة «سيفرنايا بتشيلا»، وخرج وقد خفت شدة غيظه. ثم أن المساء الطري واللطيف إلى حد كاف، جعله يتمشى قليلاً في شارع نيفسكي، وفي نحو الساعة التاسعة كان قد هدأ، ورأى من غير اللائق أن يزعج الجنرال في يوم أحد، ومن المؤكد أيضاً أنه قد استدعي إلى جهة ما، ولهذا توجه ليقضي أمسيته عند أحد مدراء مصلحة التدقيق والإحصاء، حيث كان يوجد جمع لطيف جداً من الموظفين والضباط. وقد قضى أمسيته هناك باستمتاع، وبرّز في رقصة المازوركا حتى إنه لم يكتف بخلب ألباب السيدات فقط، بل والفرسان أيضاً.

«دنيانا عجيبة! كنت أفكر في ذلك وأنا أتمشى في شارع نيفسكي يوم أمس الأول، وأسترجع في ذهني هذين الحادثين وما أغرب لعب القدر بنا، هذا اللعب غير المفهوم! فهل ستحصل في يوم ما على ما نصبو إليه؟ وهل سنبلغ ما يبدو وكأن قوانا قد أُعدت له خصيصاً؟ كل شيء يحدث بالعكس. مَنْ حباه القدر بجياد رائعة، ينطلق عليها غير مكترث، وغير فاطن إلى جمالها قط بينما الذي يلهب قلبه حبُّ الجياد يسير على قدميه، ويكتفي بالتمطق بلسانه، حين يمر به جواد عَدَّاء. مَنْ يُعطى طاهياً ماهراً، يكون فمه صغيراً، يا حسرة، لا يستطيع

أن يمرر به أكثر من لقمتيه بينما الذي له فم كبير بحجم قوس الأركان العامة مضطر، وا أسفاه، إلى أن يقتصر على غداء زهيد من البطاطس. آه، ما أغرب لعب القدر بنا!»

ولكن أغرب الحوادث كلها، هي التي تحصل في شارع نيفسكي، أوه، لا تصدقوا بشارع نيفسكي! دائماً حين أسير فيه، أحكم شدَّ معطفي على جسدين وأحاول أن لا أنظر أبداً إلى الأشياء التي أصادفها. كل شيء خداع، كل شيء وهم، كل شيء ليس بالشكل الذي يبدو فيه. هل تتصورون أن ذلك السيد الذي يتنزه في سترة حسنة التفصيل غني جداً؟ لا، قطعاً. كل قيمته في سترته. هل تتصوّرون أن ذينك السيدين البدينين اللذين توقّفا أمام كنيسة في طور البناء يتناقشان في معمارها؟ لا، أبداً. بل يتحدثان عن الطريقة الغريبة التي خط بها غرابان أحدهما مقابل الآخر. هل تظنون أن هذا المتحمس الذي يشمر بذراعيه يحكي كيف أن زوجته ألقت شيئاً من النافذة لتثير انتباه ضابط غريب عليه تماماً؟ لا، قطعاً، إنه يتكلم عن لافايت[1]. وتظنون أن هذه السيدات... ولكن صدقوا بالسيدات أقل من أي شخص آخر. وقللوا من النظر في واجهات المخازن، فالخردوات المعروضة فيها رائعة، إلا أنها تنذر بكمية رهيبة من أوراق النقد. ولكن الله يحفظكم من النظر في وجوه السيدات تحت القلنسوات! أنا لن يثير فضولي أبداً رفيف معطف حسناء من بعيد، ولن ألحقها! ابتعدوا، ابتعدوا عن مصباح الشارع، بحق الرب، واجتازوه أسرع ما في مستطاعكم. فسيحالفكم الحظ، إن نجوتم منه بتلطيخ ستراتكم الأنيقة بزيته العفن فقط. ولكن الخداع

(١) لافايت شخصية سياسية فرنسية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. المترجم.

يلــف كل شيء، لا المصباح وحده. إنه شــارع نيفسكي هذا يكذب طــوال الوقت، ولكنه يكذب بشكل خاص، حين يكلكل الليل عليه بجنحه الكثيف، ويفصل جدران البيــوت البيضاء والفاتحة الصفرة، حــين تتحول المدينة كلها إلى هدير ولمعــان، وتسرح آلاف مؤلّفة من العربــات مــن القناطر، ويصيح مساعــدو الحوذيــة، ويتواثبون على الخيــول الأمامية، وحــين يوقد الجنــيُّ نفسه المصابيــح لا لشيء، إلا ليجعل كل شيء يبدو في غير صورته الحقيقية.

****

الصورة

القسم الاول

لم يتوقف خَلْق في أي مكان بتلك الكثرة التي توقف بها أمام دكان الصور في سوق تشوكين. كان هذا الدكان يجمع بالفعل أكثر الغرائب تنوعاً: لوحات رُسِمَ معظمها بالألوان الزيتية، مطلية بدهان داكن الخضرة، في أطر مزَّوقة قاتمة الصفرة، موضوعاتها الاعتيادية شتاء بأشجار بيض، وشفق أحمر كلياً، مثل وهج حريق، وريفي فلامندي بغليونه وذراعه المخلوعة، لا يشبه إنساناً بقدر ما يشبه ديكاً رومياً مزرقش الريش. وإلى هذا يجب أن نضيف بعض صور الكرافيك: صورة الأمير الفارسي خسرو مرزا يعتمر قبعة من فرو الغنم، وصور جنرالات في قبعات ثلاثية، وأنوف معكوفة. وبالإضافة إلى ذلك عادة ما تعلق على أبواب مثل هذه الدكاكين ربطات من الرسوم المطبوعة على أوراق كبيرة والمذيلة بمأثور الأقوال، شاهدة على أصالة الموهبة لدى الروسي. على أحد هذه الأوراق صورة ابنة القيصر ميليكتريسا كيربيتيفنا بطلة الحكاية الشعبية، وعلى أخرى مدينة القدس، وقد ساح اللون الأحمر على دورها وكنائسها بلا كلفة، وسرح على جزء من الأرض، وعلى اثنين من الريفيين الروس يصليان في قفافيزهما. ومشترو هذه الرسوم غير كثيرين في العادة، ولكن المتفرجين، على العكس من ذلك، كثار، بينهم خادم مقصر، يطيل الوقوف أمامها، وفي يده محمل آنية لغداء سيده جاء به من الحانة، وليس من شك في

أن هـذا السيد سيـأكل حساءه فاتراً. وأمامـه، على الأرجح، جندي في معطـف، هو أليف سوق الأشياء المستعملة، يبيع مطواتين. وبائعة مـن منطقة نائية، تحمل علبة مملوءة بالأحذية. وكل واحد منهم يبدي إعجابـه على طريقته الخاصـة. القرويون عادة يشـيرون بسباباتهم، والجنـود يتفحصون بجديـة، والخـدم الصبيان، وغلمـان الحرفيين يتضاحكون، ويناكد بعضهم بعضاً بالصور الكاريكاتورية. وعجائز الخـدم في معاطفهم القطنية السميكة ينظرون لمجـرد أن يتلكأوا في مـكان ما. أمـا البائعـات، العاميـات الروسيات الشابـات فيهرعن بفطرتهن ليسمعن ما يقول الناس، وينظرن إلى ما ينظرون إليه.

في ذلك الوقـت صادف أن كل الرسام الشاب تشارتكوف ماراً بذلـك الدكان فوجد نفسه يتوقف أمامه لا إرادياً. كان معطفه القديم وملبسه غير المتأنق يشيران إلى أنه رجل متفان في عمله بنكران ذات، مشغـول عن الاهتمـام بهندامه، يتملـك دائماً تلـك الجاذبية الخفية الخاصـة بسـن الشبـاب. توقف أمـام الـدكان، وفي اللحظة الأولى ضحـك في سـره من تلـك اللوحات المشوَّهـة. ولكنه أخـيراً تملكه استغـراق لاإرادي. فقـد أخذ يفكر: تـرى من أولئـك الذين يمكن أن تستهويهـم هـذه الأعمال. لم يبد لـه غريباً أن يتطلـع الروس إلى «يورسـلان لازاريفيتش» و«الشره والشريب» وإلى «فوما ويريوما». فـإن هذه الموضوعـات المرسومة كانت ميسورة جـداً ومفهومة من قبـل العامة. ولكن أين الذين يشترون هـذه اللوحات الزيتية المبرقشة القـذرة؟ مَنْ بحاجة إلى هؤلاء الريفيـين الفلامنديين، إلى هذه المناظر الطبيعيـة الحمـراء والزرقاء التـي تدّعي علو قدم في الفـن، بينما هي تنحـط به انحطاطـاً شديداً؟ والظاهر أنها لم تكـن حتى أعمال طفل يتعلـم الرسـم بنفسه. وإلا لانبثق منها دفق عفـوي حاد، على الرغم مـن كل كاريكاتوريتها المجردة من المشاعـر، بكليتها. ولكن الرائي

لم يكن يـرى فيها غير كلل الذهن، والسطحية العاجزة السقيمة التي جعلـت نفسها في مصاف الفنون اعتباطاً، بينما المكان اللائق بها أن تكون بين الحـرف الدنيا، السطحية، والتـي كانت، على كل حال، وفية إلى مهمتها، فأدخلت حرفيتها في الفن ذاته. ومما يدل على ذلك الأصبـاغ، والطريقة، واليـد المجربة المتعددة، التـي يمكن أن تنسب إلى آلة غير متقنة الصنـع، أكثر مما تنسب إلى إنسان!... ووقف الرسام طويـلاً أمام هـذه اللوحات القـذرة، حتى لم يعد يفكـر فيها أخيراً، وفي غضـون ذلك كان صاحب الدكان، وهو رجل حقير المظهر في معطف قطني سميك وبـرى لم يحلق وجهه منذ يوم الأحد، يحادثه منـذ وقت طويل، ويغريه في الشراء، ويساومه على الثمن، حتى دون أن يعرف ماذا أعجبه، وماذا يبتغيه.

ـ أستطيـع أن أعطي صورة هؤلاء الريفيين، ولوحة المنظر الطبيعي لقاء عشرين روبلاً! رسم ممتاز! لا تشبع العين من النظر إليه. تسلمتها مـن البورصة قبل لحظات، لم يجف الطلاء منها بعد، أو منظر الشتاء هذا. خذه! بخمسة عشر روبلاً! الإطار وحده يساوي مبلغاً محترماً. انظـر أي شتاء هذا! وفي تلك اللحظة نقـر البائع قماشة اللوحة نقرة خفيفـة، ليظهر جـودة الشتاء، علـى الأرجح. هل تأمـر أن أربطها سويـة، وأرسلهـا وراءك؟ أين تسكن، لو سمحـت؟ هاي، يا غلام، هات حبلاً.

ـ انتظـر، يـا أخ، لا تستعجل قـال الرسام وقد أفـاق على نفسه، ورأى البائـع الحرك يأخذ يربطها عن جد. شعر بشيء من الخجل من عدم شرائه شيئاً، بعد وقفته الطويلة هذه في الدكان، فقال:

ـ انتظر، لعلي سأرى شيئاً في هذا المكان يصلح لي، وانحنى، وأخذ يرفع من الأرضـ الرسوم الرخيصة القديمة المقشرة الأصباغ، المغبرة، المكوّمـة، التي لم تحـظ بتقدير أحـد، كما يبدو. كانـت هناك صور

عائليـة قديمة، ربما لم يعد وجود على الأرض حتى لأحفادها، وصور مجهولة تماماً، قماشاتها ممزقة، وأطر مذهبة مقشّرة. وباختصار، كل ما هو سقط متاع. ولكـن الرسام أخذ ينظر فيها مفكراً في سرّه: «لعلي أجـد شيئاً ما..» وكان قد سمع غير مرة حكايات عن لوحات فنانين عظام عُثر عليها أحياناً بين ركام بائعي الصور الرخيصة.

شاهـد صاحب الدكان توغل الرسـام، فكفَّ عن لغطه وعاد إلى وضعـه الطبيعي، ملتزماً جانب الوقار، ووقف من جديد عند الباب، داعيـاً المارة، ومشيراً لهم إلى الـدكان بيد واحدة: «تفضل، يا محترم، عنـدي لوحات! ادخلن ادخل. جاءت مـن البورصة تواً». وبعد أن شبـع من الصيـاح، ومعظم الوقت بـدون جدوى، وتحـدث بما فيه الكفايـة مع بائع الخـردوات، الذي كان واقفاً أيضـاً قبالته عند باب دكانـه، وتذكـر أخيراً بأن في دكانـه مشترياً، أدار ظهـره إلى الناس، ودخل الـدكان. «هل اخترت شيئاً، يا حضـرة؟» ولكن الرسام كان منذ بعض الوقت واقفاً بلا حراك أمام صورة في إطار كبير كان بديعاً في زمانه، ولكن آثار القشرة الذهبية لا تكاد الآن تلمع عليه.

كانت هذه الصورة لشيخ ذي وجه برونزي اللون، ناتئ الوجنتين، عليـل المظهر. وقد التقطت قسمات الوجه في لحظة حركة متشنجة، فهـي لا توحي بقـوة الشمـال، وكانت الظهـيرة اللاهبـة مطبوعة عليهـا. كان يرفـل في ملابس آسيوية فضفاضـة. وعلى الرغم مما في الصـورة من تلف، واغـبرار، إلا أن الرسام، حـين استطاع أن يزيح الغبار عن الوجه، رأى لمسـات عمل فنان رفيع، وتبين أن الصورة لم تكن كاملة، ولكن قوة الريشة كانت مذهلة. وكانت العينان أعجب ما في الصـورة. فقد بدا وكأن رسامها صـبَّ فيهما كل قوة ريشته، وكل جهـده الدائـب. كانت العينـان تحدقان بحيـاة، تحدقان حتى مـن الصورة نفسها، وكأنما بحيويتهمـا الدافقة الغريبة تكملان نسق

الصورة. وحين قرّب الصورة من الباب، صارت العينان ترنوان بقوة أشـد، وهذا الموقع نفسه تركته الصورة في الناس أيضاً، فقد صاحت المـرأة التـي كانت واقفـة وراءه: «يحدق، يحـدق»، وتراجعت إلى الوراء. وكان الرسام يشعـر بإحساس مقلق غير مفهوم حتى لنفسه، فوضع الصورة على الأرض.

قال صاحب الدكان: يعني تشتريها!

قال الرسام: بكم؟

- ولماذا أبالغ في ثمنها؟ خذها بخمسة وسبعين كوبيكاً.

- لا.

- طيب، كم تدفع؟

- عشرين كوبيكاً.

قال الرسام، وهمّ بالانصراف.

- مـا أبخس الثمن! الإطار وحده يسـاوي أكثر من عشرين. يبدو أنـك لا تنوي أن تشتريها؟ سيـد، سيد، ارجع! على الأقل لو أضفت عشـرة كوبيكات أخرى، خذهـا، خذها، وهات عشريـن كوبيكاً. حقاً، لأستفتح البيع، لا غير، فأنت أول مشترٍ.

وبعدهـا شمّـر ذراعه، وكأنمـا يقول: «وليكن مـا يكون. وعلى الصورة العفاء!»..

وعلى هذا النحـو اشترى تشارتكوف صـورة قديمة بطريقة غير متوقعـة تمامـاً، وفي الوقت نفسه كان يفكر: «وعـلام اشتريتها؟ وما حاجتي إليها؟» ولكن الأمر وقع ولا مفر منه. أخرج عشرين كوبيكاً مـن جيبه، وأعطاهـا لصاحب الدكان، ووضـع الصورة تحت إبطه، وحملهـا معه. وفي الطريق تذكـر أن العشرين كوبيـكاً التي أعطاها للبائـع هي آخر ما لديه من نقود. وادلهمت أفكاره فجأة. وفي الحال

غمره كدر وخواء زاهد. وقال بشعور الروسي حين تضيق عليه أموره: «الشيطان! تف على الدنيا!» وسار بخطوات سريعة وبحركة آلية تقريباً، يملؤه النفور من كل شيء. كان لون الشفق الأحمر ما يزال يغمر نصف السماء، وضوؤه الدافئ ما يزال ينير قليلاً البيوت المواجهة لذلك الجانب. بينما كانت زرقة الهلال الباردة تشتد. وكانت البيوت وأقدام السابلة تلقي على الأرض كالذيول ظلالاً خفيفة شبه شفافة. وكان الرسام قد أخذ يرمق شيئاً فشيئاً السماء المنوَّرة بنور رهيف شفاف موهم، وفي ذات الوقت تقريباً كانت هذه الكلمات تند من بين شفتيه: «أية مسحة خفيفة!» وهذه الكلمات: «مؤسف، يا للشيطان!»، وحث خطاه، وهو يعدِّل الصورة التي كانت دائماً تسرح من تحت إبطه.

وصل إلى بيته متعباً مسربلاً بالعرق. وكان بيته في الصف الخامس عشر في جزيرة فاسيليفسكي. صعد الدرج بصعوبة وبوقفات، وكان الدرج مبلولاً بمياه الغسيل، مزيناً بفضلات القطط والكلاب. لم يرد أحد على طرقه للباب. كان الخادم متغيباً عن البيت. اتكأ على النافذة، وهيأ نفسه للانتظار بصبر، حتى ترددت وراءه أخيراً خطوات شاب في قميص أزرق، هو مساعده، وموديله والرجل الذي يمزج له الأصباغ ويكنس أرضية غرفه، ويبقعها في اللحظة نفسها بآثار حذائه الطويل. كان هذا الشاب يدعى نيكيتا، يقضي طوال وقته خارج البوابة، حين يكون السيد غائباً. جاهد نيكيتا طويلاً ليدخل المفتاح في ثقب الباب، المحجوب بالظلام، وأخيراً فُتح الباب. ودخل تشارتكوف في رواق شقته البارد إلى حد لا يحتمل، كما هو دائماً في بيوت الرسامين، وهو شيء لا يلحظونه، بالمناسبة، لم يعط تشارتكوف معطفه لنيكيتا، ودخل به مرسمه، وهو حجرة مربعة كبيرة، ولكنها واطئة السقف، متجمّدة النوافذ، يتناثر

فيها كل ما لدى الرسام من متاع: قطع أذرع جبسية، إطارات شدَّت عليهـا قماشة الرسم، وتخطيطات أولية مهملة، وأغطية تناثرت على الكراسـي. كان شديد التعـب، فألقى عنه معطفـه، ووضع الصورة بشرود ذهـن بين جنفاصتين غير كبيرتين، وارتمـى على أريكة ضيقة لا يمكـن أن يقال عنها إنها مغلفة بالجلد، لأن صف المسامير الصغيرة النحاسية التي كانت تثبت الجلد قد تحرر منه منذ زمان، كما أن الجلد تحـرر منهـا أيضاً، وبقي يغطي الأريكة من فـوق حتى أن نيكيتا كان يحشر تحته الجوارب السوداء، والقمصان، وكل الثياب الداخلية غير المغسولة، جلس قليـلاً، واستلقى بقدر ماكانت هذه الأريكة الضيقة تسمح بالاستلقاء، وأخيراً طلب شمعة. فقال نيكيتا:

- لا توجد شمعة.

- كيف لا توجد شمعة؟

فقال نيكيتا:

- حتى يوم أمس لم تكن.

وتذكـر الرسـام أن البيت بالفعل كان بلا شمعة يـوم أمس، فهدأ بالـه، وسكت. وجعل خادمه يخلع لـه ثيابه، ولبس روبه الذي طال عليه الاستعمال وتهرأ.

قال نيكيتا:

- والشيء الثاني صاحب البيت جاء.

- أها، جاء على الفلوس؟ اعرف.

قال الرسام. بعد أن هزَّ ذراعه. فقال نيكيتا.

- ولكن لم يأت وحده.

- مع من جاء؟

- لا أعرف، مع من... مع شرطي.

ـ والشرطي لأي غرض؟

ـ لا أعرف لأي غرض. يقول لأن إيجار الشقة لم يدفع.

ـ طيب، وماذا يترتب على ذلك؟

ـ لا أعـرف مـاذا يترتـب. كان يقـول إذا كان لا يريـد أن يدفع، فليخرج من الشقة، إذاً، يريدان أن يأتيا غداً كليهما.

ـ فليأتيا.

قال تشارتكوف بعدم اكتراث شجي. واستولى عليه مزاج عكر.

كان تشارتكوف الشاب رساماً موهوباً يعد بالكثير. كانت ريشته بتوهجاتهـا ولمساتها الخاطفـة تشي بدقة الملاحظـة، وتوقد الذهن، والاندفاع الجارف للاقتراب أكثر من الطبيعة. وقد قال له أستاذه غير مـرة: «حذار، يا أخ، إن لك موهبة، ومن الخطيئة أن تقتلها. ولكنك قليـل الصبر. ما إن يغريك شيء، أو يعجبـك شيء حتى تنغمس فيه. ومـا عداه تفاهة بالنسبة لـك، ما عداه لا يساوي لديك شيئاً، بل ولا تريـد النظر إليـه. احذر حتى لا تطلـع رساماً على الموضـة. الألوان عندك منـذ الآن تأخذ بالإعلان عن نفسها بشـدة بالغة. والتخطيط غـير دقيق، بـل وأحياناً ضعيف للغاية. والخـط لا يرى. أنت تركض وراء الإنـارة على الموضة، ووراء مـا يبهر البصر من أول نظرة. حذار، فستسقـط بهذه الطريقة في النمط الإنجليـزي. احترس. بدأت الدنيا تغريـك. أحياناً أرى على رقبتك لفاحـاً أنيقاً، وقبعة على الموضة... شـيء مغر، ومن الممكن الانجراف في رسـم اللوحات على الموضة، صور لقاء نقود. ولكن ذلك يقتل الموهبة ولا يطورها. اصبر، تروّ في كل عمل، واترك الأناقة. دع الآخرين يجمعون الفلوس. وستظفر بما هو لك في آخر المطاف».

وكان الأستـاذ مصيباً بعض الشيء. فإنّ رسامنا كان أحياناً يحب

بالفعل أن يلهو، ويتأنق، وباختصار أن يظهر شبابه في مكان ما. ولكن مع هذا كله كان يستطيع السيطرة على نفسه. وأحياناً كان يستطيع أن ينسى كل شيء، منغمراً بريشته، متمسكاً بها تمسك النائم بحلم جميل. وكان ذوقه يتطور بشكل ملحوظ. وعلى الرغم من أنه لم يكن يفهم بعد كل ما في روفائيل من عمق، إلا أن ريشة غفيدو السريعة العريضة كانت تستهويه، وكان يتوقف أمام صور تيتسيان، ويعجب بالرسامين الفلامنديين. ومع أنه لم يلحق بعد أن يدرك سر اللوحات القديمة بسطحها المسوّد، إلا أنه استطاع أن يتلمس شيئاً فيها، ولو أنه في دخيلة نفسه لم يكن يوافق مع الأستاذ على أن المبدعين القدامى قد سبقونا بمراحل لا نصل إليها، بل كان يبدو له أن القرن التاسع عشر تفوق عليهم كثيراً بشيء ما، وأن محاكاة الطبيعة أضحت الآن أسطع، وأحفل بالحياة، وأكثر قرباً. فهو، باختصار، كان يفكر من هذه الناحية، كما يفكر شاب حقق شيئاً ما، وكان يشعر بذلك في داخل واعيته الفخور. وكان أحياناً يحس بالكدر، حين كان يرى رساماً وافداً، فرنسياً كان أو ألمانياً، بل وأحياناً ليس رساماً بمَلَكتِه، بل بالطريقة التي ألفها، وعرامة ريشته وصراخ الألوان، يثير ضجة عامة، ويجمع لنفسه رأسمالاً من النقود في لمحة عين. وكان هذا لا يخطر في باله، حين يكون منغمراً بعمله، فقد كان عند ذاك، ينسى الأكل والشرب والعالم أجمع، ولكنه كان يخطر، حين لا يكون له ما يشترى به فرشاً وأصباغاً، وحين كان صاحب البيت الملحاح يتردد عليه عشر مرات في اليوم يطالبه بإيجاز الشقة. حينذاك كانت تراوده حتى الفكرة التي كثيراً ما تراود ذهن الروسي: أن يهمل كل شيء، وينغمس في الخمرة نكاية بكل شيء. والآن كان يواجه هذه الحالة أو ما يقاربها.

نبس في ضيق:

ـ نعم! اصبر، اصبر! فإن للصبر نهاية، في آخر الأمر. اصبر! وبأي فلوس سآكل غداً؟ لا أحد يقبل أن يقرضني. وإذا حملت كل لوحاتي ورسومي، فلن أتقاضى عنها جميعاً غير عشرين كوبيكاً. إنها مفيدة، بالطبع، وأنا أشعر بذلك، فكل واحدة لم ترسم عبثاً، فقد تعلمت شيئاً منها، ولكن أية فوائد؟ رسوم تخطيطية، محاولات هي مجرد رسوم تخطيطية ومحاولات لا نهاية لها. ثم من يشتريها، إذا لم يكن اسمي معروفاً لديه؟ ومَنْ بحاجة إلى رسوم تنقل تماثيل القدامى أو موديلات عصرية أو لوحتي «حب بسيشه» التي لم أتممها بعد، أو حجرتي، أو صورة خادمي نيكيتا، ولو أنها في الحقيقة، أحسن من صور أي رسام محدث؟ ما هذا في الواقع؟ لَمَ أتعذب، وانكب على الأبجدية كالتلميذ بينما في إمكاني أن ألمع لمعاناً لا يقل عن لمعان الآخرين، وأكون مثلهم ذا مال.

وبعد أن نطق الرسام بذلك، أخ يرتعش فجأة، ويشحب فقد رأى وجهاً مشوهاً متشنجاً ينظر إليه من وراء قماشة مثبتة، وتنفذ عيناه الرهيبتان فيه، وكأنهما تستعدان لالتهامه. وعلى الشفتين وعيد آخر بالسكوت. ارتعب الرسام، وهمّ بأن يصرخ ويدعو نيكيتا الذي لحق أن يطلق شخيره المارد في الرواق. ولكنه توقف فجأة، وضحك. وزايله الشعور بالرعب بطرفة عين، حين عرف أنها الصورة التي اشتراها، ونسيها تماماً. وكان نور القمر الساطع الذي أضاء الغرفة قد سقط عليها، ومدّها بحيوية غريبة. أخذ يدقق فيها النظر، ومسحها. وضع إسفنجة في الماء، ومررها عليها عدة مرات، وأزال عنها كل أو معظم ما لصق بها من غبار ووساخة، وعلقها على الحائط أمامه، وزاد إعجابه بهذا العمل الخارق. كأنها الحياة سرت في الوجه أو كادت، وراحت العينان تحدقان فيه بشكل جعلت الرعدة تسري فيه أخيراً، فتراجع، وقال بصوت ذاهل: «يحدقن يحدق بعيني إنسان!» وتذكر

فجـأة حكاية كان قـد سمعها من أستاذه منذ زمـن بعيد، عن صورة ليونـاردو دافينتشي الشهير، ظل هذا المعلـم العظيم يعمل عليها عدة سنـوات، ومع ذلك كان يعتبرها غير مكتملة، ولكنها، على حد قول فازاري، كان الجميع يعتبرونها أكمل وأتم عمل فني. كانت أتمّ ما فيها العينان اللتان كانتا تذهلان المعاصرين، وحتى العروق الضئيلة التي لا تـكاد تبين فيهما لم تهمل ورسمت بالكامل. ولكن في هذه الصورة التـي كانت أمامـه الآن شيئاً غريبـاً. إن هذا لم يكن فنـاً، بل تحطيماً حتى لنسق الصورة. هاتان عينان حيتان، عينان إنسانيتان! كان يبدو وكأنهمـا قلعتا من وجـه إنسان حيّ، ووضعتـا في الصورة. لم تكن هناك تلك المتعة الرفيعـة التي تغمر النفس عند النظر إلى عمل رسام، مهمـا كان رهيبـاً الموضوع الذي يرسمه. كان ثمـة إحساس ممرض منهـك. ووجد الرسام يسائل نفسه لا إرادياً: «ما هذا؟ هذا، على أية حـال، منقول من موديل، حي. فمن أي شـيء يتولد هذا الإحساس الغريب المزعج؟ أم أن المحاكاة العبودية الحرفية للأصل قد تحولت إلى جرم، وصارت كصرخة حادة ناشـزة؟ أم أنك حين تتناول موضوعاً ببرودة بلا إحساس، وبدون أن تتعاطف معه، لا يخرج من بين يديك إلا على حقيقتـه الواقعية المريعة، دون أن يستنار بنور الفكرة العصية الكامنـة في كل شيء، يخرج على حقيقتـه التي لا تتكشف إلا حين تتسلح، وأنت تريد التوصل إلى الإنسان الرائع، بمبضع المشرح، وتشق جوفـه، فترى فيه إنساناً منفراً؟ لمـاذا يظهر الموضوع البسيط الوضيع لدى رسـام يشع بضوء ما بمظهر لا يخلف لديك انطباعاً وضيعاً، بل على العكس تحس وكأنـك تتلذذ، وكل شيء حولك يسير بعد ذلك ويتحرك على نحو أهدأ وأكثر انبساطاً. ولِمَ يبدو هذا الموضوع نفسه لـدى رسام آخر حقيراً قذراً، بينما كان هذا الرسام أميناً عليه؟ ولكن ليس فيه ما ينوِّر. تماماً كالمنظر الطبيعي، فإنه مهما يكن رائعاً فسيظل ينقصه شيء إذا كانت السماء بلا شمس».

ودنـا من الصـورة مرة أخـرى، ليمعـن النظر في تينـك العينين العجيبتين، ولاحظ مرتعبـاً بأنهما تحدثان فيه بالفعل. لم تكن منقولة عـن طبيعة حيـة، بل كانت تلك الحياة الغريبـة التي تنعكس في وجه ميت لو قام من قبره. وفجأة شعر بالرهبة من البقاء وحده في الحجرة، لسبب مجهول، لعله ضوء القمر الذي يحمل معه هوس الحلم، ويغلف كل شـيء في صور أخرى تخالف حقيقتها في النهار أو ربما هو شيء آخـر. ابتعد عـن الصـورة بهـدوء، وأدار وجهه إلى ناحيـة أخرى، وحاول تحاشـي النظر إلى الصورة، بينما كانـت عينه تحول من تلقاء نفسهـا، وبدون إرادته، لتلقي نظرة عليهـا. وأخيراً صار يرعبه حتى التمشـي في الغرفة، وصار يتوهم أن شخصاً آخـر سيسير وراءه بين لحظة وأخـرى، فكان في كل مرة يتلفت إلى الـوراء بتهيب، لم يكن جباناً قط، ولكن خيالـه وأعصابه كانت مشحوذة، وفي ذلك المساء لم يستطع هو نفسه أن يفسر خوفه اللا إرادي. جلس في ركن، ولكن حتى هنا، خيِّل إليه أن شخصاً سيحدق في وجهه بين لحظة وأخرى، مـن وراء كتفه. وحتى شخير نيكيتـا الصادر من الرواق لم يطرد هذا الخـوف. وأخيراً نهض مـن مكانه متهيباً غير رافع بصـره، واتجه إلى مضجعه وراء الحاجز، واستلقى على الفراش. ومن خلال شق الحاجز رأى حجرتـه المضاءة بضوء القمـر، ورأى قدامه الصورة المعلقة على الحائط. كانـت العينان تنغرزان فيه أكثر رهبـة وأقوى تعبيراً، وخيل إليـه أنهمـا تتقصدانه تقصداً، ولا تنظران إلى شـيء آخر. وتجرأ على مغادرة الفراش مفعماً بإحسـاس ثقيل، واختطف ملاءة واقترب من الصورة، ولفها بها.

وبعـد أن فعل ذلـك استلقى على الفراش أهـدأ بالاً، وراح يفكر في فقـر وبؤس نصيب الرسام، وفي الطريـق الشائك الماثل أمامه في هـذه الدنيا، وخلال ذلك كانت عيناه تنظـران لا إرادياً، من خلال

شق الحاجز، إلى الصورة الملفوفة بالملاءة. كان ألق القمر يزيد من بياض الملاءة، فكان يتصور أن العينين الرهيبتين صارتا تشفان حتى من خلال الملاءة. وتفرّس بذعر في الصورة أكثر، وكأنما يريد أن يتأكد من أن ذلك مجرد وهم. ولكنه في آخر الأمر، في الواقع الآن... يرى، يرى بوضوح أن الملاءة انزاحت والصورة مكشوفة بكليتها، تحدق فيه تماماً دون أن تنظر إلى كل ما حوله، تحدق لتنفذ إلى دخيلته. وتجمد قلبه. ويرى العجوز يتململ، ويستند فجأة على الإطار بكلتا يديه. وأخيراً يرفع جسده على يديه، ويدفع كلتا قدميه ويقفز من الإطار... ومن خلال شق الحاجز لم تعد العين ترى غير الإطار الفارغ. وتردد وقع أقدام في الحجرة، صار أخيراً يقترب من الحاجز أكثر فأكثر. وصار قلب الرسام المسكين يخفق أشد فأشد. وراح يترقب محتبس الأنفاس رعباً أن يطل العجوز عليه من وراء الحاجز. وقد أطل، بالفعل، من وراء الحاجز بنفس ذلك الوجه البرونزي مقلِّباً عينيه الوسيعتين. جاهد تشارتكوف أن يصرخ ولكنه أحس بأن صوته قد فارقه، وجاهد أن يتململ، أن يقوم بحركة، ولكن أطرافه لا تتحرك، فنظر فاغر الفم مكتوم الأنفاس إلى هذا الشبح الرهيب ذي القامة الطويلة في جلباب آسيوي فضفاض، وانتظر ما سيفعله. جلس العجوز قرب قدميه تقريباً، وبعد ذلك أخرج شيئاً من تحت طية جلبابه العريض. فإذا به كيس. فكّه العجوز، وأمسكه من طرفيه، ونفضه. فتساقطت على الأرض بصوت مكتوم صرر ثقيلة على شكل لفائق طويلة، كل واحدة لُفَّت بورقة زرقاء، وعلى كل واحدة طبع: «١٠٠٠ روبل ذهبي». أخرج العجوز يديه العظميتين الطويلتين من ردنيه العريضين، وأخذ يفك الصرر. ولمع الذهب. وعلى الرغم من كل ماكان الرسام يستشعره من إحساس مرهق كبير، ورعب شديد فقد بحلق بكل بصره في الذهب، يراقبه بلا حراك يتكشف في اليدين

العظميتين متلألئاً، يـرن رنيناً ناعماً وعميقاً، ويعود ينغلق. وفي تلك اللحظـة لمح صرة تدحرجت أبعد مـن الأخريات، عند قائمة سريره، عنـد موضـع رأسه. التقطها بمـا يشبه التشنج، ونظـر والرعب يملؤه لعـل العجوز قـد لحظه. ولكن العجوز بدا مشغـولاً جداً. جمع كل صـرره، ووضعها في الكيس ثانية، سار إلى مـا وراء الحاجز دون أن ينظر إليه. خفق قلب تشارتكوف بشدة، حين راح يسمع في الحجرة خفـق خطوات تبتعد. عصـر صرته في يده بقوة أشـد، مرتعشاً بكل جسده خائفاً عليها، وفجأة سمع الخطوات تقترب ثانية من الحاجز. والظاهر أن العجوز تذكر أن صرة من صرره ناقصة. وها هو ينظر إليه مـرة أخرى من وراء الحاجز. استحوذ الجزع على الرسام، فأطبق يده على الصـرة بكل قوته، واستجمع كل جهده ليقوم بحركة، وصرخ، واستيقظ من نومه.

كان العـرق البارد ينضح مـن كل جسمه، وكان قلبه يخفق بأشد مايمكن مـن الخفقان، وكان صـدره مختنقاً وكأن آخـر نفس يوشك أن يغـادره. قـال وقد أمسك رأسه بكلتا يديـه: «أيعقل أن ذلك كان حلماً؟»ولكن وضـوح الرؤية الرهيب لم يكن يشبه الحلم. فقد رأى ، وقـد استيقـظ، كيف دخل العجـوز إطاره، بل حركـة ذيل جلبابه العريضـ، وكانت يده تحس بوضوح أنها كانت قبل لحظة من ذلك، تحمـل شيئاً ثقيـلاً. كان ضوء القمر ينـير الغرفة، ملتقطـاً من الزوايا المظلمة جنفاصة هنا، ويداً جبسية هناك، والغطاء المنشور على كرسي في مـكان ثالث، والبنطلون والحـذاء الطويل غير الممسوح في مكان رابـع. وفي تلـك اللحظة فقط فطن إلى أنه ليـس في سريره، بل يقف على قدميه أمام الصورة تماماً. و لم يستطع قطأن يفهم كيف وصل إلى هنـاك. والذي أدهشه أكثر أن الصورة كانت مكشوفة كلية، والملاءة لم تكن عليها بالفعـل. نظر إلى الصورة برعب متجمد، ورأى عينين

إنسانيتــين حيتين تنفـذان فيه. تصبب عرق بارد علـى وجهه، وأراد أن يبتعـد.. ولكنه شعـر وكأن قدميه قد انغرزتـا في الأرض. ويرى أن ذلـك ليس حلماً، فـإن ملامح العجوز تحركـت، وشفتاه صارتا تتمطيان نحـوه، وكأنما تريدان امتصاصه... فقفز متراجعاً إلى الوراء بصيحة استماتة، واستيقظ.

«أيعقـل أن ذلك كان حلمـاً أيضاً؟» وتلمس فيمـا حوله بيديه، وقلبه يكاد يتقطع في صدره من الوجيب. نعم، كان يرقد في الوضع الـذي اتخذه قبل أن يستغرق في النوم. وأمامه الحاجز، وضوء القمر يملأ الغرفة. وكانت الصورة تلوح من خلال الشق في الحاجز، مغطاة بالملاءة، حسب الأصول، وكما غطاها هو نفسه. إذاً، فقد كان ذلك حلمـاً أيضاً! ولكن اليـد المضمومة تستشعر حتـى الآن، وكأن فيها شيئـاً. كان خفقان قلبه شديـداً، يكاد يثير الرعب. والثقل في الصدر لا يحتمل. سمّر عينيه في الشق، ونظر متفرساً في الملاءة. وإذا به يرى بوضـوح الملاءة تأخذ بالانفتاح، وكأن يدين تتحركان بسرعة تحتها، وتحاولان إزاحتها. صـاح بيأس راسماً علامة الصليب: «يا إلهي، يا ربي، ما هذا!» واستيقظ.

وكان ذلـك حلمـاً أيضـاً! وثب مـن السرير، كالمخبـول، ذاهل اللب، و لم يعد يقدر أن يفسر ما يجري له: أهو ثقل كابوس أو جني، أو هذيـان حمـى، أو رؤية حية. حـاول أن يهدئ مـن روعه قليلاً، ومـن الدم الفوّار الـذي كان ينبض بشـدة في كل عروقه، فتقدم من النافـذة، وفتح كوة التهويـة. أنعشته هبة النسيم البـارد، ونور القمر مـا زال ممدداً على السطـوح وجدران البيوت البيضـاء، على الرغم مـن أن غيوماً صغـيرة صارت تطوف في السمـاء أكثر من ذي قبل. كان الصمـت يلف كلَّ شـيء: ومن حين لآخر يلتقـط سمعه كركبة بعيدة لعربة حوذي كان ينام في زقاق لا يراه، يهدهده حصانه الهزيل

الخامل، وهو يترقب راكباً متأخراً. ظل ينظر طويلاً مطلاً برأسه من الكوة. كانت بشائر الفجر الداني تظهر في السماء، وأخيراً شعر بدنو النعاس، فأغلق الكوة، وغادر النافذة، واستلقى على السرير، وسرعان ما غط بنوم عميق كالحجر.

استيقظ في ساعة متأخرة جداً، وأحس بحالة ضيق كتلك التي تتملك إنساناً بعد اختناق. وكان صداع مزعج يطوق رأسه. وكان ضوء الغرفة شاحباً، ورطوبة ثقيلة تشيع في الهواء، وتنفذ من خلال شقوق نوافذه، المسدودة باللوحات أو الجنفاص المفروش بالطلاء الأولي، جلس على أريكته الممزقة القماشة، جهماً متضايقاً، مثل ديك مبلل، لا يعرف علام يقدم، وماذا يفعل، وتذكر أخيراً كل حلمه. وكان هذا الحلم، بقدر ما يتذكره، يتمثل في مخيلته حياً بشكل مرهق، حتى إنه راح يتشكك في أن يكون حلماً أو مجرد هلوس، أو لعله شيء آخر، أو لعله رؤيا. أزاح الملاءة، وراح يتفحص الصورة المرعبة في ضوء النهار الآن. كانت العينان بالفعل تبهرانه بما فيهما من حيوية غير اعتيادية، ولكنه لم يجد فيهما ما يرعب، سوى أن شعوراً مبهماً غير مريح كان يساور نفسه. ومع كل هذا لم يستطع أن يقتنع تماماً بأن ذلك كان حلماً. كان يبدو له وكأن شريحة رهيبة من الواقع كانت تخالط هذا الحلم. كان يبدو وكأن ثمة شيئاً في نظرة العجوز نفسها وتعابير وجهه تنطق بأنه كان في غرفته تلك الليلة، وكانت يده تشعر بالثقل الذي كان يرقد فيها منذ حين، والذي انتزع منه قبل لحظة من استيقاظه. وخُيّل إليه أنه لو كان قد أمسك بالصرة بشكل أقوى، لكان من المحتمل أن تبقى في يده بعد تيقظه أيضاً.

«يا إلهي، ولو جزء من تلك النقودا»... قال وتنفس نفساً ثقيلاً، وطفق خياله يتصوّر ما رآه من كل تلك الصرر ذات الرقم المغري «١٠٠٠ روبل ذهبي» تتساقط من الكيس. ظلت الصرر

تنفتـح، والذهب يلمع، ثـم تنغلق من جديد. وظل هـو جالساً مثبتاً عينيـه بجمود وهبل في الهواء الخـاوي. وهو غير قادر على صرفهما عن ذلـك الشـيء، كالطفل الجالس أمـام صحن من الحلـوى، يبلع ريقـه، وهو يرى الآخرين يأكلون. وأخـيراً صدر طرق على الباب، جعله يصحو بشكل مزعج. ودخـل صاحب البيت مع شرطي الحيّ الـذي كان ظهوره بالنسبـة للناس الصغار، كما هـو معروف، أكثر إزعاجاً مـن ظهور مسترحم، بالنسبة للأغنيـاء. كان صاحب البيت الصغـير الـذي يسكن فيـه تشارتكـوف أحد المخلوقـات التي هي عـادة مالكة بيـوت في الخط الخامس عشر من جزيـرة فاسيليفسكي في حـي بطرسبورغسكي أو في حي كولومنا النائي، مخلوقاً من تلك المخلوقـات التـي تحفل بهـا روسيا، والتـي يصعب تحديـد طباعها، كما يصعـب تحديد لون سترة خَلَقٍ. كان في شبابـه برتبة رائد وكان مشاكسـاً، كما تقلّب في مناصب مدنية، وكان ماهراً في الجلد، كما كان شديد الحركة، محباً للأناقة، وبليداً، ولكنه في شيخوخته خلط في نفسه كل هذه الصفات الحادة في شيء كامد غير قابل على التحديد. وقد ترمل، وتقاعد وصار في حالة لا يمكن أن يتأنق فيها، ولا يتباهى، ولا يشاكس، فاقتصر على حبه لشرب الشاي، وإطلاق لسانه بالثرثرة أثناء ذلك، وكان يـذرع الغرفة، ويعدّل ذوب الشموع، وكان دقيقاً في زيـارة كل مستأجـر مـن مستأجريـه في آخر كل شهـر ليستوفي الإيجار، ويخرج إلى الشارع والمفتاح في يده ليلقي نظرة على سطح بيتـه، ويُخرج إلى الشـارع والمفتاح في يده ليلقـي نظرة على سطح بيتـه، ويُخرج بوابه من خُنه عدة مرات حين يراه منزوياً هناك نائماً. وباختصار كان رجلاً متقاعـداً لم تبق له غير عاداته الرذيلة بعد حياة حافلة باللهو، والتنقل في العربات العمومية.

ـ تفضل، وانظر بنفسك، يا باروخ كوزميتش قال صاحب البيت مخاطباً شرطي الحي باسطاً ذراعيه: لا يدفع إيجار الشقة، لا يدفع.

ـ وماذا أفعل إذا ليست لدي نقود؟ انتظر قليلاً، وسأدفع.

ـ لا يمكن أن أنتظر، يا عزيزي قال صاحب البيت مغتاظاً، ملوحاً بالمفتاح الذي كان في يده، عندي بوتوغونكين، المقدم، يسكن في بيتي منذ سبع سنوات، وآنا بيتروفنا بوخميستروفا، تستأجر السقيفة ومعلفين في الإسطبل ولديها ثلاثة خدم. هؤلاء هم نزلائي. وأقول لك بصراحة لست متعوداً على أن لا يدفع المستأجر إيجار شقته. تفضل، إدفع النقود الآن، وانتقل إلى حيث تشاء.

ـ نعم، ادفع إذا كنتم قد تعاقدتم على ذلك.

قال شرطي الحي، بهزة صغيرة من رأسه، ووضع إصبعه تحت زر سترته الرسمية.

ـ بأي شيء أدفع؟ لا أدري. أنا لا أملك الآن فلساً واحداً.

قال الشرطي:

ـ في هذه الحال قايض إيفان إيفانوفيتش بمصنوعات حرفتك. فقد يوافق على قبول لوحات.

ـ لا، يا عزيزي، أعوذ بالله من اللوحات. لا بأس لو كانت لوحات عن موضوعات نبيلة، بحيث أستطيع أن أعلقها على الجدار، على الأقل لو كانت هناك صورة جنرال بنيشان، أو صورة الأمير كوتوزوف. ولكن ها أنت تراه قد رسم ريفياً، في قميص فلاحي، هو خادمه الذي يحضر له الألوان. وهذا الخنزير، الذي لا يستأهل مني غير ضربة على القفا يرسم له صورة. إن هذا النصّاب اقتلع كل المسامير من مزاليج بيتي. هاك، انظر، أية موضوعات هي، يرسم حجرته. لا بأس لو أنه رسمها نظيفة مرتّبة، ولكن انظر كيف رسمها بكل قاذوراتها وسقط متاعها.

انظر كيف وسّخ لي الغرفة، عاين بنفسك. بينما كل نزيل من

نزلائـي يسكن سبع سنوات، ضباط برتب عاليـة، بوخميستروفا آنا بيتروفنـا... لا، أنـا على يقـين: لا يوجد مستأجر أسـوأ من الرسام. الخنزير يظل خنزيراً. اللهم سلّم.

وكان على الرسام المسكين أن يسمع كل هذا بصبر. وفي غضون ذلـك كان شرطي الحي منشغلاً في معاينـة اللوحات والتخطيطات، وأظهـر في الحال أنه أرق نفساً مـن صاحب البيت، بل ولا يفتقر إلى أحاسيس فنية.

- خـه قال، وقـد أشـار بإصبعـه إلى لوحـة تصوير امـرأة عارية الموضـوع، يعني... طائش. أمـا هذا الرجل فما هـذا الأسود تحت أنفه؟ نثار تبغ؟

- ظل أجاب تشارتكوف عن ذلك بحدة، و لم يلتفت إليه بنظرة.

قال الشرطي:

- طيب، حبذا لو ينتقل إلى مكان آخر. ولكن ما تحت الأنف حيّز ظاهر جداً. وهذه الصورة لمن؟ مضى يقول متقدماً من صورة العجوز مخيـف، أكثر من اللازم. كما لو كان هذا الرجل المخيف موجوداً في الواقـع. ياللعجب! أية تحديقة لـه! آه، يا بائع نفسه للشيطان! عن أي شخص رسمته؟

- عن شخص.... قال تشارتكوف، وقبل أن يتم جملته، صدرت قرقعة. كان شرطي الحي، كما يبدو، قد ضغط بقوة شديدة جداً على إطـار الصورة، وبفعل التكوين الخشن ليديه، يدي شرطي، انكسرت اللوحتان الصغيرتان الجانبيتان فوقعتا إلى الداخل وسقطت إحداهما على الأرض، ومعها سقطت صرة ملفوفة في ورقة زرقاء، في صريف ثقيل. وجـذب بصر تشارتكوف رقم «١٠٠٠ روبل ذهبي» فاندفع كالمجنـون لالتقاطها، واختطف الصرة، وعصرها بتشنج في يده التي ارتخت إلى الأسفل من ثقيل الصرة.

يبدو أن نقوداً رنت قال شرطي الحي، وقد سمع رنين شيء سقط علـى الأرض، و لم يلحق أن يعرفه بسبب حركة تشارتكوف السريعة حين اندفع لالتقاطه.

ـ وما شأنك في أن تعرف ما عندي؟

ـ شـأني أن تدفـع الآن إيجـار الشقة لصاحب البيـت من كل بد. عندك نقود، ولكنك لا تريد أن تدفع. هذا هو الأمر.

ـ طيب، سأدفع له اليوم.

ـ طيب، ولمـاذا لم ترد أن تدفع من قبـل، وتسبب العناء لصاحب البيت، والإزعاج للشرطة أيضاً؟

ـ لأننـي لم أرد أن أتصرف بهذه الفلوس، سأدفع له الحساب كله اليـوم مسـاءً، وأنتقل مـن الشقة غـداً، لأنني لا أريـد البقاء في بيت صاحب ملك مثله.

قال شرطي الحي مخاطباً صاحب البيت:

ـ طيـب، يا إيفان إيفانوفيتش. سيدفع لك، أما إذا لم يدفع حسب الأصول مساء اليوم، عندئذٍ لا مؤاخذة، يا حضرة الرسام.

وبعد أن قال ذلك لبس قبعتـه الثلاثية، وخرج إلى الرواق، وتبعه صاحب البيت مطأطأ الرأس، وفي هيئة تأمل وتفكير، كما يبدو.

ـ حمـداً لله علـى أن الشيطـان أخذهما! قـال تشارتكوف حين سمـع الباب يغلق في الرواق. نظر في الـرواق، وأرسل نيكيتا لحاجة مـا، ليخلو إلى نفسـه، وأغلق عليه الباب. وعـاد إلى حجرته، وأخذ يحـل الصرة وقلبه يرتجف بشدة. فرأى فيها قطعاً نقدية ذهبية جديدة كلهـا متوقدة كالنار. جلس على كومـة الذهب، كالمجنون، وهو لا يفتـأ يسأل نفسه: ألعلّ كل ذلك حلم؟ الصرة تحتوي على ألف روبل ذهبي بالضبط وكان مظهرها كمظهر تلك الصرة التي رآها في الحلم.

ظل يقلبها لبضع دقائق ويتفحصها، وهو ما يزال غير مسيطر على نفسه. وانبعثت في خياله فجأة كل الحكايات عن الكنوز بصناديقها المخفية التي كان الأجداد يخلفونها لأحفادهم المعوزين في ثقة قوية بأن هؤلاء سيبذرون أموالهم في المستقبل. وراح يفكر بهذا الشكل: «أفلا يمكن أن يكون أحد الأجداد، في هذه الحالة أيضاً، قد فكر في أن يترك لحفيده هدية، فأخفاها في إطار هذه الصورة العائلية». وأخذه الهوس الرومانسي ففكر حتى في إمكان أن تكون للأمر صلة خفية بما كان القدر يخبئ له، وأن يكون لوجود الصورة صلة بوجوده هو، وأن شراءه لها بحد ذاته يمكن أن يكون قسمة كُتبت له؟ وأخذ يتفحص إطار الصورة بفضول. في أحد جانبيها تقعير صغير سُدّ بلوح بشكل ماهر لا يُلحظ، ولو لم تحدث يد الشرطي الثقيلة كسراً فيه لبقيت النقود بأمان إلى أبد الدهر. وعاد يتعجب، أثناء تفحصه للصورة، بهذا العمل الرفيع، وبرسم العينين الفذ. لم تعد العينان ترعبانه الآن، ومع ذلك فقد كان في كل مرة ينظر إليهما، يشعر بنفس ذلك الشعور المنفِّر اللا إرادي. قال لنفسه: «لا يهمني جد مَنْ أنت، سأضعك وراء الزجاج في كل الأحوال، وأصنع لك إطاراً ذهبياً». وعند ذاك ألقى يده على كومة الذهب أمامه، ووجب قلبه وجيباً شديداً من هذه الملامسة. وفكر، وهو يحدق بالقطع الذهبية: «ما أفعل بها؟ أنا الآن موفور الحال، على الأقل لثلاثة أعوام أستطيع أن أختلي في حجرتي وأعمل. عندي الآن ما أشتري به الأصباغ، والغذاء، والشاي، وعندي الآن ما أنفقه على المعيشة، وإيجار الشقة. الآن لن يعيقني أحد أو يضايقني سأشتري لنفسي مانيكاناً ممتازاً من جبس وأصيغ سيقاناً، وأنصب فينوس، وأشتري كرافيك عن أحسن اللوحات. وإذا ما عملت ثلاثة أعوام لنفسي دون استعجال، استطعت أن أصير رساماً مجيداً».

وعلى هذا النحو كان يتكلم في سره كما يوحي له عقله، ولكن صوتاً آخر كان يتردد في داخله أكثر سماعاً، وأبعد صدى. ولكن حين نظر مرة أخرى إلى الذهب لم يكن ذلك ما حدثته به سنة الاثنتان والعشرون وشبابه اللاهب. لقد كان في سلطانه الآن كل ما كان يرمقه من قبل بعينين حاسدتين، وكل ما يتشهاه من بعيد، بالعاً لعابه. آه، كم خفق فؤاده، ما إن راح يفكر في ذلك! أن يلبس بدلة فراك عصرية، ويفكر بعد صوم طويل، ويستأجر له شقة ممتازة، ويتردد في الحال على المسرح، على مقهى حلويات. وعلى غير ذلك. فاختطف النقود، وخرج إلى الشارع.

وأول ما فعله أن عرج على خياط، وكسى نفسه من رأسه إلى قدميه، وكالطفل راح يتملّى نفسه بلا انقطاع. واشترى عطوراً، وطيوباً، واستأجر، أول شقة ممتازة عثر عليها في شارع نيفسكي ذات مرايا، وزجاج نوافذها قطعة واحدة، واشترى نظارة يدوية غالية وقعت في يده على الرغم من أنه لم يكن في نيته أن يشتريها وبنفس الطريقة أيضاً اشترى حزمة ضخمة أكثر مما يحتاج إليه من أربطة العنق. وجعّد شعره عند حلاق، واكترى عربة مرتين يجوب المدينة، دون أي داعٍ، وأكل ما لا حساب له من الحلوى في مقهى للحلويات، وذهب إلى مطعم فرنسي كان حتى ذلك الحين يسمع عنه إشاعات غامضة، كما لو عن دولة الصين. وتغدى هناك مرفوع الهامة متخوصراً، ملقياً على الآخرين نظرات فيها الكفاية من الأنفة، مصلحاً أمام المرآة خصلاته المجعّدة باستمرار. وشرب هناك زجاج شمبانيا كان أيضاً لا يعرفها، من قبل، إلا بالسماع. وأسكرته الخمرة بعض الشيء وخرج إلى الشارع بادئ الحيوية، خفيف الحركة، لا تسعه الأرض، كما يقول المثل الروسي. سار على الرصيف معتداً، يوجه نظارته اليدوية إلى الجميع. وعلى الجسر لحظ أستاذه السابق،

فتجـاوزه بسرعـة، وكأنمـا لم يلحظـه إطلاقاً حتـى أن هـذا الأستاذ انصعـق، ووقف على الجسر طويلاً، لا يتحـرك، وقد ارتسمت على وجهه علامة الاستفهام.

في ذلك المساء نقلت كل أشيائه وما يملك من حاملات اللوحات وجنفاص ولوحـات إلى الشقة الممتـازة. وضع أحسـن ما لديه في أماكـن بارزة، وألقى الأسـوأ في ركن، وراح يـذرع الغرفة الرائعة، ناظـراً في المرايـا بلا انقطـاع. وانبعثت في نفسه رغبـة قاهرة في أن يقتنص المجد من ذيله على الفور، ويظهر نفسه للعالم. وصار يتخيل الهتافـات بالفعـل: «تشارتكـوف، تشارتكوف! هـل رأيتم لوحة تشارتكوف؟ أية فرشاة سريعة لـدى تشارتكوف! أية موهبة عظيمة لدى تشارتكوف!»، فكان يـذرع غرفته ببهجة غامرة، ويسرح مع الخيـال. وفي اليـوم التالي أخذ عشـرة روبلات ذهبيـة، وقصد ناشر صحيفـة واسعة الانتشار، طالباً مساعـدة أريحية. استقبله الصحفي ببشاشـة، مخاطبـاً إياه رأسـاً «بسعادة المحترم» شاداً علـى كلتا يديه، سائـلاً بالتفصيـل عـن اسمه الكامل ومحـل إقامتـه، وفي اليوم التالي ظهـرت في الصحيفة بعد إعلان عن شموع مبتكـرة جديدة، مقالة تحت عنوان: «حـول مواهب تشارتكوف الفذة» جاء فيها: «نسرع لنزف إلى سـكان العاصمة المتنورين تحفة رائعة مـن كل النواحي إذا صح القـول. إن الجميع متفقون على أن لدينـا الكثير من السحنات الفائقة الروعـة والوجوه الفائقة الوسامة، ولكـن لم تكن لدينا حتى الآن الوسيلة إلى نقلها إلى الجنفاص الخلاق لتبقى إرثاً للخَلف. ولكن هـذه النقيصة قد سُدت الآن تماماً. فقـد ظهر الرسام الذي يجمع في نفسه كل ما هـو لازم. والآن تستطيع الحسناء أن تكون على ثقة من أنها ستُرسم بكل ما لجمالها من بهاء، خفيفة، رقيقة، ساحرة، رائعة، كالفراشـات المرفرفة بـين زهور الربيع. وسـيرى رب الأسرة المبجل

نفسه محاطـاً بأفراد أسرتـه. والتاجر والعسكـري والمواطن، ورجل الدولة وكل إنسان سيمضي في مضماره باندفاعة جديدة، فأسرعوا، أسرعوا، وزوروا الرسـام غِبَّ نزهتكم، زيارتكم لصديق، لابنة عم، لمتجر فخم. أسرعوا إليه، حيثما كنتم. فإن مرسم الرسام الرائع (شارن نيفسكي رقم كذا) يضم الصور التي أبدعتها ريشته اللائقة بريشة فان ديك وتيتسيان وأمثالهمـا. إن المرء ليحار بمَ يدهش: بالأمانة والشبه بالأصول، أم ببهاء الريشة الفريد ونضارتها. طوبى لك، أيها الرسام! لقـد وقعت يدك علـى الورقة الرابحة في اليانصيـب. فيفا، يا أندريه بتروفيتشـ (الظاهـر أن الصحفـي كان يحب رفع الكلفـة)! اشتهر وأشهرنـا معك. فنحن نعـرف قيمتك. وسيكون مكافـأة لك إقبال الجمهور ومعه المال الذي سيعترض عليه بعض إخواننا الصحفيين».

قـرأ الرسام هـذا الإعلان برضى خفـي. وتألق وجهـه، صاروا يتحدثون عنـه في الصحافة. وهذا خبر سار لـه. أعاد قراءة السطور عدة مرات. وأشبعت غروره كثيراً مقارنته بفان ديك وتيتسيان. كما أن عبـارة «فيفا، يا أندريه بتروفيتش!» أعجبته كثيراً أيضاً. يخاطبونه باسمـه الكامل في الصحافة، وهو شـرف لم يعرفه من قبل قط. أخذ يـذرع الغرفة بسرعة، وينفش شعـره. كان يجلس على المقاعد تارة، ويثب منها تارة أخرى، ليقعد على الأريكة، متصوراً باستمرار كيف سيستقبل الزائرين والزائـرات، ويقترب من جنفاصة، ويرفع فرشاته بحركة سريعة، محاولاً أن يطوّع يده لحركات رشيقة. وفي اليوم التالي دق الجرسـ على بابه، فهرع ليفتحه. دخلت سيدة يتقدمها خادم في معطف خاص بالخدم مبطن بالفراء. ودخلت مع السيدة فتاة شابة في الثامنة عشرة، هي ابنتها، قالت السيدة:

ـ هل أنـت مسيو تشارتكوف؟

انحنى الرسام محيياً.

ـ كم يكتبون عنك في الصحف. يقولون أن صورك تفوق الكمال قالت السيدة ذلك، ووضعت نظارتها اليدوية على عينيها، وأجالت بصرها بسرعة في الجدران التي لم يعلق عليها شيء ولكن أين صورك؟

قال الرسام بشيء من الارتباك:

ـ ينقلونها. منذ حين فقط انتقلت أنا إلى هذه الشقة. واللوحات ما تزال الآن في الطريق.. لم تصل بعد.

ـ هل كنت في إيطاليا؟ قالت السيدة موجهة نظارتها اليدوية إليه، وهي لم تجد شيئاً آخر يمكن أن توجهها إليه.

ـ لا، لم أكن، ولكن أردت... على العموم، أجلت ذلك الآن... ها هنا مقاعد، هل تعبت؟...

ـ شكراً، جلست طويلاً في المركبة. ها أنا أخيراً أرى عملك! قالت السيدة، وقد هرعت إلى الجدار المقابل، ووجهت نظارتها اليدوية إلى تخطيطاته، ورسومه الأولية، ومناظره ولوحاته المركونة على الأرض. C'est charmant! Lise, Lise, venez ici [1] الغرف رُسمت على أسلوب تينر. انظري: بلا ترتيب، طاولة عليها تمثال نصفي، يد، لوحة ألوان، وهذا غبار انظري كيف رُسم الغبار! C'est charmant. وفي لوحة أخرى امرأة تغسل وجهها. Quelle jolie figure[2]! آه، ريفاوي[3]! Lise, Lise ريفاوي روسي في قميص! انظري أي ريفاوي! يعني أنت لا ترسم صور الأشخاص فقط؟

ـ أوه، هذا لا شيء... مجرد عبث.... تخطيطات.

---

(١) هذا فاتن. ليزا، ليزا، تعالي هنا. (بالفرنسية في الأصل).

(٢) أي قوام جميل! (بالفرنسية في الأصل).

(٣) صيغة تحبب وتصغير من «ريفي». المترجم.

ـ قـل لي ما هو رأيك في رسامي الصور اليـوم؟ أليس صحيحاً لا يوجـد الآن مثل تيتسيان؟ لا توجد تلـك القوة في التلوين، لا توجد تلك... خسارة إنني لا أستطيع أن أعبّر لك بالروسية (كانت السيدة محبة للرسم، وقد طافت بنظارتها اليدوية على كل معارض الصور في إيطاليا). على كل حال، مسيو نول... آه، ما أبدع رسومه! أية ريشة فريـدة له! حتى إنني أجد في وجوهه تعابـير أقوى مما لدى تيتسيان. هل تعرف مسيو نول؟

فسأل الرسام:

ـ مَنْ هو نول هذا؟

ـ مسيو نول، آه، أية موهبة! رسم لها صورة، حين كانت في بداية سنهـا الثالثة عشرة، عليك أن تزورنا مـن كل بد، ليزا، أريه ألبومك. الحقيقة أننا جئنا لتشرع برسم صورتها فوراً.

ـ بالطبع، أنا مستعد في هذه الدقيقة.

وفي لحظـة خاطفة قـرب حامل لوحات عليـه جنفاصة مفروشة مهيـأة للرسم، أمسك لوحة الألوان في يـده، وتفرس بعينيه في وجه الابنة الشاحب، ولو كان عارفاً بالطبيعة الإنسانية لقرأ فيه على الفور بداية الولع الصبوي بحفلات الرقص، بداية الوحشة والتشكي من طـول الوقت حتى موعـد الغداء، وبعد الغـداء، والرغبة في الركض أثنـاء النزهة في الفستان الجديد، والعلائم المرهقة لما تفرضه الأم على ابنتهـا من اجتهاد عقيـم في الفنون المختلفة بغيـة السمو في روحها ومشاعرهـا. ولكـن الرسام لم يـر في هذا الوجه الصغـير الناعم غير ما يغـري الفرشاة من شفافيـة في الجسد كشفافية الخـزف الصيني، والاسترخاء الخفيف الجذاب، والجيد الأهيف الناصع، ورشاقة القوام الأرستقراطية. وتهيأ مسبقاً في إظهار تفوقه وخفة وألق فرشاته التي لم تكـن حتى ذلك الحين ترسم إلا الملامح القاسية للموديلات الغليظة،

والتماثيـل القديمة الصارمة، ونسخاً عن أعمال الكلاسيكيين، وكان يتصور في ذهنه كيف سيطلع من بين يديه هذا الوجه الصغير الرقيق.

قالت السيدة وبشيء من التأثر أيضاً ظهر على وجهها:

ـ كنـت أود... هل تدري... هـي الآن في ثوب... بصراحة، ما كنت أريد أن تكون في هذا الثوب الذي تعودنا عليه كثيراً، كنت أود أن ترسـم، وهي في ثياب بسيطة، وأن تكون جالسة في ظل خضرة، في منظـر حقـل يلوح فيه من بعيد قطيع أو دغـل... بحيث لا يفطن الرائـي إلى أنها ذاهبة إلى حفلة راقصـة أم إلى أمسية عصرية. حفلاتنا الراقصـة، بصراحة، تقتل الروح، وتفتك ببقايا المشاعر.... ببساطة، أريد المزيد من البساطة.

أواه! كان وجهـا الأم والابنة كلاهـما ينطقـان بأن الاثنتين أدمنتا علـى الرقص في الحفلات الراقصة حتى صارت كلتاهما شمعيتين أو ما أشبه.

تهيـأ تشارتكوف للعمل، وأجلـس النموذج، وتمثل كل ذلك في ذهنـه قليلاً، وأدار الفرشاة في الهـواء، متصوراً النقاط ذهنياً، وقلّص إحـدى عينيه بعض الشيء، وتراجـع إلى الوراء، ونظر /ن بعيد، وفي ساعـة واحـدة بدأ وفـرغ من التخطيـط. ورضي به، فأخـذ يرسم، وشـدّه العمل. فنسي كل الشيء، نسي حتى كونه في حضرة سيدتين أرستقراطيتـين، بل وأخذ يبـدي أحياناً بعض الحـركات التي يبديها الرسامـون، وتمتـم بأصـوات مختلفة مسموعـة، مترنمـاً أحياناً، كما يحدث لرسام منغمر في عمله بكل كيانه. بحركة واحدة من فرشاته، وبدون أية كلفة، أجبر النموذج على أن ترفع رأسها، وقد أخذت في آخر الأمر تتململ بشدة، وتعبر عن تعبها الشديد.

قالت السيدة:

- يكفي، هذا يكفي للمرة الأولى.

فقال الرسام النشوان:

- دقائق أخرى.

- لا، حان الوقت! Lise الساعة الثالثة! قالت السيدة، وهي تخرج ساعة صغيرة معلقة بسلسلة ذهبية في نطاقها، وصاحت:

- آه، تأخرنا كثيراً!.

- لحظة فقط قال تشارتكوف بصوت طفل ساذج متضرع. ولكن السيدة لم تكن تبدو مستعدة في هذه المرة لتلبية حاجاته الفنية، ووعدت بدلاً من ذلك أن تمكث مدة أطول في مرة أخرى.

وفكر تشارتكوف مع نفسه: «هذا مزعج، على كل حال. بعد أن بدأت يدي لتوها بالاستجابة لي». وتذكر أن أحداً من موديلاته لم يقاطعه أو يوقفه، حين كان يعمل في مرسمه في جزيرة فاسيليفسكي. كان نيكيتا يجلس في مكان واحد لا يريم، ويتركه يرسم قدر ما يشتهي. بل كان يغفو وهو في الوضع الذي أُمر أن يكون فيه. وضع الرسام فرشاته ولوحة ألوانه على الكرسي غير مرتاح، وتوقف متكدراً أمام الجنفاصة، والإطراء الذي قالته السيدة الراقية أيقظه من انسراحه. اندفع مسرعاً نحو الباب ليرافقهما، وعلى الدرج تلقى دعوة للزيارة، والمجيء في الأسبوع القادم للغداء، فعاد إلى غرفته بادي المرح. لقد سحرته السيدة الأرستقراطية تماماً. كان، حتى هذا الحين، ينظر إلى مثلها من المخلوقات ككائنات منيعة لم تخلق إلا لتنقل على مركبات فاخرة، بصحبة خدم في بزات الخدم، وحوذية أنيقي اللباس، لتلقي نظرة عليه وهو يمشي في معطفه البائس. وإذا بواحدة من هذه المخلوقات تدخل عليه غرفته، وهاهو يرسم صورة، ويُدعى إلى غداء في بيت أرستقراطي. استولى عليه ارتياح غير اعتيادي. كان

نشـوان تماماً، فكافـأ نفسه على ذلك بغداء ممتـاز، وبحضور عرض مسائي، ومرة أخرى راح يجوب المدينة في عربة، بلا أي داعٍ.

طوال تلك الأيـام لم يخطر العمل الاعتيـادي على باله قط. فقد كان يتهيـأ فقط، وينتظر اللحظة التي يـرن فيها جرس الباب. وأخيراً جاءت السيدة الأرستقراطية مع ابنتهـا الشاحبة. دعاهما للجلوس. وقـرّب الجنفاصة، بخفة في هذه المرة، منتحلاً آداب السلوك الراقية، وأخـذ يرسم. وساعده كثيراً النهار المشمس والإضاءة الجيدة. ورأى في نموذجـه الرقيق الماثل أمامه الكثير مما لو التقـط ونُقل إلى القماشة لـكان من الممكن أن يعطي للصورة قيمة رفيعة. رأى أن في الإمكان القيـام بشيء متفرد، فيما لو نفذ كل شـيء بذلك الكمال الذي كان الآن النموذج يتبدى له فيه. بل أن قلبه أخذ يضطرب قليلاً، حين شعر بأنـه يعبر عما لم يلحظه الآخرون بعد. واستغرقه العمل كلياً، وانغمر في الفرشـاة، وقـد نسي ثانية أصـل نموذجـه الأرستقراطي. ورأى، وهو محتبس الأنفاس، أن الملامح الرقيقة وهذا الجسم الشفاف تقريباً لفتـاة في السابعـة عشرة تستجيب ليده. التقـط كل مسحة من لون، والصفـرة الخفيفـة، والازرقاق الـذي لا يكاد يُلحظ تحـت العينين، وحـين تهيأ لأن يلتقـط حتى تلك البثرة الصغيرة فـوق الجبين، سمع فجـأة صوت الأم فوق رأسـه: «آه، لماذا هذا؟ لا حاجة لذلك كانت الأم تقـول عنـدك أيضـاً... هنا، في بعضـ المواضـع... كأنما هناك صفرة، وهنا، بقع داكنة تماماً». شرع الرسام يشرح لها أن لهذه البقع الصغيرة والصفـرة تأثيرها الجيد، وأنها تشكل تلاوين الوجه اللطيفة والناعمـة. ولكنه رُدّ بأنها لا تشكل أي تلاوين، وليس لها أي تأثير، وأن هـذا ما يتوهمه لا غير. قال الرسام بطيبة نفس: «ولكن اسمحي لي هنـا، في موضع واحد فقط، أن أمرر اللون الأصفر قليلاً». ولكن حتى هذا لم يُسمح به. وأوضح له أن Lise اليوم فقط متعكرة المزاج

قليـلاً، وأن الصفرة لا تعتريها أبداً، والوجـه يبهر الناس بنضارة لونه بشـكل خاص. وأخـذ الرسام يسوي بحزن ما أجبرتـه فرشاته على أن يضعـه في الصـورة. واختفـى الكثـير من الملامح غـير الملحوظة تقريبـاً، واختفى معه جزء من الشبه بالأصـل. وأخذ يعطي لها ذلك التلويـن العمومي الذي يُرسم عن ظهر قلـب، ويحوّل حتى الوجوه المرسومة من الطبيعة إلى تلـك الوجوه البا ردة المثالية التي تشاهد في البرامـج الدراسية. ولكن السيدة كانت راضيـة من أن التلوين الذي كدّرهـا أُزيل تماماً. سوى أنها أبـدت دهشتها من أن العمل يستغرق وقتاً طويـلاً، وأضافت أنها سمعت مَنْ يزعم بأنه، أي الرسام، يفرغ مـن رسم الصورة تماماً في جلستين فقـط. و لم يستطع الرسام أن يرد على ذلك بشيء. نهضت السيدتان، وتهيئتا للخروج. وضع الرسام الفرشـاة، وصحبهما حتى الباب، وبعد ذلك وقف منفعلاً في مكان واحـد، أمام الصـورة، ولوقت طويـل. نظر إليهـا ببلاهة، وخلال ذلك طافـت في ذهنه تلك الملامح الأنثوية الرقيقـة، وتلك التلاوين واللمسـات الخفيفة، التـي التقطها، وقضت عليهـا فرشات من بعد بـلا رحمة.. وغصت نفسه بما التقطه، فنحى الصورة جانباً، وبحث عـن رأس «بسيشـه» المهجور في مكان ما، والـذي كان قد خططه على قماشة ذات مرة، منذ زمن بعيد. كان وجهاً رسم ببراعة، ولكنه مثالي تماماً، بـارد، ليس فيه غير الملامح العامـة، و لم يكتسب الجسد الحـي. ولما لم يكن له شيء يفعله الآن أخذ يعالجه، مضفياً عليه كل ما سنح لـه أن يلحظه من وجه الزائرة الأرستقراطية. واستقرت الملامح والتلاويـن والألأوان التـي كان قد التقطها، بذلـك الشكل المصفًى الـذي تظهر فيه، حين يكون الرسام وقـد تشبع بالنظر إلى النموذج، قد انفصـل عنه، لينتج ما يماثله من إبداعـه. وأخذت الحياة تنبث في «بسيشه»، وأخذت الفكرة في بدء إطلالتها تتجسد، شيئاً فشيئاً، في

جسد منظور. وطراز وجه الفتاة الأرستقراطية الشابة ينتقل، لا إرادياً إلى «بسيشــه»، وبسبب ذلك صارت لها سمة فريدة تعطيها الحق في أن تسمى عملاً أصيلاً حقاً. وبدا وكأنه استثمر كل ما مدّه به الأصل جــزءاً جزءاً وبكليتــه فانغمس في عمله تماماً. وفي مــدى عدة أيام لم يشتغــل إلا به. وعندما زارته السيدتان وجدتاه وراء عمله هذا. حتى لم يلحق أن يرفع اللوحة عن المحمل. أصدرت كلتا السيدتين صيحة اندهاش فرحة، وضربتا كفاً بكف.

- Lise، Lise! آه، مــا أكــثر الشبــه! Superbe, superbe[1].
لطيف أنك جعلتها في ثياب إغريقية، آه، أية مفاجأة!.

و لم يعرف الرسام كيف ينتزع السيدتين من ضلالهما الهانئ. قال بهدوء خجلاً منكس الرأس:

- هذه بسيشه.

- علــى هيئــة بسيشــه؟ C'est charmant! قالــت الأم مبتسمة، وابتسمــت الابنة أيضاً. أليــس صحيحاً يا ليزا أن من الأنسب لك أن ترسمــي على هيئــة بسيشــه؟ Quelle idée délicieuse![2] ولكن ياله من عمــل! إنه كوردج. بصراحة كنت قد قرأت وسمعت عنك، ولكــن لم أكن أعرف أن لك مثل هــذه الموهبة. أنا الأخرى يجب أن ترسم لي صورة من كل بد.

والظاهر أن السيدة أيضاً كانت تريد أن تُرسم على هيئة بسيشه.

وفكــر الرسام مــع نفسه: «ماذا علــيَّ أن أفعل معهمــا؟ إذا كانتا تريدان ذلك، فلتكن بسيشه ما تريدانه». وقال بصوت مسموع:

(١) رائع، رائع (بالفرنسية في الأصل).
(٢) أية فكرة لذيذة! (بالفرنسية في الأصل).

ـ تحملي الجلوس دقائق أخرى، لأضع بعض اللمسات.

ـ آه، أخشى أن تكون.... الصورة الآن تشبهها تماماً.

ولكن الرسام فهم أنهما تتخوفان من الصفرة، فطمئنهما قائلاً إنه لا يريد إلا أن يعطي للعينين المزيد من اللمعان والتعبير. وفي الحق كان خجلاً جداً، ويريد على الأقل أن يعطي للصورة شبهاً أكثر قليلاً بالنموذج، حتى لا يتهمه أحد بانعدام الحياء كلياً. وبالفعل أخذت أخيراً ملامح الفتاة الشاحبة تبرز من محيا بسيشه بوضوح أكثر.

ـ كفاية!

قالت الأم، وقد بدأت تخاف أن يكون الشبه كبيراً بشكل صارخ، في آخر المطاف.

وكوفئ الرسام بكل شيء: بابتسامة، ونقود، وثناء، ومصافحة ودية، ودعوة إلى الغداء. وباختصار، حصل على ألف جائزة مغرية. وأثارت الصورة ضجة في المدينة. عرضتها السيدة على صديقاتها، وانبهر الجميع بالمهارة التي استطاع الرسام بها أن يحتفظ بالشبه، ويضفي الجمال على النموذج فضلاً عن ذلك.

والملاحظة الأخيرة لم تُقل، بالطبع، دون مسحة خفيفة من الحسد ظهرت على الوجوه. وفجأة أثقل الرسام بالطلبات. وبدا وكأن أهل المدينة بأسرهم يريدون أن يرسمهم. وكان جرس الباب يدق كل دقيقة. وكان يمكن أن يكون هذا، من ناحية، مفيداً، إذ يوفر للرسام مراناً مستديماً على رسم الوجوه العديدة المختلفة السمات. ولكن، من سوء الحظ، أن أصحاب الطلبات كانوا جميعاً أناساً ممن يصعب إرضاؤهم، أناساً عجولين، مشغولين، أو من الطبقات الراقية، أي أكثر انشغالاً من أي صنف آخر، ولهذا كانوا لهوفين إلى أقصى حد. وكان الجميع يطالبون بأن تكون الصورة جيدة وسريعة. وأدرك

الرسام أن من المستحيل تماماً أن يوفي العمل حقه، وأن عليه أن يستعيض عن كل شيء بالبراعة وعجالة الفرشاة السريعة وأن يمسك فقط بالسمات العامة الكلية، والصفة العامة ولا يتعمق بفرشاته في التفاصيل الدقيقة. وبعبارة واحدة كان من المستحيل كلياً تتبع المرسوم بدقائقه. وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نضيف أن جلّ الذين رسمهم كانت لهم متطلبات أخرى في أشياء متنوعة. فقد كانت السيدات يطالبن بأن تعطى الأولوية في رسم صورهن، للنفسية والطبع، والتغاضي أحياناً عن بقية الأشياء كلياً، وصقل كل النتوءات، وتخفيف جميع العيوب، بل وحتى تحاشيها كلياً إذا كان هذا ممكناً. وباختصار أن يحذب الوجه النظر، إن لم يكن العشق كلياً. وبنتيجة ذلك كن يجلسن ليرسمن، يضفين على وجوههن أحياناً تعابير كانت تذهل الرسام. فهذه تحاول أن ترسم على وجهها السوداوية، وأخرى الانسراح في الأحلام، والثالثة كانت تريد أن تصغر فمها بكل صورة، فتطبقه حتى كان يتحول أخيراً إلى نقطة ليست أكبر من رأس الدبوس. وعلى الرغم من كل ذلك كن يطالبنه بالشبه وبالعفوية الطبيعية. كما أن الرجال لم يكونوا أقل مطلباً من السيدات أبداً. كان أحدهم يريد أن يرسم في التفاتة رأس قوية طافحة في الحيوية، والآخر بعينين ملهمتين مرفوعتين إلى السماء، وطالب ضابط حرس بأن يطل مارس إله الحرب من عينيه من كل بد. وألحّ موظف مدني على أن يكون وجهه على أكبر قدر من الاستقامة والنبل، وأن تكون يده متكئة على كتاب، كتب عليه بحروف واضحة: «كان في صف الحقيقة دائماً».

في البداية كانت هذه المطالب تغرقه بالعرق. فقد كان يجب أن يستوعب كل ذلك ويتروى فيه، وفي الوقت ذاته كانت المدد المحددة لإنهاء الرسم قصيرة جداً. وأخيراً توصل إلى كبد الموضوع،

فلـم يجد صعوبة البتة، وكان يفهم مـن كلمتين أو ثلاث بأي صورة كان صاحـب الطلب يريد أن يُرسم. فمن أراد أن يكون مارس حشر مارس في وجهـه، ومن جاهد ليتشبه بايرون جعله يقعد في وضع بايرون ولفتتـه، والتي أحبت أن تكون كورينـا أو اوندينا أو أسبازيا مـن السيدات وافق على كل شيء مطواعـاً، وأضاف من عنده لكل واحـدة ما يشبع النفس مـن القسامة التي لن تضر، كما هو معروف، وبسببهـا يُغفر للرسام أحياناً تجاوزه للشبه. وسرعان ما أخذ هو نفسه يندهش من سرعة فرشاتـه العجيبة وخفتها. وطبيعـي أن المرسومين كانوا في غاية الانشراح، حتى صاروا ينعتونه بالعبقرية.

وصـار تشارتكوف رساماً عصرياً مـن كل النواحي وأخذ يتردد على موائد الغداءن ويصطحب السيدات إلى معارض الصور، وحتى للنزهـة، ويتأنـق، ويؤكد علناً أن الفنان يجـب أن ينتمي إلى المجتمع الراقي، ويهتـم بمكانته. وأن فنانينا يلبسون، كمـا يلبس الأساكفة[1] ولا يحسنون التصـرف، ولا يراعون آداب السلوك الرفيعة، وليست لهـم أية ثقافة. وفي بيته ومرسمه حافظ على النظافة والنظام في أعلى درجة واتخذ لنفسـه خادمين فاخرين، وتلامـذة أنيقين، وكان يغير بدلاتـه عدة مرات في اليـوم على مختلف ساعـات الصباح، ويجعد شعره، ويتمرن على تحسين الطرائق المختلفة التي يستقبل بها الزوار، ويهتـم بتزيين هيئته بكل الوسائل الممكنة ليـترك بها أثراً لطيفاً لدى السيـدات. وباختصار سرعـان ما صار من غـير الممكن التعرف في شخصه على ذلك الرسام المتواضع الذي كان يعمل مغموراً في مسكنه البائس في جزيـرة فاسيليفسكي. وصار يصرح تصريحات حادة عن الفنانـين والفن. فقد كان يؤكد أن مكرمـات كثيرة للغاية نسبت إلى

(١) جمع إسكاف: صانع الأحذية. المعرب.

الفنانين القدامى، وأنهم جميعاً إلى عهد روفائيل لم يرسموا شخوصاً حيــة، بل أشكالاً نحيفــة منحولة، وأن الفكــرة الزاعمة بأن في هذه الأشــكال قدسية لا وجود لها إلا في مخيلــة المشاهد، وحتى روفائيل نفسه لم تكن كل رسومه جيدة، والكثير من أعماله احتفظت بالشهرة بالأسطــورة لا غير، وأن ميــكل أنجلو متبجح، لأنــه كان يريد إلا أن يتباهى بمعرفتــه بالتشريح، وأنه لا يملك أية طرافة وأن البهاء الحقيقي، وقــوة الريشة والألوان، إذا كانت موجودة فيجب البحث عنها الآن فقط، في عصرنا الراهن. وطبيعي أن يتطرق تلقائياً إلى نفسه.

كان يقول:

- أنــا لا أفهم عناء الآخرين في الجلوســ و الانكباب على العمل. إن الرجل الذي ينكب عدة شهور على لوحة ليس فناناً في رأيي، بل كادح. لا أصدق بأنه يملك موهبة. العبقرية تبدع باقتدار وسرعة. ها أنذا مثــلاً كان يقول مخاطباً الزوار في العادة رسمت هذه الصورة في يومين، وهذا الرأس في يوم واحد، وهذا في بضع ساعات، وهذا في أكــثر من ساعة بقليل. أنــا.... أنا بصراحة لا أعتبر فنــاً ما ينجز ببطء شديد خطاً في خط. هذا حرفة، وليس فناً.

كان يتحــدث إلى زواره بهــذا الشــكل، وكان الــزوار يدهشون باقتــدار وسرعة فرشاتــه، بل وتند منهــم آهات الإعجــاب، بعد أن يسمعــوا بالسرعة التي أنتجت فيها صورهم، وفيما بعد كان أحدهم يقــول للآخر: «هذه موهبة، موهبــة حقيقية! انظروا كيف يتحدث، كيف تتألق عيناه.

Il y a quelque chose d›extraordinaire dans toute sa figure![1]

---

(١) هناك شيء غير اعتيادي في كل مظهره (بالفرنسية في الأصل).

وكان الرسام ينتشي لسماع هذه الشائعات عنه. وحين كانت المجلات تنشر ثناء عليه كان يفرح كالطفل، على الرغم من أنه اشترى هذا الثناء بفلوسه. وكان يوزع هذا المطبوع في كل مكان، ويريه إلى معارفه وأصدقائه، وكأنما لا يتقصد ذلك، وكان هذا يسليه بسذاجة وبساطة نفس تامتين. وارتفع صيته، وكانت الأعمال والطلبات تزداد، حتى صار يضجر من تكرار الصور والوجوه التي صار يرسم أوضاعها ولفتاتها بحكم التعود. فكان يرسمها دونما رغبة كبيرة، محاولاً أن يخطط الرأس وحده بطريقة ما، ويعطي تلامذته ليتموا الباقي. في الماضي كان، على أية حال، يسعى إلى أن يعطي للنموذج وضعاً جديداً، ويبهر بالضلاعة والتأثير. والآن حتى هذا صار مضجراً له. وكان فكره قد تعب من الابتكار والتروي، فصار لا يطيقهما، كما لم يكن له وقت يصرفه على ذلك. والحياة السارحة، والمجتمع الذي كان يحاول أن يقوم بدور الرجل الراقي فيه أبعداه كثيراً عن العمل والأفكار. وبردت فرشاته وأصابها الكلال، وتقوقع، دون أن يشعر في أشكال رتيبة محدودة مستهلكة منذ زمان. والوجوه الرتيبة الباردة والمعتنى بها أبداً، والمغلقة، كما يمكن أن يقال، للموظفين عسكريين ومدنيين، ضيّقت مجال الحرية للفرشاة، فنسيت رسم الثياب الرائعة، والحركات القوية، والصبوات. ناهيك عن الصور الجماعية، والدراما الفنية، وحبكتها الرفيعة. فلم تكن أمامه غير السترات الرسمية، ومشدات الخصر النسوية، وبدلات الفراك التي يشعر الرسام بالبرودة أمامها، ويتلاشى أي خيال. واختفت من أعماله هذه حتى أبسط القيم، ومع ذلك ظلت تحظى بالشهرة، على الرغم من أن العارفين الحقيقيين والرسامين كانوا، إذا نظروا إلى أعماله الأخيرة، اكتفوا بهز أكتافهم. وبعض الذين كانوا يعرفون تشارتكوف من قبل لم يستطيعوا أن يفهموا كيف أمكن أن

تختفـي الموهبة التي لاحت مخايلها عليه ساطعة منذ البداية، وحاولوا دون جـدوى أن يحدسوا كيف يمكـن أن تخمد المَلَكة في إنسان بلغ لتوه أعلى شأو من تطور قواه كلها.

ولكن الرسام النشـوان لم يكن يسمع هذه الأقوال. وكان قد بدأ يصـل إلى عهد رصانة العقل والعمـر، وصار يسمن، ويترهل بشكل ملحـوظ. وأخذ يقرأ في الصحف والمجـلات نعوتاً من مثل «أندريه بيتروفيتشنـا المحـترم». و «أندريـه بيتروفيتشنـا المكـرّم». وصاروا يعرضون عليه مناصب محترمة في الوظيفة، ويدعونه إلى الامتحانات واللجان. وشرع، كما هو دائماً حين يبلغ الفنان سن الكهولة، يتشدد في التـزام جانب رافائيل، والرسامين القدامى، لا لأنه اقتنع تماماً بعلو باعهـم في الفـن، بل ليفند بهـم الرسامين الشبـان. وأخذ، كما هي العـادة عند جميع الذين بلغوا هذا العمر، يعـيِّر الشبان قاطبة بانعدام الخلـق، وسوء السريرة. وصار يؤمن بأن كل ما في الدنيا يتم ببساطة، ولا وجـود للوحي من الأعلى، وأن كل شيء يجب أن يخضع حتماً لنظام واحد صارم من الدقـة والرتابة. وباختصار بلغت حياته السن التـي يأخذ فيها بالتقلص كل ما يدفع الإنسان إلى الطموح، فلا يصل صـوت الوتر الجبار إلى النفس إلا ضعيفـاً واهناً، دون أن يهز القلب برناتـه النافـذة، السـن التي تكـف ملامسة الجمال فيهـا عن تحويل الطاقـات العـذراء إلى نار ولهب، ولكن المشاعـر الهامدة كلها تظل أكـثر استجابة لرنين الذهـب، وأكـثر التفاتاً إلى موسيقاه المغرية، حتى تتيـح لهذه الموسيقى شيئاً فشيئـاً أن تنميه كلياً دون أن يشعر. والمجد لا يمكـن أن يمـد بالمتعة مَنْ سرقـه، ومَنْ لا جدارة له بـه. فهو لا يهز إلا مشاعـر الذين يستحقونه ولهذا اتجهـت كل مشاعر تشارتكوف وتطلعاتـه إلى الذهـب. وصار الذهـب هوسه، ومثاله، ورعبه، ولذته، وغايتـه. وازدادت ضباب النقـود في الصناديق، وأخذ كأي شخص

يسقـط في حبائل هذه الهوايـة الفظيعة، يصير ملـولاً، لا يتطامن إلا للذهب، بخيلاً بـلا داع، وكانز أموال مستهتراً، وأوشك أن يتحول إلى واحـد مـن تلك المخلوقـات الغريبـة المتوافرة في عالمنـا المعدوم الإحساس والتي ينظـر إليها فزعاً الإنسان المفعـم حياة وعاطفة، إذ تبـدو له توابيت حجريـة متحركة في صدورها قلـوب ميتة. ولكن حدثاً واحداً هزّه بقوة، وأيقظ كل كيانه.

في أحد الأيـام رأى على طاولته رسالة صغيرة رجته فيها أكاديمية الفنـون، كعضـو مبجل فيهـا، أن يأتـي ليدلي برأيـه في عمل جديد أرسل من إيطاليـا صنعه رسام روسي كان يطور مهارته هناك. وكان هـذا الرسام أحد رفاقـه السابقين كان عمره مولعـاً بالفن منذ نعومة أظفـاره، يغرق فيه بكل روحـه بقلب الكادح الملتهـب، وقد هجر أصدقـاءه وأقاربـه، وعاداته الأليفة، وأسـرع إلى حيث يزدهر مشتل الفنـون العظيم في ظل سماوات رائعـة، إلى روما المدهشة التي يدق قلـب الرسام الملتهب بقوة وبكل طاقته لـدى ذكرى اسمها. وهناك انعكـف على العمل، كالناسك، وانقطـع إلى الدراسة لا يصرفه شيء عنهـا. و لم يكن يهمه مـاذا كانوا يقولون عن طبعـه، وعن جهله في مخاطبـة الناس، وعدم مراعاتـه للعادات الراقية، وعـن مهانته للقب الرسام بضآلة ملبسه وهندامه. و لم يكن يهمه أن يغضب عليه زملاؤه أو لا يغضبـوا، فقـد أهمل كل شـيء، ووهب كل شـيء للفن. كان يـتردد على معارض الصـور دون كلال، ولساعات طوال يقف أمام أعمـال الأساتذة العظـام ملتقطاً ومتتبعاً الفرشـاة العجيبة. و لم يكن يتـم شيئاً دون أن يدقق عمله عدة مـرات مع أولئك المعلمين العظام، ويستخلـص من أعمالهم نصيحة صامتـة وبليغة له. و لم يكن يشترك في المناظـرات والنقاشـات الصاخبـة، و لم يكن ضـد المحافظين في الرسم ولا معهم. فقد كان يعطي لكل شيء ما يستحقه تماماً، مستقياً مـن كل شيء ماهو جميل فيه فقط، وأخيراً جعل لنفسه معلماً واحداً

هـو رافائيل الرائع. ومثـل شاعر مبدع عظيم قـرأ العديد من مختلف الإبداعات الزاهرة با لكثير من الروائع والبدائع العظيمة، اصطفى له أخـيراً «ألياذة» هوميروس كتاباً ملازمـاً له، وقد اكتشف أنه يحتوي كل ما يلذ للنفس، ويعبر عن كل شيء في غاية الكمال والعمق ولكنه أخـذ من مدرسته فكـرة الإبـداع العظيمة، وجمـال الفكر الجبار، والسحر الرفيع للريشة الملهمة.

عندمـا دخل تشارتكـوف القاعة وجد حشداً هائـلاً من الزوار المجتمعين أمام اللوحة. كان السكـوت العميق الذي نادراً ما يكون بـين متذوقي الفن، حين يحتشدون بكثرة، يسود المكان كله في هذه المـرة، أسرع ليتخذ سمة العارف المهيبة، واقترب من اللوحة، ولكن، يا إلهي، علام وقعت عيناه!

كانت لوحـة الرسام تقف أمامه نقية، طاهـرة، جميلة كعروس، وتسمق فـوق كل شيء بتواضع وفتنة، وبـراءة وبساطة، كالعبقرية. وبـدا وكأن شخوصهـا السماوية الذاهلة من كـثرة الإبصار المصوبة نحوها، قد أسبلت رموشها الجميلة حياء. وكان خبراء الفن يتفحصون عمل هذه الريشة الجديدة الفريدة يغمرها شعور دهشة لا إرادية. كان كل شيء يبدو وقد توحد فيها في كل واحد: دراسة رافائيل المنعكسة في نبل الأوضاع الرفيع، ودراسة كوريدجيو المتبدية في كمال الرسم التـام. ولكن أقوى ما قد ظهـر في الصورة هو موهبـة الإبداع التي كانـت قد تغلغلـت في روح الرسام نفسه. فينفذ حتـى إلى أصغر ما في اللوحـة من أشياء، وكان القانـون والطاقة الداخلية يتحكمان في كل شـيء. وانسيابية الخطـوط السبطة الكامنـة في الطبيعة محسوسة في الصـورة كلها، تلك الانسيابية التي لا تراها إلا عين الفنان المبدع وحدهـا، والتي تبرز لدى الناسخ ناتئـة. وكل شيء مأخوذ من العالم الخارجـي كان واضحاً أن الفنان غاص في داخله أولاً، ومن هناك،

من ذلك الينبوع الروحي، أطلق نشيده المتهلل المنسّق الموحّد. وصار واضحاً حتى لغير المطلعين أية هوية سحيقة تفضل بين الإبداع وبين مجرد الاستنساخ من الطبيعة. لقد كان من المستحيل تقريباً وصف ذلك السكون غير الاعتيادي الذي شمل لا إرادياً كل الذين شخصت أبصارهم إلى اللوحة، فلا صوت ولا نأمة. بينما كانت اللوحة تبدو وكأنها، من لحظة إلى أخرى، تسمو أعلى فأعلى، تنفصل عن كل شيء أكثر تنوراً وأروع فتنة، لتتحول كلها أخيراً، إلى ومضة واحدة، إلى ثمرة فكرة هبطت على الرسام من السماء، إلى ومضة ليست الحياة الإنسانية كلها إلا تحضيراً لها. كانت الدموع توشك أن تسيل لا إرادياً على وجوه الزوار المحيطين باللوحة. وبدا وكأن جميع الأذواق، جميع شذوذات الذوق الخاطئة اندمجت في نشيد تمجيد صامت لهذا العمل الرائع. وقف تشارتكوف أمام اللوحة جامداً فاغر الفم، وأخيراً، حين أخذ الزوار والخبراء يضجون شيئاً فشيئاً، وصاروا يتناقشون في قيمة العمل، وحين رجوه أخيراً بأن يدلي برأيه، أفاق على نفسه، وأراد أن يتخذ مظهراً طبيعياً لا أبالياً، أراد أن ينطق برأي اعتيادي مبتذل كذلك الذي يطلقه الرسامون المتصلبون، من مثل: «نعم، بالطبع، لا يجوز حقاً إنكار ما للرسام من موهبة. يوجد شيء ما. يبدو أنه كان يريد أن يعبِّر عن شيء. ومع ذلك فإن ما يتعلق بالشيء الأساسي...». وبعد ذلك، يضيف، بالطبع، ثناءات تسيء إلى الرسام. أراد أن يفعل ذلك، ولكن الكلمات ماتت على لسانه، وانفلتت الدموع والنشجات المنقطعة لتتكفل بالجواب، وخرج من القاعة راكضاً كالمجنون.

وفي مرسمه الفاخر وقف لحظة جامد الحركة فاقد الإحساس. واستيقظ كل كيانه، كل حياته، في لحظة واحدة، وكأن شبابه قد عاد إليه، وكأن شرر الموهبة الخامد تتطاير من جديد. وانقشعت

الغشــاوة عن عينيه فجأة. يــا إلهي! وأدرك أنه أضــاع بهذه القسوة أفضل سنوات شبابه هباء، سحق وأطفأ شرارة نار، ربما كانت وامضة تحــت الرماد في الصدر، ربما كانت ستتوهج الآن في جلال وجمال، وتدر أيضاً دموع الذهول والامتنان! يضيع كل شيء، يضيع بدون أية شفقــة! وبدا وكأن قد انبعثت في هذه اللحظة في روحه فجأة ودفعة واحدة تلــك الصبوات والســورات التي كانــت مألوفة له في وقت ما. تنــاول الريشة واقترب مــن قماشة الرسم. ورشــح وجهه بعرق الجهــد. تحول كلــه إلى رغبة واحــدة، والتهب بفكــرة واحدة، كان يريد أن يصــوّر ملاكاً ساقطاً. فإن هذه الفكــرة كانت الأكثر تلاؤماً مع حالته النفسية. ولكن واحسرتــاه! كانت شخوصه، وأوضاعها، والمجموعــات، والأفكار تخرج من بين يديــه متكلفة مفككة. لقد كانت ريشته وخيالــه محصورين كلياً في قالب واحد، وكان انتفاضه العاجز على الحدود والقيود التي صفّد بها نفسه يوقعه في الانحراف والخطــأ. لقد استخــف بالسلم المتعب الطويل للمعــارف التدريجية والقوانــين الأساسيــة الأولى للعظمة، إذا أريد لهــا أن تهل. فاستولى عليه الشعور بالأسى. أمر بأن تقصى من مرسمه كل أعماله الأخيرة، كل اللوحــات العصرية الخالية من الحياة، كل صور الضباط الفرسان، والسيــدات والموظفين المدنيــين الكبار. وحبس نفســه في حجرته، وأمــر أن لا يسمــح لأحد بالدخول. وانغمــر في العمل كلية. جلس وراء عملــه كشاب صبــور، كتلميذ. ولكن باي جحــود لا رأفة فيه كان يتمخض الجهد المبذول في كل ما خطته ريشته! وكان الجهل في أبسط المبادئ الأولية يوقفه في كل خطوة.

وكان الميكانيزم البسيط التافه يبرّد كل حماس، ويقف عقبة منيعة في وجه الخيال. وكانت الريشة تعود لا إرادياً إلى الأشكال المتقولبة، فتطلــع اليدان في وضع مألــوف و لم يستطع أن يعطي للرأس لفتة غير

اعتياديـة، وحتـى طيات الثـوب طلعت مكرورة، تتهيـب المطاوعة والتلابسـ مع وضع للجسد غريب. وقد شعر هو نفسه بذلك. شعر به ورآه!...

وقـال أخيراً: «ولكن أتـراني أملك موهبة حقـاً؟ ألم أكن أخادع نفسي؟».. وبعـد أن تفوه بذلك تقدم من أعمالـه السابقة التي كان قـد رسمها، في وقت ما، بنقاء وتفان، هناك، في مسكنه البائس، في جزيرة فاسيليفسكي النائية، بعيـداً عن الناس والترف وكل الأهواء. اقـترب الآن منها، وصار يتفحصهـا جميعاً بانتبـاه، ومعها أخذت تتراءى في ذاكرته كل حياتـه البائسة السابقة. فقال في يأس: «أجل. كانـت لي موهبـة. مخايلها وبصماتهـا مرئية في كل مـكان، في كل شيء...».

توقف، واهتزّ كل جسده فجـأة. فقد التقت عيناه بعينين مثبتتين فيـه بلا حراك. إنها تلك الصورة الفذّة التي كان قد اشتراها في سوق تشوكـين. كانـت طـوال الوقت مغطـاة، ومطمـورة وراء لوحات أخـرى، وقـد غابت عن ذهنـه كليـاً. والآن، حـين أزيحت جميع الصـور واللوحات العصرية التي كانت تملأ المرسم، طلعت إلى فوق، وكأنمـا عن عمد، سوية مـع أعمال شبابه السابقـة، وحالما تذكر كل حكايتهـا الغريبة، وتذكـر أن هذه الصـورة الغريبـة مسؤولة بعض الشـيء عن الانقلاب الذي حدث في حياتـه، وأن كنز النقود الذي حصل عليه بتلك الطريقـة العجيبة ولّد فيه كل الرغائب اللاهية التي قتلـت موهبته، أوشـك أن يستولي على نفسه مـا يشبه الجنون. فأمر علـى الفور بإخراج هـذه الصورة الكريهـة. إلا أن القلق النفسي لم يهدأ. فكانـت كل مشاعره وكل جوارحه تهتز مـن الأساس، فذاق ذلك العذاب الرهيب الذي يصيـب أحياناً وكاستثناء مذهل، النفس البشرية، حين تجاهد الموهبة الضعيفة لتتخطى حدودها، فلا تستطيع،

العذاب الذي يخلق شيئاً عظيمـاً في الشباب، لكنه يتحول في نفس الـذي تخطى سـن الآمال إلى لهفـة عقيمة، العـذاب الرهيب الذي يجعـل الإنسان قادراً على ارتـكاب الفظائع الشنيعة. وتملكه حسد مريـع، حسد إلى حد الجنون. وكانـت الصفراوية تعلو وجهه، حين كان يـرى عملاً عليه طابع الموهبة. فيصـرف بأسنانه، ويلتهمه بنظرة الجنـي الماحقة. وتنبعث من أغواره أشنع نية خامرت نفس إنسان في وقـت من الأوقات، ويندفـع بقوة مسعورة لينفذهـا. وأخذ يشتري أفضل ما أنتجه فن الرسم. فإذا اشترى لوحة، بثمن غال، يحملها إلى غرفتـه بحذر، ويهجم عليها بشراسة ذئـب، ويقطعها، ويمزقها إرباً، ويسحقهـا بقدميـه، مشفعاً ذلك بضحك التلـذذ. وكانت الثروات الهائلة التي جمعها توفر له كل الوسائل لتطمين هذه الرغبة الجهنمية. كان يفك جميع أكياس الذهب عنده، ويفتح الصناديق. ومامن غول للجهـل قضى على ذلك القـدر الذي قضى عليه هـذا المنتقم الشرير مـن الأعمال الجميلـة. وفي كل المزادات التي يظهـر فيها كان اليأس مـن اقتناء عمل فنـي يصيب أي إنسـان مسبقاً. وبـدا وكأن السماء الساخطة أنزلت هذه القارعة الرهيبة على العالم عن قصد لتنتزع منه كل ما فيه انسجام. وألقت هذه النزوة المريعة ظلاً مخيفاً عليه. فكانت الصفراوية المستديمة تلازم وجهه. وكانت إدانة العالم، إنكاره، تظهر علـى قسمات وجهـه تلقائياً. وبـدا وكأن العفريـت الرهيب الذي صـوره بوشكـين أمثل تصوير قد تجسد فيـه. ولم تكن من بين شفتيه غير الكلمـة السامة والتذمر الدائم. وكان النـاس وحتى معارفه، إذا رأوه مـن بعيـد في الشارع، يحاولون الاستـدارة وتحاشي هذا اللقاء كمـا يتحاشى لقـاء إحدى الهاربيـات(×) الكواسر، قائلـين أنه يكفي لتسميم اليوم كله بعد ذلك.

ومـن حسن حظ العالم والفن أن مثل هـذه الحياة المتوترة القائمة

علـى العنف ماكان من الممكن أن تستمـر طويلاً. فإن حجم الأهواء كان غـير قياسـي وضخماً جـداً بالنسبة لقواهـا الضعيفة. وأخذت نوبـات السعار والجنون تتتابع، حتـى تحولت أخيراً إلى أفظع مرض. واجتاحتـه حمى قاسية مصحوبة بسل سريع التفشي، حتى لم يبق منه خلال ثلاثة أيام غير ظل. وأضيفت إلى ذلك بوادر جنون لا شفاء منه. أحيانـاً كان لا يستطيع عدة أشخاص كبح جماحه. وأخذت تتراءى لـه العينان الحيتان المنسيتـان منذ زمان، عينا تلـك الصورة الفريدة، وعنـد ذاك كان جنونه يصير فظيعـاً، وكان يتخيل جميع الذين كانوا يحيطـون بسريـره صوراً فظيعـة، وكانت الصورة تـزدوج في عينيه وتتزايـد، وتبـدو كل الجدران مملوءة بالصورة التـي تثبت فيه عيونها الحيـاة الجامدة. وكانت هذه الصور الرهيبـة تحدق من السقف، من الأرضيـة، وتتسع الغرفة، وتمتد إلى مـا لا نهاية لتستوعب عدداً أكبر مـن هذه العيون الجامدة. حاول الدكتور الذي التزم بمعالجته، والذي كان قـد سمـع شيئاً عن حكايته الغريبة أن يجـد، بكل وسيلة ممكنة، الصلـة الخفية بين الرؤى التي كانـت تتراءى له، وما حصل في حياته من أحـداث، ولكنـه لم يظفر بطائـل. كان المريض لا يـدرك شيئاً، ولا يشعـر بغير العذابات، وكان لا يصدر غـير العويل المتكرر المريع والهمهمـات الغامضة. وأخـيراً انبترت حياتـه في احتضار صامت معـذب. وكانت جثته رهيبة. ولم يستطع النـاس أن يجدوا شيئاً من ثرواته الهائلة، ولكنهم وجـدوا مزقاً من تلك الأعمال الفنية الرفيعة التي تجاوزت قيمتها الملايين، فأدركوا سرّ استخدامه المريع لها.

القسم الثاني

كان عـدد كبير من مختلف العربـات والمركبات تقف أمام مدخل البيـت الذي كان يجـري فيه بيع بالمزاد العلنـي لحاجيات أحد هواة الفـن الأثرياء الذين قضوا حياتهم كلها في حلم لذيذ، مولعين برقص الأقنان، والذين اشتهروا بـبراءة ذمة كحماة العلم والفن، فكانوا من أجل ذلك ينفقـون بأريحية، الملايين التي جمعها آباؤهم الأكفاء، بل وحتـى في كثير من الأحيان بأعمالهم الذين كانوا قد زاولوها سابقاً. والآن لا وجـود لهؤلاء الحمـاة، كما هو معروف، فقـد اتخذ قرننا التاسـع عشر منذ زمـان سحنة الصـيرفي المضجـرة، الصيرفي الذي يتمتـع بملايينه على شكل أرقام فقط مسجلة على ورقة. كانت القاعة الطويلـة مملوءة بجمـرة ذات ألـوان شتى من الزوار جـاءت منقضة كالطيور الكاسـرة على جسد مرمي. فـكان في الصالة فصيل كامل من التجار الروس من سـوق غوستيني وحتى من سوق الخرداوات، في ستر ألمانية زرقاء. وكان هيئتهم وسمات وجوههم هنا أكثر صلابة وحرية، ولم يكونـوا يتميزون بتلك المخدوميـة المفرطة، والملحوظة لدى التاجر الروسـي، حين يكون في حانوته أمام المشتري. فهم هنا لم يحتشمـوا قط، علـى الرغم من أن القاعة كانـت تضم عدداً كبيراً مـن الأرستقراطيـين الذين كان التجـار إذا وقفـوا أمامهم في مكان آخـر مستعدين إلى أن يمسحـوا مع انحناءاتهم، الغبـار الذي حملته أحذيتهم. أما هنا فكانوا طلقاء يتلمسون الكتب واللوحات بلا كلفة يريـدون أن يعرفوا جـودة البضاعة، ويزايدون بجسـارة على السعر الـذي رفعه الكونتات الخـبراء. وكان في القاعـة الكثيرون من زوار

المزايدات الدائميين الذين كانوا يرون لزاماً عليهم أن لا يفوتوا فرصة لزيـادة مجموعتهم، و لم يجدوا عملاً آخـر يشغلهم من الساعة الثانية عشـرة، حتى الواحـدة، وأخيراً من أولئك السـادة النبلاء الفقراء في اللباس والجيب، والذين يأتون كل يوم بـدون أية مصلحة نفعية، بل لغرض وحيد هو أن يرواعم يسفـر الأمر، ومَنْ سيطرح سعراً أعلى ومَـنْ أقل، ومَنْ يزايـد على الآخر، وعلى مَنْ ترسـي المزايدة، وكان عـدد كبير من اللوحـات قد تناثر بـلا نظام تماماً واختلـط بالأثاث، والكتـب وعليهـا طغـراءات مالكها السابـق الذي ربمـا لم يكن له قط حـب استطلاع محمود للنظـر فيها. كانت المزهريـات الصينية، وصفائـح الموائـد المرمريـة، والأثـاث الجديد والقـديم ذو الخطوط المعكوفـة، وتماثيل طائر الرخـم وتماثيل أبي الهـول، وبراثن الأسود المذهبـة وغير المذهبة، والثريات، وفوانيس الزيت، كل ذلك يتكدس على بعضـه مفتقراً كلياً إلى النظام المعهـود في الحوانيت. وكل شيء كان كمثـل فوضى للفنـون. إن الشعور الـذي يخامرنا عموماً لدى مرأى مـزاد علني لشعور فظيع فكل شيء فيه يوحي بما يشبه الموكب الجنائزي. القاعة التي يجري فيها كئيبة دائماً. والنوافذ التي تراكمت عليهـا الأثاث واللوحات تشح ضوءاً هزيـلاً، والسكون الذي يرين على الوجوه، والصوت الكئيـب للمنادي الضارب بالمطرقة، المرتّل قداساً للفنون البائسة التي التقت هنا بشكل غريب. كل ذلك، يبدو، وكأنه يزيد أكثر من رداءة الانطباع الغريبة.

وبـدا المزاد في أوجـه. وكان حشد كبير من الناس المتعبرين، قد تجمهـر ضاجـاً يقاطـع بعضهـم بعضاً. وتـرددت مـن كل الجهات كلمـات: «روبل، روبل، روبـل»، دون أن تعطـي للمنادي الوقت ليكـرر السعر المزاد والذي ارتفع أربع مرات على السعر المعلن. كان الحشـد المتجمهر يتزاحم على صورة مـاكان من الممكن أن لا تلفت

انتبـاه كل مَنْ كان له قدر مـن الفهم في الرسم. وكانت ريشة الرسام الرفيعـة قد تجلّت فيهـا بشكل واضح. والظاهـر أن هذه الصورة قد رُممـت عدة مرات وجُـددت، وكانت تصور ملامـح آسيوي سمراء في جلباب فضفاضـ، لوجهه سحنة فريدة غريبة، ولكن أكثر ما بهر المتجمهرين الحيويـة غير الاعتيادية لعينيه. كلمـا أمضوا النظر فيهما بدتـا وكأنهمـا مصوبتان إلى دخيلة كل واحد منهـم. وهذه الغرابة، وهذه البراعة غير الاعتيادية للرسـام جلبت انتباه الجميع تقريباً، وقد تراجـع الكثير من المتباريـن عليها لأن السعر الـذي طرح لها مرتفع تماماً. و لم يبـق إلا أرستقراطيان معروفان، هاويـان للرسم، لم يريدا التخلـي أبـداً عن هذه الشـروة. كانا ينفعلان، وكان مـن الممكن أن يتزايـدا في السعر إلى حـدود المستحيل، لو لم يقـل أحد الذين كانوا يتفحصونها:

- اسمحـوا لي بأن أقطع نقاشكم لبعضـ الوقت. ربما لي الحق في هذه الصورة أكثر من أي شخص آخر.

ولفتـت هذه الكلمـات أنظار الجميع إليـه في رمشة عين. وكان هـذا الرجل ممشوق القـوام في نحو الخامسة والثلاثـين من العمر له خصـلات شعر أسـود طويلة جعـداء. وكان وجهـه اللطيف المفعم براحـة بال وضيئة ينم عن نفس غريبة عليها كل الانفعالات الدنيوية المضنيـة. و لم يكن في ملبسه أي ادعاء في الموضة. فقد كان كل مافيه يشـير إلى أنه فنان. وبالفعل كان هذا الرسام ب الذي يعرف شخصياً الكثيرين من الحاضرين.

- مهمـا تبدو لكـم كلماتي غريبة مضى الرجـل يقول، وهو يرى انتبـاه الجميـع مصوباً نحـوه ولكـن إذا وافقتم على سمـا ع حكاية صغـيرة فقد تجدون أنني علـى حق في قولها. كل شـيء يؤكد لي أن الصورة هي الصورة التي أبحث عنها.

وتلظّت الوجوه كلها تقريباً بفضول مشروع تماماً، وحتى المنادي، فغر فمه، وتوقف والمطرقة مرفوعة في يده، متهيئاً للاستماع. في بداية القصة كان الكثيرون يوجهون عيونهم إلى الصورة بشكل لا إرادي، ولكن الجميع تفرسوا في الراوي وحده، بعد ذلك، بمقدار ما كانت قصته تزداد تشويقاً.

وبدأ بالشكل التالي:

- أنتم تعرفون ذلك الجزء من المدينة المسمى كولومنا. كل شيء في هذا الجزء لا يشبه مافي الأجزاء الأخرى من بطرسبورغ. هذا الجزء لا هو عاصمة ولا هو إقليم. فأنتم حين تسيرون في شوارع كولومنا، يبدو وكأن جميع رغائب الشباب وصبواته تزايلكم. والمستقبل لا يمر في هذا الجزء. السكون والإحالة على المعاش يبدوان في كل شيء هنا، كل ما تخلّف عن حركة العاصمة. يأتي إلى السكن هنا الموظفون المتقاعدون، والأرامل، والناس من غير الأغنياء، الذين لهم معرفة بمجلس الشيوخ، ولهذا حكموا على أنفسهم بالإقامة هنا طوال حياتهم تقريباً، والطباخات العجائز المتفرغات واللواتي يقضين النهار كله يتدافعن في الأسواق مثرثرات مع رجل في حانوت للبقالة، ويشترين كل يوم قهوة بخمسة كوبيكات، وسكراً بأربعة، وأخيراً كل ذلك الصنف من الناس الذي يمكن أن تنعته بكلمة واحدة هي «الرمادي» أناس بما لهم من ملابس ووجوه وشعر وعيون يكتسبون مظهراً كدراً رمادياً، كالنهار الذي ليست في سمائه عاصفة ولا شمس، فهو لا هذا ولا ذاك. فينبسط الضباب، وينتزع من كل الأشياء حدتها. ومن الممكن الإضافة إلى هؤلاء قاطعي تذاكر المسرح المتقاعدين، وموظفي الدرجة التاسعة المتقاعدين، والعسكريين المتقاعدين بعين مفقودة أو شفة متورمة. إن هؤلاء الناس بلا رغبات تماماً، يسيرون دون أن يوجهوا بصرهم إلى شيء، صامتون، ولا

يفكـرون في شيء. وغرفهـم لا تحتوي على متاع كثـير، وأحياناً لا توجد غـير زجاجة كبيرة من الفودكا الروسيـة النقية يمصونها النهار كلـه برتابة، وبـدون أي احتقان شديد في الرأس مـن أثر الإكثار من الشـرب، وهو ما يحب أن يوفره لنفسه في أيام الآحاد الحرفي الألماني الشاب، فارس شارع ميشانسكايا، المتصرف لوحده بكل الرصيف، حين يتجاوز الوقت الساعة الثانية عشر ليلاً.

والحيـاة في كولومنـا هادئـة تماماً. فنـادراً ما تمر مركبـة، ما عدا تلـك التي يستقلها الممثلون، والتي لوحدهـا تحطم السكون الشامل بهديرها ورنينها وطقطقتها. فالناس هنا يمشون على أقدامهم جميعاً. والحـوذي غالباً ما يكون بلا راكب، حاملاً في عربته العلف لحصانه الهـرم. ومـن الممكن في هـذه الناحية استئجار مسكـن لقاء خمسة روبلات في الشهر من ضمنها حتى قدح قهوة في الصباح. والأرامل اللواتـي يحصلن على تقاعد هن أكثر العوائل أرستقراطية فيها. وهن يتصرفـن بلياقة، وغالباً ما يكنسن غرفهـن، ويتحدثن مع صديقاتهن عـن غلاء لحم البقـر والكرنب، وغالباً ما تكون لهـن ابنة شابة، هي مخلوقة صمـوت، كتوم حلوة المحيـا أحياناً، وكلبـة حقيرة، وساعة حائطيـة ذات بندول ذي دقات حزينة. ويأتي بعدهن الممثلون الذين لا يسمـح لهم مرتبهم الانتقـال من كولومنا، وهـم ناس طلقاء مثل جميع الممثلـين، يعيشون للاستمتاع. وهـم يلتفـون بأروابهم المنزلية ويصلحـون مسدساً، ويصنعون من الكارتـون مختلف الأشياء النافعة للبيـت، ويلعبون مع صديق زائر لعبة الداما أو الورق، وبهذا الشكل يقضـون الصباح، ويقومون بنفس هذه الأفعـال تقريباً في المساء مع إضافة شـراب «البونش» أحيانـاً. وبعد هؤلاء الكبـار وأرستقراطية كولومنـا يأتي الناس الصغار والتافهـون إلى أقصى حد ومن الصعب تعدادهـم، كما يصعب تعداد الحشرات العديـدة التي تتوالد في خل

قـديم. وأقصد بهـؤلاء العجائـز اللواتي يصلـين، واللواتي يسكرن، العجائز اللواتي يصلين ويسكرن معاً، العجائز اللواتي يتعيشن بوسائل لا يتخيلها العقل أقصد أنهن كالنمل يجرجرن الخرق والملابس البالية مـن جسر كالينكين إلى سوق الأشيـاء المستعملة ليبعنها بخمسة عشر كوبيكاً، وباختصار أتعسـ حثالة الإنسانية في الغالب، حثالة ماكان بوسع أي اقتصادي سياسي فاض أن يجد الوسائل لتحسين معيشتهم.

وقد ذكرتهم لأظهر لكم كيـف أن هؤلاء الناس غالباً ما يكونون في حاجة ماسة إلى البحث عن عون مفاجئ مؤقت لا غير، والالتجاء إلى الاستدانـة، وعندئذٍ يقيم بينهم مرابون من نوع خاص يزودونهم بمبالغ قليلة من الفلوس لقاء رهونـات وفوائد عالية. وهؤلاء المرابون الصغار هم أكثر جفافـاً في المشاعر من المرابين الكبار لمرات عديدة. لأنهم يظهرون وسط الفقر والأسمال الدالة الواضحة البؤس والتي لا يراهـا المرابي الغني المقتصر في تعامله على القادمين إليه في مركبات. ولهذا يمـوت في نفوسهم أي شعور للإنسانيـة في وقت مبكر جداً. وكان من بين هؤلاء المرابين واحد... ولكن لا ضير في أن أقول لكم إن الواقعـة التي شرعت في التحدث عنها، تعـود إلى القرن الماضي، وإلى عهد الراحلة القيصرة يكاترينا الثانية، بالضبط. وأنتم تستطيعون أن تدركـوا بأنفسكم أن مشهد كولومنا ذاته والحياة في داخلها لابد أن يكونا قد تغيرا كثيراً. إذاً، لقد كان بين هؤلاء المرابين واحد، مخلوق غير اعتيـادي في كل الجوانـب، كان يسكن هناك، في ذلك الجزء من المدينة، منذ أمد طويل، كان يرتدي لباساً آسيوياً فضفاضاً، وكان لون وجهه الداكن يشير إلى أصلة الجنوبي. ولكن لا أحد استطاع أن يحدد عن يقين الأمة التي كان ينتمي إليها: الهندية أو الإغريقية أو الفارسة. وكانـت قامته الطويلـة بشكل غير اعتيادي تقريبـاً، ووجهه الأسمر النحيـف الملوّح، بلونـه المخيف بشكل لا يـدرك، وعيناه الكبيرتان

بنارهمـا غير الاعتيادية، وحاجباه الكثّان المطلان، تميزه بشدة وحدة عـن جميع سـكان العاصمة الرماديين. وحتـى مسكنه لم يكن يشبه بقيـة البيـوت الخشبيـة الصغيرة. فقـد كان مبنى حجريـاً يشبه تلك البيـوت التي بناها تجار جنوى بكـثرة في زمن ما، بشبابيكه المختلفة الأحجام والأشكال، وقضبانها وترابيسها الحديدية، كان هذا المرابي يتميز عن المرابين الآخريـن بأنه كان يقرض بالرهن أي مبلغ للجميع ابتداءً من العجـوز الفقيرة، إلى وجيه البلاط المبـذر. وغالباً ماكانت تقـف أمام بيته أفخر العربات كان يطل من شباكها أحياناً رأس سيدة مترفة راقيـة. وسرت شائعة، بحكـم العادة، بـأن صناديقه الحديدية مملـوءة بما لا حصر له من النقود والأحجار الكريمة، والماس، ومختلف المرهونات، ولكن لم تكن له، على أية حال، تلك الروح النفعية التي تلازم المرابـين الآخرين عادة. فقد كان يقدم النقود عن طيب خاطر، محـدداً لفك الرهـون مدداً مناسبة جداً، كما بـدا ولكنه كان يجعلها بتقديـرات حسابيـة غريبة تصـل إلى نسب من الفائـدة لا تقاس. أو هذا، ماكانت تقول الإشاعة، على الأقل. ولكن أغرب ما في الأمر، وماكان مـن الممكن أن لا يدهش الكثيرين هـو ذلك المصير الغريب الذي آل إليه جميع الذين كانوا يقترضون منه.

فإنهـم جميعاً قـد أنهـوا حياتهم بطريقـة مشؤومـة. وبقي غير معروف ما إذا كان هذا مجرد اعتقاد الناس، وأقوال خرافية سخيفة أم إشاعات مفرضة. ولكن بعض الأمثلة التي حدثت في أمد غير طويل أمام أعين الجميع كانت حيّة ومذهلة.

كان ثمـة شاب مـن أحسن العوائـل، من الوسـط الأرستقراطي لذلـك العهد قـد لفت الأنظـار إليه بسرعـة، وتميز في مجـال خدمة الدولـة منذ سنـوات الصبا، وكان متحمساً قويـاً لكل ماهو حقيقي رفيع، ومتبحراً بكل ما أنتجه الفن وعقل الإنسان، يعد كل كيانه بأن

يكون حامي فنون وعلوم، وسرعان ما تنبهت إليه القيصرة نفسها عن جـدارة، وعهدت إليه منصباً كبيراً يتفق تماماً مع تطلعاته، منصباً كان في وسعه أن يقوم فيـه بالكثير لمنفعة العلم وللخير بشكل عام. أحاط هـذا الوجيه الشاب نفسه بالرسامـين والشعراء والعلماء. وكان يريد أن يعطـي للجميع عملاً ويشجعهـم وكان يصدر على نفقته الخاصة الكثير من المطبوعـات النافعة، ويقدم الطلبـات العديدة، ويعلن عن جوائـز تشجيعية، وينفق على ذلك مبالغ كبيرة من المال، حتى أفلس أخـيراً. ولكنه، وهو الممتلـئ شهامة، لم يرد أن يتخلـى عن القضية، وبحـث في كل مـكان ليستديـن حتى أفضـى به الأمـر إلى صاحبنا المرابي. اقترض منه مبلغاً كبيراً من النقود، وفي فترة قصيرة، تغيَّر هذا الرجـل تماماً. فصار يلاحـق ويطارد العقل المتفتـح والموهبة. وصار يـرى في كل الأعمال الفنية الجانـب السيئ، ويفسر كل كلمة تفسيراً مشوهـاً، ومن نكد الحظ أن الثورة الفرنسية كانت قد وقعت آنذاك. فاستخـدم ذلك أداة لكل الدناءات الممكنة. وصار يرى في كل شيء نزعة ثورية، وراح يتصور التلميحات في كل شيء. وأصبح شكوكياً إلى حـد أنه صـار يتشكك في نفســه أخيراً، وصار يلفـق الوشايات الكاذبة الفظيعة، ويلحق الأذى بالكثيرين من الناس ويجعلهم تعساء.

وطبيعـي أن مثـل هذه التصرفـات ماكان من الممكـن أن لا تصل إلى صاحبة العرش في آخر الأمر. وارتعبت القيصرة الشهمة، وتفوهت، وهي المفعمة بنبـل النفس الذي يحلي أصحـاب التيجان، بكلمات علـى الرغم من أنها ماكان من الممكن أن تصل إلينا بكامل دقتها، إلا أن معناهـا العميق كان له وقع في قلوب الكثيرين. فقد قالت القيصرة أن في ظل حكم الملوك لا تُضطهد تطلعات النفس النبيلة الرفيعة، ولا تُحتقر وتُلاحـق إبداعات العقل والشعر والفنـون، بل على العكس، كان الملوك وحدهم حماتها وأن أمثال شكسبير وموليير ازدهروا في

ظل حمايتهم الشهمة، بينما لم يستطع دانتي أن يجد له مأوى يستكن إليه في وطنه الجمهوري، وأن العباقرة الحقيقيين يظهرون في زمن تألق وعظمة أصحاب العروش والدول، لا في ظل الظواهر السياسية الذميمة والإرهابات الجمهورية، التي لم تمنح العالم حتى الآن شاعراً واحداً، ويجب تمييز الشعراء والفنانين، لأنهم لا يغرسون في الروح غير السلام والطمأنينة الرائعة، لا القلق ولا التذمر، وأن العلماء والشعراء ومبدعي الفنون جميعهم هم لآلئ وجواهر في التاج الإمبراطوري. وهم يزينون عهد العاهل العظيم، ويزيدونه إشعاعاً وألقاً. وباختصار، كانت القيصرة حينذاك وهي تنطق بهذه الكلمات رائعة ساحرة الجمال. وأنا أتذكر أن الشيوخ ماكانوا يستطيعون أن يتذكروا ذلك بدون أن تسيل دموعهم. وشارك الجميع في القضية. وإنصافاً لكبريائنا الشعبية يجب أن نلحظ أن القلب الروسي يضمر دائماً الشعور الرائع بالتزام جانب المضطهد. فعوقب هذا الوجيه الذي خان الثقة ليكون عبرة للآخرين، وأُقصي من منصبه، ولكنه كان يرى في وجوه أبناء وطنه عقاباً أمضّ بكثير. كان يرى ازدراءً قوياً عاماً. ومن الصعب وصف العذاب الذي عانته عزة نفسه. فإن الكبرياء، الطموح المخدوع، الآمال المحطمة قد اجتمعت سوية، وانتهت حياته في نوبات من الجنون المريع والعته الضاري.

وثمة مثال مذهل آخر حدث أيضاً أمام أعين الجميع. من بين الحسناوات اللواتي لم تكن عاصمتنا الشمالية فقيرة بهن في ذلك الحين واحدة كسبت الأولوية المطلقة عليهن. وكانت تآلفاً عجيباً بين جمالنا الشمالي وجمال الظهيرة، جوهرة يندر أن توجد في هذه الدنيا. وكان أبي يعترف بأنه طوال حياته لم ير قط مثيلاً لها. وكان كل شيء قد اجتمع فيها: الثروة، والعقل، وسحر الروح.

وكان خطابها كثيرين، كان أروعهم جميعاً الأمير ر. أفضل

الشباب قاطبة، والأكثر نبلاً، وجمالاً في الوجه والصبوات الفروسية الأريحية، والمثال الرفيع للروايات والنساء، مثيل غرانديسون من كل الوجـوه، ووقع الأمـير ر. بغرامها المشبوب العـارم. فجاوبته بنفس ذلـك الغرام. ولكن العاشقين بديا للأقارب غير متكافئين. فالخطيب لم يعـد منذ زمان مالـك لضياعه الموروثة وعائلتـه قد فقدت وزنها. وكان الجميـع يعرفـون أن أموره سيئة. وفجأة يـترك الأمير العاصمة ليصلـح شؤونه على حسـب زعمه، وبعد فترة قصـيرة، يظهر محاطاً بترف وبهاء منقطع النظير. وتجعله حفلات الرقص الفاخرة والولائم معروفاً في البلاط. وينال الحظوة لدى والد الحسناء. وتقام في المدينة أروع حفلـة زفاف. ولم يكن في مستطاع أحد أن يعرف بدقة سبب هـذا التغيّر، ومن أين جاء الخطيب بهـذه الثروة الهائلة، ولكن الناس كانت ملـح إلى أنه عقد صفقة مع مرابٍ مجهـول، وأخذ منه قرضاً. ومهمـا يكن من شـيء فإن حفلـة الزفاف شغلت بـال المدينة كلها. وكان العروس والعريس معاً موضـع حسد الجميـع. وكان الناس قاطبـة يعرفون الحب المتأجج المستـديم، والتباريح الطويلة التي شقي بهـا كلاهما كمـا كانوا يعرفـون خصال الزوجـين الرفيعة. وكانت النسـاء اللاهبات يرسمن مسبقاً حياة النعيم الذي سيفوز به الزوجان الشابـان ولكن الأمر كان على غير ذلك. ففي عام واحد حصل تغيّر رهيب في الزوج. فإن سمّ الغيرة المريبة والعصبية والنزوات الطافحة سممـت خلقه الذي كان حتى ذلك الحـين نبيلاً ممتازاً. فصار الزوج طاغيـة عاتياً على زوجتـه، والتجأ، وهذا ما لم يكـن في ميسور أحد أن يتوقعـه، إلى أكـثر الأفعـال لا إنسانية، وحتـى إلى الضرب. وبعد سنـة واحـدة لم يستطع أحد أن يتعرف في شخصهـا على تلك المرأة التي كانت إلى حين تتألق، وتجذب وراءها أسراب المعجبين الطيعين، وأخيراً لم تقدر أن تتحمل مصيرها الشقي أكثر، فبادرت بالكلام عن

الطلاق. وجن جنون الزوج من مجرد التفكير في ذلك. وفي أول نوبة من الغيظ الشديد اقتحم عليها حجرتها، والسكين في يده، وكان من دون ريب، سينزل عليها طعنـاً حالاً لو لم يمسكوه ويحاجزوه، وفي سـورة الهياج واليأس أغمد السكـين في جسده، وقضى على حياته بعد سكرات موت فظيعة.

وإلى جانـب هاتين الواقعتـين اللتين حصلتا أمـام أنظار المجتمع كلـه، كان الناس يـرون الكثير من الوقائع التـي حدثت في الطبقات الدنيـا، وانتهت كلها تقريباً نهاية مريعـة. فمن ذلك رجل نزيه عاقل انقلـب إلى سكير، ووكيل تاجر سـرق سيده، وحوذي كان مستقيماً لسنين عديدة نحر راكباً من جراء قروش زهيدة، وماكان من الممكن أن لا تـترك هـذه الوقائع التي كانت تروى أحيانـاً بزيادات، فزعاً لا إرادياً لدى أهالي كولومنا البسطاء. كان الجميع لا يشكون في وجود روح شريـرة في هذا الرجل. وكانوا يقولون إنـه كان يعرض شروطاً توقـف شعر الرأس، وبعد ذلـك لم يكن هذا التعيس يجـرؤ أن يعيد الـكلام عنها مع خص آخر، وكانـوا يقولون إن لنقوده صفة حارقة، تتوقد من تلقاء نفسها، وتحمل علائم غريبة...

وباختصار كان هناك الكثير من الأقاويل السخيفة. ومن الطريف أن أهـالي كولومنا، كل ذلك العالم من العجائز الفقيرات، والموظفين الصغار، والممثلين الضئيلي الشأن، وباختصار، كل المساكين الصغار الذين أتينا على ذكرهم قبل حين، كانوا يفضلون الصبر وتحمل أقصى ما يأتـي به القدر على الالتجـاء إلى ذلك المرابـي الرهيب، بل كانوا يجـدون عجائز متن جوعاً، وفضّلن موت الجسد على تدمير الروح. كان الناس إذا التقـوه في الشـارع تملكهـم فـزع لا إرادي. فكان المشاة يرتـدون بحذر ويلتفتون بعد ذلـك إلى الخلف كثيراً، مراقبين قامته الطويلة بشـكل غير متناسق، وهي تبتعد عنهم. وكان في هيئته

وحدهـا من الشواذ ما يجعـل أي إنسان لا إرادياً يعزو إليه الخوارق. فـإن تلك الملامـح المنحوتة بعمـق، لا تجدها عنـد أي إنسان، ولون الوجـه البرونزي الحار ذاك، وتلك الكثاثة غير الاعتيادية للحاجبين، والعينـين الرهيبتين بشكل لا يطاق، وحتى طيـات لباسه الفضفاض الآسيـوي نفسهـا، كل ذلـك كان يبدو وكأنـه يقـول إن كل أهواء الآخرين نبهت أمام الأهـراء المعتملة في هذا الجسد. وكان أبي كلما التقـاه يتوقف جامداً، وفي كل مرة لا يسعه إلا أن يقول: «الشيطان، الشيطـان بعينـه!»، ولكن ينبغي أن أسرع فأعرفكـم بأبي الذي هو، بالمناسبة، الموضوع الحقيقي لهذه الحكاية.

كان أبي إنساناً رائعاً في كثير من النواحي، وكان رساماً، من القلة، مـن إحدى تلك المعجزات التـي لا تخرجهـا إلا روسيا من رحمها البكر، رسامـاً عصامياً تعلّم بنفسه، وبـدون معلمين ومدرسة وجد في وجدانه القواعـد والقوانين، ولم يستجـب إلا للتعطش لتحسين قدرتـه، ولم يسـر إلا في الطريق التي هدته إليـه نفسه، ولأسباب ربما لم يكـن يعيهـا ذاتيـاً، كان من أصحـاب المواهب الفطريـة العجيبة الذين غالباً مـا يشتمهم المعاصرون بكلمة مهينـة «أجلاف» والذين لا يفـل عزيمتهم الـذمُ ولا إخفاقاتهم ذاتها، ويظلـون في دفق متزايد مـن الحماس والجهد، ويبتعدون في عمـق أنفسهم وبشوط كبير عن تلـك الأعمال التي وسمتهم بكنية «جلف». كان أبي بفطرته الذاتية العاليـة يتحسـس وجـود فكـرة في كل موضـوع، وأدرك بسليقته المعنى الحقيقـي لكلمتي «الرسم التاريخـي» أدرك لماذا تمكن تسمية رأسـاً بسيطاً، صورة بسيطة لرفائيل، لليونـارد دافينتشي، لتيتسيان، لكوريدجيو بالرسم التاريخي، ولماذا تظل لوحة ضخمة ذات محتوى تاريخـي tableau de genre علـى كل حـال، علـى الرغم من كل ادعـاء رسامها بأنهـا رسم تاريخي. ،قاد ريشتـه شعورُه الباطني

وقناعتـه الخاصة إلى مواضيع مسيحية، في أعلى وآخر درجات ماهو رفيـع. و لم يكن لـه غرور أو سرعـة تهيج، وهما ما يميـز طبع الكثير مـن الرسامين. لقد كان شخصيــة قوية، إنساناً نزيهـاً مستقيماًن بل وخشنـاً، ذا قشرة خارجيـة قاسية بعض الشـيء. وليس بدون بعض الكبريـاء في النفس، يقول رأيه في الناس بتلطف وحدة في آن واحد. فـكان يقول عادة: «وما لي أنظر إليهم، فأنا لا أعمل لهم. ولا أحمل لوحاتي إلى غرف الاستقبال، بـل أضعها في الكنيسة. ومن يفهمني سيشكـرني، ومن لا يفهم فسيصلي للـرب على أية حال. ولا حاجة للـوم الإنسان من المجتمع الراقي بأنه لا يفهم في الرسم، فهو، مقابل ذلـك، يفهم في لعب الـورق، وله اطلاع واسـع في الخمرة الجيدة، وفي الخيـول، وما حاجة الوجيـه إلى أكثر من ذلك؟ فإذا كان يجرب هذا وذاك، ويأخذ بالتفلسـف، فسيكون من الصعب احتماله، على مـا أظن! لكل نصيبه، ولكل ما يشغله. أنا أفضل الإنسان الذي يقول بصراحة إنه لا يفهم على الذي يرائي ويزعم أنه يعرف ما لا يعرفه، فلا يأتي منه إلا الغث والفاسد». وكان يعمل بمرتب صغير، أقصد بمرتب ضـروري لإعالة أسرته فقط، ولتتوفر لديه إمكانية العمل، وفضلاً عن ذلك لم يكن يرفض قط مساعدة الآخرين ومد يد الإعانة لرسام فقير. وكان مؤمنـاً إيمان الأجداد البسيـط التقي. ولربما بسبب ذلك كانت تظهـر في الوجوه التي رسمها تلك العفّة التـي لم ينفذ إليها رسامون لامعـون. وأخيراً صار يكسب بالمثابرة في عمله، وبالسير الدائب في الطريق الذي كانـوا يَسِمونه بالجلافة وبدائية التعليم الذاتي. وكانت الكنيسـة تقدم له الطلبات بـلا انقطاع، و لم يكن يعـدم عملاً، وقد شغلـه أحد الأعمال بقوة. ولا أتذكر مـاذا كان موضوعه. لا أعرف إلا أن اللوحة كان يجب أنّ تصوّر الشيطان أو سلطان الظلام. وفكر طويـلاً في أية هيئة سيصوره. لقد كان يريد أن يصوّر في شخصه كل

مــا يثقل على الإنسان ويشقيــه. وخلال تلك التأملات كانت تخطر في باله أحياناً صورة ذلك المرابي الغامض، وعند ذاك كان يجد نفسه يفكر لا إرادياً: «بهذا ينبغي أن أصور الشيطان». ولكم أن تتصوروا مبلـغ دهشته، حين سمع ذات مرة طرقاً على باب مرسمه، حين كان يعملـن وفي أثر ذلك دخـل عليه ذلك المرابـي الرهيب. وماكان من الممكن ألا يشعر برجفة داخلية سرت في جسده لاإرادياً.

قال هذا لأبي بدون أية كلفة:

- أنت رسام؟

- رسام.

قال أبي في حيرة منتظراً ماذا سيحدث بعد هذا.

- حسناً، ارســم صورة لي، فقد أموت عن قريب، وليس لي أبناء، ولكـن لا أريـد أن أفنى كلياً، وأريد أن أحيا، فهـل تستطيع أن ترسم صورة تصورني حياً تماماً؟

وفكر أبي «وماذا أحسن من ذلك؟ جاءني بنفسه لأرسمه شيطاناً في لوحـة» وأعطـاه عهداً. واتفقـا على الوقت والثمـن، وفي اليوم التـالي، تناول أبي لوحة الألوان والفرشاة، وذهب إليه في بيته. ووقع في نفســه موقعاً غريبــاً كلُ ما رآه هناك: السيــاج العالي، والكلاب، والأبــواب الحديدية والمزاليج، والنوافـذ المقوسة، والصناديق المغطاة بأبسطـة عريقة، وأخـيراً رب البيت العجيب الـذي جلس أمامه بلا حــراك. كانــت النوافذ قد ســدت وحجبت من الأسفـل وكأنما عن قصـد، حتى إنها لم تسـرّب الضوء إلا من الأعلى فقــط. قال أبي في سـره: «تخطفه الشيطان، كم منوَّر وجهه الآن!» وشرع يرسم بهمة، وكأنمـا كان يخاف أن تختفي هذه الإنـارة الموفقة، وكرر مع نفسه: «أيـة قوة! حتى ولو رسمته إلى النصف بالشكل الذي هو عليه الآن،

فسيفتك بكل ما لديَّ من قديسين وملائكة. وفإنهم سيتضاءلون أمامه. أية قوة شيطانية! ولكنه سيخرج من القماشة حتماً، إذا كنت أميناً بعض الشيء على الأصل الذي أمامي. أية ملامح فريدة!»
كان يردد بلا انقطاع، وازداد حماسة، وقد صار يرى بنفسه كيف أخذت بعض الملامح تنتقل إلى القماشة. ولكن كلما كان يدقق في رسمها كان يخامره شعور ثقيل منذر. غير مفهوم له نفسه. ولكنه، مع ذلك عاهد نفسه على أن يتتبع بدقة حرفية كل ملمح غير ملحوظ وكل تعبير. وانشغل قبل كل شيء برسم العينين. فقد كانت هاتان العينان قويتين جداً، حتى بدا من المستحيل حتى التفكير في نقلهما كما هما في الأصل. ومع ذلك فقد عزم، مهما يكن من الأمر، على أن يلتقط فيهما أدق وآخر الصغائر والتلوينات، وينفذ إلى سرهما.. ولكنه ما إن بدأ يدخل ويتعمق فيهما بريشته حتى تولد في نفسه نفور غريب، ورَهَقٌ غير مفهوم، كانا يضطرانه إلى ترك ريشته بعض الوقت، ومعاودة الرسم فيما بعد. وفي آخر الأمر لم يعد قادراً على التحمل أكثر، وشعر بأن هاتين العينين قد نفذتا إلى روحه، وأشاعتا فيها رهبة غير مفهومة. وفي اليوم التالي ، واليوم الثالث كان هذا يشتد ويقوى وأفزعه الأمر. فألقى الفرشاة، وقال بحزم إنه لم يعد يستطيع الاستمرار في رسمه. وكان ينبغي أن تروا كيف تغيّر المرابي الغريب لدى سماعه هذه الكلمات. ارتمى على قدمي أبي، وتضرع إليه أن يتم الصورة، قائلاً إن مصيره ووجوده في الدنيا يتوقفان على ذلك، وأنه قد مسَّ بريشته ملامحه الحيّة، ولئن نقلها بأمانة فإن قوة خارقة ستحفظ له حياته في الصورة، ولذلك لن يموت كلياً وأن البقاء في الدنيا ضروري له. وشعر أبي بالهلع من هذه الكلمات. فقد بدت له غريبة ورهيبة جداً حتى إنه ألقى الفرشاة ولوحة الألوان، وانطلق تاركاً الغرفة لا يلوي على شيء.

وظل التفكير في ذلك يفزعه طيلة النهار، والليل، وفي صباح

اليوم التالي تلقى من المرابي الصورة، حملتها إليه امرأة، هي المخلوقة الوحيدة التي كانت في خدمته، وأعلنت على الفور أن مخدومها لا يريد الصورة، ويعيدها دون أن يدفع عليها شيئاً. وفي مساء ذلك اليوم عرف أبي أن المرابي مات، وأن الناس يستعدون لدفنه حسب شعائر دينه، وكل ذلك بدا له غامضاً لا يدركه عقل. وفي الواقع حصل منذ ذلك الحين تغير ملموس في طبع أبي، فقد اعترته حالة من القلق والفزع لم يستطع هو نفسه أن يعللها، وسرعان ما أقدم على فعلة لم يكن أحد يتوقعها منه. كانت أعمال أحد تلامذته قد أخذت، منذ بعض الوقت، تجذب انتباه حلقة صغيرة من العارفين والهواة. وكان أبي دائماً يتوّسم فيه موهبة، وكان لذلك يُبدي له اهتمامه الخاص. وفجأة صار يشعر بالحسد نحوه. وكان أبي لا يطيق تعاطف الجميع مع تلميذ والإشادة بذكره. وأخيراً، وكذروة للانزعاج يصل إلى علمه أن تلميذه تلقى عرضاً برسم لوحة لكنيسة غنية شيدت من جديد. ومزقه هذا الخبر، فكان يقول: «لا، لن أسمح للغرير بأن يعلو! ما يزال الوقت مبكراً، يا أخ، للتفكير بتمريغ الشيوخ بالوحل! ما تزال لديَّ القوة، والحمد لله: وسنرى من يمرغ الآخر بالوحل قبل». واستخدم هذا الرجل المستقيم الصافي النفس الأحابيل والمكائد التي كان قبل هذا يشمئز منها دائماً وأفلح أخيراً في أن تعلن مسابقة على اللوحة، فيتمكن الرسامون الآخرون من تقديم أعمالهم أيضاً. وبعد ذلك أغلق باب غرفته عليه، وتناول الفرشاة بحماس، وكان يريد، كما يبدو، أن يجمع كل قواه، كل نفسه في اللوحة. وبالفعل خرج من بين يديه واحد من أحسن أعماله. ولم يشك أحد في أن الأولوية ستكون له. وقدمت اللوحات، وكلها بدت إزاء لوحته كالليل إزاء النهار. وإذا بأحد الأعضاء الحاضرين، وهو رجل دين، إذا لم تخنني الذاكرة، يبدي ملاحظة تذهل الجميع. فقد قال: «في لوحة الرسام

قـدر كبير من الموهبة حقاً. ولكن الوجـوه ليس فيها قدسية. بل على العكـس، في العيون شيء شيطـاني وكأن شعوراً لا نقاء فيه كان يسيِّر يده». ونظر الجميع في اللوحة، وماكان من الممكن أن لا يصدقوا في كلامه. واندفع أبي إلى لوحته، وكأنما ليريد أن يتحقق بنفسه من صدق هذه الملاحظة المهينة، وياللفظاعـة حين رأى أنه رسم لكل شخوص اللوحة تقريباً عيني المرابي. فكانت هذه العيون تنظر بشيطانية ماحقة جعلتـه يرتعد رعدة لا إرادية، ورفضت اللوحة، وكان عليه أن يسمع بانزعـاج لا يوصف، أن الأولوية بقيت لتلميذه. وكان من المستحيل وصف ثائرة الجنون التي عـاد بها إلى بيته. وكاد يضرب أمي، وطرد الأطفـال، وحطـم الفرش وحاملة اللوحـات، وانتزع مـن الحائط صـورة المرابي، وطلب سكيناً، وأمر بإشعال النار في الموقد، ناوياً أن يمـزق الصورة مزقاً ويحرقها. وعلى هذه الحركة وجده صديقه حين دخل الغرفة، وهو رسام مثلـه، مرح رضي النفس دائماً، لا ينجرف في أيـة رغائب بعيدة المنال، وكان يعمـل في مرح كل ماكان يقع في يده، ويقدم على موائد الغداء والولائم بمرح أشد من ذلك.

ـ مـاذا تفعل، مـاذا تنوي أن تحـرق؟ قال هذا الرسـام وتقدم من الصورة

ـ رحمـاك، هذه واحد من أحسن أعمالك. هذا هو المرابي الذي مات قبل حين. نعم، هذا عمل غاية في الكمال. أنت لم تمس الحقيقة، بل أصبت عينها. لا تبدو حية أبداً، مثلما تبدو عينا صورتك هاتان.

ـ طيب، سأرى كيف تبدوان في النار.

قال أبي، وهمّ بإلقاء الصورة في الموقد.

ـ توقف، بحق الرب! قال الصديق بعد أن أعاقه أعطها لي أفضل، إذا كانت تضايقك إلى هذا الحد.

عاند أبي في البداية، ولكنه وافق أخيراً، وأخذ هذا الرسام المراح الصورة معه راضياً للغاية بغنيمته.

وبانصرافه شعر أبي فجأة بهدوء أكثر، وكأنما انزاح عنه برحيل الصورة عبء ثقيل. واندهش بنفسه من الحنق الذي تملكه، ومن حسده، والتغير الواضح في طبعه. واغتم، حين وعى فعلته، وقال بفجيعة في دخيلته:

ـ هذا عقاب من ربي، لوحتي جلبت العار عليَّ عن إنصاف. فقد وُضِعَت لغرض الإساءة إلى ابن حرفتي. كان شعور الحسد الشيطاني هو الذي يسيِّر يدي، والشعور الشيطاني لا بد أن انعكس فيه.

وخرج في الحال للبحث عن تلميذه السابق، وعانقه بقوة، وطلب منه الصفح، وحاول، قدر ما استطاع أن يكفر عن ذنبه إزاءه. ومن جديد سارت أعماله كالسابق بشكل رائق، ولكن الاستغراق في التفكير صار يلوح على وجهه أكثر من قبل. وصار يصلي أكثر، وغلب عليه الصمت، ولم يعد يتحدث عن الناس بتلك الحدة، وخشونة طبيعته الظاهرية ذاتها بدت وكأنها قد لانت. وبعد قليل هزه حادث أكثر من ذي قبل. كان منذ زمن بعيد لم يلتق برفيق له كان قد طلب منه الصورة. وقد تهيأ للذهاب إليه ومقابلته، وإذا بذلك الرفيق نفسه يدخل إلى غرفته فجأة. وبعد بضع كلمات وأسئلة من كلا الرجلين قال:

ـ حسناً، يا أخ، كنت على حق في نيتك حرق الصورة. لعنها الله، فيها شيء غريب... أنا لا أؤمن بالجن، ولكن قل ما تشاء، فأنا أعتقد أن فيها روحاً شريرة.

قال أبي:

ـ وكيف؟

ـ منذ أن علقتها في غرفتي أخذت أشعر بوحشة... وكأنني أنوي قتل إنسان. في حياتي لم أعرف ماهو الأرق، بينما الآن أعاني ليس

مـن الأرق وحده، بل من الأحـلام... أنا نفسي لا أدري أهي أحلام أم شـيء آخر. كأن عفريتاً يدوس على خناقي، وطوال الوقت أتخيل ذلـك العجوز اللعين. وباختصار، لا أستطيـع أن أصف لك حالتي. لم يحصـل لي مثلها قط. كنت طوال هذه الأيام أهيم كالطريد. أشعر بخـوف ما، بتوقع مزعج لشيء ما. أشعر أنني غير قادر على أن أقول لأحـد كلمة مرحة مخلصة. وكأنما يلازمني جاسوس. وما إن أعطيت الصورة لابـن عمي الذي رجاني أن أعطيها لـه، حتى شعرت وكأن صخـرة سقطت من علـى منكبي، شعرت فجـأة بالبهجة كما تراني الآن. أوه، يا أخ، رسمت لنا الشيطان!

كان أبي، أثناء هذا الحديث، يصغي بانتباه مركز، وأخيراً سأل:

- والصورة الآن عند ابن عمك؟

قال صديقه المراح:

- وأيـن منها ابن عمـي! لم يتحملهـا. كأن روح المرابي نفسه قد حلـت في الصورة. طلـع من الإطار، وراح يتمشـى في الغرفة، وما يرويـه ابن عمي لا يقبله عقل إطلاقاً، كنت سأعتبره مجنوناً لو لم أعان أنا جـزءاً مما عاناه. باعها إلى جامع لوحات، وحتى هذا لم يتحملها، فتخلص منها بأن باعها لشخص آخر.

ووقعـت هذه القصة موقعـاً شديداً في نفس أبـي. وتأمل المسألة بجـد، وركبه الغم، وأخيراً أيقن تماماً بـأن ريشته تقمصها الشيطان، أن جزءاً من حيـاة المرابي قد حل، بالفعل، في الصورة على نحو ما، وهي الآن تبث الذعر في الناس، مثيرة المشاعر الآثمة، حارفة الرسام عـن طريقه، مسببة عذابات الحسد الرهيبة وغير ذلك، وما إلى ذلك. والنكبات الثـلاث، الميتات الفجائية الثلاث التي أعقبت ذلك موت زوجتـه وابنته وابنه الصغـير اعتبرها عقاباً إلهياً لـه، وقرر الانقطاع عـن الدنيا من كل بد. ومـا إن أتممت العام التاسـع من عمري حتى

أدخلنـي أكاديمية الفنون، وصفّى ديونه، ورحل إلى دير ناء سرعان ما ترهّب فيــه، وأدهش كل رهبانه بحياته المتقشفــة وبمراعاته الصارمة لــكل قواعد الدير. وعرف راعــي الدير بفن ريشتــه، فطلب منه أن يرسم الأيقونة الرئيسة في الكنيسة. ولكن الراهب الوديع قال بشكل قاطع إنه لا يستحق الإمساك بالريشة، وإنه ملوث وإن عليه قبل ذلك أن يطهــر روحه بالعمــل والتضحيات العظيمة ليكــون لائقاً بالقيام بهــذا العمل. و لم يريدوا إجباره. وشدد بنفسه، وقدر المستطاع، من صرامــة حياتــه في الدير. وأخــيراً حتى هذه الحيــاة لم تكن كافية ولا صارمة بالشكل الكافي. فخــرج بمباركة راعي الدير إلى الصحراء[1] ليعتكــف تماماً: وفي الدير صنع لنفسه صومعة من أغصان الأشجار، وأخذ يقتات على الجـذور النيئة وحدها، وكان يحمل الأحجار من مــكان إلى مكان، ويظــل واقفاً من مطلع الشمــس حتى غروبها في مكان واحد لا يبرحه، ويداه مرفوعتان إلى السماء، يتلو الصلوات بلا انقطــاع. وباختصار كان يبحث عن كل درجات التحمل المحتملة، والتفــاني الخارق الذي لا تجدون له مثــالاً إلا في حيوات القديسين. وبهــذه الطريقــة كان يضني جسده لسنــين طويلة، مصلّبــاً إياه، في الوقت ذاتــه، بقوة الصلوات المنعشة. وأخــيراً، ذهب في أحد الأيام إلى الديــر، وقال لراعيه بثقة: «أنــا مستعد الآن. وبمشيئة الرب سأنجز عملي». وكان الموضوع الذي اختاره هو ميلاد يسوع. عكف عليه سنة كاملة، غير مغادر صومعته، يقتات بما قل واخشوشن من الطعام، وهــو لا يكف عن ترديد الصلــوات. وبنهاية العــام كملت اللوحة. وكانــت معجــزة الريشة حقــاً. وينبغي القــول إن الرهبــان وراعي الديــر نفسه لم تكن لهــم اطلاعات كبيرة في الرســم، ولكن الجميع

---

(١) لوحة شكل (بالفرنسية في الأصل).

بهــروا بما كان يشع من شخوص اللوحة من قدسية فريدة. فإن شعور الوداعة الربانية والخشوع في وجه الأم العذراء، المحنية على الرضيع، والهدايــة العميقة في عيني الطفل الإلهي، وكأنما يلمح شيئاً من بعيد، والصمت المهيــب للملوك المبهورين بمعجزة الــرب، والمنكبين على قدميــه، وأخيراً السكينــة المقدسة التــي لا توصــف، والمخيمة على اللوحة كلها، كان كل ذلك قد ظهر بقوة منسقة وجمال قاهر، جعلا وقــع اللوحة على المشاهد سحرياً. ركــع الرهبان جميعاً على ركبهم أمام الإيقونة الجديدة، وقال راعي الدير الحنون: «لا يمكن لإنسان أن يصنــع بمعونة الفن الإنساني وحده مثل هذه اللوحة. لقد كانت قدرة قدسية سامية تسيِّر ريشتك، وبركة السماء شملت عملك».

في ذلك الوقت انتهيت من دراستي في الأكاديمية، وحصلت على ميداليــة ذهبية، ومعها أمل ســار في رحلة إلى إيطاليــا، وهذه أجمل أمنيــة لرسام في العشرين من العمر، ولم يبق لي إلا أن أودّع أبي الذي فارقتــه منذ اثني عشر عاماً، وأعترف بأنه لم يبق في ذاكرتي منذ زمان حتى صورته. وقد سمعت شيئاً عن حياته المتنسكة الصارمة، فكنت أتصور مسبقاً لقائي بناسك في هيئته المتقشفة، وقد انقطع على العالم كلــه ولزم صومعته وصلواته، ونُحل وجفّ عوده من الصوم الطويل والتهجّد. ولكن ما أشد دهشتي، حين وقف أمامي شيخ جميل مفعم بما يشبه السحر! ولم تكن آثار النحول ظاهرة على محياه. بل كان يشع قدسية بهيجة سماوية. وكانت لحيته البيضاء كالثلج، وشعره الخفيف كالريشــ بلــون الفضــة أيضاً، يتناثــر بجمال على صــدره، وطيات مسوحــه الأسود، ويتهــدل حتى الحبل الــذي يشدّ بــه رداء الرهبنة البائس، ولكن أكثر ما بهرني أن أسمع من شفتيه كلمات وأفكاراً عن الفن، بصراحة، سأحفظها زمناً طويلاً في ذاتي، وأودّ من كل قلبي أن يفعل زملائي الرسامين الشيء نفسه.

قال حين تقدمت ليباركني:

- كنت أنتظرك، يا ولدي. أمامك طريق ستسير فيه حياتك منذ الآن، وطريقك طاهر، فلا تزغ عنه، إنك تملك موهبة، والموهبة عطية من الله لا تقدر بثمن، لا تفسدها. ابحث وادرس كل ما تراه، واخضع كل شيء لريشتك، ولكن تعلّم أن تجد في كل شيء الفكرة الباطنية، واسع أكثر من أي شيء آخر إلى أن تصل إلى السر السامي للإبداع. طوبى لمن اختير ليمتلكه. لا موضوع حقير عنده في الطبيعة. فالفنان المبدع عظيم في الموضوع التافه كما هو عظيم في الموضع الجليل. وفي الشيء المزدري لا يوجد ما يزدري إذا طلع من بين يديه، لأن روح المبدع الرائعة تطلع من خلاله غير مرئية ويكتسب المزدري تعبيراً رفيعاً، لأنه مرّ من خلال مطهر روحه. والإيحاء بالفردوس السماوي، يتمثل بالفن، بالنسبة للإنسان، وهذا وحده يجعل الفن أرفع شيء. وبقدر ما تكون السكينة المهيبة أعلى من أي لغط دنيوي، وبقدر ما يكون البناء أرفع من التهديم، وبقدر ما يكون الملاك بما لروحه الصافية من براءة طاهرة أرفع، بهذا فقط، من كل القوى الهائلة والأهواء المتكبرة للشيطان، يكون إبداع الفن الرفيع أعلى من كل شيء على الأرض. ضحِّ بكل شيء من أجل الفن، وتعشَّقه بكل مالك من وجْد. لا ذلك الوجْد المنبعث من رغبة دنيوية، بل ذلك الوجد الإلهي الهادئ، الذي لا يقدر الإنسان بدونه أن يسمو عن الأرض، ولا يستطيع أن يهدئ النفس برنات عِجاب. لأن إبداع الفن الرفيع ينزل على العالم لتهدئة النفوس كلها والتوائم بينها. وهو لا يمكن أن يثير الاضطراب في النفس، بل يتطلع دائماً إلى الرب صلاة صداحة... ولكن هناك لحظات قاتمة....

وتوقف، ولاحظت أن وجهه الوضيء تجهم فجأة، وكأن سحابة مرت به لحظة. وقال:

- في حياتي وقع حادث. وأنا لحد الآن لا أفهم أي شخص غريب،

ذلك الذي رسمت له صورة. لقد كان ظاهرة شيطانية. أنا أعرف أن الدنيويـة تنكر وجود الشيطان، ولهذا لا أريد أن أتحدث عنه. ولكن أقول فقط إنني كنت أرسمه بامتعاض، و لم أشعر في ذلك الوقت بأي حـب لعملي. كنت أريد أن أجـبر نفسي إجباراً وبلا رغبة في النفس وقد كظمت كل شيء أريد أن أكون أميناً للأصل. و لم يكن ذلك عملاً إبداعيـاً من أعمال الفن، ولهذا فإن المشاعر التي تنتاب الجميع، حين ينظرون إليه، هي مشاعر تمرد، مشاعر مفزعة، وليست مشاعر فنان، لأن الفنـان يضفي سكينة، حتى عند الفزع. كانوا يقولون لي إن هذه الصـورة تنتقل من يد إلى أخرى، وتثير الانطباعـات المضنية، مولدة في الرسـام شعور الحسد، والكراهية القائمة لزميله الرسام، والتعطش الحاقد إلى الظلم والملاحقة. فليحفظك العلي القدير من تلك الأهواء! فـلا شيء أفظع منها. أن تتحمل أنت كل مرارة المظالم الممكنة أفضل مـن أن تلحق بأحـد ولو شبح مَظْلَمة. احرص على نقاوة روحك. ومَـنْ يمتلك موهبة لابـد أن يكون أنقى روحاً مـن الجميع. يمكن أن يغفـر الكثـير لغيره، ولكن لا غفـران له. إن الذي خـرج من بيته في حُلّـة عيد قشيبة ما إن يلطخ بلطخة واحدة من طرطشة عجيلة، حتى يكـون الناس جميعاً قد أحاطوا به، وراحـوا يشيرون إليه بإصبعهم، ويتحدثون عن قذارة ملبسـه، بينما هؤلاء الناس ذواتهم لا يلحظون اللطخات الكثيرة على مارّة آخرين لابسين ملابس اعتيادية لكل يوم لأن اللطخات لا تلحظ في مثل هذه الملابس.

وباركنـي وعانقني. و لم أكن في حياتي كلها بذلك القدر من علو الهمـة المتساميـة، وبشعور الإجلال أكثر من شعـور الابن نحو أبيه، التصقـت بصدره، وقبلـت شعره الفضي المتناثـر، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال لي قبيل الفراق:

ـ نفِّـذ لي رجائـي الوحيد، يا ولدي، فلربمـا ستصادفك في وقت

مـا، الصورة التي كنـت أحدثك عنهـا، فإنك ستعرفهـا من العينين الفريدتـين، ومـن تعبيرهما غير الطبيعي، عندئـذٍ مزّقها، مهما كلف الأمر.

ولكم أن تحكموا هل كان بوسعي أن لا أعده مقسماً الإيمان على تنفيذ رجائه. وفي غضـون خمسة عشر عاماً برمتها لم يحدث لي أن التقيت على الأقل بما له شبه، مهما يكن، بالوصف الذي صوره أبي، وإذا أنا الآن، في المزاد....

و لم يتم الرسام جملته، وحوّل عينيه إلى الحائط ليلقي نظرة أخرى إلى الصـورة. وقام جمهور المجتمعين كله بهذه الحركة أيضاً في لمحة واحدة، باحثين بأعينهم عن الصورة الفريدة.

ولكـن، ياللدهشـة، لم تكن الصـورة موجـودة في مكانها على الحائـط، وسرت همهمة غامضة وضجيـج في الجمهور كله، أعقب ذلـك كلمات تتردد بوضوح: «سرقوها». إن أحداً من الناس لحق أن يختطفها مستغلاً استغراق المستمعين في الاستماع إلى القصة. وبقي جميع الحاضرين حائرين وقتاً طويلاً، لا يعرفون أحقاً أنهم رأوا تينك العينـين الفريدتـين، أم أن ذلـك كان مجرد حلـم لاح خطفاً لعيونهم المتعبة من إطالة النظر في اللوحات القديمة.

****

الأنف

١

في ٢٥ من آذار وقع في بطرسبورغ حادث في غاية الغرابة. فقد استيقظ الحلاق إيفان ياكوفليفيتش الساكن في شارع فوزنيسينسكايا (اسم العائلة مفقود، ولا وجود لأكثر من ذلك، حتى في لافتة محله، التي تصوّر سيداً مصوبن الخد، وعبارة «ونحجم أيضاً»). استيقظ في وقت مبكر جداً، وشمَّ رائحة خبز حار. رفع جسمه قليلاً على سريره، ورأى عقيلته المحترمة كفاية، المولعة بشرب القهوة، تخرج من الفرن خبزاً نضج لتوه.

قال إيفان ياكوفليفيتش:

ـ أنا اليوم لا أشرب القهوة، يا براسكوفيا اوسيبوفنا، وأحب أن آكل بدلاً من ذلك خبزاً حاراً مع البصل.

(وذلك يعني أن إيفان ياكوفليفيتش يريد هذا وذاك، ولكن كان يعرف أن من المتعذر طلب شيئين دفعة واحدة، لأن براسكوفيا اوسيبوفنا، كانت تكره كثيراً مثل تلك النزوات). وفكرت عقيلته في سرها: فليأكل الأحمق خبزاً، فذلك أحسن لي، ستبقى حصة من القهوة زائدة وألقت رغيفاً من الخبز على المائدة.

لبس إيفان ياكوفليفيتش سترة فراك على قميص النوم حشمة، وجلس أمام المائدة، ونثر الملح، وأعدّ رأسين من البصل، وتناول سكيناً، واتخذ سحنة معتبرة، وأخذ يقطع الخبز، قطع رغيف الخبز

نصفين، ونظر إلى الوسط، فرأى، والدهشة تأخذه، شيئاً أبيض. نكشه بالسكين حذراً، وتحسسه بإصبعه. وقال في سره: «مرصوص! ترى أي شيء هو؟».

دسّ أصابعه، وأخرجه، فإذا هو أنف!... أرخى إيفان ياكوفليفيتش ذراعيه، وراح يفرك عينيه، ويتلمسه، نعم، أنف بالضبط! بل وبدأ وكأنه يعود لشخص يعرفه. ارتسم الرعب على وجه إيفان ياكوفليفيتش ولكن هذا الرعب لم يكن شيئاً يذكر إزاء الحنق الذي تملّك زوجته. صاحت في سخط:

- أين جدعت هذا الأنف، أيها الوحش؟ محتال! سكير! سأبلغ الشرطة بنفسي عنك، أيها الحقير! سمعت من ثلاثة أشخاص حتى الآن بأنك عند حلاقة الناس تجذب أنوفهم بشدة حتى لا تكاد تصمد في مكانها.

ولكن إيفان ياكوفليفيتش كان في غاية الرعب. فقد عرف أن الأنف الذي وجده ليس إلا أنف الملاحظ كوفاليوف الذي كان يحلق ذقنه كل يوم أربعاء وأحد.

- على مهلك، يا براسكوفيا اوسيبوفنا! سأضعه على حدة، وألفه في خرقة، وأركنه قليلاً، وبعد ذلك أحمله.

- لا أريد حتى أن أسمعك! تتصورني أقبل بأن يوضع في حجرتي أنف مجدوع؟.. أيها الناشف! لا تعرف غير سنّ الموسى على الحزام. وعن قريب ستعجز عن القيام بواجبك كلياً، يا ماجن، يا أهبل! وتريدني أن أتحمل مسؤوليتك عند الشرطة؟ آه، يا وسخ، يا خشبة خرقاء! اخرجه! اخرجه! احمله إلى حيث تريد، أبعده عن عيني تماماً!

وقف إيفان ياكوفليفيتش في يأس تام من أمره. راح يفكر طويلاً، دون أن يهتدي إلى شيء.

ـ الشيطان يعرف كيف حصل هذا! قال أخيراً، بعد أن حك رأسه وراء أذنـه بيده هل رجعـت البارحة إلى البيت سكـران أم لا، لست متأكداً من ذلك. ولكن كل الدلائل تدل على أن ما حدث ليس شيئاً اعتيادياً. الخبز يُخبـز، ولكن الأنف؟ أية علاقة له بالفرن؟ أنا لا أفهم شيئاً.

وسكـت إيفان ياكوفليفيتش. فقد أصيـب بغيبوبة تامة حين تمثل في ذهنـه أن الشرطة ستجد الأنف عنده وتوجه له تهمة. بل وطافت في خياله ياقة الشرطي القرمزيـة البديعة المطرزة بالفضة، والسيف.. فأخـذ كيانه كله يرتجف... وفي آخر الأمـر أخرج قميصه الداخلي، وحـذاءه الطويل، ولبس كل هـذه القاذورات، ولـفّ الأنف وسط مواعظ براسكوفيا اوسيبوفنا الخانقة، وخرج من بيته.

أراد أن يدسـه في مكان ما: في العمود عند بوابة البيت، أو يوقعه من يده عرضاً، ويستدير في زقاق. ولكن سوء حظه شاء أن يلتقي كل مرة برجل من معارفه يأخذ باستجوابه على الفور: «إلى أين ذاهـب؟» أو «مَـنْ تنـوي أن تحلـق في هذا الصبـاح الباكر؟»، حتـى أن إيفان ياكوفليفيتـش لم يستطع أن يجد فرصة سانحـة. وفي إحدى المرات أفلـح في إلقائه، ولكن الشرطي أشار لـه بمطرده، وهو ما يزال بعيداً، وقـال: «ارفعه! سقط منك شيء!» فكان على إيفان ياكوفليفيتش أن يرفع الأنف، ويخفيه في جيبه، غلبه اليأس، لاسيما وأن الناس أخذوا يتكاثرون في الشارع باستمرار، مع افتتاح المخازن والحوانيت.

عزم علـى التوجّه نحو جسر ايساكييفسكـي، عسى أن يفلح في رميه في نهر النيفا... ولكنني أشعر بشيء من الذهب، لأنني لم أذكر حتـى الآن شيئاً عن إيفـان ياكوفليفيتش، الإنسـان المحترم في نواح كثيرة.

كان إيفان ياكوفليفيتش، كأي حرفي روسي معتبر، سكيراً عتيداً،

وعلـى الرغم من أنه كان يحلق وجوه لآخرين كل يوم، إلا أن وجهه غير حليق باستمرار. كانت سترته الفراك (لم يرتد إيفان ياكوفليفيتش سترة طويلة قط) صهباء، اقصد كانت سوداء، ولكنها الآن مبقعة كلياً ببقع بنية صفراء ورمادية، والياقة براقة من القدم، ولم يبق من الأزرار الثلاثـة غـير خيوطهـا المتدلية، كان إيفـان ياكوفليفيتشـ لا يكترث بالأعـراف تماماً، وكان من عادة الملاحظ كوفاليوف أن يقول له أثناء حلاقتـه لذقنه: «يداك منتنتـان دائماً، يا إيفـان ياكوفليفيتش!» فيرد إيفان ياكوفليفيتش عن ذلك بسؤال: «وما الذي يجعلهما منتنتين؟» فيقـول الموظـف: «لا أدري، يا أخ، ولكنهما منتنتـان» وكان إيفان ياكوفليفيتش يتشمم العطوس، ويجازيه على ذلك بصوبنة خده، وما تحت أنفه، ووراء أذنه، وتحت ذقنه، وباختصار، أي موضع يشاء.

وصـل هذا المواطن المحترم إلى جسـر إيساكييفسكي. فكان أول مـا فعله أن تلفّت فيمـا حوله، ثم انحنى على الحاجـز، وكأنما يعاين مـا تحت الجسر، ليعرف هـل السمك كثير هناك، وألقـى لفّة الأنف خلسة، وشعر رأساً وكأن ثقـلاً باهظاً قد انزاح عنه. بل وكشّر إيفان ياكوفليفيتشـ لنفســه. وبدلاً من أن يذهـب لحلاقـة ذقون الموظفين، توجه إلى محـل علّقت عليه لافتة: «مأكـولات وشاي» ليطلب قدح بونش، وإذا بـه يلمح الشرطي حارس الحي، بمظهره الوجيه، وفوديه العريضـين، وقبعتـه الثلاثيـة، وحسامـه، فتسمّر مصعوقـاً، ولكن الشرطي أشار له بإصبعه أثناء ذلك، وقال:

ـ تعال، أيها الفاضل!

كان إيفان ياكوفليفيتش يعرف الأصول، فخلع سدارته من بعيد، وقال، وهو يقترب منه خفيف الحركة:

ـ حياكم الله، يا حضرة الضابط!

ـ لا، لا ، يـا أخ، بـلا حضـرة، قل لي فقط، مـاذا كنت تفعل، في وقفتك على الجسر؟

ـ والله، يـا سيدي، كنت أريد أن أبـدأ عملي في الحلاقة، ولكنني قلت لنفسي لألقي نظرة وأرى هل جريان النهر سريع؟

ـ تكذب، تكذب! بهذا لا تخلص نفسك. تفضل، أجب!

فأجاب إيفان ياكوفليفيتش:

ـ أنـا لأجل خاطـرك مستعد لحلاقـة ذقنك مرتـين وحتى ثلاث مرات في الأسبوع، دون أي اعتراض.

ـ لا، يـا صاح، هـذه توافه! عندي ثلاثة حلاقـين يحلقونني، بل ويعتبرون ذلك شرفاً عظيماً. أما أنت فتكرم وقل لي: ماذا كنت تفعل هناك؟...

شحب وجه إيفان ياكوفليفيتش... ولكن الحادثة في هذا الموضع يكتنفها الغموض التام، ولا شيء يعرف عما حصل بعد ذلك.

٢

استيقـظ الملاحظ كوفاليوف في ساعة مبكرة جداً، وبربر بشفتيه «بررر»، وكان يفعل ذلـك كلما استيقظ من نومه، لسبب لم يستطع توضيـح بنفسه. تمطّى كوفاليوف، وطلـب أن تعطى له مرآة صغيرة كانـت موضوعة علـى الطاولة. وكان يريد أن يتفقـد بثرة كانت قد طلعـت على أنفه مساء أمس، ولكنـه دهش دهشة عظيمة حين رأى موضعاً أملس للغاية في مكان الأنف! فزع كوفاليوف، وطلب ماءن ومسـح عينيه بمنشفة. وتيقن أن الأنف قد اختفى.. أخذ يتلمس بيده ليعـرف أهو نائم؟ لا، كما يبدو. قفـز كوفاليوف من سريره، ونفض نفسـه، فلم يعثر علـى أنفه. أوعز بأن تقدم لـه ملابسه فوراً، وانطلق قدماً إلى مدير شرطة المدينة.

ولكـن مـن الضـروري ، في سياق حكايتنـا، أن أتحـدث بشيء عـن كوفاليـوف هـذا، ليعـرف القـارئ أي صنف مـن الناس هذا الملاحظ، فـإن الملاحظين المساعدين الذين حصلـوا على هذه المرتبة بشهـادات علمية لا يمكن مقارنتهم أبداً بأولئك الذين حصلوا عليها في القفقاس. إنهـم صنفان مختلفـان تماماً. فالملاحظـون الحاصلون على شهـادات علمية... ولكن روسيا بلاد عجيبـة، إذا تحدثت عن موظـف معيّن من هذه الدرجة اعتـبر كل المنتسبين إليها، من ريغا إلى كامتشاتـكا، إنـك لا محالة تعنيهـم بالذات. وذلـك ينطبق على كل الألقاب والمراتـب. كان كوفاليوف من الصنـف القفقاسي[١]. وقد حصـل علـى درجته هذه منذ سنتين فقط، ولهـذا لم يغرب ذلك عن بالـه دقيقة واحدة، ولإضفاء مزيد مـن الوجاهة والوزن على نفسه،

---

(١) يقصد إلى دير صغير في منطقة قليلة السكان. المعرب.

كان لا يسمي نفسه ملاحظاً قطعاً، بل «رائداً» على الدوام. وكان إذا التقى بائعة صدارات القمصان في الشارع يقول لها عادة: «تعالي إلى بيتي، شقتي في شارع سادوفايا. وما عليك إلا أن تسألي: أين يسكن الرائد كوفاليوف؟ وسيدلك أي إنسان.» أما إذا التقى امرأة مليحة، فقد كان يصدر لها أمراً خصوصياً مضيفاً: «اسألي، يا روحي، عن شقة الرائد كوفاليوف». ولهذا السبب ذاته سنسمي مساعد الملاحظ الرائد، فيما يلي من الحديث.

كانت للرائد كوفاليوف عادة التمشي في شارع نيفسكي كل يوم. كانت ياقة صدار قميصه نظيفة للغاية ومنشاة دائماً. وكان فوداه من ذلك النوع الذي يمكن أن تراه حتى الآن لدى المساحين في الولايات والأقاليم، والمعماريين إذا كانوا روسيا حقاً، ولدى القائمين على مختلف وظائف الشرطة، وبشكل عام لدى جميع موظفي الدولة الوجهاء ذوي الخدود الممتلئة الموردة، والمقتدرين على لعبة «البوستون» بشكل جيد جداً. وكان هذان الفودان يسيران في وسط الخدين تماماً، ويصلان حتى الأنف. وكان الرائد كوفاليوف يزداد بعدد كبير من الخواتم العقيقية منها ما رسمت عليه شعارات، ومنها ما نقش عليه كتابة: الأربعاء، الخميس، الاثنين وغير ذلك. وكان كوفاليوف قد قدم إلى بطرسبورغ لشؤونه الخاصة، وهي بالذات، البحث عن وظيفة تليق برتبته. فإذا حالفه الحظ صار نائب حاكم، وإلا فمديراً للإعالة والتموين في دائرة مرموقة. كما لم يكن الرائد كوفاليوف يمانع من الزواج، ولكن في حالة واحدة فقط، وهي أن يكون للزوجة المقبلة مئتا ألف روبل رأسمال صداقاً. ولها يستطيع القارئ الآن أن يتصور بنفسه في أي وضع كان الرائد هذا، حين وجد في مكان أنفه اللطيف المعتدل سطحاً أملس في غاية السخف.

وكأن الحظ كان يناكده، فلم تظهر أية عربة في الشارع، فاضطر

إلى السير ملتفاً في ردائه، مغطياً وجهه بمنديل، كمن أصيب برعاف، وفكر: «لكن لعل هذا ما تراءى لي، فليس من الممكن أن يختفي الأنف، ويضيع هباء». ودخل محل حلويات خصيصاً لينظر في المرآة، ومن حسن الحظ كان محل الحلويات خالياً، وكان صبيان المحل يكنسون الحجرات، ويرتبون الكراسي، وكان بعضهم يحمل صواني الفطائر الحارة، ناعسي الطرف، وعلى الموائد والكراسي تتناثر جرائد الأمس مبقعة بالقهوة. ونبسك «حمداً لله لا يوجد أحد. ويمكن أن أعاين الآن.» وتقدم من مرآة متهيباً، ونظر. ونطق بعد أن بصق: «الشيطان يعرف أي حقارة هذه! على الأقل لو كان مكان الأنف شيء ما، ولكن لا شيء!...».

عض شفتيه منزعاً، وخرج من محل الحلويات وعزم، خلافاً لعادته، على أن لا ينظر إلى أي إنسان، ولا يبتسم لأي إنسان. وفجأة وقف كالمسمّر عند باب أحد المباني: فقد حدث أمام بصره شيء يتعذر تفسيره. توقفت عربة أمام المدخل، وانفتح بابها، وقفز منها سيد في بزة رسمية، حانياً قامته، وارتقى الدرج راكضاً. وما أعظم ذلك الرعبَ الممزوج بالدهشة الذي تملّك كوفاليوف، حين عرف أنه أنفه! ومع هذا المشهد غير الاعتيادي بدا له، وكأن كل شيء تقلب في عينيه. شعر بأنه لا يكاد يثبت على نفسه، ولكنه عزم أن ينتظر عودته إلى العربة، مهما يكن من شيء، مرتجفاً بكل جسده كمن اجتاحته حمى. وبعد دقيقتين خرج الأنف بالفعل. كان في سترة رسمية موشاة بالذهب، ياقتها كبيرة مرتفعة وفي بنطال من الشموا، وعلى جنبه سيف، ومن قبعته المرّيشة كان من الممكن أن يستدل المرء على أنه من مستشاري المرتبة الراقية. وكل شيء يشير إلى أنه كان خارجاً في زيارة. تلفت يميناً ويساراً، وصاح على الحوذي «هات العربة»!»، وقعد، ورحل.

وكاد كوفاليـوف المسكين يجـن. كان لا يعرف كيف يعلل هذه الحادثـة العجيبة. فكيف أمكن حقاً للأنـف الذي كان في وجهه إلى يوم أمس فقط، وكان غـير قادر على المشي وركوب عربة، أن يلبس بزة؟ جرى وراء العربة التـي قطعت مسافة قصيرة، من حسن حظه، وتوقفت أمام كاتدرائية كازانسي.

خـفّ للدخـول إلى الكاتدرائيـة. وشـق طريقـه بـين صفوف متسولات عجائز بوجوه معصوبـة لا تبرز منها غير فتحتين للعينين، كن مـن مقبل يستـدررن ضحكه الشديـد، ودخـل الكنيسة. كان المصلّون في الداخل قليلـين. وكان الجميع واقفين عند المدخل. شعر كوفاليوف بأنه في حالة من الانزعاج أعجزته تماماً عن الصلاة. بحث بعينيه عن ذلك السيد في جميع الأركان. وفي آخر الأمر وجده واقفاً في ناحيـة. كان الأنف يخفي وجهه تمامـاً في الياقة الكبيرة المنتصبة، ويصلي بمسحة من الورع الشديد.

فكـر كوفاليوف: «كيف أتقرب منـه؟ البزة، والقبعة، وكل شيء يدل علـى أنه مستشار مـن الدرجة الراقية. الشيطـان وحده يعرف كيف أفعل ذلك.».

أخـذ يتنحنح بالقرب منه، ولكن الأنـف لم يخرج لحظة واحدة عن وقفته الورعة، استمر في أداء الانحناءات.

ـ يا حضرة المحترم! قال كوفاليوف منشطاً نفسه في سره اضطراراً يا حضرة المحترم!.

التفت الأنف، وقال:

ـ ماذا تريد؟

ـ استغـرب، يا حضرة المحترم... أتصـوّر... أن عليك أن تعرف موضعك. وإذا بي أراك بغتة، وأينَ؟ في الكنيسة. لا بد أن توافق...

ـ اعذروي، أنا لا أستطيع أن أفهم معنى ما تقوله... وضّح.

وفكـر كوفاليـوف: «وكيـف لي أن أوضـح لـه؟».. واستجمع شجاعته، وقال:

ـ بالطبـع أنا... بالمناسبة أنا برتبة رائـد. ولعلك تتفق معي أن من غـير اللائق أن أطلع على الناس بلا أنف. البائعة التـي تبيع البرتقال المقشّر على جسـر فوسكريسينسكي يمكـن أن تستغني عـن أنفها، ولكـن بالنسبة لمـن يتهيأ للترقي إلى.... سيـؤدي ذلك دون شك... فاحكـم بنفسـك. أنا لا أعرف، يـا حضرة المحترم (وهنـا هزَّ الرائد كوفاليـوف كتفيه) أرجو المعذرة.... إذا نظرت إلى ذلك وفق قواعد الواجب والشرف... تستطيع بنفسك أن تفهم....

أجاب الأنف:

ـ لا أفهم أي شيء على الإطلاق. وضح أكثر.

ـ يا حضـرة المحترم قال كوفاليوف يراوده شعـور بالكرامة أنا لا أعـرف كيف أفهم كلماتك. أظن المسألة كلهـا واضحة تماماً.... أم أنت تريد... الخلاصة أنك أنفي.

نظر الأنف إلى الرائد، وانعقد حاجباه قليلاً:

ـ أنـت مخطئ ، يـا حضرة المحترم، أنا قائم بذاتـي. ثم لا يمكن أن تكـون بيننا أية علاقة. استدل من أزرار سترتك الرسمية إنك موظف في دائرة أخرى.

وبعد أن قال الأنف ذلك، استدار، وتابع صلاته.

تحـيّر كوفاليوف كلياً لا يعرف مـاذا يفعل، بل وحتى بماذا يفكر. وفي تلك الأثنـاء تردد حفيف لطيف يرسله ثـوب نسائي، واقتربت امـرأة متوسطة العمر، رافلـة بالمخرّمات. وبصحبتهـا سيدة أ خرى نحيفة القوام في ثوب أبيض يظهر محاسن خصرها الأهيف، وفي قبعة

صفـراء موردة، خفيفة ككعكة. وخلفهمـا توقف سيّد مرافق طويل ذو فودين كبيرين ومجموعة كبيرة من الياقات، وفتح علبة العطوس.

اقـترب كوفاليوف أكثر، ورفـع ياقة صدار قميصـه من القماش الفاخر إلى الأعلى، وعـدّل خواتمه المنظومة في سلسلة ذهبية، ووجه انتباهه، وهو يتبسم في الجانبين، إلى السيدة النحيفة القوام التي انحنت قليـلاً كزهرة ربيعية، ورفعت إلى جبينهـا يدها البيضاء بأصابعها شبه الشفافـة. واتسعت الابتسامة على وجـه كوفاليوف أكثر، حين رأى مـن تحت قبعتها حنكها المدور الناصـع البياض، أكثر، حين رأى من تحت قبعتها حنكها المدور الناصع البياض، وجزءاً من خدها المشرّب بلون ورد الربيع المبكر. ولكنـه ارتد فجأة، كالملذوع. فقد تذكر أن مكان أنفه فارغ تماماً، وسالت الدموع من عينيه. استدار ليعلن للسيد ذي البـزة الرسمية على المكشوف أنه تقمصـ شخصية المستشار لا غـير، وأنه محتال ووغد، لا يزيد عن كونه أنفه... لكن الأنف لم يكن موجوداً، فقد لحق أن يركب عربته ويهرب، لزيارة شخص آخر على الأرجح.

تملك كوفاليوف اليأس. عـاد أدراجه، وتوقف لحظة تحت صف الأعمـدة، يحدق بعنايـة في كل الجهات، لعله يجـد الأنف. وكان يتذكر جيداً أن قبعته مريّشة، وسترته الرسمية مطرزة بالذهب. ولكنه لم يبـال بالمعطف، ولا بلون عربته، ولا الخيول، ولا حتى هل كان له خادم يقف وراء العربة، وفي أجبزة خدم. وبالإضافة إلى ذلك كانت العربـات المنطلقـة من هذه الجهة ومـن الجهة المعاكسـة كثيرة العدد وسريعة جـداً حتى ليصعب أن يلتقط بعينه العربة المطلوبة، وحتى إذا وفق في ذلك، فليس له أية وسيلة لإيقافها. كان النهار رائعاً مشمساً. وكان شـارع نيفسكـي مكتظاً. وكان شـلال ملوّن مـن السيدات ينصـب بكامله علـى الرصيف كله، ابتداء من جسـر بوليتسيسكي،

وحتـى جسر انيتشكوف. وهاهو رئيس الملاحظين الذي يعرفه يقبل عليـه، وكان يسميه المقـدّم، لاسيما في حضور الغربـاء. وهذا أيضاً ياريجكـين رئيس قلـم في المحكمة العليا، وصاحبـه المقرّب، الذي كان يقع في الورطة دائماً في لعبة «البوستون» كلما طلعت له ثمانية، وهـذا رائد آخر حصل علـى درجته في القفقاس، يلوح له بيده ليأتي إليه.

قال كوفاليوف:

ـ ليذهب إلى الجحيم! هاي، يا حوذي، خذني إلى مدير الشرطة.

جلسـ كوفاليوف في عربـة خفيفة، وماكان منـه إلا أن صاح : «أطلق العنان!»

وصاح، حين دخل رواق القسم:

ـ هل المدير في مكتبه؟

أجاب الشرطي الحارس:

ـ كلا. خرج لتوه.

ـ يا لنكد الحظ!

ـ نعم أضاف الحارس قبل وقت ليس بالطويل جداً، ولكن خرج. فلو جئت قبل دقيقة لربما وجدته.

وجلسـ كوفاليوف في العربـة، دون أن يرفع المنديل عن وجهه، وصاح بصوت قانط:

ـ تحرك!.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الأمام!

ـ كيف إلى الأمام؟ نحن في منعطف. أما إلى اليمين أم إلى اليسار؟..

أوقف هذا السؤال كوفاليوف، وجعله يفكر من جديد. كان عليه

في وضعه هـذا أن يراجع مصلحة الآداب، قبل كل شيء، ليس لأنها على علاقة مباشرة بالشرطة، ولكن لأن أوامرها يمكن أن تكون أسرع من أوامر الجهـات الأخرى. فإن الالتجاء في حل مشكلته إلى رئاسة الدائـرة التـي أعلن الأنف أنه موظـف فيها سيكون بـلا طائل، فقد كان من الممكـن أن يستدل المرء من أجوبة الأنـف أن هذا الشخص لا يقدس أي شـيء، وأنه سيكذب في هذه المـرة أيضاً، مثلما كذب حينـذاك مؤكداً أنـه لم يره قط. وعلى هذا النحو هـمّ كوفاليوف أن يأمـر الحوذي بالتوجه إلى مصلحـة الآداب، وإذا بفكرة تعنّ له مرة أخـرى، وهي أن هذا النصاب الوغد الـذي تصرف، في أول لقاء له، بتلـك الطريقة اللئيمـة الوقحة، يمكنه في هذه المـرة أن ينتهز الفرصة المتاحة، ويوفق في الانسلال مـن المدينة بطريقة ما، وعندئذٍ ستكون جميـع الاستقصاءات عديمـة الجدوى، أو قد تستمـر، لا سمح الله، شهـراً كاملاً. وأخيراً، بـدا وكأن السماء نفسها قـد ألهمته. عزم أن يلجـأ رأسـاً إلى المكتب الصحفـي. وينشر قبل فـوات الأوان إعلاناً يعكـس فيه جميع الأوصاف بالتفصيل، وعنـد ذاك يستطيع كل مَنْ التقـاه أني وصله إليه في التو واللحظـة، أو يبلغ بمكان وجوده، على أقـل تقدير. وعندما استقر رأيه على ذلك أوعز للحوذي أن يتجه إلى المكتـب الصحفي. وظل طوال الطريق يلكـز ظهره بقبضته، مردداً: «أسرع، يا وغد، أسرع، يا نصاب!»، فكان الحوذي يقول: «حاضر، يا سيدي!». نافضاً رأسـه، لاهباً بالسوط حصانه الطويل الوبر، مثل كلبة من نوع «بولونكا». وأخيراً توقفت العربة، وركض كوفاليوف ودخـل لاهث الأنفاسـ إلى غرفـة الاستقبال الصغـيرة، حيث كان يجلس موظـف أشيب في سترة فراك قديمـة، ونظارة، وراء مكتب، وقـد وضع الريشة بـين أسنانه، وراح يحسب قطـع نقد معدنية قد جُلبت له.

- مَنْ يتسلم الإعلانات هنا؟ صاح كوفاليوف ها، مرحبا!

ـ أهلاً وسهلا!

قال الموظف الأشيب، ورفع بصره لحظة، وخفّضه ثانية على أكوام النقود المفروزة.

ـ أريد أن أنشر....

ـ تفضلوا. أرجو الانتظار قليلاً.

قال الموظف، وهو يخط رقماً على ورقة بيد، ويدفع بأصابع يده الأخرى كرتين من العدّاد.

كان خادم ذو أشرطة ومظهر يدل على خدمته في بيت أرستقراطي يقف قرب المكتب، وفي يده إعلان، فرأى من اللياقة إظهار تبسُّطه:

ـ صدقني، يا سيد، أن الكلبة لا تساوي ثمانين فلساً، يعني لن أشتريها بثمانية فلوس، ولكن الكونيسة تحبها، نعم، والله، تحبها، فتقدم لمن يعثر عليها مئة روبل! وإذا تكلمنا بأدب، كما نحن الآن، قلنا أن أذواق الناس متباعدة تماماً. فإذا كنت صياداً يجب اقتناء كلب صيد أو سلوقياً، و لم تبخل بخمسمئة روبل، وحتى بألف، ولكنك ستحصل على كلب جيد بالمقابل.

كان الموظف المحترم يصغي إلى ذلك، وعلى وجهه سيماء الاعتبار، ويشتغل في التدقيق في الوقت ذاته: يحسب الحروف في الإعلان الوارد. وعلى الجانبين وقف عدد كبير من العجائز وباعة الحوانيت، والخدم ومعهم إعلاناتهم. أحدها يعلن عن تأجير حوذي لا يقرب الخمر، وآخر عن عربة قليلة الاستعمال جلبت من باريس في عام ١٨١٤، وثالث عن خادمة في التاسعة عشرة مدربة على الغسيل، وقابلة لمزاولة أعمال أخرى، وعن عربة متينة لا ينقصها غير نابض واحد، وعن فرس فتية لاهبة ذات طرتين رماديتين، في السابعة عشرة من عمرها، وعن بذور جديدة للفت والفجل قادمة من لندن، وعن بيت ريفي مزود بكل اللوازم ومنها مربطان للخيول،

وبقعة يمكن أن تكون فيها غابة لأشجار البتولا أو الشوح. كما هناك دعوة للراغبين في شراء أنعلة قديمة، للحضور إلى المزاد العلني كل يوم مـن الساعة الثامنـة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهـر. وكانت الحجرة التـي يزدحم بها كل هذا الخلق صغيرة، وهواؤها ثقيلاً للغاية، ولكن الملاحـظ كوفاليـوف لم يكـن يستطيـع أن يشم الرائحـة، لأنه ملثم بالمنديل، ولأن أنفه نفسه لا يعرف إلا الشيطان في أي مكان الآن.

قال أخيراً في نفاد صبر:

ـ يا حضرة المحترم، اسمح لي أن أتوجه إليك. أنا بحاجة شديدة.

ـ حـالاً! حالاً روبـلان وثلاثة وأربعـون كوبيـكاً! لحظة! روبل وأربعـة وستون كوبيـكاً! كان السيد الأشيب يقولـن /لقياً إعلانات العجائـز والخدم في وجوههـم، وقال أخيراً مخاطبـاً كوفاليوف ماذا تحب؟

ـ أرجـوك قال كوفاليوف حصل نصب أو احتيال، لا أعرف ماذا حتى الآن. أرجوك فقد أن تنشر أن مَنْ يدلني على هذا الوغد يحصل على مكافأة معتبرة.

ـ هل لي أن أعرف ما اسمك؟

ـ لا، ومـا حاجتـك إلى اسمـي؟ لا يجوز لي أن أبـوح به. عندي معارف كثـيرون. تشيختاريافا زوجة المستشـار من الدرجة الراقية، بالاغيـا غريغوريفنـا بودتوتشينا زوجـة ضابط عـالي الرتبة... فقد يسمعون، لا سمح الله! يكفي أن تكتبوا ببساطة: الموظف، أو، وهذا أفضل، المنسَب في رتبة رائد.

ـ وهل الهارب كان خادمك؟

ـ أي خـادم؟ ماكان سيكون عملية نصب كبيرة إلى هذه الدرجة، لو كان كذلك.... الذي هرب مني... أنف....

ـ احـم! اسـم عائلة غريب! وسرق منك مبلغاً كبيراً، السيد أنف هذا؟

ـ أنف.... أنا أعني... ما تفكر فيه غير ذلك! أنف، يعني أنفي لا أعرف أين ضاع. أريد الشيطان أن ينكّت علي.

ـ بأية طريقة ضاع؟ لا أستطيع أن أفهم بشكل جيد.

ـ ولكـن لا أستطيـع أن أقـول لـك بأية طريقـة. غـير أن الشيء الرئيسـي أنه يطـوف الآن في المدينـة، ويسمي نفسـه مستشاراً من الدرجـة الراقيـة. ولهذا أرجو أن تعلن أن مـن يعثر عليه يقدمه لي في أقـرب وقت. احكم كيـف لي في الحقيقة أن أستغنـي عن هذا الجزء الظاهر والمعتبر من الجسم؟ ليس هذا خنصر قدمك الذي، إذا فُقِد، لا يراه أحد، وهو في الحـذاء. أنا في أيام الخميس أزور زوجة المستشار من الدرجة الراقية تشيختاريفـا، وفي أيام الاثنين بالاغيا غريغوريفنا بودتوتشينا، زوجة ضابط عـالي الرتبة، ولهذا ابنة بديعة جداً، وهما مـن معارفي الطيّبين جداً، ولك أن تحكم مـاذا عليَّ أن أفعل الآن... يستحيل أن أزورهم.

وغرق الموظف في تفكير، ظهر ذلك من شفتيه المزمومتين بشدة. وبعد صمت طويل قال:

ـ لا ، لا أستطيع أن أنشر مثل هذا الإعلان في الصحف.

ـ كيف؟ ولماذا؟..

ـ هكذا! قد تفقد الجريدة سمعتها. فلو أن أي إنسان يأخذ بالإعلان عن هروب أنفه منه، فإن.... بـدون ذلك يقولون إن الصحافة تنشر الكثير مما لا يقبله العقل السليم، ومن الإشاعات الكاذبة.

ـ ولكـن مـاذا في هذا مما لا يقبله العقل السليـم؟ لا أظن فيه شيئاً من ذلك.

- هـذا ما تظنه أنت. في الأسبـوع الماضي وقع مثل هذا الحادث. جاء موظف بالطريقة التي جئت بها الآن وجلب إعلاناً يكلّفه روبلين وثلاثـة وسبعين كوبيكاً. وفحوى إعلانه كله هو أن كلباً أسود هرب منه. وقد يظن المرء: وماذا في ذلك؟ ولكن تبين أن وراء ذلك تشهيراً، فقد كان كلب هذا أميناً للصندوق، ولا أذكر لأية مؤسسة.

- ولكننـي لا أعلن عندكم عن كلب، بل عـن أنفي أي عن كليتي تقريباً.

- لا، لا أستطيع أن أنشر مثل هذا الإعلان.

- حتى في حالة ضياع أنفي!.

- إذا كان قـد ضـاع، فهـذه مسألة تخص الطب. يقـال إن هناك أناسـاً يستطيعون أن يركّبوا أي أنف تشـاء. ولكنني، بالمناسبة، أرى أنك، لا محالة، رجل ذو طبع فكه، وتحب التنكيت بين الناس.

- أقسم لك بالله! ومادام الأمر قد وصل إلى هذا الحد، فمن الممكن أن أريك.

- لا تتعـب نفسـك! مضـى الموظف يقـول مستنشقـاً السعوط علـى كل حـال، إذا كان لا يتعبك أضاف ذلـك بنفحة فضول فمن المستحسن أن ألقي نظرة.

أزاح كوفاليوف المنديل عن وجهه. قال الموظف:

- فعلاً، في منتهى الغرابـة! أملس تماماً كفطيرة قُلِيت لتوها. نعم، ومنبسط بشكل لا يصدق.

- طيـب، وهل ستجادل الآن؟ أنت تـري بنفسك ضرورة النشر. سأكـون ممتناً جداً لك، ومسـرور جداً لأن هـذه الفرصة أتاحت لي متعة التعرف عليك...

والظاهـر من هذا أن الرائد عزم في هذه المرة أن يعمد إلى التزلّف قليلاً. قال الموظف:

ـ النشر سهل، بالطبع، ولكن لا أرى من وراء ذلك أية فائدة لك. إذا كنت تريد فأعهد الأمر إلى صاحب ريشة حاذقة ليصف هذا كشذوذ من شواذ الطبيعة، وينشر مقالته هذه في «سيفرنايا بشيلا» (واستنشق السعوط مرة أخرى) لمنفعة الشبيبة (ومسح أنفه) أو هكذا، لحب الاستطلاع عموماً.

أصبح كوفاليوف بخيبة الأمل، أنزل بصره إلى أسفل الجريدة، حيث الأخبار عن العروض المسرحية، وكادت الابتسامة تطل على وجهه، حين رأى اسم فنانة مليحة، وانسلت يده إلى جيبه لعله يجد فيه ورقة نقدية زرقاء[1]، لأن الضباط عاليي الرتبة، في رأي كوفاليوف، يجب أن يجلسوا في مقاعد الدرجة الأولى، ولكن تفكيره في الأنف أفسد عليه كل شيء!..

وبدا وكأن الموظف نفسه قد تأثر بورطة كوفاليوف. ورغبة منه في تخفيف بلواه، وجد من اللائق أن يعبر عن تعاطفه ببعض الكلمات:

ـ في الحقيقة يحزنني جداً أن مثل هذا الحادث حصل لك. ألا تحب نشقة سعوط؟ إنه يبدد آلام الصداع، والأمزجة المتعكرة، بل ومفيد أيضاً للبواسير.

ومع قوله هذا قدم الموظف علبة السعوط، بعد أن رفع عنها بحذق غطاءها المرسومة عليه صورة سيدة في قبعة.

وهذا الفعل غير المقصود أخرج كوفاليوف عن رباطة جأشه، فقال بغضب:

ـ أنا لا أفهم كيف تجد وقتاً للنكات. ألا ترى أنني لا أملك ما

(١) إشارة إلى أن هذه الدرجة يمكن أن تمنح في القفقاس بسهولة كبيرة، وغالباً ليس بطريقة نزيهة. الناشر.

يُستنشق منه؟ اللعنة على سعوطك! أنا لا أستطيع النظر إليه، وليس إلى سعوطك الرخيص الحقير، بل وحتى لو قدمت لي سعوط «رابه» الفاخر نفسه.

قال ذلك. وخرج من المكتب الصحفي منزعجاً جداً، واتجه إلى معاون شرطة المنطقة، المتيّم جداً بالسكر، كانت غرفة الجلوس في بيته، وهي غرفة الطعام أيضاً، تتناثر فيها رؤوس السكر التي جلبها التجار له تعبيراً عن الصداقة. وكانت الطباخة في ذلك الوقت، قد خلعت عن معاون الشرطة حذائيه الطويلين، وكان السيف وجميع ملحقاته العسكرية معلّقة بهدوء في الأركان. وابنة ذو الأعوام الثلاثة يداعب القبعة الثلاثية المخيفة، أما معاون الشرطة نفسه فقد تهيأ لتذوق متعة السلام، بعد حياة قتالية عسكرية.

دخل كوفاليوف عليه، في اللحظة التي تمطى فيها وحمحم، وقال: «آه، ما ألذ أن أحظى بساعتين من القيلولة!». ولهذا السبب يمكن القول مسبقاً أن وصول الرائد كان في غير وقته تماماً، ولا أعرف بالضبط، فحتى لو جلب له المرء في تلك الزيارة بعض أوقيات من الشاي وشيئاً من الجوخ لما استقبله بترحاب شديد. كان معاون الشرطة مشجعاً كبيراً لجميع الفنون والصنائع، ولكنه كان يفضل الأوراق النقدية على كل شيء. وكان يقول عادة: «إنها شيء لا يفضله شيء آخر. لا تطلب أن يقدم لها طعام، ولا تحتل غير مكان صغير، والجيب دائماً يسعها. وإذا وقعت منك لا تنكسر».

استقبل معاون الشرطة كوفاليوف بجفاف ملحوظ، وقال إن ما بعد الغداء ليس وقتاً لفتح تحقيق، وأن الفطرة نفسها جعلت فترة مابعد الغداء للاستراحة القصيرة (ومن هذا استطاع الرائد أن يرى أن معاون الشرطة ملم بأقوال الحكماء القدامى) والرجل السوي لا يُخلع أنفه، والدنيا حافلة بأصناف من حَمَلة رتبة رائد لا يملكون

حتى ملابس داخلية في حالة معتبرة، ويترددون على مختلف الأماكن المشبوهة.

وهــذا بيت القصيد! وتجدر الإشارة إلى أن كوفاليوف كان رجلاً شديد التكدر كلياً، في إمكانه أن يتسامح في كل ما يقال عن شخصه. ولكنــه لم يكن يتسامح قط حــين يتعلق الكلام بالرتبــة واللقب. بل وكان يــرى أن من الممكــن في المسرحيات، التساهــل بكل ما يتعلق بالضبــاط المتوسطي الرتبة، ولكن لا يجــوز مهاجمة الضباط العاليي الرتبــة على الإطلاق. وقــد أربكه استقبال معاون الشرطــة له إرباكاً جعلــه ينفض رأسه، ويقــول بشعور من الكرامة، وقــد بسط ذراعيه قليلاً: «بصراحة، بعد هــذه الملاحظات المهينة من جانبك لا أستطيع أن أضيف شيئاً...». وخرج.

وصــل إلى بيته، وهو لا يكاد يحــس بالأرض تحت قدميه. وكان الغســق قد حــلّ. وبدا له مسكنــه حزيناً وحقــيراً للغايــة، بعد هذه التحريــات الفاشلة. دخل الرواق، فرأى على الأريكة الجلدية المبقعة خادمه إيفــان راقداً على ظهره، يبصــق في السقف، ويصيب بصاقه بقعــة واحدة بدقة. أحنقه هذا التسيب من الرجل. فضربه بقبعته على جبهته، بعد أن قال: «أنت، يا خنزير، دائماً تنشغل بالسفاسف!».

قفز إيفان من مكانه فجأة، واندفع بكل قوته ليخلع معطف سيده.

دخل الرائد إلى حجرتــه، فانهد على الكرسي متعباً حزيناً، وبعد زفرات قليلة قال أخيراً:

ـ ياربــي! يا ربي! على أي شيء هــذه البلوى؟ لو كنت بلا يدين، أو بلا رجلــين لكان ذلك أفضل، لو كنت بلا أذنين لكان أهون على الرغم من بشاعته. ولكن أي شيء انسأن بلا أنف. لا هو طائر يطير، ولا هــو مواطن بين المواطنــين. لا يساوي إلا أن ترميــه من الشباك! وياليــت الأنف جدع في حرب أو في مبــارزة، أو كنت أنا السبب،

ولكنــه ضاع بلا أي موجـب ولا أي سبب، ضاع هباءً، ولوجه الله!
ولكـن لا ، غير ممكن أضاف، بعد أن فكر قليلاً غير معقول أن يضيع الأنـف. غير محتمل، البتة، هـذا في الحقيقة، حلم أو مجرد توهم. ربما أخطأت فشربت، بدل الماء الفودكا التي أفرك بها لحيتي بعد الحلاقة. لم يأخذ إيفان، الأحمق القدح مني فشربتها أنا، شربتها، بالتأكيد.

وليتأكد من أنه غير سكران فعلاً قرص الرائد نفسه قرصة موجعة، حتى وجد نفسه يصرخ. وقد أقنعه هذا الألم كلياً بأنه يحس ويحيا في اليقظـة. تقدم من المرآة خلسة، وأغمض عينيه في البداية تحدوه فكرة أن لعل وعسى أن يكون أنفه في مكانه، ولكنه في نفس اللحظة وثب مرتداً إلى الوراء قائلاً:

- أي منظر قبيح.

لم يكن ذلـك مفهوماً البتة، لو ضاع زر، ملعقـة فضية، ساعة أو أي شـيء من هذا القبيـل. ولكن ما الذي ضـاع؟ ولمن ضاع؟ وفي شفتـه، علاوة على ذلك!... كان الرائـد كوفاليوف، عند تقليبه كل الظـروف والملابسـات في ذهنـه يفترض مـا يكاد أن يكـون أقرب الاحتمـالات إلى الحقيقة، وهـو أن الذنب في هذا لا بد أن يقع على زوجـة الضابط العالي الرتبـة بودتوتشينا أكثر مـن أي شخص آخر، فهي التـي كانت ترغب في أن يتزوج ابنتهـا. وهو نفسه كان يحب مغازلتهـا، ولكنه كان يتحاشى القرار النهائي. وعندما أعلنت زوجة الضابـط لـه على المكشـوف أنها تريـد أن تزوجه إياهـا، لملم نفسه بخفة وبعباراتـه المجاملة، قائلاً: إنه ما يزال شاباً، وأن عليه أن يخدم زهـاء خمسة أعوام ليكون في سن الثانيـة والأربعين بالضبط. ولهذا السبب عزمت زوجة الضابط، وعلى سبيل الانتقام على الأرجح، أن تشوهه، واستأجرت لهذا الغرض نساء ساحرات، لأن من المستحيل قطعـاً الافتراض بأن أنفه قد جُدِعَ، فـإن أحداً لم يدخل إلى حجرته.

والحلاق إيفان ياكوفليفيتش حلق وجهه في الأربعاء الفائت، وخلال يوم الأربعاء كله، بل وحتـى يوم الخميس كله كان أنفه سليماً، وهذا مـا يذكره ويعرفه جيداً، ثم كان سيشعـر بألم، والجرح، بدون شك، ماكان ليندمل بهذه السرعـة، ويصير أملسَ كالفطيرة. ورسم الخطط في ذهنـه: هل يقيم دعوة رسمية على زوجة الضابط، أم يذهب إليها بنفسه، ويفضحها؟ قطع أفكاره ضوء نفذ من خلال خصاص الباب كلهـا، مما يدل على أن إيفان أشعل شمعة في الرواق. وبعد قليل ظهر إيفان نفسه، يحمل الشمعة أمامه، ويضيء الحجرة كلها بضوء ساطع. والحركـة الأولى التي أبداها كوفاليوف إنه اختطف المنديل وغطّى به المكان الذي كان فيه أنفه حتى يوم أمس فقط، لكيلا يُذهل رجل أبله ويحلق فيه، وهو يرى هذه الأعجوبة في وجه سيده.

وماكاد إيفان يذهب إلى خُنه، حتى ترامى من الرواق صوت غير معروف يقول:

- أهذا مسكن الملاحظ كوفاليوف؟

- ادخل، الرائد كوفاليوف هنا.

قال كوفاليوف وقفز مسرعاً، وفتح الباب.

دخل رجل شرطة ذو وجه وسيم وفودين ليسا وضّاحين تماماً ولا داكنـين، وخدين ممتلئين، وهـو نفس الشخص الـذي كان في بداية القصة يقف في طرف جسر ايساكييفسكي.

- هل فقدت أنفك، يا حضرة؟

- نعم.

- عثروا عليه الآن.

- أهذا صحيح؟

صـاح الرائد كوفاليوف، وشلّت الفرحـة لسانه. فحدّق ملياً في

الشرطـي والواقف أمامه، الـذي كان ضوء الشمعـة المتمايل يسقط ساطعاً على شفتيه وخديه الممتلئين. وأضاف:

ـ وبأية طريقة؟

ـ بمصادفة غريبة. اعترضـوه وهو يوشك على السفر. وقد استقلَّ عربة سفر، ليسافر إلى ريغا. جواز سفره كان قد صدر منذ زمان باسم أحـد الموظفين. والغريـب أنني نفسي حسبته سيـداً. ولكن نظارتي كانـت معي، لحسن الحـظ، فعرفت في الحال أنه الأنـف، فأنا قصير النظـر، وإذا وقفت أنت أمامي، فإنني لا أرى غير وجهك، ولكن لا أتبيّن الأنف ولا اللحية ولا أي شيء آخر. حماتي، أقصد أم زوجتي، لا ترى شيئاً أيضاً.

واشتدت اللهفة في نفس كوفاليوف.

ـ أين هو؟ أين؟ سأجري حالاً.

ـ لا تتعـب نفسك. كنـت أعرف أنك تحتاج إليـه، فجلبته معي، ولكـن الغريـب أن الشريـك الرئيسي في هـذه القضيـة هو الحلاق النصاب في شارع فوزنيسينسكايا، وهو محتجز الان في الموقف. منذ زمان وأنا أشتبه في أنه يمارس السكر والسرقة، وقبل يومين فقط نشل من أحد الحوانيت دوزينة من الأزرار، بقي أنفك على شكله تماماً.

وبهذا الكلام دسّ الشرطي يـده في جيبه، وأخرج الأنف ملفوفاً بقصاصة ورق.

صاح كوفاليوف:

ـ هذا هو! بالضبط! تفضَّل واشرب الشاي عندي اليوم.

ـ سيكون ذلك لطفاً كبيراً، ولكنني لا أستطيع، عليَّ أن أتوجه من هنـا إلى مستشفى المجاذيب... ارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً كبـيراً... وأنا أعيل حماتـي، أقصد أم زوجتـين وأطفالي. وكبيرهم

بشكل خاص يبشر بآمال كبيرة، صبي ذكي جداً، ولكن ليس لي ما أنفقه على تعليمه إطلاقاً...

حدس كوفاليوف، والتقط من الطاولة ورقة نقدية حمراء[1]، ودسها في يد الشرطي الذي خرج وراء الباب شاحطاً قدميه، وفي تلك اللحظة تقريباً سمع كوفاليوف صوته في الشارع، حيث سدّد موعظة ناصحة إلى إنسان ريفي تجاسر أن يسير في عربته للنقل في البولفار.

بعد انصراف الشرطي بقي الرائد بضع دقائق في حالة غير محددة، وبعد بضع دقائق فقط عادَت إليه حاسة النظر والشعور. إلى هذا الحد من الذهول ونسيان الذات أسلمته فرحته المباغتة. تناول الأنف المفقود بحرص بكلتا يديه المقعرتين، ومرة أخرى نظر إليه بإمعان. وأنشأ الرائد كوفاليوف يقول:

- إنه هو، هو بالضبط! هذه هي البثرة في الجانب الأيسر، تلك التي طلعت عليه يوم أمس.

وأوشك الرائد أن يضحك فرحةً.

ولكن لا شيء في الدنيا يدوم طويلاً، ولهذا فإن هذه الفرحة أيضاً في الدقيقة التالية لم تكن بحيوية الفرحة في الدقيقة الأولى، وفي الدقيقة الثالثة صارت أخف، وأخيراً، وبشكل غير ملحوظ تلاشت وامتزجت في المزاج الاعتيادي للنفس، مثل تلك الدائرة التي يحدثها إلقاء حجر في الماء، حين تتلاشى أخيراً في السطح المنبسط. وأخذ كوفاليوف يفكر وانتهى تفكيره إلى أن المسألة لم تنته بعد، صحيح أن الأنف قد عثر عليه، ولكن يجب تركيبه. وضعه في محله.

---

(١) ورقة نقدية من قيمة معتبرة. المترجم.

وماذا لو لم يثبت في محله؟

وشحب وجه الرائد من هذا السؤال الذي طرحه هو على نفسه. اندفع إلى الطاولة شاعراً بفزع هائل، وقرّب المرآة، حتى لا يركِّب الأنف باعوجاج. كانت يداه ترتجفان. ركب الأنف بحذر وتأنٍ في موضعه السابق. أوه، يا للهول! الأنف لا يلتصق. قرّبه من فمه، ودفأه قليلاً بأنفاسه، ورفعه ثانية إلى تلك البقعة الملساء الموجودة بين الخدين، ولكن الأنف لم يثبت مهما حاولز

ـ هيا، هيا! اركب، يا أبله! كان يقول له. ولكن الأنف وكأنه من خشب كان يسقط على الطاولة بصوت غريب، وكأنه سداد من فلّين. تلوّى وجه الرائد بتشنّج، وأنشأ يقول بفزع: «معقول إنه لا يلتحم؟». ولكن كل محاولاته في إلصاقه في مكانه السابق باءت بالفشل.

نادى إيفان، وأرسله لاستدعاء الطبيب الذي كان يشغل في نفس البيت أحسن شقة، في الطابق الأول، كان هذا الطبيب رجلاً مرموقاً مكتنز اللحم، له فودان جميلان فاحمان، وزوجة نضِرة بادية العافية، يأكل التفاح الطازج في الصباح، ويحرص على جعل فمه في غاية النظافة، إذ يغرغره كل يوم ثلاثة أرباع الساعة، ويُجلي أسنانه بخمسة أنواع مختلفة من الفرش. حضر الدكتور حالاً. وسأل متى حصلت هذه البلوى، ورفع حنك الرائد كوفاليوف، ونقر بإبهامه الموضع الذي كان فيه الأنف سابقاً نقرة اضطرت رأس الرائد أن يرتد إلى الوراء بقوة شديدة جعلت يافوخه يرتطم في الجدار، قال الطبيب: لا بأس. ونصحه بالابتعاد قليلاً عن الجدار وأمره بأن يميل رأسه إلى اليمين أولاً، وتحسس موضع الأنف السابق، وقال: «إحم!» ثم أمره بأني ميل برأسه إلى اليسار، وقال: «إحم!» وفي الختام نقره بإبهامه مرة أخرى نقرة جعلت الرائد يسحب رأسه، مثلما يفعل الحصان

حين يفحصون أسنانه. وهزَّ الطبيب رأسه بعد هذا الفحص، وقال:

- لا، غير ممكن. الأفضل أن تبقى على حالك، وإلا فقد تصير أسوأ. بالطبع، يمكن تركيبه، ولعلي أستطيع تركيبه لك الآن، ولكن أؤكد لك أن ذلك سيكون أسوأ لك.

قال كوفاليوف:

- يا إلهي! وكيف أبقى بلا أنف؟ لا يمكن أن يكون أسوأ مما هو الآن. هذه مصيبة والشيطان وحده يعرف أي شيء هذا! إلى أين أولي وجهي بهذا المنظر المريع؟ عندي معارف فاخرون. اليوم، مثلاً، عليَّ أن أزور بيتين وأحضر الحفلة المسائية. فأنا أصادق الكثيرين: زوجة المستشار من الدرجة الراقية تشيختاريفا، وبودتوتشينا زوجة الضابط... وإن لم تبق أيةعلاقة لي معها إلا عن طريق الشرطة بعد فعلتها اليوم. اعمل معروفاً قال كوفاليوف بصوت ضارع ألا توجد وسيلة؟ ركّبه بطريقة ما ولو بشكل ما، بمجرد أن يلزق. بل وأستطيع أن أسنده بيدي، في الحالات الخطرة. كما أنني لا أرقص ولذلك لن أؤذيه بحركة غير حذرة. أما بخصوص رد الجميل على الاستشارة، فكن على ثقة بأنني سأقوم به بقدر ما تسعفني مواردي.

- هل تصدق قال الدكتور بصوت لا هو بالعالي ولا بالواطئ، ولكنه هادئ موح إنني لا أعالج أبداً للمنفعة فهذا يعارض أصولي وفني. صحيح أنني أتقاضى أتعاباً على الزيارات، ولكن لسبب وحيد هو أنني لا أريد أن أكدر المريض برفضي لها. با لطبع، من الممكن أن أركب أنفك، ولكن أؤكد لك بالشرف، إذا كنت لا تصدق بكلامي، أن ذلك سيكون أسوأ بكثير. الأفضل أن تترك الأمر للطبيعة لتفعل فعلها. اغتسل غالباً بالماء البارد وأؤكد لك إنك بلا أنف ستكون سليماً معافى كما لو أنك بأنف. أما بخصوص الأنف نفسه، فأنصحك بأن تضعه في قارورة فيها كحول، أو، وهذا

أحسن، أن تصب فيها ملعقتين من الفودكا القوية، والخل المسخّن، وعنـد ذاك تستطيع أن تبيعه بمبلغ محترم. بل وأستطيع أن آخذه أنا، إذا كنت لا تبالغ في الثمن.

ـ لا، لا! لن أبيعه بأي ثمن! صاح الرائد كوفاليوف يائساً الأفضل أن يتلف!

ـ اعذرني! قال الدكتـور مستأذناً بانحناءة كنت أريد أن أكون في خدمتك... لا بأس! على الأقل رأيتَ جهدي.

وبعد هذا القول خرج الطبيب مـن الغرفة بسمت الوجاهة. ولم يتبين كوفاليـوف حتى قسمات وجهه، ففي تبلُّـده العميق لم ير غير كمي قميصه الأبيض النقي كالثلج بارزين من ردني فراكه الأسود.

وقـرر أن يكتب في اليـوم التالي رسالة إلى زوجـة الضابط العالي الرتبة، قبـل رفع الدعوى عليها، يسألها ألا توافـق أن ترد له، ودون نزاع، ما يجب أن ترده. وكانت الرسالة بهذا المحتوى:

«حضرة السيدة

بالاغيا غريغوريفنا!

لا أستطيـع أن أفهم التصرف الغريب من جانبك. كوني على ثقة، بأنك في تصرفك هذا لن تكسبي شيئاًن ولن تجبريني أبداً على الزواج مـن ابنتك. تأكدي أن حكاية أنفي معروفة لي كلية، تماماً كما أعرف أنكمـا، لا غيركمـا، المتورطتـان الرئيسيتان في هـذه الفضيحة. إن انفصالـه عن موضعه، وهروبه، وتنكـره مرة في هيئة موظف، ومرة في هيئته الأصلية أخيراً ليس إلا نتيجة أعمال السحر التي قمتما بها، أو قـام بها أولئك الذين يزاولون أعمالاً نبيلـة كتلك التي تزاولانها. ومـن ناحيتـي أرى من الواجب أن أحذرك من أننـي سأضطر، إذ لا يعـود الأنف المذكور إلى موضعه اليوم إلى اللجوء إلى حماية القوانين

ورعايتهـا، مع احترامي التـام، على كل حال، والتشـرف بأن أكون خادمك المطيع.

بلاتون كوفاليوف».

«حضرة المحترم

بلاتون كوزميتش!

رسالتـك أدهشتني غاية الدهشة. وأعترف لـك بصراحة أنني لم أكن أتوقع قط، لاسيما تلك الملامات غير العادلة من جانبك. أعلمك أنني لم أستقبل في بيتي قط الموظف الذي تشير إليه، متنكراً أو في هيئته الأصلية، صحيح أنني استقبلـت فيليب إيفانوفيتش بوتانتشيكوف. ومـع أنه طلب يد ابنتي بالفعل، ومع كونه طيب الخلق، غير ميال إلى الشربـن وافر العلم، إلا أنني لم أمنّه بأمنيـة. ثم إنك تنوه عن الأنف، فإذا كنـت تعني بهذا أنني أردت أن أضللـك وأخدعك أي أعطيك رفضـاً شكلياً، فإنني لأستغرب أن يصـدر هذا الكلام منك، بينما أنا بقـدر ما تعـرف أنت، كنت ضد هـذا الرأي تمامـاً، وإذا كنت الآن تخطـب ابنتي بطريقـة شرعية، فأنا مستعـدة أن ألّبي طلبك في نفس الساعة، لأن هذا كان دائماً موضع رغبتي وأمنيتي القوية، وعلى أمل ذلك أظل دائماً مستعدة لخدمتك.

بالاغيا بودتوتشينا».

قرأ كوفاليوف الرسالة، وأنشأ يقول: «نعم، ليست ملومة بالفعل، غير ممكن! الرسالة مكتوبة بشكل لا يستطيع إنسان مذنب في جريمة أن يكتبها به وكان الرائد عارفاً بذلك، لأنه كان قد أرسل إلى التحقيق عـدة مرات لمّا كان في منطقـة القفقاس طيب، بأية طريقة، بأية أقدار حدث هذا؟ الشيطان وحده يعلم!» قال أخيراً، وقد أسبل ذراعيه.

وخلال ذلك انتشرت الإشاعات عن هذا الحادث غير الاعتيادي في أنحـاء العاصمة كلها، وكمـا يجري عادة، ليس بدون زيادات وإضافـات، آنذاك كانت عقول الجميـع لا تنجذب إلا لما هو خارق للعادة. قبل فترة قصيرة كانت تجارب تأثير القوى السحرية تستهوي الألبـاب، كمـا أن حكاية الكراسي الراقصة في شـارع كونيو شينايا مـا تزال طازجة في الأذهان، ولهذا فليس غريباً أن الناس سرعان ما أخـذوا يتحدثون زاعمـين أن أنف الملاحظ كوفاليـوف يتمشى في شارع نيفسكي في تمام الساعة الثالثةز فكان عدد كبير من الفضولين يتجمـع كل يوم. وزعم أحدهم أن الأنـف موجود في مخزن يونكر، فتزاحم الناس قرب يونكر حشوداً فاضطرت الشرطة إلى التدخل. ثم إن أحد المضاربين بالأسعار، وهو رجل ذو هيئة محترمة وفودين، كان يبيع أنواعاً من الكعك الناشف المحلّى قرب مدخل المسرح، قد صنع خصيصاً لذلك مساطب خشبية متينة جميلة، وأخذ يدعو الفضوليين للوقوف عليها لقـاء ثمانين كوبيكاً للمتفـرج الواحد. وتعمد عقيد معتبر ذو جدارة الخروج من بيته قبل الوقت المحدد، خصيصاً لذلك، وشق طريقه خلال الزحام بصعوبة شديدة. ولكنه اغتاظ كثيراً، حين رأى في واجهـة المخـزن، بدلاً مـن الأنف، بلوزة صوفيـة اعتيادية، ولوحة مطبوعـة حجرياً تصور فتاة تعدل جواربهـا وغندوراً يتطلع إليهـا مـن وراء شجرة بصداره المفتوح ولحيتـه الصغيرة، وهي لوحة ظلت معلقة في مكانها أكثر من عشرة أعوام. وحين تنحى جانباً قال بانزعاج: «كيف تمكن مضايقة النـاس بمثل هذه الشائعات السخيفة المجانبة للحقيقة؟»..

ثـم سـرت شائعة تزعم أن أنـف الرائد كوفاليـوف لا يتمشى في شـارع نيفسكي بـل في حديقة تفريتشيسكي وهـو هناك منذ زمان

طويـل يعود إلى إقامة خسرو مرزا[1] الذي كان مندهشاً كثيراً من لعبة الطبيعـة الغريبة هذه. فتوجه بعض طلاب أكاديمية الجراحة إلى هناك. وقـد أرسلت سيـدة وجيهة محترمـة رسالة خاصـة إلى ناظر الحديقة تطلـب منه أن يفرج أولادها على هذه الظاهـرة الفريدة، وإذا أمكن فمع شرح يرشد ويُعلّم الفتية.

وكل هـذه الوقائـع كانـت مبعث سـرور عظيم لـزوار حفلات الاستقبـال ومـآدب العشاء الضروريـين من أرباب المقـام، من هواة إضحـاك السيدات، أولئك الذين نفـد رصيدهم من مادة الإضحاك كلياً في ذلك الوقت. وكان جزء متوسط من الناس المحترمين الموالين للحكم ساخطـاً إلى أقصى حد. وكان أحد السادة يقول في حنق أنه لا يفهم كيف يمكن في هذا العصر المستنير أن تسري اختلاقات رعناء، وأنـه مندهش من عدم التفات الحكومة إليها. وكان هذا السيد، كما يبدو، من بين أولئك السادة الذين يودون جر الحكومة إلى كل شيء، وحتـى إلى شجارات الزوج اليومية مـع زوجته. وعقب ذلك... إلا أن كل ما حـدث عقب ذلك يكتنفـه الغموض التام، ولا شيء يعرف البتة.

(١) عشرة روبلات. المترجم.

٣

في الدنيـا تحدث أشيـاء في غاية السخف. وأحيانـاً تنافي الحقيقة بالمـرة. فجأة ظهر ذلك الأنف الذي انتحل رتبة مستشار عالي الرتبة وتجـول في ربـوع بطرسبـورغ، وأحـدث في المدينة تلـك الضجة الكبـيرة؛ ظهر في مكانـه الطبيعي، أي بين خـدي الرائد كوفاليوف بالضبـط، وكأن شيئـاً لم يحدث قط. وقد وقع ذلـك في السابع من نيسان. استيقظ الرجل، ونظر في المرآة مصادفة، فإذا به يراه، الأنف! يمسكـه بيده. أجل، الأنف بالضبط. «اهيـه!» قال كوفاليوف. ومن شـدة فرحة كاد أن يرقصـ رقصة جنونية في الحجـرة حافياً، ولكن دخـول إيفان أعاقه. أوعز على الفور أن يهيئ له ليغتسل، وحين كان يغتسل نظر في المرآة مرة أخرى. إنه الأنف! وحين كان ينشّف وجهه بالمنشفة نظر في المرآة من جديد. إنه الأنف!

ـ انظر، ياإيفان، يبدو أن على أنفي بثرة قال ذلك، وفكر في ذات الوقت «مصيبة، لو أن إيفان سيقول: لا، يا سيدي، لا توجد بثرة ولا أنف!».

ولكن إيفان قال:

ـ لا، لا توجد أية بثرة، الأنف سليم!

«طيب، تخطفك الشيطان!» قال الرائد لنفسه وطقطق بأصابعه. وفي تلك اللحظة طلع في الباب الحـلاق إيفان ياكوفليفيتش، ولكن بتخـوف كتخوف القطة، التي ضربت لتوهـا على سرقة قطعة شحم مقدد.

صاح عليه كوفاليوف وهو ما يزال بعيداً:

ـ قل أولاً: هل يداك نظيفتان؟

ـ نظيفتان.

ـ تكذب!

ـ والله، نظيفتان، يا سيدي.

ـ طيب، خذ بالك.

جلس كوفاليوف، وغطاه إيفان ياكوفليفيتش بالفوطة، وفي لمحة بصره، وبمساعدة فرشاة غطى لحيته كلها، وجزءاً من خده بصابون حلاقة وجعله يبدو كالقشدة التي تقدم في أعياد ميلاد التجار.

«عجيب أمرك!» قال إيفان ياكوفليفيتش وقد رمق الأنف، ثم أمال رأسه إلى الجانب الآخر، ونظر إلى الأنف من جنب. «هكذا! إنه بعينه، فياللعجب» مضى يقول، وحدق بالأنف طويلاً. وأخيراً، وبخفة، وبأشد حرص يستطيع أن يتصوره المرء، رفع إصبعين، ليمسكه من أرنبته، فقد كانت هذه طريقة إيفان ياكوفليفتش في الحلاقة. وإذا بكوفاليوف يصرخ:

ـ إياك، إياك، إياك. خذ بالك!

أنزل إيفان ياكوفليفتش يديه، وارتبك وذهل ذهولاً لم يشهده من قبل. وأخيراً أخذ يمرر الموسى تحت حنكه بحذر. وعلى الرغم من أنه كان يجد صعوبة وعدم لباقة في الحلاقة دون أن يمسك بعضو حاسة الشم في الجسم، إلا أنه أسند إبهامه الخشن على خده، ولثته السفلى بشكل ما، وذلل كل العقبات، وحلق الوجه في آخر المطاف.

وحين انتهت حلاقة الذقن، أسرع كوفاليوف في لبس ثياب الخروج على التو، واستأجر عرب، وتوجه إلى محل الحلويات مباشرة. وحين دخل صاح على الصبي من بعيد، «أيها الصبي، قدحاً من الشوكولاته»، وفي اللحظة نفسها نظر في المرآة: الأنف موجود!

والتفت إلى الخلف مرحاًن ونظر بهيئة انتقادية ساخرة، وبعينين مخاوصتين قليلاً، إلى عسكريين لأحدهما أنف ليس أكبر من زر الصدار. وبعد ذلك توجه إلى إدارة المديرية التي كان يسعى للحصول فيها على منصب نائب حاكم ولاية، أو على منصب مدير للإعالة والتموين، وفي حالة فشله، ولدى مروره بحجرة الاستقبال نظر في المرآة: الأنف موجود! ثم ذهب إلى موظّف آخر، أو رائد، وهو منكّت كبير كان غالباً ما يقول له رداً على مختلف الملاحظات اللاذعة له «أوه، أنا أعرفك، أنت قارص اللسان!» وفي الطريق فكّ﴾: «إذا كان الرائد أيضاً لا ينفجر ضاحكاً، حين يراني، فإن ذلك إمارة صادقة على أن كل شيء عندي في محله». غير أن صديقه لم يبدر منه شيء. وفكر كوفاليوف مع نفسه: «لا بأس، لا بأس، عليه اللعنة!» وفي الطريق التقى ببودتوتشينا زوجة الضابط، ومعها ابنتها، تبادل الانحناءات معهما، وقوبل بهتافات الفرح. يعني لا شيء معيب فيه، وليست فيه أية نقيصة. أفاض الحديث معهما مدة جد طويلة، وأخرج علبة السعوط متعمداً، وحشا أنفه أمامهما وقتاً طويلاً جداً، ومن كلا المنخرين قائلاً لنفسه: «ها أنا أمامكما، يا حمقى يا جنس الدجاج! ولكن لن أتزوج بابنتك. هكذا، بدون زواج! تفضلي!» والرائد كوفاليوف منذ ذلك الحين أخذ يطوف في شارع نيفسكي ويتردد على المسارح ويتجول في كل مكان، وكأنما لم يحصل له أي شيء، وأنفه أيضاً ثابت في وجهه وكأنما لم يحصل له أي شيء. بل و لم يبدُ عليه أنه قد غادر مكانه متجولاً هنا وهناك. وبعد ذلك كان الرائد كوفاليوف يُشاهَد وقد شملته دعاية مستحبة، متبسّماً، ملاحقاً جميع الحلوات طراً، بل وتوقف ذات مرة أمام حانوت في سوق غوستيني، واشترىٰ شريط وسام، لأسباب مجهولة، لأنه لم يكن يحمل أي وسام.

هذه هي الحكاية التي وقعت في العاصمة الشمالية لدولتنا الشاسعة! والآن فقط، حين نتمثل كل شيء نرى أنها تنطوي على أشياء كثيرة تنافي الحقيقة. كما لا حاجة إلى القول إن انفصال الأنف الخارق للطبيعة، وظهوره في أماكن مختلفة في هيئة مستشار عالي الرتبة شيء غريب حقاً. فكيف لم يفطن كوفاليوف إلى أن من غير الجائز الإعلان عن الأنف عن طريق المكتب الصحفي؟ أنا لا أقول ذلك لأن الإعلان بدا لي غالي الثمن، فذلك شيء لا يعتد به، فأنا لست من الحريصين على النقود إطلاقاً. بل لأن ذلك غير لائق، ومحرج، ومذموم. ثم كيف دخل الأنف إلى رغيف الخبز، وكيف أن إيفان ياكوفليفتش نفسه؟.. لا، هذا ما لا أفهمه أبداً، لا أفهمه إطلاقاً. ولكن الأفزع من ذلك، وإلا بعد عن الفهم من أي شيء آخر هو كيف يمكن للمؤلفين أن يختاروا مثل هذه المواضيع؟ بصراحة، هذا شيء غير مفهوم البتة. نعم، بالضبط... لا، لا، لا أفهمه إطلاقاً. أولاً لن يجني الوطن من ذلك أية فائدة، وثانياً... مثلما في أولاً، بلا أية فائدة أيضاً. لا أعرف قطعاً ما هذا...

إلا أنني، مع كل ذلك وعلى كل حال يمكنني التسليم بهذا، وبآخر، وبثالث، بل وحتى في الإمكان... نعم، ولكن أي مكان يخلو من اللا معقولات؟ ومع هذا، فمهما تأملت وترويت، فإن كل ذلك، في الحقيقة، ينطوي على شيء ما، ومهما قال هذا وذلك فإن مثل هذه الحوادث تحصل في الدنيا نادراً، ولكنها تحصل.

المعطف

(ترجمة د.أبو بكر يوسف)

في إحـدى الادارات كان يعمـل أحـد الموظفـين.. موظـف لا نستطيـع أن نقـول عنه إنـه كان بارزاً جـداً، بل كان قصـير القامة، وأحمر الشعر إلى حد ما، بل ويبدو أعمش إلى حد ما، بصلعة صغيرة فوق الجبين وتجاعيد على كلا الخدين، أما لون وجهه فكان كما يقال بواسيريـاً... وما العمل؟! الذنب في ذلك ذنب جو بطرسبورغ. أما فيما يتعلق برتبته (لأنه من الضروري عندنا أن نعلن عن الرتبة قبل كل شـيء) فقد كان ممن يسمون بـ «المستشارين الاعتباريين»[1] الخالدين الذيـن سخر منهم وهزئ بهـم ما وسعهم، كما هـو معروف، شتى الكتـاب من ذوي العادة المحمودة في التهجـم على أولئك الذين لا يحسنـون العض. وكان اسم عائلة الموظف بشماتشكين. وكان اسم الموظـف أكاكـي أكاكيفتش. أما متى وفي أي وقـت التحق بالإدارة ومن الذي ألحقه بها، فهـذا ما لم يستطع أحد أن يتذكره. فمهما تغير المـدراء والرؤسـاء فقد كان الجميع يرونه دائمـاً في نفس المكان وفي نفـس الوضع وفي نفس الوظيفة، أي موظف كتابة، حتى إنهم آمنوا

(١) أمير فارسي زار روسيا في آب ١٨٢٩، بمناسبة مقتل السفير الروسي في طهران غريبويدوف (١٧٩٥ ١٨٢٩)، المؤلف المسرحي الشهير، صاحب الكوميديا الشهيرة «المحنة من العقل». المترجم.

فيما بعـد بأنه، على ما يبدو، قد ولد هكذا جاهزاً، في حلته الرسمية وبصلعـة في رأسه. و لم يكن يحظى في الإدارة بأي احترام. فالحراس لم يكونوا ينهضون عند رؤيته، ليس هذا فحسب، بل حتى لم يكونوا ينظـرون إليـه، كما لو كانت مجـرد ذبابة هي التي طـارت عبر صالة الاستقبـال. أما الرؤساء فكانوا يعاملونـه بطريقة باردة. فأي مساعد مـن مساعدي رئيس القلم كان يدس الأوراق تحت أنفه مباشرة حتى دون أن يقـول لـه: «انسخهـا» أو «هاك عمـلاً طريفاً طيبـاً» أو أية كلمـات طيبة كما جرت العـادة في المكاتب المهذبـة. أما هو فكان يتنـاول الأوراق متطلعاً إليها وحدهـا دون أن ينظر إلى من قدمها له وهـل يملك الحق في ذلك أم لا. كان يتناولهـا ويشرع على الفور في نسخهـا. وكان الموظفون الشبان يسخـرون منه وينكتون عليه بقدر ماكانت تسمح به روح النكتة المكتبية، ويروون أمامه شتى الحكايات التي ألفوها عنه، ويقولون عن مدبرة بيته وهي عجوز في السبعين من عمرهـا، إنها تضربه ويسألونه متى سيحتفلـون بزواجهما، ويهيلون الأوراق على رأسه قائلـين إنه الثلج يسقط. ولكن أكاكي أكاكيفتش لم يكن يـرد على ذلك بكلمة واحدة، كأنما لم يكن يقف أمامه أحد. بـل إن ذلك حتى لم يؤثـر على عمله، إذ لم يكن يرتكب خطأ واحداً في الكتابـة وسط كل هـذه السخريات. وفقط عندمـا تكون النكتة غـير محتملة، وعندما كانوا يدفعونـه في ذراعه، فيعوقونه عن العمل، كان يقـول: «دعوني في حالي، لماذا تهينوننـي؟» كان يبدو ثمة شيء غريب في كلماته وفي الصوت الذي قيلت به. كان فيها شيء يستدر الشفقة، حتى إن موظفـاً شاباً التحق بالوظيفة حديثاً وكان قد سمح لنفسـه بالسخرية منه كما يفعل الآخـرون، توقف فجأة كالمصعوق، ومـن يومها بدا وكأن كل شيء قد تغير أمـام عينيه وتبدى في صورة أخـرى. ودفعتـه قوة غـير طبيعيـة مجهولة بعيـداً عن زملائـه الذين صاحبهم باعتبارهم أشخاصاً محترمين مهذبين.

وظل هذا الموظف بعد ذلك ولفترة طويلة وفي أوج لحظات المرح يتذكر الموظف القصير ذا الصلعة فوق الجبين بكلماته النافذة «دعوني في حالي، لماذا تهينونني؟».. وترن في هذه الكلمات النافذة كلمات أخرى: «أنا مثل أخيك». فكان الشاب المسكين يغطي وجهه بيديه ويرتجف مرات ومرات عديدة بعد ذلك طوال عمره وهو يرى ما في الإنسان من لاإنسانية وإلى أي مدى تختفي الفظاظة الوحشية في التهذيب الراقي المرهف ويا إلهي حتى في ذلك الإنسان الذي يعتبره المجتمع نبيلاً وشريفاً.

ومن النادر أن تجد شخصاً يتفانى في عمله إلى هذا الحد. فلا يكفي أن نقول إنه كان يعمل بغيرة، كلا، لقد كان يعمل بعشق. كان يرى في ذلك النسخ عالماً خاصاً به، عالماً متنوعاً ولطيفاً. وكانت المتعة تتجلى في وجهه. وكانت بعض الحروف أثيرة لديه، وعندما يبلغها لا يعود يسيطر على نفسه. كان يضحك ويغمز بعينه ويساعد بشفتيه على كتابتها، حتى إنه كان يبدو أنه بالإمكان أن تقرأ على وجهه الحرف الذي كان قلمه يخطه. ولو أنهم كافأوه بقدر حميته فربما أصبح، ولدهشته هو، من مستشاري الدولة[1]. ولكنه، وكما قال زملاؤه المازحون. نال من الخدمة فتلة في عروة وفاز بمرض البواسير وألم الظهر. وعموماً فلا يمكن أن نقول إنه لم يحظ بأدنى اهتمام. فقد أراد أحد المدراء، وكان رجلاً طيباً، أن يكافئه على خدمته الطويلة، فأمر بأن يعهدوا إليه بشيء ما أهم من مجرد النسخ. فكلفوه بأن يعد مذكرة من واقع ملف جاهز بالفعل لإرسالها إلى جهة أخرى. ولم يكن الأمر يتعدى أكثر من تغيير العنوان الرئيسي وتعديل بعض الأفعال من صيغة المتكلم إلى الغائب. ولكنه كلف من الجهد ما جعله

(١) رتبة مدنية في روسيا القيصرية من الرتب الدنيا تعادل رتبة النقيب العسكرية.

يعرق تماماً ويحك جبينه، وأخيراً قال: «كلا، من الأفضل أن تعطوني شيئاً ما أنسخه». ومن يومها أبقوه للنسخ إلى الأبد. وكان يبدو أنه لا يوجد بالنسبة له أي شيء خارج هذا النسخ. لم يكن يفكر في ملابسه أبداً: فحلته لم تكن خضراء اللون، بل ذات لون أحمر طحيني ما. وكانت ياقتها ضيقة، قصيرة، حتى إن عنقه. على الرغم من أنه لم يكن طويلاً، كان يبرز من الياقة ويبدو طويلاً بصورة غير عادية. وكان يعلق بحلته دائماً شيء: إما قطعة قش أو خيط ما. وعلاوة على ذلك كانت لديه مهارة خاصة أثناء سيره في الشارع في أن يتواجد تحت النافذة بالضبط في الوقت الذي يلقون فيه شتى الفضلات.

ولذلك كان يحمل على قبعته دائماً قشر البطيخ والشمام وغير ذلك من التفاهات. ولم يحدث مرة واحدة في حياته أن التفت إلى ما يجري ويحدث كل يوم في الشارع ولا حتى إلى ما ينظر دائماً إليه أخوه الموظف الشاب. كما هو معروف، والذي تمتد نظرته الثاقبة النشطة إلى حد أنه يلاحظ على الرصيف الآخر من تفتقت ربطة ساق سرواله، الأمر الذي يجعل الابتسامة الخبيثة تظهر على وجهه.

أما أكاكي أكاكيفتش فحتى لو نظر إلى شيء ما فما كان ليرى فيه سوى سطوره النظيفة المكتوبة بخط منمق، اللهم إلا إذا استقرت على كتفه فجأة سحنة حصان لا يعلم أحد من أين جاءت ونفثت بمنخاريها في خده ريحاً قوية. عندها فقط كان يلاحظ أنه ليس في وسط السطر، بل على الأرجح في وسط الشارع. وعندما يعود إلى المنزل كان يجلس على الفور إلى المائدة، فيلتهم بسرعة حساء الكرنب وقطعة لحم البقر بالبصل دون أن يحس أبداً بطعمها، وكان يأكل ذلك مع الذباب وكل ماكان الله يرسله في تلك الساعة. وعندما كان يلاحظ أن معدته بدأت تنتفخ ينهض من أمام المائدة ويستخرج دواة الحبر ويبدأ بنسخ الأوراق التي جاء بها معه إلى البيت. فإذا لم

تكن لديه مثل هـذه الأوراق كان يقوم بعمل نسخة لنفسه، فقط من أجـل المتعة الشخصية، خاصـة إذا كانت الورقـة رائعة لا من حيث جمـال صياغتها، بل من حيـث أنها مرسلـة إلى شخصية جديدة أو هامة.

وحتـى في تلك الساعات التي تنطفئ فيها تماماً سماء بطرسبورغ الرماديـة، وبعد أن تكون جماعة الموظفين كلها قد تعشت وشبعت، كل منهم حسب ما يتقاضاه من مرتب وحسب رغباته الخاصة، وبعد أن يكـون الجميع قد ارتاحوا من صرير أقلام الإدارات والركض بعد أداء الأعمـال الخاصة وأعمال الآخرين الضرورية، بعد كل ما يكلف بـه الإنسان الذي لا يهدأ نفسه عن طواعيـة، بل وبأكثر مما ينبغي... وعندمـا يسرع الموظفـون إلى تخصيص ما تبقى من وقـت للمتعة: فالأنشـط منهـم ينطلق إلى المسـرح، ومنهم من يخـرج إلى الشارع مخصصـاً هذا الوقت للتطلع إلى بعض القبعات، ومنهم من يذهب إلى حفـل ما لينفـق الوقت في إسداء المديح لفتاة مـا مليحة تعد نجمة من نجوم أوساط الموظفـين الضيقة، ومنهم من يذهـب، وهذا هو الأكثر، إلى أخيه الذي يسكن في الطابق الرابع أو الثالث، في شقة من غرفتين صغيرتين ومدخل أو مطبـخ وببعض ادعاءات الموضة كمصباح مثلاً أو قطعة أثاث كلفت أصحابها تضحيات كثيرة وحرماناً من وجبات الغـداء والنزهـات... وباختصار فحتى في الوقـت الذي يجلس فيه الموظفـون في شقق زملائهـم الصغيرة ليلعبوا الـورق وهم يرشفون الشـاي مـن الأكواب مع قطـع الخبـز المحمص الرخيصـ وينفثون الدخـان مـن الغلايين الطويلة ويـروون أثناء توزيع الـورق شائعة ما وردت من المجتمع الراقي... وباختصار فحتى ع ندما يسعى الجميع إلى اللهو فإن أكاكي أكاكيفتش لم يكن يلجأ إلى أي لهو. ولا يستطيع أحـد أن يقول إنه رآه في وقت ما في إحدى الحفلات. فبعد أن يشبع

من النسخ يأوي إلى فراشه وهو يبتسم سلفاً مفكراً في يوم الغد: فغداً سيرزقه الله بشيء ما لينسخه. هكذا كانت تمضي حياة هذا الرجل الوادعة، هذا الرجل الذي كان راضياً عن حظه بالأربعمائة روبل التي يتقاضاها في السنة، وربما مضت إلى أرذل العمر لو لا وجود شتى المصائب المتناثرة على درب الحياة ليس فقط أمام المستشارين الاعتباريين. بل والمستشارين السريين الفعليين ومستشاري البلاط[1] وغيرهم من المستشارين وحتى أولئك الذين لا يقدمون استشارات لأي شخص ولا يطلبون المشورة من أحد.

ثمة في بطرسبورغ عدو لدود لكل من يتقاضى أربعمائة روبل في السنة أو زهاء هذا. وهذا العدو ليس إلا صقيعنا الشمالي، بالرغم من أنه يقال إنه مفيد جداً للصحة، ففي بداية الساعة التاسعة صباحاً، وبالذات عندما تكتظ الشوارع بالذاهبين إلى العمل يبدأ هو في توجيه لذعات حادة قوية إلى جميع الأنوف دونما تمييز، حتى إن الموظفين المساكين لا يعرفون أبداً أين يخفونها.

وفي تلك الساعة يشعر حتى أولئك الذين يشغلون مناصب عليا بألم في جباههم من البرد، وتطفر الدموع من عيونهم، أما المستشارون الاعتباريون المساكين فيصبحون أحياناً بلا حماية. والمخرج الوحيد هو أن يركضوا في معاطفهم الهزيلة بأسرع ما يستطيعون ليقطعوا خمسة أو ستة شوارع، ثم يدقون بأقدامهم جيداً في المدخل حتى يذيبوا بهذه الطريقة كل ما تجمد في الطريق من قدرات ومواهب على أداء الأعمال الوظيفية. ومنذ فترة قريبة بدأ أكاكي أكاكيفتش يحس بوخز شديد خاصة في ظهره وكتفه، على الرغم من أنه كان يحاول أن يقطع بأسرع ما يمكن المسافة المشروعة. وأخيراً فكر: ألا

(١) رتبة مدنية تعادل رتبة نائب مدير الإدارة.

يرجع ذلك إلى بعض العيوب في معطفه. وعندما فحصه جيداً في المنزل اكتشف أنه أصبح في موضعين أو ثلاثة، وبالذات عند الظهر والكتفين، مثل الخيش تماماً، فقد رق نسيجه إلى درجة أن الهواء صار ينفذ خلاله، أما البطانة فقد تهرأت. وينبغي أن نعرف أن معطف أكاكي أكاكيفتش كان أيضاً مادة لسخريات الموظفين، بل لقد نزعوا عنه اسم المعطف النبيل وسموه قبوطاً. وبالفعل فقد كان شكله غريباً. كانت ياقته تصغر عاماً بعد عام لأنها كانت تستخدم في ترقيع الأجزاء الأخرى. ولم يظهر الترقيع مهارة الخياط، فكانت الرقع تبدو قبيحة وخرقاء. وعندما عرف أكاكي أكاكيفتش حقيقة الأمر قرر أن يأخذ المعطف إلى بتروفتش، الخياط الذي يقطن في شقة ما بالطابق الرابع من ناحية سلم الخدم والذي كان على الرغم من عوره ووجهه المجدور كله يزاول بنجاح كبير تصليح معاطف الموظفين وسراويلهم وحللهم وما إلى ذلك، بالطبع عندما يكون مفيقاً وليس في رأسه مشاريع أخرى. وما كان هذا الخياط ليستحق منا أن نتحدث عنه كثيراً، ولكن بما أن العادة جرت أن يحدد في القصة طبع كل شخصية بوضوح تام، فلا حيلة إذاً، هيا قدموا لنا بتروفتش أيضاً. كان في البداية يدعى ببساطة غريغوري، وكان من رقيق الأرض عند أحد السادة. ثم أصبح يدعى بتروفتش عندما أُعتق وأصبح يسكر بشدة في جميع الأعياد، في البداية في الأعياد الكبيرة، وبعد ذلك دون تمييز في جميع الأعياد الدينية وحيثما وضعت إشارة الصليب أمام أي يوم من أيام التقويم.

وبينما كان أكاكي أكاكيفتش يصعد السلم المؤدي إلى بتروفتش أخذ يُفكر في المبلغ الذي سيطلبه بتروفتش وقرر في ذهنه ألا يعطيه أكثر من روبلين. كان الباب مفتوحاً لأن ربة البيت تقلي سمكاً، فملأت المطبخ بالدخان إلى درجة أنه لم يعد من الممكن حتى رؤية

الصراصــير نفسهــا. ومر أكاكــي أكاكيفتش عبر المطبــخ، حتى دون أن يلاحــظ ربة البيــت ذاتها، إلى أن وصل أخــيراً إلى غرفة رأى فيها بتروفتش جالساً على طاولة خشبية عريضة غير مطلية طاوياً قدميه تحته كالباشا التركي. وكانت قدماه كعادة الخياطين الجالسين إلى عملهم، عاريتين، وأول ما لفت نظر أكاكــي أكاكيفتش تلك الإصبع الكبيرة المعروفــة جداً له ذات الظفر المشــوه، الإصبع السمينة القوية كصدفة السلحفــاة. ومن رقبة بتروفتش تدلت ثلة من الحرير والخيوط، وعلى ركبتيــه حشو ما. كان منذ حــوالي ثلاث دقائق يحاول إدخال الخيط في ثقــب الإبــرة ولا يستطيع ولذلــك كان ساخطاً علــى العتمة، بل وحتــى على الخيط نفسه وهو يدمدم بصوت خافت: «لا يدخل هذا الوغد، أيهــا الملعون، أنهكتني!». وشعر أكاكــي أكاكيفتش بالضيق من مجيئــه في هذه اللحظة التي كان بتروفتش فيهــا غاضباً، فقد كان يحسب أن يوصي بتروفتش على شيء ما عندما يكون الأخير منتعشاً بعض الشيء أو كما كانــت زوجته تقول: «عبّ من الهياب المسكر هــذا الشيطان الأعور». ففي مثل هذه الحالة كان بتروفتش في العادة يتنازل ويوافق عن طيب خاطر، بل كان ينحني كثيراً ويلهج بالشكر. صحيــح أن زوجته كانت تأتي بعد ذلــك وهي تعول وتشكو من أن زوجها كان آنذاك ثمــلاً ولذلك وافق على ثمن بخس. ولكن الأمر كان ينتهي بزيادة عشر كوبيكات فقط وتسوى الأمور. أما الآن فيبدو أن بتروفتش غير ثمل، ولذلك فهو صعب المراس، لا يلين، وسيطلب على الأرجح ثمنــاً باهظاً. أدرك أكاكــي أكاكيفتش ذلك وأراد كما يقــال أن يعود أدراجــه. ولكنه كان قد بدأ الأمــر. زر بتروفتش عينه الوحيدة مسدداً نظرتها الثاقبة إليه. فتفوه أكاكي أكاكيفتش مسلوب الإرادة:

ـ مرحباً، يا بتروفتش.

فقال بتروفتش :

ـ مرحباً بكم، يا سيدي ونظر بطرف عينه نحو يدي أكاكي أكاكيفتش رغبة منه في أن يعرف ما هو الصيد الذي جاء به هذا إليه.

ـ ها أنذا قد جئت إليك، يا بتروفتش ، بهذا.. يعني...

وينبغي أن نعرف أن أكاكي أكاكيفتش كان يعبّر عن أفكاره في أغلب الأحوال بحروف الجر والظروف وأخيراً بالأدوات التي ليس لها أي معنى على الإطلاق. أما إذا كانت المسألة صعبة جداً فقد كان من عادته ألا ينهي الجملة أبداً. ولذلك كان كثيراً ما يبدأ حديثه بهذه الكلمات: «هذا في الواقع... يعني تماماً...» وبعد ذلك لا يقول شيئاً، وينسى هو نفسه، وهو يظن أنه قد قال كل شيء.

ـ ما هذا؟ قال بتروفتش وتفحص أثناء ذلك بعينه الوحيدة حلة أكاكي أكاكيفتش كلها ابتداءً من الياقة حتى الأكمام والظهر والصدر والعراوي كل ما كان معروفاً لديه جيداً لأنه كان من صنع يديه. تلك عادة الخياطين، وهذا أول ما يفعله الخياط عندما يلقاك.

ـ وها أنذا، يا بتروفتش ، يعني... المعطف... الجوخ... انظر، في كل مكان آخر مازال متيناً، لقد تعفّر قليلاً، ويبدو وكأنه قديم، لكنه جديد، فقط في مكان واحد يعني. على الظهر ، وأيضاً هنا على كتف واحدة، تلف قليلاً، وعلى هذه الكتف أيضاً قليلاً، أترى، هذا كل شيء، عمل قليل...

أخذ بتروفتش المعطف وبسطه على الطاولة أولاً وفحصه طويلاً وهز رأسه ومد يده إلى النافذة ليأخذ علبة السعوط المستديرة والمرسوم عليها صورة جنرال ما، لا يعرف أي جنرال هو لأن المكان الذي كان وجهه مرسوماً عليه قد ثقب وغطى بقطعة ورق مربعة واستنشق بتروفتش السعوط وبسط المعطف بين يديه وفحصه في مواجهة النور

وهز رأسه ثانية. ثم قلبه، فجعل بطانته إلى أعلى وهز رأسه من جديد، ونزع من جديد غطاء العلبــة بصورة الجنرال المغطى بورقة، وبعد أن حشا أنفه بالسعوط أغلق العلبة وخبأها وأخيراً قال:

ـ كلا، لا يمكن إصلاحه، ملبس بال.

أحس أكاكــي أكاكيفتش عند سماعه هــذه الكلمات بوخزة في قلبه.

ـ ولماذا لا يمكن، يا بتروفتش ؟ قال بصوت ضارع كصوت الطفل تقريبــاً. كل ما فيه أنه أصبح خفيفــاً عند الكتفين، وأنت لديك حتماً قطع ما.

ـ نعم، يمكن أن أجد قطعاً، القطع موجودة، قال بتروفتش. لكن لا يمكن تثبيتها. النسيج مهترئ تماماً. ما أن تلمسه بالإبرة حتى يتفسّخ.

ـ فليتفسخ، أما أنت فلتضع رقعة على الفور.

ـ ليســ هناك ما توضع عليــه الرقعة، لا يوجد مــا تثبت عليه، إنه مستهلــك جــداً، الاســم فقط جــوخ، ولكن لــو هبّت عليــه الريح فسيتطاير.

ـ حاول أن تثبتها، كيف إذاً في الواقع يعني؟!

ـ كلا، قــال بتروفتش بحســـم لا يمكن عمل شــيء.. أما المعطف فيبدو أنك ستضطر إلى تفصيل واحد جديد.

عند سماع كلمة «جديد» غامت عينا أكاكي أكاكيفتش واختلط أمام نظره كل ما كان في الغرفة. لم ير بوضوح سوى الجنرال بوجهه المغطى بورقة على غطاء علبة سعود بتروفتش.

ـ معطــف جديــد... كيف؟ قال وكأنما لا يــزال نائماً. ليس لدي نقود لذلك.

ـ نعم، جديد، قال بتروفتش بهدوء وحشي.

ـ وإذا اضطررت إلى معطف جديد فكيف يعني هو...

ـ تقصد كم يساوي؟

ـ نعم.

ـ ثـلاث ورقات من فئة الخمسـين أو أكثر قليلاً سيكون عليك أن تدفـع، قال بتروفتشـ وزمّ شفتيه زمّة ذات مغـزى. كان يحب جداً التأثيرات القويـة، كان يحب أن يربك من أمامه فجأة بطريقة ما، ثم ينظر بعد ذلك بطرف عينـه إلى التعبير الذي يكسو ملامح الشخص المرتبك بعد سماع كلمات الخياط.

وصرخ أكاكي أكاكيفتش المسكين:

ـ مئـة وخمسـين روبلاً لمعطف! صرخ ربمـا لأول مرة في حياته، فقد كان معروفاً دائماً بصوته الخافت.

ـ نعـم، قال بتروفتش وهذا يتوقف أيضـاً على نوع المعطف. فإذا وضعنـا على الياقة فـراء سنسار وبطّنـا القلنسوة بالحريـر فيصل إلى المائتين.

ـ بتروفتشـ، أرجوك، قال أكاكي أكاكيفتش بصوت ضارع وهو لا يسمـع ولا يحاول أن يسمع مـا قاله بتروفتش من كلمات وجميع تأثيراته. أصلحه بأي شكل، لكي أستخدمه ولو فترة أخرى.

ـ كلا، هذا لا يمكن. سيكون ذلك إهداراً للعمل، وتضييعاً للنقود عبثـاً، قال بتروفتش ، فخـرج أكاكي أكاكيفتش مـن عنده بعد هذه الكلمات محطَّماً تماماً.

ظـل بتروفتش بعد خـروج أكاكي أكاكيفتشـ، واقفاً مدة طويلة وقـد زمّ شفتيه زمة ذات مغزى، وهو لا يشرع في العمل، فقد أرضاه أنه لم يفرط في كرامته، كما أنه لم يخنْ فنّه كخياط.

خـرج أكاكي أكاكيفتش إلى الشارع وكان كأنه في حلم. ومضى

يحدّث نفسه: «يا له من أمر، يالها من قضية. في الحقيقة لم أكن أظن أن المسألـة يعني ستكون...» وبعد فترة صمت استطرد: «هكذا إذاً، هذا حقاً غير متوقع أبداً يعني... أبداً لكن.. يا لها من مسألة!» وبعد أن قـال ذلك وبدلاً من أن يذهـب إلى البيت سار في اتجاه آخر تماماً، وهو لا يـدري. وفي الطريق احتك به منظف مداخن بجنبه الملوث، فسوّد له كتفه كلها. وانهال عليه كوم من البلاط من قمة منزل يجري بناؤه، فلم يلحظ ذلك كله. وفيما بعد عندما اصطدم بالدركي الذي كان قـد أسند بلطته إلى جواره وأخذ ينفضـ التبغ من علبة تبغه فوق راحتـه الخشنة، عندها أفاق أكاكي أكاكيفتش قليلاً، وذلك فقط لأن الحارس قال لـه: «ما لك تندفـع مصطدماً بالسحنـة، أليس أمامك رصيف؟» وقد جعله ذلك ينبه ويعود أدراجه إلى المنزل. وهنا فقط بدأ يستجمع شتـات أفكاره، فرأى وضعه في صورته الحقيقية الواضحة وأخـذ يحدث نفسه لا بعبـارات متقطعة، بل بحكمة وصراحة كأنما يتحـدث إلى زميل راجح يمكن أن تفضى إليـه بأخص أسرار القلب. قـال أكاكـي أكاكيفتشـ: «لا، لا يمكن. الكلام مـع بتروفتش الآن مستحيـل، فهـو الآن يعني... يبـدو أن زوجته ضربتـه علقة بشكل ما. الأفضل أن أذهـب إليه صباح الأحد. فبعد السبت سيكون زائغ النظـرات ونعسان وبحاجة إلى الشراب، وزوجتـه لن تعطيه نقوداً. وعندئـذٍ أدسـ يعني في يده عشـرة كوبيكات، فيصبـح الاتفاق معه أسهـل، وعندئـذٍ سيأخـذ المعطف يعنـي...» هكذا حـدّث أكاكي أكاكيفتشـ نفسه وشجعها، وانتظـر حلول يوم الأحد، وعندما رأى من بعيد زوجة بتروفتش تخرج لأمر ما من المنزل، توجّه إليه مباشرة. وبالفعل كان بتروفتش بعد السبت زائغ النظرات بشدة، ورأسه مدلى نحـو الأرض، وكان نعسان جـداً. وعلى الرغم من كل ذلك فما إن عـرف بالأمر حتى اعتدل كأنما وخـزه الشيطان وقال: «لا يمكن...

فلتتكـرم بتفصيل معطف جديد» وهنا دس أكاكي أكاكيفتش في يده عشرة كوبيكات، فقال بتروفتش: «أشكرك يا سيدي، سأشرب قليلاً في صحتك، أما بخصوص المعطف فلا تقلق، إنه لا ينفع لأية منفعة، سأخيط لك معطفاً جديداً عظيماً، على هذا اتفقنا».

وأراد أكاكـي أكاكيفتشـ أن يفتـح فمه ليتحدث عـن التصليح، ولكـن بتروفتش لم يصغ إليه وقال: «سأخيـط لك واحداً جديداً من كل بـد، وبوسعك أن تعتمـد عليّ في ذلك، سأبـذل جهدي، ومن الممكن حسب الموضة الآن أن أركب الياقة بمشابك فضية».

وعندهـا أدرك أكاكي أكاكيفتش أنـه لا يمكن التنصّل من تفصيل معطـف جديـد، فانهار تماماً. وبالفعـل كيف يمكـن أن يفصّله، بأية نقـود؟ ومن أين لـه؟ بالطبع كان مـن الممكن الاعتمـاد جزئياً على المكافـأة القادمة بمناسبـة العيد، ولكن هذا المبلغ قـد وُزّع وحدّدت أوجـه إنفاقه سلفاً منذ زمن بعيد. فقد كان من المطلوب اقتناء سروال جديد وتسديد دين قديم للإسكافي مقابل تركيب رقبة جديدة للحذاء القـديم، وكان عليه أيضاً أن يوصـي الخياط على ثلاثة قمصان وعلى قطعتين مـن تلك الملابس التي لا يليق ذكـر اسمها في نص مطبوع، وباختصـار كان مـن المفروض إنفاق المبلـغ كله، وحتى لـو تكرّم المدير وصرف له بدلاً من الأربعـين روبلاً المقرّرة خمسة وأربعين أو خمسين فلن يتبقّى منها مع ذلك سوى شيء تافه لن يكون في رصيد المعطـف سوى قطرة في بحر، على الرغم من أنه كان يعرف طبعاً أنه كان من عادة أكاكي أكاكيفتش أحياناً أن يطلب فجأة مبلغاً لا يعقل، حتى إن زوجته كانت لا تتمالك نفسها فتصيح به: «ماذا دهاك، هل جننت، أيهـا الأحمق؟! لا يرضى أن يعمل بـأي حال، والآن يدفعه الشيطـان إلى طلـب سعر لا يساويه هو نفسـه». وعلى الرغم من أنه كان يعـرف طبعاً أن بتروفتش سيفصّل له المعطف حتى مقابل ثمانين

روبلاً، ومع ذلك فمن أين يأتي بالثمانين روبلاً هذه؟ ربما أمكن تدبير نصف المبلغ، نعم، ربما وجد نصفه، بل وربما أكثر قليلاً، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟.. ولكن ينبغي أولاً أن يعرف القارئ من أين جاء النصف الأول. كان من عادة أكاكي أكاكيفتش أن يوفر من كل روبل ينفقه نصف كوبيكاً ويضعه في صندوق صغير بقفل ذي فتحة في غطائه لإلقاء النقود فيما. وكان كل نصف عام يغير قطع النقود النحاسية المتجمعة هناك بقطع فضية. هكذا كان يفعل منذ زمن طويل، وعلى هذا النحو تجمّع لديه خلال عدة سنوات مبلغ يفوق الأربعين روبلاً. وهكذا فقد كان معه نصف المبلغ، ولكن من أين يأتي بالنصف الآخر؟ وفكّر أكاكي أكاكيفتش طويلاً، ثم قرر أنه ينبغي عليه أن يخفّض نفقاته العادية، ولو خلال عام واحد على الأقل: أن يمتنع عن تناول الشاي كل مساء، ولا يشعل الشمعة مساء، فإذا تطلّب الأمر أن يعمل فليذهب إلى غرفة صاحبة البيت ويعمل هناك على ضوء شمعتها وأن يسير في الشارع بأقصى ما يمكن من الخفّة والحذر وهو يخطو فوق الأحجار والبلاط على أطراف أصابعه تقريباً لكي لا يبلى نعله بسرعة وأن يقلل ما أمكن من إعطاء ملابسه للغسالة، وحتى لا تبلى فعليه أن يخلعها كلما عاد إلى المنزل ويبقى فقط في الروب القطني العتيق جداً والذي رأف بحاله حتى الزمن نفسه، وللحقيقة ينبغي أن نقول إنه كان من الصعب عليه إلى حد ما في البداية أن يعتاد على هذه القيود، ولكنه ألفها فيما بعد وسارت الأمور على ما يرام، بل إنه تعود تماماً على الجوع في المساء وفي المقابل فقد كان يتغذّى معنوياً، وهو يحلم في خاطره الفكرة الخالدة عن المعطف المقبل. ومنذ تلك اللحظة بدا وكأن وجوده نفسه أصبح أكثر اكتمالاً، وكأنما تزوّج، كأنما أصبح يلازمه شخص ما، كأنما لم يعد وحيداً، بل وافقت شريكة حياة لطيفة على أن تمضي معه في

درب الحيــاة، و لم تكن شريكة الحياة تلك سوى المعطف ذي الحشوة القطنيــة السميكة والبطانة المتينة التي لا تعرف البلى. وأصبح أكاكي أكاكيفتش أكثر حيوية، بل وأصبحت شخصيته أكثر صلابة كشخص حدّد لنفسـه هدفاً وسعى إليه. واختفت من وجهـه ومسلكه تلقائياً الشكـوك والـتردد أي كل الملامح المتذبذبة وغـير المحددة، وكانت عيناه تتوقـدان أحياناً، وكانت أكثر الخواطر جـرأة وجسارة تومض في ذهنه: «فماذا لو ركّب فعلاً ياقة من فراء السنسار!» وكاد التفكير في ذلـك أن يجعله نهباً لشرود الذهـن. فذات مرة أوشك أن يخطئ وهو ينســخ الأوراق حتى إنه صاح بصوت مسموع تقريباً: «أوه!» ورسم علامة الصليب. وكان كل شهر يزور بتروفتش مرة على الأقل لكـي يتحدث عن المعطف: وأين يستحســن أن يشتري الجوخ ومن أي لـون وبأي ثمن، وكان يعود من عنـده مهموماً بعض الشيء، إلا أنــه كان يعود راضياً دائماً وهو يفكّر في أنه سيأتي أخيراً ذلك الزمن الـذي سيشتري فيه كل ذلك ويصبح المعطف جاهزاً. بل لقد سارت الأمور بأسرع مما كان يتوقع. فخلافاً لكل الأحلام قرر المدير لأكاكي أكاكيفتش لا أربعين أو خمسة وأربعين روبلاً، بل ستين روبلاً كاملة. وسواء أحسّ المدير أن أكاكي أكاكيفتش بحاجة إلى معطف أم أن ذلك حدث عفواً فقد أصبح لديه نتيجة لذلك عشرون روبلاً زياد. وعجّل هــذا الوضع بسير الأمــور. فبعد شهرين أو ثلاثة مــن الجوع البسيط أصبــح لدي بالضبط ثمانين روبلاً. وبــدأ قلبه الذي كان هادئاً للغاية بصفة عامة، يدق، وفي اليوم نفسه ذهب مع بتروفتش إلى المحلات. وابتاعا قماشاً جيداً جداً. ولا عجب. فقد كانا يفكران في ذلك قبلها بنصــف عام، ونادراً ما مرّ شهر من دون أن يذهبا إلى المحلات للنظر في الأسعــار. وفي المقابـل فقد قال أكاكي أكاكيفتشـ نفسه أنه ليس هناك جوخ أفضل منـه. واختار للبطانة قماشاً بفتة، ولكنه كان متيناً

وسميكاً وحسب كلام بتروفتش أفضل من الحرير، بل وكان منظره أبهى وأكثر لمعاناً. و لم يشتريا فراء السنسار لأنه كان بالفعل غالياً، وبدلاً منه اختارا فراء قط أفضل لم يجدا غيره في المحل، فراء قط يمكن دائماً أن تظنه فراء سنسار إذا نظرت إليه من بعيد. واستغرق بتروفتش أسبوعين في خياطة المعطف لأنه تطلب الكثير من التنجيد، ولولا ذلك لفرغ منه قبل ذلك. وأخذ بتروفتش اثني عشر روبلاً أجراً، و لم يكن من الممكن إعطاؤه أقل من ذلك: فقد كانت الخياطة كلها بخيوط من الحرير وبخياطة دقيقة مزدوجة، ومر بتروفتش على كل الخياطة بأسنانه بعد ذلك مزيلاً بها شتى النتوءات. وكان ذلك في... من الصعب أن نقول في أي يوم كان ذلك بالضبط، ولكنه على الأرجح كان أكثر الأيام مهابة في حياة أكاكي أكاكيفتش ، وذلك عندما جاءه بتروفتش أخيراً بالمعطف. جاء به في الصباح بالضبط تماماً قبيل الوقت الذي كان على أكاكي أكاكيفتش فيه أن يذهب إلى الإدارة. وجاء هذا المعطف في وقت ليس هناك ما هو أكثر منه مناسبة: فقد بدأ بالفعل الصقيع الشديد، وبدا أنه ينذر بمزيد من البرد. وجاء بتروفتش بالمعطف كما ينبغي أن يأتي خياط جيد. فقد ظهر على وجهه تعبير أهمية لم يره أكاكي أكاكيفتش عليه من قبل قط. وبدا أنه يدرك إلى أقصى حد أنه أنجز عملاً كبيراً وأنه كشف فجأة في نفسه عن الهوة التي تفصل بين الخياطين الذين يركّبون البطانات فقط ويصلحون الملابس والخياطين الذين يخيطون الملابس الجديدة.

وأخرج بتروفتش المعطف من المنديل الذي لفّه به. وكان المنديل خارجاً من أيدي الغسالة لتوّه. وقد لفّه بتروفتش بعد ذلك ووضعه في جيبه للاستعمال. وبعد أن أخرج المعطف نظر إليه بزهو شديد وأمسكه بكلتا يديه، ثم ألقى به بمهارة شديدة على كتفي أكاكي أكاكيفتش ثم شدّه وسوّاه بيده من الخلف إلى أسفل. ثم مرّ بيده

علـى المعطف، وهـو مسدل على كتفـي أكاكـي أكاكيفتش. ولكن أكاكـي أكاكيفتش كرجـل متقدّم في العمـر أراد أن يجرب المعطف وقد ارتـداه بأكمامه، فساعده بتروفتش على ارتدائه بأكمامه، فظهر أنه جيد بالأكمام أيضـاً، وباختصار فقد اتضح أن المعطف كان على مقاسـه بالضبط. ولم ينـس بتروفتش بهذه المناسبـة أن يقول إنه فقط لأنـه يعيش بدون لافتة وفي شارع صغـير وفوق ذلك يعرف أكاكي أكاكيفتش منذ فترة طويلة فقد تقاضى أجراً قليلاً إلى هذا الحد. أما في شارع «نيفسكي» فكانوا سيأخذون منه خمسة وأربعين روبلاً على الخياطة فقط. ولم يشأ أكاكي أكاكيفتش أن يجادل بتروفتش في ذلك، وعـلاوة على ذلك فقد كان يخاف من تلـك المبالغ القوية التي كان يحلو لبتروفتش أن يوهم بها الزبائن. فنقده أجره وشكره وخرج على الفور في المعطف الجديد إلى الإدارة. وخرج بتروفتش في أثره ووقف في الشارع ينظر طويلاً إلى المعطف من بعيد. ثم انعطف عن عمد إلى حـارة ملتوية لكي يختصر الطريق ويعود إلى الشارع ثانية وينظر مرة أخـرى إلى المعطـف ولكن من ناحية أخرى أي مـن الوجه مباشرة. بينما كان أكاكي أكاكيفتش يسير ومشاعر البهجة تغمره. كان يشعر كل لحظـة بأن على كتفيه معطفاً جديداً، بل وضحك عدة مرات من السـرور الداخلي. وبالفعل فقد كانت هناك منفعتان: واحدة هي أنه دافـئ والأخـرى أنه حسن. ولم يلحظ الطريق أبـداً ووجد نفسه في الإدارة فجـأة. وفي غرفة الحاجب خلع المعطف وتفحصه من جميع الجهـات ووضعه في رعاية الحاجب الخاصـة. ولا نعرف كيف علم جميع من في الإدارة فجأة أن لدى أكاكي أكاكيفتش معطفاً جديداً، وأن معطفه السابق لم يعـد له وجود بعد، وفي اللحظة نفسها هرول الجميـع إلى غرفـة الحاجب ليروا معطف أكاكـي أكاكيفتش الجديد. وراحـوا يهنئونـه ويحيونـه، حتى أنـه في البداية أخـذ يبتسم فقط،

ثــم شعر بعد ذلك بالخجـل، وعندما أخذ الجميع، وقـد أحاطوا به، يقولـون إنــه لا بد من تدشين المعطـف الجديد وأنه ينبغـي عليه على الأقل أن يقيم لهـم جميعاً حفلاً، ارتبك أكاكي أكاكيفتش تماماً، و لم يعرف مـاذا يفعل وبم يردّ وكيـف يتملّص. وبعد بضـع دقائق، وقد احمـرّ كله، راح يؤكد لهم بسلامة نية أن هـذا المعطف ليس جديداً أبـداً وإنما جديداً أبداً وإنما هكذا مجرد معطف قديم. وأخيراً قال أحد الموظفـين، بل كان أحـد مساعدي رئيس القلم، ربمـا لكي يظهر أنه ليس متكبراً أبداً، بـل ويتعامل مع من هم أدنى منـه، قال: «طيب، فليكـن. أنا سأقيم لكـم حفلاً بدلاً من أكاكـي أكاكيفتش وأدعوكم اليوم لتنـاول الشاي، واليـوم بالمناسبة عيد ميـلادي». وعلى الفور هنّـأ الموظفون مساعد رئيس القلم وقبلوا دعوتـه بكل سرور. وأراد أكاكـي أكاكيفتش أن يعتذر، ولكن الجميع راحـوا يقولون إن ذلك لا يليـق وإنه شيء معيب ومخجل، فلم يستطع أبداً أن يرفض الدعوة. وعلى العموم فقد شعر فيما بعد بالسرور عندما تذكّر أن ذلك سيتيح لـه فرصة السير مساءً أيضاً في المعطـف الجديد. وكان هذا اليوم كله بالنسبـة لأكاكي أكاكيفتش كأنما أكبر وأبهى عيد. وعاد إلى البيت في أسعد حالة ونزع المعطف وعلقه بحرص على الجدار، وقد ملّى عينيه مـرة أخرى من الجوخ والبطانة، ثم أخرج معطفه القديم عمداً بقصد المقارنة، ذلك المعطف الذي تهرّأ تماماً. تطلّع إليه، فضحك هو نفسه منـه، فما أبعد الفرق بينهما! وظل بعد ذلك وطوال الغداء بمرح، و لم ينسخ شيئاً بعد الغداء، لم يمسك بأية أوراق، بل تمرغ فراشه قليلاً حتى هبـط الظلام، ثم ارتدى المعطـف دون تسويف وخرج إلى الشارع. وللأسـف فإننا لا نستطيـع أن نقول أين كان يسكـن الموظف الذي دعـاه، فقد بدأت الذاكرة تخوننا بشـدة، فاختلط علينا كل شيء في بطرسبورغ. واندمجت كل البيوت والشوارع في الرأس. حتى أصبح

من الصعوبة بمكان أن نستخرج منها شيئاً مافي الصورة متسقة، وأياً كان الأمر إلا أن الشيء الصحيح على الأقل هو أن الموظف كان يسكن في أحسن مناطق بطرسبورغ، وبالتالي بعيداً جداً عن أكاكي أكاكيفتش كان على أكاكي أكاكيفتش في البداية أن يمر عبر بعض الشوارع المقفرة ذات الإضاءة الهزيلة. ولكن بقدر اقترابه من شقة الموظف أصبحت الشوارع أكثر حيوية وحركة وإضاءة. وبدأ المارة يلوحون أكثر. ولاحت السيدات الأنيقات، وظهرت على الرجال ياقات من فراء السمور، ولم تظهر إلا نادراً الزحافات الشعبية الخشبية المليئة بالمسامير المذهبة، وعلى العكس من ذلك كثر الحوذيون المندفعون بسرعة بطواقيهم المخملية القرمزية، وبزحافاتهم المطلية باللاك اللامع وبالأغطية المصنوعة من جلود الدببة، وكانت العربات ذات مقاعد الحوذية المزينة تنهب الشارع وعجلاتها تصر على الثلج. وتطلّع أكاكي أكاكيفتش إلى ذلك له، وكأنما يراه للمرة الأولى إذ لم يخرج من داره مساء منذ عدة سنوات. وتوقف بفضول أمام واجهة متجر مضاءة ليتفرج على لوحة كانت تصور امرأة ما جميلة تخلع حذاءها كاشفة بذلك عن ساقها كلها، وكانت ساقاً لا بأس بها أبداً. ومن خلفه أطل من باب غرفة أخرى رجل بسالفين ولحية جميلة تحت شفته. وهزَّ أكاكي أكاكيفتش رأسه وضحك ضحكة قصيرة، ثم مضى في حال سبيله. فهل يا ترى ضحك لأنه رأى شيئاً غير معروف له، ولكنه مع ذلك يترك في نفس كل من يراه حدساً ما، أم أنه ضحك لأنه فكر مثل كثيرين من الموظفين بهذه الصورة: «آه من هؤلاء الفرنسيين! ماذا بوسعك أن تقول... فهم إذا أرادوا شيئاً ما يعني فهو بالضبط يعني..» وربما لم يفكر حتى في هذا، فمن الصعب أن تقحم نفسك في دخيلة إنسان ما لتعرف فيم يفكر.

وأخيراً وصل إلى البيت الذي كان يقطنه مساعد رئيس القلم.

كان مساعد رئيس القلم يحيا في بحبوحة من العيش: فعلى سلّم المدخل كان مصباح مضاء، وكانت شقته في الطابق الثاني. وعندما دخل أكاكي أكاكيفتش إلى الردهة رأى على الأرض صفوفاً من الخفوف. وبينها، في وسط الغرفة كان هناك سماور يغلي وينفث سحباً من البخار. وعلى الجدران عُلقت معاطف وأردية. كان من بينها معاطف بياقات من فراء السمور أو بطيات صدور من المخمل. وتناهى من وراء الجدار صخب ولغط أصبحا فجأة واضحين ورنانين عندما فتح الباب.وخرج منه خادم يحمل صينية غاصة بالأكواب الفارغة ودورق حليب وسلة خبز مجفف. وكان واضحاً أن الموظفين مجتمعون مدة طويلة وقد شربوا أول كوب شاي. وبعد أن علّق أكاكي أكاكيفتش معطفه بنفسه داخل الغرفة، وفي نفس الوقت لاحت أمام ناظريه الشموع والموظفون والغلايين وموائد لعب الورق، وأصمّ سمعه حديث متصاعد من جميع الجهات وجلبة مقاعد يحرّكونها. فتوقّف في وسط الغرفة مرتبكاً تماماً، وهو يبحث ويحاول أن يجد لنفسه شيئاً يفعله. ولكنهم كانوا قد لاحظوا وجوده، فاستقبلوه بالصياح ومضوا على الفور إلى الردهة وتفرّجوا على معطفه مرة أخرى. وعلى الرغم من أن أكاكي أكاكيفتش كان محرجاً بعض الشيء، ولكنه، إذ كان شخصاً سليم النية، لم يستطع إلا أن يفرح، وهو يرى أن الجميع يمتدحون المعطف. وبعد ذلك بالطبع تركوه ومعطفه واتجهوا كما هو متبع إلى موائد لعب الورق، وكان كل ذلك: الصخب واللغط وهذا الحشد من الناس، كان كل ذلك عجيباً بالنسبة لأكاكي أكاكيفتش. لم يكن يدري كيف يتصرّف ولا ماذا يفعل بيديه وساقيه وجسمه كلّه. وأخيراً جلس إلى اللاعبين وتطلع إلى أوراق اللعب وحدّق في وجه هذا وذلك وبعد فترة من الوقت بدأ يتثاءب ويشعر بالملل خاصة وإنه قد حان منذ زمن بعيد

الموعـد الـذي كان عادة يأوي فيه إلى الفراش. وأراد أن يستأذن من رب الـدار في الانصراف، ولكنهم لم يسمحوا له قائلين إنه لا بد من تناول كأس شمبانيا بمناسبة المعطف الجديد. وبعد ساعة قدّموا العشاء المكـوَّن مـن سلطة روسية ولحـم عجول بارد وكبـد مهروس وقطع جاتـوه وشمبانيا. وأجبروا أكاكـي أكاكيفتش على شرب كأسين من الشمبانيا أحس بعدهما أن الجو في الغرفة أصبح أكثر مرحاً، إلا أنه لم يستطـع أبداً أن ينسى أن الساعة بلغت الثانية عشرة وأن وقت عودته إلى البيت قد حان منـذ زمن بعيد. ولكيلا يحاول صاحب البيت أن يستبقيـه بطريقة ما خرج أكاكي أكاكيفتش من الغرفة بهدوء وبحث عـن معطفه في الردهة، فوجده للأسف ملقـى على الأرض، فتناوله ونفضه ونزع منه كل مـا علق به من زغب ووضعه على كتفيه ونزل على السلّم إلى الشـارع. كان الشارع لا يزال مضيئاً. وكانت بعض المتاجر الصغيرة، هذه النوادي الدائمة للبوابين وغيرهم من الناس، لا تـزال مفتوحة، أما البعض الآخر المغلـق فكان يصدر عنه على الرغم مـن ذلك شريط ضوء طويل عبر شق الباب كلّه، الأمر الذي كان يدل على أنها لم تخـل بعد من تجمّع بشرى، إذ يبدو أن البوابين والسيّاس أو الخـدم يوشكـون على الفراغ مـن أحاديثهـم ورواياتهم موقعين أسيادهـم في حيرة كاملـة بخصوص أماكن تواجدهـم. سار أكاكي أكاكيفتـش مرح النفس حتـى إنه همّ بالركض فجـأة لسبب مجهول وراء سيـدة ما مـرّت بجواره كالـبرق، وكان كل طرف من أطراف جسدها مفعمـاً بحركة غير عادية. إلا أنه مع ذلك توقف على الفور وسار كما في السابق بهدوء شديد ودهش هو نفسه من ركضه الذي لا يعرف من أين حلّ عليـه. وسرعان ما امتدت أمامه تلك الشوارع الخاوية التي لا تتسـم بمرح خاص حتى في النهار، فما بالك بالمساء. لقـد أصبحـت الآن أكثر خواء وعزلـة، وومضـة المصابيح أضعف،

إذ يبدو أن الزيت فيها أصبح قليلاً، وبدأت تلوح المنازل الخشبية والأسيجة. ولم يكن هناك أحد على الإطلاق. الثلج فقط هو الذي كان يلمع في الشوارع، ولاحت الأشباح السوداء الحزينة للأكواخ المنخفضة النائمة بنوافذها الموصدة الشيش. واقترب من ذلك المكان الذي كان الشارع يتقاطع فيه مع ميدان لا نهاية له لا تكاد المنازل تبين في طرفه الآخر. وكان هذا الميدان يبدو كصحراء رهيبة.

ومن بعيد، من مكان لا يعلمه إلا الله، ومض ضوء في كشك حراسة بدا وكأنه قائم في آخر الدنيا. وهنا انخفض مرح أكاكي أكاكيفتش إلى حد كبير. ودخل الميدان بإحساس لا إرادي بالخوف كأنما كان قلبه يحدسه بشر. ونظر خلفه وتلفت حواليه. فبدأ ما حوله وكأنه بحر. فقال في نفسه: «كلا من الأفضل ألا أنظر»، وسار مغمض العينين، وعندما فتحهما ليعرف هل أوشك الميدان على الانتهاء أم لا، رأى أمامه فجأة، تحت أنفه تقريباً شخصين ما بشوارب، ولكنه لم يستطع حتى أن يميز أي شخصين هما. وغامت عيناه وخفق قلبه بعنف. «ولكن هذا المعطف معطفي!» ـ قال أحدهما بصوت راعد وأمسك بياقة معطفه. وأراد أكاكي أكاكيفتش أن يصرخ: «النجدة!»، ولكن الآخر دسّ أمام فمه مباشرة قبضة بحجم رأس موظف ودمدم: «حاول أن تصرخ». ولم يشعر أكاكي أكاكيفتش إلا وهما ينزعان عنه المعطف، ثم ركلاه ركلة قوية، فسقط على وجهه فوق الثلج، ولم يعد يشعر بشيء أكثر من ذلك. وبعد بضع دقائق عاد إلى وعيه، فنهض على قدميه.. ولكن لم يكن هناك أحد. وأحس أن الجو بارد وأن المعطف ليس موجوداً، فأخذ يصرخ، ولكن صوته كما بدا لم يكن ينوي أن يبلغ آخر الميدان. فانطلق أكاكي أكاكيفتش يركض في يأس، وهو لا يكف عن الصراخ، متجهاً، عبر الميدان إلى كشك الحراسة مباشرة حيث كان الدركي يقف متكئاً على البلطة.

وهـو يتطلع فيما يبدو بفضول ويريد أن يعـرف أي شيطان دفع هذا الشخصـ إلى الركضـ نحوه صارخاً من بعيـد. وعندما بلغه أكاكي أكاكيفتشـ راح يصرخ بصوت مختنق بأنه نائـم ولا يحرس شيئاً ولا يرى كيـف يُنهبون الناس. فأجاب الدركي بأنـه لم ير شيئاً وأنه رأى كيـف استوقفه شخصان وسط الميـدان ولكنه ظن أنهما من معارفه. وأنـه بدلاً من السباب عبثاً فمن الأفضـل أن يذهب غداً إلى المفتش، وسيعـثر المفتش على من سرق المعطف. وعـاد أكاكي أكاكيفتش إلى المنـزل في اضطراب تـام، فقد تبعثر شعـره الذي تبقـى لديه بكمية صغـيرة عند صدغيه ومؤخـرة رأسه، وكان جنبـه وصدره وسرواله ملوّثـة بالثلج كلها. وعندما سمعت العجوز، صاحبة شقته دقاً رهيباً علـى الباب نهضت من فراشها علـى عجل وركضت بفردة شبشب واحدة في قدمها لتفتح الباب وقد شدت بإحدى يديها القميص على صدرها من التواضع. ولكن عندما فتحت الباب تراجعت إلى الخلف إذ رأت أكاكـي أكاكيفتشـ في هـذه الهيئة، وعندما قصـ عليها ما حـدث له أشاحت بيديها وأشارت عليه بأن يذهب مباشرة إلى مأمور القسم، لأن شرطي الحـي سيخدعه، فسيعده بالبحث، ثم يماطل بعد ذلك. أفضل شيء أن يذهب إلى المأمور مباشرة، بل إنها تعرف المأمور لأن آنا الفنلندية التي كانت تعمل عندها طاهية، أصبحت تعمل الآن عند المأمـور مربية، كما أنها كثيراً ما تـراه شخصياً عندما يمر بجوار منزلهـم، كمـا أنه يتردد علـى الكنيسة كل أحـد ليصلي وفي الوقت نفسه يتطلع إلى الجميع بمـرح، ولذلك فهو على ما يبدو رجل طيب. وبعـد أن سمع أكاكـي أكاكيفتش هـذا القرار جر ساقيـه حزيناً إلى غرفتـه. أما كيف قضى ليلته فلنـترك الحكم على ذلك لمن يستطيع أن يتخيـل ولو على أقل حد ما وضع شخصـ آخر. وفي الصباح الباكر مضى إلى المأمور. فقيل له إنه نائم. وعاد في العاشرة، فقيل له ثانية إنه

نائـم. فعاد في الحادية عشـرة، فقيل له إن المأمور غـادر البيت. فعاد ساعـة الغـداء، إلا أن الكتبـة في المدخـل لم يريـدوا أن يسمحـوا له بالدخول وأصروا على أن يعرفوا الغرض من زيارته وماذا يريد وماذا حـدث. لكن أكاكي أكاكيفتش أراد أخـيراً أن يبدي صلابة ولو مرة في حياتـه، فقال بلهجة قاطعة إنه يريـد مقابلة المأمور نفسه وإنهم لا يملكـون الحـق أن يمنعوه مـن مقابلته وأنـه جاء مـن الإدارة في عمل رسمي وأنه سوف يشكوهـم وعندئذٍ سيرون. ولم يستطع الكتبة أن يقولـوا شيئاً أمام ذلـك. فذهب أحدهـم لاستدعـاء المأمور. وكان موقف المأمور مـن روايته عن السرقة غريباً للغاية. فبدلاً من أن يوجه اهتمامه إلى النقطة الأساسية في الموضوع راح يسأل أكاكي أكاكيفتش لـماذا عاد في هـذه الساعة المتأخرة وألـم يعـرج في الطريق على أحد المنـازل المشبوهة حتى أن أكاكي أكاكيفتـش أحرج تماماً وخرج من عنـده، وهو لا يعرف هل ستسير قضيـة معطفه كما ينبغي أم لا. لقد قضـى هذا النهار كلّه غائباً عن العمل (المرة الوحيدة في حياته). وفي اليـوم التالي جاء شاحبـاً وفي معطفه القديم الذي أصبـح أكثر بؤساً. وهزّت قصة سرقة المعطف قلـوب الكثيرين بالرغم من أنه كان هناك بعض الموظفين الذين لم يتورعـوا حتى في هذه المناسبة عن السخرية مـن أكاكـي أكاكيفتش. وقرروا على الفـور أن يجمعوا له تبرعاً، إلا أنهـم جمعـوا مبلغاً تافهـاً لأن الموظفـين كانوا قد أنفقـوا الكثير في الاكتتاب لرسم صورة للمدير وفي شراء كتاب ما اقترحه عليهم رئيس القسم الذي كان صديقاً للمؤلف. وهكذا جمعوا مبلغاً تافهاً للغاية. وقـرّر أحدهم بـوازع من الشفقة أن يساعد أكاكـي أكاكيفتش على الأقـل بنصيحة طيبـة، فأشار عليه بـألا يذهب إلى شرطـي الحي، إذ بالرغـم مـن أنه قد يحـدث أن يتمكن الشرطي رغبـة منه في كسب تقديـر الرؤساء من العثور علـى المعطف بطريقة ما، لكن المعطف مع

ذلك سيبقى في قسم البوليس ما لم يقدم أكاكي أكاكيفتش أدلة قانونية علـى ملكيته لـه. أفضل شيء أن يقصد إحـدى الشخصيات الهامة، فهـذه الشخصية الهامة تستطيع بالاتصال ومخاطبة من ينبغي أن تدفع القضية بنجاح أكبر. ولم يكـن أمام أكاكي أكاكيفتش من مفر، فقرّر أن يقصـد الشخصيـة الهامة. ولكـن ما هي وظيفة هـذه الشخصية الهامة وما هي طبيعة هذه الوظيفة فهذا ما ظل مجهولاً حتى الآن. إنما ينبغـي أن نعلم أن إحـدى الشخصيات الهامة أصبـح منذ فترة قريبة شخصية هامـة، أما قبل ذلك فكان شخصية غير هامة. على أية حال فـإنّ منصبه لا يعتبر حتـى الآن هاماً بالمقارنة مـع المناصب الأخرى الأكـثر أهمية. غير أنك ستجد دائماً دائرة مـن الناس الذين يعتبرون مهما ما يبدو في عيـون الآخرين غير مهم. على أية حال حاول هذه الشخصية الهامة أن يزيد من أهميته بوسائل أخرى كثيرة، وبالتحديد فقد عمل على أن يستقبله الموظفون الصغار على السلّم ساعة حضوره إلى وظيفتـه وألا يجرؤ أحد علـى الدخول إليه مباشرة، بل يمضي كل شـيء وفق نظام صارم: أن يبلغ المساعد الاعتباري سكرتير المحافظ، ويبلـغ سكرتير المحافظ المستشار الاعتبـاري أو شخصاً آخر، وبهذه الطريقـة يبلغ الأمر إليه. هكذا تنتشر عـدوى التقليد إلى كل شيء في روسيا المقدسة، ويحاول كل شخص أن يقلّد رئيسه ويتشبّه به. بل إنه يقـال إن مستشاراً اعتبارياً ما عندما عيّنـوه رئيساً لإحدى الإدارات الصغـيرة المستقلّـة، اقتطع لنفسه علـى الفور غرفة خاصـة وسمّاها «غرفة الحضور» كانت لا تتسع إلا بالكاد لطاولة مكتب عادية. لقد كانـت أساليب وعادات الشخصية الهامة رصينة ومهيبة ولكن دون تعقيـد. كانت الصرامة هي القاعـدة الأساسية لنظامـه. وكان يقول عادة: «الصرامة والصرامة، ثم الصرامة» وعند الكلمة الأخيرة يحدّق في العـادة بأهمية في وجه مـن يخاطبه. على الرغم من أن ذلك على

أيـة حـال لم يكن لـه أدنى مـبرر لأن الموظفـين العشرة الذيـن كانوا يشكلـون كل الجهـاز الحكومـي لـلإدارة، كانوا حتى بـدون ذلك مرعوبـين بدرجة كافيـة. فما أن يـروه من بعيد حتـى يتركوا عنهم أعمالهم ويقفوا في انتباه منتظرين حتى يمر الرئيس عبر الغرفة. وكان حديثه العادي مع مرؤوسيـه يتسم بالصرامة ويتألف تقريباً من ثلاث جمـل: «كيف تجرؤ؟ هـل تعلم مع من تتحدث؟ هـل تفهم أمام من تقـف؟» على أية حـال كان في قرارته رجلاً طيبـاً، لطيفاً مع رفاقه، خدومـاً، إلا أن رتبة الجنرال أفقدته توازنـه. فما إن حصل على رتبة الجنرال حتى ارتبك وضل طريقه و لم يعرف ابداً كيف يتصرف. فإذا حـدث أن اجتمع مع أناس من مستـواه كان يبدو إنساناً وكما ينبغي إنساناً مستقيماً جداً، بل وحتى إنساناً غير غبي في كثير من النواحي. ولكن ما إن يتواجد في مجتمع فيه أشخاص أدنى منه ولو برتبة واحدة حتى يصبح شخصاً لا أمل منه: كان يركن إلى الصمت، ويثير وضعه الشفقـة، خاصـة وأنه هو نفسـه كان يشعر بأنه كان مـن الممكن أن يقضي وقته بصورة أفضل بكثير. وكانت تتبدّى في عينيه أحياناً رغبة قويـة المشاركة في أحد الأحاديث أو الانضمـام إلى إحدى الحلقات الشيقـة، فتصدّه عن ذلـك فكرة: «ألن يكون ذلك تنـازلاً كبيراً من جانبـه؟ ألن يكون في ذلـك رفع للكلفة، ألن يكـون في ذلك إهدار لأهميتـه؟» ونتيجة لهذه الأفكار يظل دائمـاً في نفس حالة الصمت التي لا تتغيّر، فلا يتفوّه إلا نادراً بأصوات أحادية المقاطع حتى استحق لقـب أضجر إنسان. إلى هذه الشخصية الهامة توجّه صاحبنا أكاكي أكاكيفتشـ ووصل في وقت غير مؤات أبداً وغير مناسب أبداً له وإن كان على أية حـال مناسباً للشخصية الهامة. كان صاحبنا الشخصية الهامـة جاء منذ فترة قريبة، وهـو أحد معارفه القدامى ورفيق طفولته الذي لم يره منذ زمن طويل. وفي هذه الأثناء أبلغوه أن شخصاً يدعى

بشماتشكين يريد مقابلته. فسأل باقتضاب: «من القادم؟» فأجابوه: «أحد الموظفين». فقال الرجل الهام: «آه فلينتظر، لا وقت عندي الآن». ومن المناسب هنا أن نذكر أن الرجل الهام قد كذب تماماً، فقد كان لديه وقت، إذ إنه انتهى منذ زمن بعيد من الحديث مع زميله حول كل شيء، ومنذ زمن بعيد أخذت تتخلل حديثهما فترات صمت طويلة، وبين الحين والحين يربت أحدهما على ساق الآخر مردداً: «هكذا يا إيفان ابراموفتش!» «نعم، يا ستيبان فارلاموفتش!» ومع ذلك وعلى الرغم من كل شيء فقد أمر الموظف أن ينتظر لكي يظهر لزميله، هذا الرجل الذي لم يمارس الخدمة منذ زمن بعيد واستقر في داره بالقرية، كم من الزمن ينتظره الموظفون في الردهة. وأخيراً وبعد أن شبعا من الكلام وبعد أن شبعا أكثر من الصمت ودخّن كل منهما سيجاراً في كراس وثيرة للغاية بمساند متحركة قال وكأنما تذكر فجأة للسكرتير الذي وقف بجوار الباب حاملاً أوراقاً ليقدم له التقارير: «نعم، أعتقد أن هناك موظفاً ينتظر، أخبره أنه يستطيع أن يدخل». وعندما رأى هيئة أكاكي أكاكيفتش المستكينة ومعطفه الرسمي القديم التفت نحوه فجأة وقال: «أي خدمة؟» بصوت قاطع حاسم تدرّب عليه من قبل في غرفته على انفراد أمام المرآة، وذلك قبل أسبوع من تولّيه منصبه الحالي ورتبة الجنرال. وكان أكاكي أكاكيفتش قد تملّكه الوجل قبل ذلك بوقت طويل، فارتبك قليلاً، ثم مضى يشرح له قضيته كيفما استطاع وعلى قدر ما سمحت له طلاقة لسانه مع اللجوء أكثر من أي وقت سبق إلى استخدام كلمة «يعني»، فقال إنه كان لديه معطف جديد تماماً، وها قد نهب بصورة لا إنسانية، وأنه يتوجّه إليه لكي يتشفّع له بما لديه يعني ولكي يخاطب السيد مدير الشرطة أو غيره من المسؤولين لكي يجدوا المعطف. ولسبب ما بدت هذه اللهجة للجنرال خالية من الكلفة، فقال بصوت قاطع:

ـ ما هـذا، يا سيدي المحترم، ألا تعرف النظام؟ إلى أين جئت؟ ألا تعـرف كيف تصرف الأمور؟ كان ينبغي قبـل كل شيء أن تقدم طلباً في الإدارة، فيرفـع الطلب إلى رئيس القلم، ثـم إلى رئيس القسم، ثم إلى السكرتير، وعندئذٍ يرفعه السكرتير إليّ...

ـ ولكـن، يا صاحـب المعالي، قـال أكاكي أكاكيفتش محاولاً أن يستجمع آخر حفنـة تبقّت لديه من الشجاعة، وهو يشعر في الوقت نفسـه أن العرق يتصبّب منه بصورة فظيعة. أنا، يا صاحب المعالي، لم أجـرؤ على إزعاج معاليكـم إلا الآن، السكرتيرين يعني... لا يعتمد عليهم....

فقال ذو الشخصية الهامة:

ـ مـاذا، ماذا، مـاذا؟ من أين جئـت بهذه الجرأة؟ مـن أين جئت بهـذه الأفكار؟ ما هذا التمرّد الذي انتشر بـين الشباب ضد الرؤساء والكبار؟

ويبـدو أن الشخصيـة الهامة لم يلاحظ أن أكاكـي أكاكيفتش قد جاوز الخمسين. وبالتالي فلـو كان من الممكن اعتباره شاباً فلا يعدو ذلك إلا أن يكون أمراً نسبياً أي بالنسبة لمن هم في السبعين.

ـ أتدري لمن تقول هذا الكلام؟ هل تفهم أمام من تقف؟ هل تفهم ذلك؟ هل تفهم ذلك؟ إنني أسألك.

وهنـا دقّ بقدمه رافعاً صوته إلى طبقة عالية إلى درجة أنه حتى لو كان الواقف أمامه شخصاً غير أكاكي أكاكيفتش لأصابه الرعب. أما أكاكي أكاكيفتش فقد صُعق وترنّح، واهتزّ بدنه كله، و لم يتمكن أبداً من الوقوف. ولو لا أن الحراس هرعوا راكضين وأسندوه لانهار على الأرض. وحملوه من الغرفة، وهو بلا حـراك تقريباً. أما الشخصية الهامة وقـد أرضاه أن تأثـير كلماته فاق حتى توقعاتـه، وانتشى من

فكرة أن كلمته قد تفقد الإنسان وعيه، فنظر بطرف عينه إلى صديقه ليعرف كيف ينظر إلى ما حدث، فرأى بإحساس لا يخلو من المتعة أن صديقه في حالة من القلق البالغ. بل وبدأ يشعر بالخوف.

لم يذكر أكاكي أكاكيفتش كيف نزل على الدرج وخرج إلى الشارع. ولم يكن يحس لا بيديه ولا بساقيه. لم يحدث له في حياته أن نهره جنرال بهذا العنف. وعلاوة على ذلك جنرال ليس رئيسه. فسار في العاصفة الثلجية التي كانت تعربد في الشوارع فاغراً فاه، وهو يتخبط بين الأرصفة. وهبّت عليه الريح، كما العادة في بطرسبورغ، من الجهات الأربع كلها ومن جميع الحواري.

وعلى الفور أصيب من البرد بوَرم في زوره، وعندما وصل إلى البيت لم يكن في وسعه حتى أن يتفوّه بكلمة. وتورّم بدنه كلّه، فرقد في الفراش. إلى هذه الدرجة يكون التعنيف قوياً أحياناً! وفي اليوم التالي أصيب بحمى شديدة. وبفضل مساعدة جو بطرسبورغ الرحيم سار المرض بأسرع من المتوقع، وعندما جاء الطبيب، وجسّ نبضه، لم يجد ما يشير به سوى الكمادات، وذلك فقط حتى لا يبقى المريض بدون عناية الطب الخيرة. وعلى العموم فقد أعلن الطبيب ساعتها أن نهايته المؤكدة ستحلّ بعد يوم ونصف. وبعد ذلك قال لربة الدار: «أما أنت، يا سيدتي، فلا تضيّعي الوقت وجهّزي له من الآن تابوتاً من خشب الصنوبر، لأن خشب البلوط سيكون غالياً بالنسبة له». فهل سمع أكاكي أكاكيفتش هذه الكلمات المشؤومة، وإذا سمعها فهل كان لها عليه تأثير مذهل، وهل شعر بالأسى على حياته الشقية.. نحن لا نعرف عن ذلك شيئاً لأن أكاكي أكاكيفتش كان طوال الوقت يهذي في غيبوبة الحمى. وتوالت على ذهنه الرؤى بلا انقطاع، كل رؤيا أغرب من سابقتها: فمرّة يرى الخياط بتروفتش، فيوصيه بتفصيل معطف بفخاخ للصوص الذين كانوا

يبدون له طوال الوقت تحت السرير، فكان يدعو ربة الدار كل لحظة لتنتشل لصاً حتى من تحت البطانية، وتارة كان يسأل لماذا يعلقون قبوطه القديم أمامه، فلديه معطف جديد، وتارة يخيل إليه أنه يقف أمام الجنرال يصغي إلى تعنيفه وهو يقول: «آسف، يا صاحب المعالي». وتارة، وأخيراً، كان يسب متفوهاً بأفظع الكلمات حتى إن ربة الدار العجوز كانت ترسم علامة الصليب، إذ لم تسمع منه قبلاً كلمات كهذه أبداً، خاصة وأن هذه الكلمات كانت تأتي مباشرة بعد عبارة «يا صاحب المعالي». وبعد ذلك كان يهذي بأشياء لا معنى لها تماماً. فلم يكن يفهم منها شيئاً، الأمر الوحيد الذي كان يبدو واضحاً أن هذه الكلمات والأفكار المشوّشة كانت تدور حول المعطف فقط. وأخيراً لفظ أكاكي أكاكيفتش آخر أنفاسه. ولم توصد غرفته أو ممتلكاته بالأختام لأنه أولاً، لم يكن هناك ورثة، وثانياً، لم يتبق لديه من الميراث إلا القليل. وخلت بطرسبورغ من أكاكي أكاكيفتش وكأنما لم يكن موجوداً فيها ابداً. اختفى وغاب ذلك المخلوق الذي لم يكن له من يحميه والذي لم يكن عزيزاً على أحد ولا شيقاً بالنسبة لأحد والذي لم يجذب إليه انتباه حتى عالم الطبيعة الذي لا يدع ذبابة عادية دون أن يغرس فيها دبوساً ويفحصها تحت المجهر.. ذلك المخلوق الذي تحمّل بإذعان سخريات الكتبة الموظفين والذي واراه التراب دونما علة خارقة. ولكنه مع ذلك ولو قبيل نهاية عمره زاره ضيف جميل في صورة معطف بعث الحيوية ولو للحظة في تلك الحياة البائسة. ذلك المخلوق الذي دهمته فيما بعد الكارثة القاسية كما دهمت القياصرة والحكام.. وبعد بضعة أيام من وفاته أرسلوا حارساً من الإدارة إلى شقته ليأمره بالحضور فوراً، فالرئيس يطلبه. ولكن كان على الحارس أن يعود صفر اليدين قائلاً إنه لا يستطيع بعد الآن أن يأتي. وعلى السؤال «لماذا؟» أجاب بالكلمات التالية:

«هكذا، فقد مـات ودفن منذ أربعة أيام» وهكـذا علموا في الإدارة بوفـاة أكاكـي أكاكيفتش، وفي اليـوم التالي كان يجلس في مكانه موظـف جديد، أطول منـه قامة بكثير، يكتب الحـروف بخط ليس باستقامة خط أكاكي أكاكيفتش، بل بميل وانحراف أكثر.

ولكن من كان يتصوّر أن هذا ليس كل شيء عن أكاكي أكاكيفتش وأنه كان مقدراً له أن يعيش عدة أيام صاخبة بعد وفاته، وكأنما مكافأة لـه على حياته التـي لم ينتبه إليها أحد؟ ولكن هذا ما حدث، وها هي روايتنا البائسة تنتهي فجأة نهاية خيالية. فقد انتشرت في بطرسبورغ فجأة شائعـات تقول بأنه عند جسر «كالينكـين» وفيما وراءه بكثير يظهر في الليالي ميت في صورة موظف يبحث عن معطف مسروق، وبحجة هـذا المعطف المسروق ينتزع كافـة المعاطف من على جميع الأكتاف غير آبه باللقب أو الرتبة، سواء كانت بياقات من فراء القطط أو السمـور أو مبطنـة بالقطـن أو معاطف فراء من جلـد الثعالب أو الدببـة، وباختصـار كافة أنواع الفـراء والجلود التـي ابتكرها البشر ليستروا بهـا أنفسهم. وقد رأى أحد موظفـي الإدارات بعينيه ذلك الميـت وعرف فيه على الفور أكاكي أكاكيفتـش. بيد أن ذلك أصابه بفـزع شديـد حتى أنـه ولّى هارباً بكل قـواه، ولهـذا لم يتمكّن من التدقيـق جيداً، بـل رآه فقط، وهو يلوح له من بعيـد بإصبعه مهدداً. وصدرت الأوامـر للشرطة بالقبض على الميت بأية وسيلة حياً أو ميتاً ومعاقبته أقسى عقاب ليكون عـبرة للآخرين، وكادوا أن يفلحوا في ذلـك. ولكننا مع ذلك تركنا عنا تمامـاً تلك الشخصية الهامة والذي يـكاد أن يكون في الحقيقة سبب الاتجاه الخيالي الذي سارت فيه هذه القصـة، الحقيقية تماماً علـى أية حال. إن واجـب العدالة يتطلب منا قبـل كل شيء أن نقـول إن الشخصية الهامة سرعـان ما أحس بنوع مـن الأسف بعد انصـراف أكاكيفتش المسكـين الذي نزل به ذلك التعنيف القاسي. فلم يكن الإحساس بالشفقة غريباً عليه، وكان

قلبـه قادراً على إبداء كثير من المشاعر الطيبة، على الرغم من أن رتبته كانـت تعوقه كثيراً عن البوح بها. فما إن خرج زميله الزائر من غرفة مكتبـه حتى انصرف تفكـيره إلى أكاكي أكاكيفتش المسكين. ومنذ تلـك اللحظة كان يتخيل كل يوم تقريبـاً أكاكي أكاكيفتش الشاحب الـذي لم يتحمل تعنيفه الصـارم. وأقلقه التفكير فيه إلى درجة أنه قرر بعد أسبوع أن يرسل إليه موظفاً ليعرف أحواله وهل يستطيع حقاً أن يساعده بطريقـة ما. وعندما أبلغوه أن أكاكـي أكاكيفتش قد عاجله المـوت مصاباً بالحمى اعـتراه الذهول، وسمع صـوت ضميره يؤنبه وظـل طوال اليوم معتل المـزاج. وأراد أن يسري عن نفسه بصورة ما وينسى ذلك الانطباع المقبض، فتوجه ليقضي المساء عند أحد زملائه الذي وجـد عنده جماعة محترمة، والأهم من ذلـك أن الجميع هناك كانـوا من نفس الرتبة تقريباً، فلم يكن ثمة شيء يقيد تصرفاته. وكان لذلـك تأثير مدهش على حالتـه النفسية، فانطلـق وأصبح لطيفاً في حديثـه، ولبقاً، وباختصار قضى المساء على نحو طيب للغاية، وعلى العشـاء شرب كأس شمبانيا، تلك الوسيلة المؤثرة تأثيراً لا بأس به فيما يخص المرح كما هو معروف. ومنحته الشمبانيا ميلاً إلى شتى أنواع المفاجآت، وبالتحديد فقد قرر ألا يعود إلى المنزل، بل يمضي إلى سيدة معروفة تدعى كارولينا إيفانوفنا، وهي سيدة فيما يبدو من أصل ألماني، كان يكنّ لها مشاعر صداقة محضة، ومن الجدير بالذكر أن الشخصية الهامـة كان رجلاً قد جاوز الشبـاب وزوجاً طيباً ورب أسرة محترماً، وكان ابنـاه، واحدهما يعمل عنـده في الإدارة، وابنته اللطيفة البالغة ستـة عشر عامـاً وذات الأنف الأعقـف قليلاً، ولكنـه أنف جميل، كانـا يقبلان عليـه كل يوم ليلثما يـده قائلـين: «bonjour, papa». أمـا قرينته، وهي امـرأة لا تزال نضر، بل وحتى ليس فيها ما يعيب، فكانـت تعطيه يدهـا أولاً ليلثمها ثم تقبلها علـى الوجه الآخر لتقبل يـده هو. ولكن الشخصية الهامة الذي كان على أية حال راضياً تماماً عـن الملاطفات العائلية المنزلية، وجـد من اللائق أن تكون له صاحبة

للعلاقـات الودية في القسم الآخر من المدينة. و لم تكن هذه الصاحبة أفضـل أو أصغر سناً مـن زوجته، ولكن مثل هـذه الألغاز توجد في الدنيا، وليس مـن شأننا أن نناقشها. وهكذا هبـط الشخصية الهامة على الدرج واستقل الزحافة وقال للحوذي: «إلى كارولينا إيفانوفنا»، أما هـو فتغطى بالمعطف الدافئ في جلسة وثيرة للغاية وبقي في ذلك الوضع اللطيـف. وتذكر وهو في غاية الرضـا كل اللحظات المرحة في الأمسيـة التي قضاها، وكل الكلمات التي أثارت ضحكات تلك المجموعة الصغيرة، وردّد كثيراً منها بصوت خافت، فوجدها جميعاً مضحكة كما كانت، ولذلك فليس من الغريب أن يضحك هو نفسه مـن كل قلبه. ومع ذلك كانت تنغص عليه أحياناً ريح حارة متقطعة تهـب فجاة من حيث لا يعلم إلا الله ولسبـب لا يدريه أحد، فتلهب وجهـه وتلقي عليـه بقطع من الثلج وتنشر كما الشـراع ياقة المعطف أو تلقـي وبها فجأة بقوة رهيبة على رأسـه، فتكلفه عناء لا ينتهي في محاولـة التخلص منها. وفجأة أحس الشخصية الهامة بأحد ما يمسك بياقـة معطفه بقوة. وعندما التفت رأى رجلاً قصير القامة في معطف رسمـي قديم مهترئ، فعرف فيه لرعبـه أكاكي أكاكيفتش. كان وجه الموظـف شاحباً بلون الثلج، وبدا ميتـاً تماماً، ولكن رعب الشخصية الهامـة فـاق كل الحدود عندما رأى فم الميت يلتـوي منفرجاً وتهب منـه عليه رائحـة القبور الرهيبة ويلفظ هذه الكلمـات: «آه، ها أنت ذا أخـيراً! أخيراً أنا، يعني، أمسكت بك من ياقتك! معطفك بالذات هو ما أحتـاج إليه! لم تسعَ لاسترداد معطفي، بـل وعنّفتني. حسناً، هـات الآن معطفـك!» وكاد الشخصية الهامـة المسكين أن يموت، أحسـ برعب شديد إلى درجة أنـه بدأ يخشى، وليس دون مبرر، من أن تكـون قد أصابته نوبة نفسية. وأسـرع إلى نزع معطفه بنفسه عن كتفيه وصرخ في الحـوذي بصوت غير طبيعي: «أسرع إلى بيت بكل قواك»!.. وعندمـا سمع الحوذي نبرة الصوت التي لا تتردد عادة إلا في المواقـف الحاسمة، بل وتصاحبها حركات أكثر فعالية، دفن رأسه

بين كتفيه تحوطاً، ولوح بالسوط واندفع بالعربة كالسهم. وبعد ست دقائق أو أكثر قليلاً كان الشخصية الهامة أمام مدخل بيته، وصل شاحباً، مفزوعاً وبلا معطف إلى بيته بدلاً من أن يصل إلى كارولينا إيفانوفنا، وجر ساقيه كيفما اتفق حتى وصل إلى غرفته، وقضى ليلته في اضطراب شديد حتى إن ابنته قالت له في صباح اليوم التالي، وهم يتناولون الشاي: «أنت اليوم شاحب جداً يابابا» ولكن بابا لزم الصمت. ولم يخبر أحداً بما حدث له وأين كان وإلى أين كان ينوي الذهاب. لقد ترك هذا الحادث أثراً قوياً في نفسه. بل إنه أصبح نادراً عن ذي قبل ما يقول لمرؤوسيه: «كيف تجرؤ، هل تفهم أمام من أنت»، وحتى إذا قالها فما كان يفعل إلا بعد أن يستمع أولاً إلى شرح الموضوع.

ولكن الأمر الأجدر بالملاحظة أنه منذ تلك الساعة كف الميت الموظف تماماً عن الظهور، إذ يبدو أن معطف الجنرال جاء مناسباً له جداً. على أية حال لم يعد يتردّد أن أحداً ما ينتزع المعاطف من على الأكتاف. ولكن كثيراً من رجال الأعمال الحريصين لم يريدوا أبداً أن يركنوا إلى الطمأنينة وراحوا يرددون بأن الميت الموظف مازال يظهر في أطراف المدينة البعيدة. وبالفعل فقد رأى أحد رجال الدرك في حي «كولومنسكي» بعينيه شبحاً يظهر من خلف أحد المنازل. بيد أنه لم يتمكن من إيقاف الشبح، بل سار خلفه في الظلام إلى أن التفت الشبح خلفه أخيراً وتوقف وسأله: «ماذا تريد؟» وأظهر له قبضة لا تجد لها مثيلاً لدى الأحياء. فقال الدركي: «لا شيء» وعاد أدراجه من فوره. بيد أن الشبح مع ذلك كان أطول بكثير ويحمل شوارب هائلة، ومضى متجهاً كما بدا نحو جسر «اوبوخوف»، ثم اختفى تماماً في ظلام الليل.

مذكرات مجنون

٣ تشريـن الأول وقع حادث فريد. استيقظت في الصباح متأخراً إلى حد ما. وحين جلبت لي مافرا حذائي المنظّف سألتها عن الساعة. فعلمــت أنها قــد تجاوزت العاشرة كثـيراً. أسرعــت فارتديت ثيابي. وأقولهــا بصراحة ما كنــت سأذهــب إلى الدائرة قطعــاً، وأنا أعرف مسبقــاً بأية جهامــة سيقابلني رئيس القسم. إنــه منذ زمان يقول لي: «ما لرأسك، يا أخ، دائماً في هرجلة؟ مرة تتخبط كالمخبول، وتخلط بالأوراق فـلا يستطيع أن يفرزها حتى الشيطــان نفسه، وتضع على رأس الورقة حرفاً صغـيراً بلا تاريخ ولا رقــم». مالك حزين لعين! أعتقـد أنـه يحســدني لأنني أجلــس في مكتــب المدير أبــرو الريش لسعادته. علــى العموم، ماكنت سأذهب إلى الدائرة لولا أملي في أن ألتقي بالمحاسب، وأطلب من هــذا الزنديق، لعلَّ وعسى أن يسلفني شيئــاً على مرتبي مقدماً. هذا أيضاً خلقــة من خلق الله! وهل حسبته أعطــى سلفة على المرتب ذات يوم؟ حاشا لله، يأتي يوم القيامة أقرب مــن ذلك اليوم. لن يفعل مهما حاولت، ولــو كنت في أشد ضائقة. لن يفعل، هذا الإبليــس الأشيب. بينما طباخته في شقته تصفعه على هــذا الخد وعلى ذاك. والدنيــا كلها تعلم بذلك، أنــا لا أفهم الفائدة مــن الخدمة في دائــرة حكومية حيث لا موارد علــى الإطلاق. بينما الأمر يختلف تمامــاً في حاكمية الولاية، والمصالح المدنية والجبايات. فــترى هناك من انزوى في أقصى الزاويــة يكتب. وسترة الفراك التي عليه حقيرة، وسحنته تقززك، ولكنه يستأجر بيتاً ريفياً معتبراً. لا يقبل

منك حتى قدحاً من الصيني المذهب، قائلاً لك: «هذه هدية يمكنك أن تقدمها لطبيب». أما هو فيهدي له زوج من الخيول المطهمة، أو عربة ركوب صغيرة، أو فراء قندس يساوي ثلاثمائة روبل لا أقل. تراه في مظهره هادئاً، يتكلم بلطف: «أعرني من فضلك سكيناً لبري الريشة». بينما هو يبري المراجع برياً حتى لا يبقى عليه غير قميصه. ولكن مقابل ذلك يمتاز عملنا بالاحترام حقاً، والنظافة في كل شيء في الدائرة لن تجده أبداً في حاكمية الولاية: المكاتب من الخشب الأحمر، وجميع الرؤساء يخاطبونك بصيغة الجمع. نعم، أقول لكم بصراحة لولا احترامية العمل هذه لكنت قد تركت الدائرة منذ زمان.

ارتديت معطفي القديم، وتناولت المظلة لأن المطر كان ينزل مدراراً. لم يكن في الشوارع أحد ما عدا النسوة العاميات يغطين رؤوسهن بأذيال ثيابهن، والتجار الروس يتظللون بالمظلات، والسعاة يقع عليهم بصري بين حين وآخر. ومن النبلاء لم ألتقِ إلا بموظف واحد. رأيته في مفترق الطرق. وما إن رأيته حتى قلت لنفسي: «لا، يا حبيب قلبي، أنت غير ذاهب إلى الدائرة، بل تلاحق تلك التي تركض قدامك، وتحدق في ساقيها». أي محتال هذا صاحبنا الموظف! لا يقل، والله العظيم، عن أي ضابط. ما إن تمر ذات قبعة، حتى يتشبث بها. وبينما كنت أفكر في ذلك رأيت عربة تقترب من المخزن الذي كنت أمرّ به. وعرفتها على الفور. إنها عربة مديرنا. وقلت لنفسي: «ولكن أي شغل لمديرنا في المخزن؟ أظنها ابنته». التصقت بالحائط. فتح الخادم باب العربة، فرفرفت الابنة نازلة كالطائر. ورنت ذات اليمين وذات الشمال، وهفهفت بحاجبيها وعينيها بعذوبة... يا رب، يا إلهي! اقرأ عليّ السلام، انتهيت تماماً. ما الذي جاء بها في هذا الجو الممطر. ومع ذلك تجد من يؤكد لك أن النساء غير مغرمات بكل هذه التفاهة. لم تعرفني هي، كما أنني

حاولت عمداً أن ألف نفسي قدر المستطاع، لأن المعطف الذي كنت أرتديه مبقع كثيراً، فضلاً عن طرازه القديم، الناس يلبسون الآن معاطف ذات ياقات طويلة، بينما كانت ياقة معطفي قصيرة متصلة الطرفين. كما أن قماشته ليست متينة. لم تلحق كلبتها الصغيرة أن تقفز إلى باب المخزن، فبقيت في الشارع. وأنا أعرف هذه الكلبة. اسمها ميدجي. وما كدت أتريث دقيقة حتى سمعت صوتاً ناعماً يقول: «مرحباً، ميدجي!» عجيب! مَنْ القائل؟ حولت بصري، فرأيت سيدتين تتظللان تحت مظلة واحدة، إحداهما عجوز، والثانية شابة. ولكنهما مرّتا، وصدر صوت بالقرب مني ثانيةَ: «حرام عليك، يا ميدجي»! أي شيطان هذا! رأيت ميدجي تتشمّم كلباً صغيراً كان يسير وراء السيدتين. «عجيب قلت لنفسي أوه كفى، ربما أنا سكران؟ ولكن هذا، كما يبدو، نادراً ما يحصل لي» «لا، يا فيدل، خسارة أن تفكري هكذا سمعت بأذنيَّ ما نطقت به ميدجي كنت واو! واو! كنت واو، واو، واو! مريضة جداً». أوه، يا كلبة! بصراحة دهشت كثيراً، حين سمعتها تتكلم بصوت بشري، ولكنني فيما بعد، حين فكرت بكل ذلك كلياً، زايلتني دهشتي. في الحقيقة حصلت في الدنيا أشياء كثيرة من هذا القبيل. يقولون في إنجلترا رفعت سمكة رأسها، وقالت كلمتين بلغة غريبة، حتى أن العلماء يجتهدون منذ ثلاثة أعوام ليعرفوا أية لغة هي، ولم يتوصلوا إلى شيء حتى الآن. كما قرأت في الجرائد عن بقرتين ذهبتا إلى دكان، وطلبتا رطلاً من الشاي. ولكن دهشت أكثر من ذلك بصراحة، حين سمعت ميدجي تقول: «كنت قد كتبت لك، يا فيدل. ولعل بولكان لم يحمل رسالتي إليك!» عسى أن يقطعوا راتبي، إذا كنت أكذب! في حياتي كلها لم أسمع بأن كلبة استطاعت أن تكتب. النبيل وحده يستطيع أن يكتب بشكل صحيح. وبالطبع يمكن أن يكتب أحياناً بعض التجار

مـن أصحاب الحوانيت، وحتى الأقنان يكتبون من حين لآخر ولكن معظم كتاباتهم آلية، بلا فوارز، ولا نقاط، ولا أسلوب.

لقـد أدهشني ذلـك. وأعترف بأننـي منذ بعض الوقت أخذت أحياناً أسمـع وأرى مثل هذه الأشياء التي لم يرها و لم يسمع بها أحد حتى الآن. قلت لنفسي: «لأسير وراء هذا الكلب، وأعرف من وماذا يفكر».

فتحـتُ مظلتي، وتعقبت السيدتين. تحولتا إلى شارع غروخوفيا، وانعطفتا إلى شـارع ميشانسكيا، ومن هناك إلى شـارع ستوليارنيا، وأخـيراً إلى جسر كوكوشكين، وتوقفتا أمام بيت كبير. قلت لنفسي: «أنـا أعرف هذا البيـت. إنه ملك زفركوف. مصنـع بالضبط! يضم ساكنـين من شتى الأصناف. فكم من طباخات فيه، وكم من وافدين علـى المدينـة! وجماعتنا الموظفـون فيه بعدد الـكلاب، واحد فوق الآخـر. وفي هذا البيت أيضـاً لي صديق ينفخ بالبـوق بشكل جيد. وصعدت السيدتان إلى الطابق الخامس. وفكرت مع نفسي: «طيب، لا أدخل الآن، بل أحدد المكان، وفي أول فرصة لا أفوت الاستفادة».

٤ تشرين الأول

اليوم أربعاء، ولهذا كنـت عند رئيسنا في مكتبه. جئت في وقت أبكر عن عمـد، وجلست أبرو كل الريش. ومديرنا لابد أن يكون ذكيـاً جداً: كل غرفة مكتبه مملوءة بخزانـات الكتب. قرأت عناوين بعضهـا. كلها علوم رفيعـة، علوم يستحيل علـى جماعتنا الموظفين حتـى الاقتراب منها. كلهـا إما بالفرنسيـة أو بالألمانيـة. والنظر إلى وجهه يجعلك ترى كم من العظمة تبهر في عينيه. كما أنني لم أسمع منه قط كلمة زائدة. إلا حين أقدّم له الأوراق إذ يسأل: «كيف الجو في الخارج؟».. «رطب، يا صاحب السعادة»، نعم، لا يمكن أن يقارب

بجماعتنا! رجـل دولة. إلا أنني ألاحظ أنه يحبني أكثر من الآخرين. يـا ليت ذلك الحب كان من جانب ابنتـه... آه، خسارة! لا بأس، لا بأس، أسكتُ. كنت أقرأ في صحيفة... «النحلة» أي ناس بله هؤلاء الفرنسيون! اللعنة، ماذا يريـدون؟ ليتني، والله العظيم، أوجعهم عن بكرة أبيهـم ضرباً بعصا الخيزران. وفي هـذه الصحيفة قرأت وصفاً جميـلاً لحفلة راقصـة كتب مالـك أطيـان من كورسـك. وملاكو الأطيـان الكورسكيون يكتبون بشكل جيـد. وبعد ذلك لاحظت أ ن الساعـة بلغـت الثانية عشرة والنصف، بينمـا رئيسنا لم يخرج من مخدعـه. ولكـن في نحو الساعـة الواحدة والنصـف وقع حادث لا تقدر أيـة ريشة على وصفه. انفتح الباب. فظننت أنه المدير، نهضت وثبـا من مقعـدي، ومعي الأوراق. ولكن لم يكـن هو، بل هي، هي نفسهـا. يا أولياء، أي لبس عليها! ثوبها أبيض كطائر التم. ياه، وبأي فخفخـة! ورنت فإذا هي الشمس، الشمـس، والله العظيم! انحنت محيية، وقالت: «بابا هنا؟» يا ويلي، يا ويلي، أي صوت فاتن! كنارية، حقـاً، كنارية! وكنت أريـد أن أقول: «لا تأمـري بعقابي. وإذا كان ولابـد فعاقبيني بيـدك الجنرالية». ولكن اللعنـة، لم يطاوعني لساني، فلم أقل إلا «لا، غـير موجود». نظرت إليَّ، وإلى الكتب، وأسقطت المنديـل. قفـزت بكل ما في قدمـيَّ من قوة لالتقاطـه وانزلقت على الأرضية اللعينة، وكـدت أدقُّ أنفي بها، إلا أنني تماسكت، على كل حـال، وتناولت المنديل. يا أولياء، أي منديـل هو! خفيف تماماً، من القماشـ الشفاف، فيه أريج العنبر، العنـبر تماماً. وتفوح منه الجنرالية أيضاً. شكرتني، ابتسمت حتى أن شفتيها السكرتين كادتا تنفرجان. وبعـد ذلك طلعت. جلستُ ساعة أخرى، وإذا بالخادم يأتي ويقول: «انصرف، يا اكسنتـي أيفانوفيتش. السيد استقل العربة من بيته». أنا الآن لا أطيق وسـط الخدم، دائماً ينطحون في الرواق. على الأقل لو

حركوا رؤوسهم، وحيوا بانحناءة. بل الأكثر من ذلك أن أحد هؤلاء المحتالين خطر في باله أن يضيفني على نشوق، دون أن يكلف نفسه فينهض من مكانه. ولكن هل تدري، أيها الجلف، أنني موظف ذو نسب نبيل. على كل حال تناولت قبعتي، ولبست معطفي بنفسي، لأن هؤلاء «الأسياد» لن يعاونوك في ارتدائه، وخرجت. وفي البيت قضيت معظم الوقت في السرير. ثم استنسخت أبياتاً جميلة جداً: «الساعة التي لم أرَ فيها محبوبتي أظنها سنة. وأكره حياتي وأقول: أيحق لي أن أعيش». أظن ذلك من نظم بوشكين[1].

وفي المساء التففت بمعطفي، واتجهت إلى مدخل بيت سعادتها، وانتظرت طويلاً لعلّها تخرج لتستقل العربة، فأتمتع بالنظر إليها مرة أخرى، ولكنها لم تخرج.

٦ تشرين الثاني

رئيس القسم جن جنونه. عندما وصلت إلى الدائرة استدعاني إلى غرفته. وأخذ يقول لي هكذا: «حسناً، قل لي أرجوك ما هذا الذي تفعله؟» فأجبت: «كيف ما هذا؟ أنا لا أفعل شيئاً»، «طيب، حكم عقلك جيداً! فأنت قد تخطيت الأربعين، آن الأوان لتعود إلى رشدك. ماذا تتخيل نفسك؟ أتظنني لا أدري حيلك؟ أنت تغازل ابنة المدير وحق الرب! انظر إليك، فكرْ فقط ماذا أنت؟ أنت صفر، لا أكثر. ليس في جيبك فلس واحد. على الأقل لو عاينت وجهك في المرآة، إلى أين أنت ترنو!» تخطفه الشيطان! لأن له وجهاً يشبه إلى حد ما قارورة صيدلية، وعلى رأسه خصلة شعر معكوفة، ويشمخ برأسه، ويدهنه كالطرة، يظن أن كل شيء ميسر له وحده؟ إنه الحسد

(١) رتب مدنية في روسيا القيصرية.

بعينـه. فقـد يكون قد رأى علائـم الودّ نحوي. ولكـن بصقة عليه! ويتصور درجتـه في الوظيفة مهمة جداً! علـق ساعته بسلسلة ذهبية وأوصـى على حذاء بقيمـة ثلاثين روبلاً، أوه، عليـه اللعنة! وهل أنا بـلا نسب، مـن عائلة خياطـين، أو من أبنـاء ضابط صـف؟ أنا من سلالـة نبلاء، وأستطيـع أن أصل إلى أعلى درجـة ما زلت في الحادية والأربعـين، السن التي تبدأ فيها الوظيفـة بشكل حقيقي. فانتظر، يا صـاح! سنكون نحن أيضاً برتبة عقيـد، أو ربما، إذ وفق الله، سنصل إلى رتبة أعلى. وستكون لنا أيضاً مكانة، وأحسن من مكانتك. كيف دخل في رأسك أنك وحدك الرجل المعتبر؟ أعطني سترة فراك مفصلة خصيصاً أو على الموضـة، واعقد لي ربطة عنق كربطتك، وعند ذاك لن أجعلك حتى حشوة لحذائي، ولكنني بلا موارد، هذه هي المصيبة.

٨ تشرين الثاني

كنت في المسـرح، مثلوا الأبله الروسي فيلاتكا. ضحكت كثيراً، كمـا مثلوا فودفيـلا فيه أشعار طريفة عن موظفـي المحكمة ولاسيما عـن مسجل صـادرة وواردة، أطلقوا فيها ألسنتهـم، حتى لدهشت كيف سمحـت بها الرقابة، وعن تجار يقولـون على المكشوف أنهم يخدعـون الناس وأبناؤهم يعربدون، ويدعون النبالـة، وهناك مثانٍ شعريـة عن الصحفيين أيضاً مسلية جـداً: إنهم يحبون شتم كل شيء طوال الوقت، والمؤلف يطلب مـن الجمهور الحماية. المؤلفون اليوم يكتبـون مسرحيات طريفة جـداً. أنا أحب مشاهـدة المسرح. ما إن تصـير بعض الفلوس في جيبي حتـى لا أصطبر وأذهـب إليه. بينما يوجـد بين جماعتنا الموظفين خنازير لا يذهبون إلى المسرح قطعاً، إلا إذا أعطيتهم التذاكر مجاناً، غنت إحدى الممثلات غناءً لطيفاً وتذكرتُ تلك... أوه، خسارة.. لا بأس، لا بأس، أسكتُ.

٩ تشرين الثاني

توجهت إلى الدائرة في الساعة الثامنة. وتظاهر رئيس القسم بأنه لم يلحظ وصولي. وأنا من جانبي تظاهرت وكأن لا شيء حصل بيننا. صرت أعيد النظر في الأوراق وأدقّقها. خرجت في الساعة الرابعة. مررتُ بمنزل المدير. لم أرَ أي شيء. قضيت معظم الوقت بعد الغداء مستلقياً على الفراش.

١١ تشرين الثاني

اليوم جلست في غرفة مكتب المدير، بروت له ثلاثاً وعشرين ريشة، ولها... آه، آه!... لسعادتها أربع ريش. إنه يحب كثيراً أن يكون عنده أكبر عدد من الريش. اهوه! لابد أنه دماغ! دائماً صامت، بينما يناقش كل شيء في ذهنه، على ما أظن. ليتني أعرف في أي شيء يفكر أكثر من غيره، وماذا يضمر في هذا الرأس، ليتني أنظر عن قرب في حياة هؤلاء الأسياد، كل تلك الدسائس والمناورات كيف هم، وماذا يعملون في وسطهم هذا ما أود أن أعرفه! فكرت عدة مرات أن أدخل في حديث مع سعادته، ولكن اللعنة على لساني، لا يطاوعني أبداً. لا أقول إلا أن الجو بارد أو دافئ، ولا يطلع من لساني أكثر من ذلك إطلاقاً.

وددت لو ألقي نظرة في غرفة الجلوس، التي لا أراها إلا من خلال الباب الموارب أحياناً، وبعد غرفة الجلوس غرفة أخرى، آه، ما أغنى أثاثها! أية مرايا، وأي أواني صينية! وددت لو ألقي نظرة إلى ذلك النصف حيث تعيش سعادتها، هذا ما أورده من كل قلبي! انظر في غرفة الزينة، وكيف تصطف كل تلك العلب والقوارير، والزهور التي تذبل من لفح الأنفاس، وكيف تتناثر هناك ملابسها، التي هي أشبه بالزغب منها بالملابس، وددت لو أنظر في مخدعها... أظن هناك

أعاجيب، أظن هناك جنَّة لا مثيل لها حتى في السماوات. ليتني أ نظر إلى التختة التي تضع عليها قدمها، وهي تنزل من السرير، وكيف تتجورب هذه القدم الحلوة بجوارب أبيض كالثلج.... آه، آه، آه! لا بأس، لا بأس...

أَسكتُ.

اليوم، على كل حال، لمعت في ذهني فكرة، تذكرت ذلك الحديث الذي سمعته يدور بين الكلبتين في شارع نيفسكي. وقلت لنفسي: «الآن سأعرف كل شيء. يجب أن أخطف الرسائل التي كانت تتبادلها هاتان الكلبتان الحقيرتان. وأعتقد أنني سأعرف شيئاً ما. بل وأعترف أنني ذات مرة دعوت ميدجي إلى غرفتي، وقلت لها: «اسمعي، يا ميدجي. نحن الآن وحيدان. وإذا شئت قفلت الباب حتى لا يرانا أحد. خبريني بكل ما تعرفينه عن الآنسة، ماذا وكيف؟ وأحلف لك بالرب أنني لن أكشف شيئاً لأحد».

ولكن الكلبة الماكرة صكّت ذيلها، وانكمشت إلى النصف، وخرجت من الباب، وكأنها لم تسمع شيئاً. منذ زمان وأنا أعتقد بأن الكلبة أذكى من الإنسان بكثير. بل وكنت موقناً بأنها تستطيع أن تتكلم، ولكن عنادها وحده يحول دون ذلك. إنها سياسة حاذقة تلحظ كل شيء، كل نيات الإنسان. على كل حال سأذهب إلى بيت زفركوف غداً، مهما يكن من شيء، واستجوب فيدل، فقد أنجح في اختطاف كل الرسائل التي كتبتها ميدجي لفيدل.

١٢ تشرين الثاني

خرجت في الساعة الثانية ظهراً لأرى فيدل حتماً وأستجوبه. أنا لا أطيق الكرنب الذي تفوح رائحته من كل دكاكين الخرداوات

في شــارع ميشانسكيا، كمــا أن من وراء بوابة أي بناية يخرج سخام جهنمي جعلني ألف أنفــي، وأركض بكل قوتي، وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الحرفيين الخبثاء يطلقون العفونات والدخان من مشاغلهم بكميــة كبيرة تجعل مــن المتعذر تماماً على الرجل المهــذب أن يتمشى هنا. وعندما صعــدت إلى الطابق السادس، وقرعت الجرس الصغير، خرجــت فتاة ليست قبيحة أبداً، ذات نمش صغير.عرفتها. هي نفس الفتــاة التي كانت تسير مع العجوز. احمــرّت قليلاً، ففطنت إلى سرّ احمرارهــا رأساً: أنت، يــا حلوتي، ترغبــين في أن يزورك خطيب. قالت: «ماذا تريد؟» «أريد أن أتحدث قليلاً إلى كلبتكِ». كانت الفتاة بلهاء، أدركت رأساً أنها بلهاء! وفي ذلك الوقت جاءت الكلبة تنبح. أردت أن أختطفهــا، ولكن الحقيرة كادت تنشب أنيابها في أنفي. إلا أننــي رأيت في الزاوية مربضاً لنوم الــكلاب. أي، نعم، تلك بغيتي. تقدمــت منها، ونبشــت القشّ في تلــك العلبة الخشبيــة، ولدهشتي الخارقــة، أخرجــت ضبّة من الوريقــات الصغيرة. ولمــا رأت الكلبة الحقيرة ذلك عضتني في بادئ الأمر من ربلة ساقي، وبعد ذلك، حين تشممــت أنني أخذت الوريقات، أخذت تولــول وتداهن، ولكنني قلــت: «لا، ياحلوة، مــع السلامة!» وانطلقت خارجــاً. أظن الفتاة اعتبرتنــي مجنوناً، لأنها كانــت مذعورة للغاية. وعندمــا وصلتُ إلى البيــت، أردت أن أباشــر العمل فوراً أو أدقق هــذه الرسائل، لأنني لا أرى جيــداً في ضــوء الشمــوع. ولكن ما فرا طرأت علــى ذهنها أن تغسل أرضية الغرفــة. إن هؤلاء الفنلنديات يغرمن بالنظافة والترتيب في الوقــت غير المناسب دائماً. ولهــذا خرجت أتمشى، وأتروى فيما حــدث. الآن وفي آخر الأمــر، سأعرف كل الأمــور والأفكار، كل تلــك الدوافع، وأنفذ أخــيراً إلى كل شيء. إن هذه الرسائل ستفتح لي كل شيء. الكلاب معشر أذكياء. وهم يعرفون كل العلاقات السياسية

ولهذا أعتقـد، سيكون كل شيء في باطن هـذه الرسائل: الشخصية وكل شـؤون صاحبنا رجل الدولة ذاك. وسيكون فيها أيضاً شيء عن تلك التي... لا بأس، أسكتُ! وفي المساء عدت إلى البيت. وقضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير.

١٣ تشرين الثاني

حسنـاً، لنرَ، الرسالة واضحـة إلى حد ما. ومع ذلك فإنَّ في الخط شيئاً كلبياً، كما يبدو. نقرأ:

عزيزتـي فيدل، أنـا لا أستطيع أن آلف اسمـك العامي. وكأنما لم يكـن في ميسورهم أن يختاروا اسماً ألطـف. فيدل، روزا، أية لفظة مبتذلـة! على كل حال. سأترك كل ذلك جانباً. أنا مسرورة جداً بأننا فكرنا في أن نتراسل.

الرسالـة صحيحة جداً مـن الناحيـة النحوية. النقـاط والفوارز في مكانهـا، وحتـى أدق العلامات. رئيس قسمنـا نفسه لا يقدر أن يكتـب بهذا الشكل، ولو أنـه يردد أنه درس في الجامعة في وقت ما. ولنواصل القراءة.

أعتقد أن تبادل الأفـكار والمشاعر والانطباعات مع شخص آخر هو إحدى النعم الأولى في الدنيا.

الفكرة مسروقة من مؤلف مترجم عن الألمانية، لا أتذكر اسمه.

أنـا أقول ذلك عن خبرة، على الرغم مـن أنني لم أتجول في العالم أبعـد من بوابـة عمارتنا. فهل حياتي لا تجلب متعـة؟ إن سيدتي التي يسميها «بابا» ها صوفيا، تحبني إلى حد الذهول.

آه، آه... لا بأس، لا بأس. أسكتُ!

وبابا أيضاً غالبـاً جداً ما يداعبني. وأنا أشرب الشاي والقهوة مع

الحليب. آه،[1] Ma chère عليّ أن أقول لك إنني لا أجد أية متعة في العظام الكبيرة المعروقة التي يقرقشها كلبنا بولكان في المطبخ. العظام لذيذة إذا كانت من عظام الطيور فقط، على أن تكون أيضاً غير مفرغة من نخاعها من قبل أحد. ولذيذ أن تخلط ببعض الصلصات سوية، ولكن بدون مخللات ولا خضرة، غير أنني لا أعرف أسوأ من عادة تقديم كرات لباب الخبز المدورة إلى الكلاب. تصوري، أحد السادة الجالسين إلى المائدة، والذي أمسك بيده مختلف القذارات، يدعك الخبز بيديه هاتين، ويدعوك إليه، ويدسّ في أسنانك كرة من هذه الكرات. وأنت لا تستطيعين أن ترفضي، لأن ذلك تصرف غيرمؤدب، فتضطرين إلى أكلها وتأكلينها، ولكن بتقزز...

الشيطان وحده يعرف ما هذا! أي هذر؟ كأنه لا يوجد موضوع أفضل من هذا لتكتب عنه. لننظر في الصفحة الأخرى. فقد يكون فيها أقرب إلى المنشود.

أنا على استعداد كبير لتزويدك بالمعلومات عن كل ما يحدث عندنا. وكنت قد حدثتك ذات مرة عن السيد الأكبر الذي تسميه صوفيا «بابا» إنه رجل غريب الأطوار جداً.

أهـا! وأخيراً! نعم، كنت أعرف أن للكلاب نظرة سياسية إلى كل الموضوعات. فلنر، ماهو بابا هذا:

... غريب الأطوار جداً. يلتزم الصمت في أكثر الأوقات. ونادراً جداً ما يتكلم. ولكنه قبل أسبوع كان يتكلم مع نفسه بلا انقطاع: «سأحصل أم لا أحصل؟» يضمّ يده على ورقة، ويطوي الأخرى فارغة ويقول: «سأحصل أم لا أحصل؟» ومرة وجه إلي سؤالاً. «ما

(١) الكنسدر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) شارع روسي عظيم، وهذه الأبيات الرديئة تنسب إلى بوشكين سخرية به. المترجم.

رأيك، يا ميدجي؟ هـل سأحصل أم لا أحصل؟» و لم أستطع أن أفهم شيئــاً بتاتاً، فتشممت حذاءه، وانصرفت. وبعد ذلك ma chère بعد بعد أسبوع جاء بابا مغموراً بفرح عظيم وطوال الصباح كان السادة ذوو البـزات الرسمية يترددون عليه، ويهنئونــه على شيء ما. وعلى المائـدة كان مبتهجاً ابتهاجــاً لم أره عليه قـط، وكان يطلق النكات. وبعـد الغداء رفعني إلى رقبته، وقال: «انظـري، يا ميدجي، أي شيء هذا؟». رأيت شريطاً، فتشممتــه، ولكنني لم أجد فيه أي عبير قطعاً، وأخيراً لعقته خلسةً. كان مالحاً قليلاً.

اهــم! أظن هذه الكلبـة تجاوزت كثيراً في كلامهــا... أخشى أن يضربوها! اها! بهذا الغرور هو! يجب أن آخذ ذلك بعين الاعتبار.

مع السلامة ma chère عندي مــا يشغلني... هذا وذاك... غداً سأكمــل الرسالــة. آوه، مرحبــاً! أنــا الآن معك ثانية. اليــوم سيدتي صوفيا....

آو! طيــب، لنرَ مــاذا صوفيا. آه خســارة... لا بأس لا بأس... سنواصل.

سيدتي صوفيا كانت في عجلة من أمرها. تتهيأ لحفلة راقصة. وقد فرحــت لأنني في غيابها أستطيع الكتابــة إليك. سيدتي صوفيا دوماً تفــرح جداً في الذهــاب إلى حفلة راقصة، ولو أنهــا أثناء لبسها تحتد دائماً تقريباً. أنا لا أفهم أبداً ma chère أي متعة في الذهاب إلى حفلة راقصة. صوفيا تعود من الحفلة الراقصة إلى البيت في الساعة السادسة صباحــاً، وأحدس دائماً تقريباً من وجههــا الشاحب المعروف أنهم لم يقدمــوا لهذه المسكينــة طعاماً. وأقولها بصراحة أنــا لا أستطيع أن أعيشــ بهذا الشكل. لو انقطعوا عن تقــديم لي لحم القبج بالصلصة، او أجنحة دجاج محمصة... لتحيرتُ ماذا سيحصل لي، ولذيذة أيضاً الصلصلــة مع العصيدة. أما الجــزر أو اللفت أو الخرشوف فلن يكون لذيذاً أبداً...

أسلوب متعكر كثيراً. تعرف منه رأساً أن كاتبه ليس من البشر. تبدأ حسب الأصول، وتنتهي على الطريقة الكلبوية، لننظر في رسالة أخرى. أطول قليلاً. أهم! و لم يُكتب تاريخ الإرسال.

آه، يا عزيزتي! كم هو محسوس اقتراب الربيع! قلبي يخفق، وكأنما يتوقع شيئاً طوال الوقت. وفي أذنيّ ضجيج دائم، حتى إنني غالباً ما أرفع رجليّ. وأقف بضع دقائق منصتة إلى الباب وأكاشفك أن لي الكثير من المغازلين. وغالباً ما أجلس إلى النافذة أتطلع إليهم. آه، ليتك تعرفين أي دميمين بينهم! بعضهم غليظ، كلب هجين سارح، أحمق بشكل فظيع، والحماقة مرسومة على وجهه، ويسير في الشارع متعاظماً، ويتصوّر أنه شخصية مرموقة، يظن أن الجميع يرمقونه. مستحيل! أنا لا أعيره أي التفات، وكأنني لم أره. وهناك كلب درواس ضخم رهيب يتوقف أمام شباكي! ولو وقف على قائمتيه الخلفيتين، وهذا ما لا يحسنه هذا الأزهر، على ما أظن، لكان أطول بمقدار رأس من بابا صاحبتي صوفيا، الذي هو الآخر طويل إلى حد ما وسمين. إن هذا المتحجّر الدماغ وقح إلى حد مفزع، على ما أتصور. دمدمتُ عليه، ولكنّه لم يكترث. أخرج لسانه، ودلّى أذنيه الهائلتين، وراح يحدق في الشباك أي جلف هو! ولكن لا يعقل أنك، ma chère تتصورين أن قلبي خال من أي ميل عاطفي. آه. لا.... ليتك رأيت أحد المغازلين، وهو ينسل من سياج البيت المجاور، إن اسمه تريزور، آه، ma chère أي بوز لطيف له!

تفو! إلى الشيطان...... أي هراء!..... وكيف يمكن ملء الرسائل بمثل هذه السفاسف. هاتوا لي إنساناً! أريد أنا أن أرى إنساناً، أطالب بطعام يمكن أن تتغذى فيه روحي وتتلذذ. ولكن بدلاً من ذلك أجابه بهذه التوافه... لنترك هذه الصفحة، فلربما تكون التالية أحسن.

.... كانت صوفيا جالسة وراء الطاولة تخيط شيئاً وكنت أنظر

في الشبـاك، لأنـنـي أحب التفرج علـى المـارة، وإذا بالخادم يدخل، ويقـول: «جـاء تيلـوف!» فصاحت صوفيـا: «ليتفضـل واندفعت تعانقـنـي آه، يا ميدجي، ميدحي! ليتك تعرفين أي شخص هو. أسود الشعـر. من ضباط القصر. وعيناه! سـودوان ومتوهجتان، كالنار». وركضـت صوفيا إلى حجرتها. وبعـد دقيقة دخل ضابط قصر شاب ذو فوديـن طويلين أسودين، واقترب من المرآة، وعدّل شعره، وأجال بصـره في الغرفـة. دمدمتُ قليـلاً، وجلست في مـكاني. وبعد قليل خرجـت صوفيا، وانحنـت بهجية رداً علـى تحيته المؤدبـة، أما أنا، فكأنـنـي لم ألحـظ شيئـاً، وتابعت النظر مـن الشبـاك، إلاّ أنني ملت برأسـي قليلاً، وحاولـت أن أسمع عمَّ سيتحدثـان. آه، ma chère، أي هراء كانا يتحدثان به يتحدثان عن سيدة بدلاً من أن تقوم بحركة معينة في الرقص قامت بحركـة أخرى، وعن شخص يدعى بوبوف كان في ياقتـه المدورة كثـير الشبه باللقلـق، وكاد يسقط، وعن امرأة تسمـى ليدينا تتصور أن عينيها زرقـاوان، بينما هما خضراوان، وما إلى ذلـك. وفكرت مع نفسي: «ما أبعد الفرق بين ضابط القصر هذا وتريـزور!» بُعد السمـاءَ! هذا هو الفـرق! أولاً. لضابط القصر وجه عريض أملس تمامـاً حوله فودان طويلان وكأنما أحاطه بمنديل أسود، بينما بـوز تريزور رقيق، وعلى جبينه غرة بيضـاء. وخصر تريزور لا تمكـن حتى مقارنتـه بخصر ضابـط القصر. والعينـان، والتصرفات، والقيافة، لا تشبهه كلياً. أوه، ما أبعد الفرق! أنا لا أعرف ma chère ماذا وجدت في صاحبها تبلوف هذا. وما سرّ إعجابها به؟..

أنا نفسي أتصور أن في الأمر خطأً. مستحيل أن يكون قد سحرها ضابط القصر بهذا الشكل. لننظر ماذا بعد:

يبـدو لي أنهـا إذا كانت اليوم تعجب بضابـط القصر، فعن قريب ستعجـب بذلـك الموظف الذي يجلـس في مكتب باباهـا. آه، ma

chère ليتك عرفت أي دميم الخلقة هو! سلحفاة في زكيبة تماماً...

ترى من يكون هذا الموظف؟...

اسم عائلتــه غريب جداً. وترينه دائماً يجلســ يبرو الريش. على رأسه شعر كثير الشبه بالتبن. بابا يرسله دائماً بدلاً من الخادم.

يبدو أن هذه الكلبة الحقيرة تقصدني. ولكن أين شعري من التبن؟

صوفيا لا تستطيع أن تكبح ضحكتها، حين تقع عيناها عليه.

تكذبـين، أيتها الكلبــة الملعونة! أية لغة رذيلـة! وكأنني لا أعرف أن ذلــك من الحسد. كأنني لا أعرف دسائس مَنْ هذه. هذه دسائس رئيســ القسم. الرجل جرفه الحسد القاهــر، فهو يؤذي ويؤذي، في كل خطــوة يــؤذي. على كل حال، لنرَ رسالة أخــرى، فقد تتكشف القضية فيها من تلقاء نفسها.

عزيزتي فيــدل! اعذريني على أني لم أ:تــب لك منذ زمان. كنت في نشــوة غامرة. كان أحد الكتــاب على حق تام، حين قال: ا لحب عمر ثانٍ. كما أن بيتنا يشهد الآن تغيرات كبيرة. ضابط القصر يزورنا الآن كل يــوم. وصوفي مغرمة به إلى حد الغيبوبــة. وبابا مرح جداً. كما أننــي سمعت من خادمنا غريغوري الــذي يكنس أرضية البيت ويتكلــم مع نفسه دائمــاً تقريباً، أن العرس سيكــون عن قريب، لأن بابا يريد بالتأكيد أن يزفّ ابنته إلى جنرال أو ضابط قصر أو عسكري برتبة مقدم...

اللعنــة على الشيطــان! لا أستطيــع أن أقرأ أكــثر... كل شيء أما ضابــط قصر أو جنرال. كل ماهو أفضــل في الدنيا من نصيب ضباط القصر أو الجنرالات. مــا إن تجد لنفسك غنيمة صغيرة، وتتصور أنها تحــت متناول يدك، حتى ينتزعها منك ضابط قصر أو جنرال. اللعنة! كــم أود لو أكون جنرالاً. لا لأخطب يد فتاة أو غير ذلك، بل أود أن

أكون جنرالاً لغرض واحد فقط، وهو أن أرى كيف سيحومان حولي ويقومـان بكل تلـك الدسائس والمنـاورات المختلفة التـي يقوم بها رجـال القصر. وبعد ذلك أقول لهما: بصقة على كليكما. تحفظكما الشيطان. خسارة! مزقتُ رسائل الكلبة الحمقاء إرباً.

٣ كانون الأول

مستحيل. أكاذيب! لن يحصل عرس! ماذا يعني أنه ضابط قصر. هـذا لا أكثر من مباهـاة. ليس شيئاً مرئياً يمكـن أن يُلمس باليد. وأن يكـون ضابط قصر لا يعني أن تكون له عـين ثالثة على الجبين. وأنفه ليسـ مصنوعاً مـن ذهب، بل مثل أنفي، وأنـف أي إنسان. يشتم به لا يـأكل، يعطس بـه، لا يسعل. كم من مرة أردت أن أتوصل من أين تأتـي هذه الفروق؟ لماذا أنا ملاحظ أوراق، وبأي موجب أنا ملاحظ أوراق؟ ربما أنا كونت أو جنرال، ولكن أبدو ملاحظ أوراق؟ ربما أنا نفسي لا أعـرف مَنْ أنا. وكم في التاريخ من أمثلة على ذلك! إنسان بسيط، وليس من سلالة نبلاء مثلي، مجرد عامي من أهل المدينة أو حتى فـلاح. وفجأة يُكتشف أنه من علية القوم وأحياناً حتى قيصر. أحياناً يطلع من ريفي ما لا يمكن أن يطلع أحياناً من نبيل؟ فلو ألبس مثلاً بزة جنرال وعلى منكبي الأيمن كتافية، وعلى منكبي الأيسر كتافية، وعبر صـدري وشاح أزرق. فماذا سيكـون؟ عندها ماذا ستقول حسنائي تلـك؟ وماذا سيقول باباهـا، مديرنا؟ أوه، ذلك المغـرور الكبير! إنه ماسوني. ماسوني بالتأكيد، ولو أنه يتظاهر بهذا وذاك، ولكنني فطنت في الحال إنه ماسوني: فهو إذا قدم لأحد يده، لا يمد إلا إصبعين. ثم ألا يمكن أن تخلع عليَّ فجأة رتبة جنرال حاكم ولاية، أو تموين عسكري أو رتبة أخرى من تلك الرتب؟ أود أن أعرف لماذا أنا ملاحظ أوراق، وملاحظ أوراق بالذات؟..

٦ كانون الأول

اليوم قضيت الصباح كله أقرأ الجرائد. في إسبانيا تجري أمور غريبة. بل و لم أستطع أن أ فهمها بشكل جيد. يقولون إن صاحب العرش خُلع عن عرشه، وأن رجال الدولة يجدون صعوبة كبيرة في اختيار الوريث، وبسبب ذلك تحدث قلاقل. إن هذا يبدو لي غريباً للغاية. كيف يُخلع صاحب عرش عن عرشه؟ يقولون إن دونة[١] من الدونات يجب أن تتبوأ العرش، لا يمكن أن تتبوأ دونة عرشاً. مستحيل. يجب أن يتبوأ العرش ملك. إلا أنهم يقولون: لا يوجد ملك، ولكن لا يمكن أن لا يوجد ملك. لا توجد دولة بدون ملك. الملك موجود، سوى أنه في مكان مجهول الآن. فقد يكون في إسبانيا نفسها، ولكن أسباباً معينة، عائلية أو غيرها، أو خوفاً من جانب الدول المجاورة، فرنسا، مثلاً، أو غيرها، تجعله يختبئ، أو لعل هناك أسباباً أخرى.

٨ كانون الأول

كنت متهيئاً كلياً للخروج إلى الدائرة إلا أن أسباباً وتأملات مختلفة أعاقتني عن ذلك. ما تزال الشؤون الإسبانية تلازم ذهني ولا تبارحه. كيف يمكن لدونة، لامرأة أن تصير ملكة؟ هذا غير مسموح. أولاً، إنجلترا لا تقبل به، كما أن هذه قضايا سياسية لأوربا كلها: الإمبراطور النمساوي، مولانا القيصر... اعترف أن هذه الأحداث أتعبتني وهزتني، حتى إنني لم أستطع أن أقوم بأي شيء طوال اليوم. نبهتني مافرا إلى أنني أثناء الغداء كنت سارحاً تماماً. وبالفعل يبدو أنني من شرود الذهن أوقعت صحنين على الأرض، فتحطما في الحال،

---

(١) يا عزيزتي (بالفرنسية في الأصل). المترجم.

بعد الغداء ذهبت لأتنزه. لم أستطع أن أستخلص شيئاً ذا نفع على الإطلاق. قضيت معظم الوقت مستلقياً على السرير أفكر في شؤون إسبانيا.

اليوم يوم عيد عظيم للغاية! في إسبانيا يوجد ملك. بحثوا عنه فوجدوه. وها الملك هو أنا. واليوم فقط عرفتُ بذلك. أعترف بأنني شعرت فجأة وكأن برقاً أضاء. أنا لا أفهم كيف استطعت أن أظن وأتصور نفسي ملاحظ أوراق. كيف أمكن أن تدخل هذه الفكرة الطائشة في رأسي؟ لطيف أن أحداً لم يفطن في حينها إلى أن يضعني في مستشفى المجاذيب. والآن كل شيء مفتوح أمامي. الآن أرى كل شيء وكأنه على راحة يدي. ولكن من قبل لا أفهم، من قبل كان كل شيء أمامي وكأنه في ضباب. وكل ذلك، على ما أعتقد، لأن الناس يتوهمون أن دماغ الإنسان موجود في رأسه. لا، قطعاً. الريح تأتي به مندفعة من ناحية بحر قزوين. في البداية أعلنت لمافرا مَنْ أنا. وعندما سمعت أنها في حضرة الملك الإسباني، رفعت ذراعيها إلى فوق، باندهاش، وكادت تموت من الخوف. إن هذه الحمقاء لم تر قط ملكاً إسبانياً. إلا أنني حاولت أن أهدئها، وحاولت بكلمات رقيقة أن أؤكد ودي لها، وأنني لست زعلان، بالمرة، لأنها أحياناً لم تكن تنظف جزمتي بشكل جيد. ذلك لأن هؤلاء أناس جَهَلة لا يجوز التكلم معهم عن موضوعات رفيعة. وقد ذُعِرت لأنها توقن بأن جميع الملوك في إسبانيا يشبهون فيليب الثاني. ولكنني أقنعتها بأنه لا يوجد أي شبه بيني وبين فيليب، وليس لي أي كابوتشي....
لم أذهب إلى الدائرة... إلى جهنم! لا، يا أصحاب، لن تغروني الآن. لن أقبل باستنساخ أوراقكم الحقيرة.

تشرين.

بين النهار والليل

اليوم جاء مسؤولنا عن شؤون الموظفين ليجعلني أذهب إلى الدائرة، فأنا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع قد انقطعت عن الدوام. ذهبت إلى الدائرة على سبيل المزاح. تصور رئيس القسم أني سأنحني محيياً، وأعتذر، ولكنني نظرت إليه بلا اكتراث، وبغضب لم أتوسع فيه، وتسامح لم أكثر منه، وجلست في مكاني، وكأنني لم ألحظ أحداً. نظرت إلى كل كتبة الأوراق الأوغاد وأنا أفكر: «ماذا لو عرفتم من يجلس بينكم... يارب! أي هرج سيثيرون، ثم إن رئيس القسم نفسه سيطوي جذعه بانحناءة من وسطه، كما يفعل الآن أمام المدير». وضعوا أمامي أوراقاً لألخصها. ولكنني لم أمسسها بإصبع. وبعد بضع دقائق حصل اضطراب. وقالوا إن المدير قادم. وركض موظفون كثيرون يسابق بعضهم بعضاً ليعرضوا أنفسهم أمامه. ولكنني لم أتحرك من مكاني. وعندما سار عبر قسمنا. زرّر الجميع أزرار ستراتهم الفراك. ولكنني لم أبد أي حركة إطلاقاً مدير وماذا يعني! أن أقوم له؟ مستحيل! وأي مدير هو؟ إنه سِداد، وليس مديراً. سِداد اعتيادي، سِداد بسيط، ولا أكثر. من تلك التي تُسد بها الزجاجات. وأكثر ما أطربني أنهم دسوا لي ورقة لأوقعها. ظنوا أنني سأكتب في طرف الورقة تماماً: رأس الأوراق فلان. لن يكون! شخبطتُ في أبرز مكان، حيث يوقع مدير الدائرة عادة: «فيرديناند الثامن». ويجب أن تروا أي صمت مهيب خيّم على المكان، ولكنني لوحت بيدي فقط، وقلت: «لا حاجة لأي إشارة للتبعية!»، وخرجت، ومن هناك توجهت إلى شقة المدير رأساً. لم يكن في البيت. لم يرد الخادم أن يدخلني، ولكنني قلت له ماجعله يسبل ذراعيه. وقصدت إلى غرفة الزينة رأساً. رأيتها جالسة أمام المرآة، فوثبت من مكانها وتراجعت عني. على كل حال لم أقل لها إنني ملك إسبانيا بل قلت فقط، في انتظارها سعادة لا

تستطيع حتى أن تتخيلها، وإننا سنكون سوية، على الرغم من مكائد الأعـداء. و لم أرد أن أقـول لأكـثر من هذا، وخرجـت. آه، من تلك المخلوقة الكريهة، المـرأة! الآن عرفت ماهي المرأة. قبل هذا الحين لم يكـن أحد يعرف مَـنْ تعشق المرأة. أنا أول مَـنْ اكتشف ذلك. المرأة تعشق الشيطان. نعم، من غير مزاح. الفيزياويون يكتبون سخافات، عـن كونها كذا وكذا. إنها لا تحـب إلا الشيطان. انظروا، إنها توجه نظارتهـا اليدوية مـن مقصورتها في الطابق الأول. هـل تظنون إنها تنظـر إلى ذلك السمين ذي الوسام؟ لا، أبداً. إنها تنظر إلى الشيطان، الواقـف وراء ظهره. هاهو يتخفى في فراكه. والآن يشير لها بإصبعه من هناك! وستتزوجه. تتزوجه حتماً. أما آباؤهن ذوو الرتب، هؤلاء جميعهـم، كل هؤلاء الذين يتذللون وينسلّـون إلى البلاط، ويقولون إنهم وطنيـون وما إلى ذلك، فإنهم يريدون منافـع. هؤلاء الوطنيون يريـدون منافع إنهم يبيعـون الأم والأب والرب لقـاء فلوس، هؤلاء المغـرورون، باعة المسيح. كل هذا غـرور، والغرور يأتي من الفقاعة الصغـيرة تحت اللسان والتـي توجد فيها دودة صغـيرة بحجم رأس الدبوس، وكل ذلك من صنع حلاق يسكن في شارع غروخوفيا. لا أتذكر اسمه، ولكن من المعروف المؤكد أنه وقابلة مولدة عجوز يريد أن ينشر ديناً غير المسيحية، ولذلك يقال إن جزءاً كبيراً من الشعب في فرنسا قد اعتنق هذا الدين.

بتاريخ ما

يوم خارج الشهور

كنـت أتمشـى متخفياً في شـارع نيفسكي. مـر صاحب الجلالة الإمبراطور. الناس جميعاً رفعوا قبعاتهم، وأنا أيضاً، إلا أنني لم أظهر أية علامة على أنني ملـك إسبانيا. وجدت من غير اللائق أن أكشف عـن نفسي هنـا، أمام الملأ، فقـد كان يجب قبل كل شـيء، أن أقدم

نفسـي إلى البلاط. و لم يكن يوقفنـي عن ذلك إلا كوني لا أملك حُلّة الملوكيـة حتى الآن. على الأقل لو أحصل علـى عباءة الملوك. أردت أن أوصـي عليها أحد الخياطين، ولكن هـؤلاء حمير تماماً، كما أنهم يستهينون بعملهم كلياً ويمهـدون الطريق. قررت أن أصنع عباءة من سـترة رسمية جديـدة لم ألبسها غـير مرتين. ولكـن لا يفسد هؤلاء الأراذل السترة، عزمت على أن أخيط العباءة بنفسي، وأغلقت الباب عليَّ، حتى لا يراني أحد. قصصت السترة كلها بالمقص لأن التفصيل يجب أن يكون مختلفاً تماماً.

لا أتذكـر اليوم. وكذلك الشهر. والشيطـان يعرفمتى كان ذلك العبـاءة جاهزة تماماً، ومخاطة، صرخت مافـرا حين رأتني. إلا أنني لم أقـرر بعـد ت قديم نفسي إلى البلاط. لم تصـل البعثة من إسبانيا حتى الآن ولا يليق أن أفعل ذلك بدون مبعوثين، لن يكون لمقامي أي وزن. أنا أنتظرهم من ساعة إلى أخرى.

الأول من

يدهشنـي كثيراً إبطـاء المبعوثين. أية أسباب يمكـن أن تحول دون وصولهـم؟ أيعقل أن تكـون فرنسا؟ أجل، إنها دولـة معرقلة للغاية. أردت التوجـه إلى البريد أسأل عن وصـول المبعوثين الإسبان. ولكن مأمور البريد بليد للغاية، لا يعلم شيئاً. يقول: لا يوجد هنا أي مبعوثين إسبـان، وإذا كنت أريد أن أكتب رسائل فسنتسلمها حسب التعريفة المقررة. تخطفك الشيطان! ما معنى الرسالة؟ الرسالة هراء. الصيادلة يكتبون الرسائل.

مدريد ، في الثلاثين من شيباطياري

وها أنذا في إسبانيا. وقد حدث هذا بسرعة فائقة بحيث ما كدت

أفيق على نفسي. صباح اليوم وفد عليَّ المبعوثون الإسبان. فجلست معهم في العربة. والسرعة غير الاعتيادية التي سرنا بها بدت لي غريبة. فقد كنا ننطلق بسرعة هائلة، حتى وصلنا الحدود الإسبانية في ظرف نصف ساعة. وعلى العموم، الطرق الحديدية الآن تعم أوربا كلها، كما أن البواخر تسير بسرعة خارقة. وأرض إسبانيا غريبة. حين دخلنا الغرفة الأولى رأيت عدداً كبيراً من الناس حليقي الرؤوس. إلا أنني حدست فوراً أنهم إما نبلاء إسبان أو جنود، لأن هؤلاء يحلقون رؤوسهم. وبدا لي تصرف مستشار الدولة الذي قادني من يدي غريباً جداً. فقد دفعني إلى حجرة صغيرة، وقال: «اقعد هنا، وإذا كنت ستسمي نفسك الملك فيرديناند، فسأظل أضربك حتى أقلع هذه العادة منك». ولما كنت أعرف أن ذلك مجرد تجربة، أجبت بالنفي، وعلى ذلك ضربني بالعصا مرتين على ظهري ضرباً موجعاً حتى كدت أصرخ، ولكنني تماسكت، بعد أن تذكرت أن هذه عادة فروسية عند تسلم لقب رفيع لأن عادات الفروسية ما زالت قائمة في إسبانيا حتى الآن.

وحينما بقيت وحدي قررت القيام بشؤون دولية. اكتشفت أن الصين وإسبانيا أرض واحدة تماماً، وبسبب الجهل فقط يعتبرونها دولتين مختلفتين. وأنا أنصح الجميع أن يكتبوا إسبانيا على الورق عن قصد لتطلع الصين أيضاً. ولكن الحدث الذي سيحصل غداً غمّني للغاية. غداً، في الساعة الثامنة، ستقع ظاهرة غريبة. فستقعد الأرض على القمر. الكيماوي الإنجليزي الشهير ويلنكثون يكتب عن ذلك أيضاً. وأعترف بأنني شعرت بقلق جدي، حين تصوّرت مع نفسي رقة القمر الفريدة وهشاشته. ذلك لأن القمر في العادة يُصنع في هامبورغ، ويصنع بشكل شنيع. وأنا أندهش كيف لا تلتفت إنجلترا إلى ذلك. وصانع القمر هو صناع براميل أعرج، والظاهر أنه أبله أيضاً، ليس له أي تصور للقمر. صنعه من حبل قطراني وشيء من زيت الخشب، ولهذا تفوح الأرض كلها برائحة فظيعة تضطرك

إلى سد أنفك. ولهذا السبب صار القمر نفسه كرة رقيقة جداً، بحيث لا يستطيع الناس العيش على سطحه، ولهذا لا تعيش عليه الآن غير الأنوف. ولهذا السبب ذاته لا نستطيع أن نرى أنوفنا، لأنها على القمر جميعها. ولما تصورت في ذهني أن الأرض ثقيلة، ومن الممكن بعد قعودها على القمر أن تطحن أنوفنا طحناً استحوذ عليَّ قلق شديد، حتى إنني لبست الجوارب والحذاء، وأسرعت إلى قاعة مجلس الدولة، لأصدر أوامر إلى الشرطة بأن يحولوا دون قعود الأرض على القمر. والنبلاء الإسبان الحليقو الرؤوس الذين وجدتهم بأعداد غفيرة في قاعة مجلس الدولة كانوا أناساً أذكياء، فعندما قلت: «أيها السادة، لننقذ القمر، لأن الأرض تريد القعود عليه». اندفع الجميع حالاً لينفذوا رغبتي الملكية، وتسلق الكثيرون منهم الجدار ليصلوا إلى القمر، ولكن المستشار العظيم دخل في ذلك الوقت. ولما رأوه تفرق الجميع متراكضين. وأنا كملك، بقيت وحدي. ولكن لدهشتي ضربني المستشار بالعصا، وساقني إلى غرفتي. إلى هذا الحد تتحكم العادات الشعبية في إسبانيا.

كانون الثاني

الذي جاء بعد شباط من العام نفسه

أنا لحد الآن لا أقدر أن أفهم أي بلاد إسبانيا هذه. العادات الشعبية وتقاليد البلاط غير اعتيادية إطلاقاً. لا أفهم لا أفهم أي شيء البتة. اليوم حلقوا شعر رأسي، على الرغم من أنني كنت أصرخ بأعلى صوتي بأنني لا أريد أن أكون راهباً ولكنني لم أعد أتذكر ماذا حصل لي، حين أخذوا يصبون الماء البارد على رأسي. لم أشعر بمثل هذا العذاب من قبل قط. كان من الممكن أن تعتريني نوبة من السعار ولهذا ماكادوا أن يضبطوني. أنا لا أفهم إطلاقاً دلالة هذه العادة الغريبة. عادة هوجاء فارغة من أي معنى! أنا لا أدرك

استهتار الملوك الذين لا يقضون عليها، حتى الآن. ولما فكرت بكل الملابسات خمنت أنني وقعت في أيدي محاكم التفتيش، وقد يكون الذي تصورته مستشاراً هو المفتش الأعظم نفسه، سوى أنني لا أستطيع أن افهم كيف أمكن أن يتعرض ملوك لمحكمة تفتيش. في الحقيقة، قد يكون ذلك من جانب فرنسا، ولاسيما بولينياك. آه، ياله من محتال بولينياك هذا! أقسم على أن يؤذيني حتى الموت. وها هو يطاردني ويطاردني، ولكنني أعرف، يا صاح، أن الإنجليز هم الذين يحرضونك. الإنجليزي سياسي كبير. وهو يدس أنفه في كل شيء. وهذا معروف للعالم أجمع: حين تتشمَّم إنجلترا نشوقاً، تعطس فرنسا.

بتاريخ ٢٥

اليوم دخل المفتش الأعظم غرفتي، ولكنني اختبأت تحت المقعد، حين سمعت وقع أقدامه من بعيد، وحين لم يرني أخذ يناديني. في البداية صاح: «يا بوبريشين!» لم أنطق بكلمة. ثم «يا اكسنتي ايفانوف! يا ملاحظ الأوراق! يا نبيل!» ظللت صامتاً. «يا فرديناند الثامن، يا ملك إسبانيا!» أردت أن أخرج رأسي، ولكن فكرت: «لا، يا أخ، لن تخدعنا. نحن نعرفك، ستصب الماء البارد على رأسي مرة أخرى». إلا أنه رآني، وأخرجني من تحت المقعد بالعصا. إن هذه العصا اللعينة توجع إلى أقصى حد. وعلى العموم، على هذا كله كافأني اكتشافي اليوم. فقد عرفت أن لكل ديك إسبانيا خاصة به وهي موجودة تحت ريشه. على كل حال خرج المفتش الأعظم مني شديد الغضب، يهددني بعقوبة معينة. ولكنني استهنت تماماً بحنقه العاجز، عارفاً أنه يتصرف كآلة، كأداة بيد الإنجليز.

لم تعد لي قوة على التحمل، حقاً. يا رب! ماذا يفعلون بي! يصبون الماء البارد على رأسي. إنهم لا ينصتون لي، ولا يرون، ولا يستمعون إليَّ. ماذا فعلت لهم؟ لأي شيء يعذبونني؟ ما الذي يريدونه مني؟ ماذا باستطاعتي أن أعطيهم؟ أنا لا أملك شيئاً، أنا لا أقوى، لا أقدر أن أتحمل كل عذاباتهم. ورأسي يلتهب، وكل شيء يدور أمامي، أنقذوني! خذوني. أعطوني عربة بجياد سريعة كالريح العاصفة، خيولاً! اجلسْ في مقعدك، يا سائق عربتين ورن، يا جرس، وانطلقي يا خيول، وأخرجوني من هذا العالم.

ابعد، فأبعد، بحيث لا يُرى أي شيء. هاهي السماء تتلولب أمامي، ونجمة تلمع في البعيد، وغابة تندفع بأشجار داكنة، وقمر. وضباب يمامي ينبسط تحت الأقدام، ووتر يرن في الضباب، والبحر من جانب، وإيطاليا من الجانب الآخر. وها هي الأكواخ الروسية تلوح. أهذا بيتي الذي يبدو أزرق من بعيد؟ أهذه أمي جالسة أمام الشباك؟ أماه، أنقذي ابنك المسكين. اسكبي دمعة على رأسه الموجَع! انظري كيف يعذبونه! ضمي يتيمك المسكين إلى صدرك! لا مكان له في الدنيا. إنه مطارَد! أماه! أشفقي على ولدك المسكين!... هل تعرفون أن لوالي الجزائر عجرة تحت أنفه مباشرة؟..

عربة

عمَّ فرح كبير بلدة ب، حين أخذ يرابط فيها فوج خيّالة. وقبل ذلك الحين كانت الحياة فيها مضجرة جداً. فأنت إذا صادف وأن مررت بها، وتطلعت إلى بيوتها الطينية الصغيرة الواطئة، التي تطل على الشارع جهماء عابسة.... يستحيل عليك أن تصف ما يعتمل في قلبك. تستولي عليك وحشة قوية، وكأنك خسرت في لعبة قمار، أو أفلتت منك حماقة في غير محلها، وباختصار: يضيق صدرك. الطين الذي عليها ساح من المطر، والجدران صارت رقطاء بدلاً من بيضاء. ومعظم السطوح مغطاة بالقصب، كما هو الحال عادة في مدننا الجنوبية، والحدائق قد اجتثت، منذ زمان، بأمر من حاكم البلدة لتحسين المنظر. وأنت لا تلتقي في الشارع بنفس حيَّة، ما عدا ديكاً يقطع الجادة الناعمة، كمخدة، بسبب التراب المتراكم عليه بكثرة، والذي يتحوَّل إلى وحل، عند أقل مطرة، وعند ذاك تمتلئ شوارع بلدة ب. بتلك الحيوانات السمينة[1] التي يسميها حاكم البلدة بـ «الفرنسيين». إذ تخرج أبوازها الرصينة من بركها وترسل قباعاً لم تدع للمسافر إلا أن يطلق العنان لأفراسه. وعلى العموم تصعب مصادفة مسافر في بلدة ب. فمن النادر، والنادر جداً أن يقعقع على الجادة مالك أراض صغير يملك إحدى عشرة قناً، في عربة ركوب وحمولة معاً، وهو في سترته من القماش القطني الرخيص، يحدق

---

(١) السيدة بالإسبانية المترجم.

مـن أكياس الطحـين المتكدسـة، ويسـوط حصانه الكميـت الذي تلاحقـه مهرته. وساحة السوق نفسها ذات منظر في شيء من الكآبة حيث يوجد بيت الخياط مطلاً عليها بانحراف وليس بكل واجهاته، وبطريقـة غايـة في البلاهـة. وقبالته يجري منذ حـوالي خمسة عشر عامـاً بناء مبنى حجـري ذي نافذتين. وأبعد مـن ذلك يقف مستقلاً بذاته سيـاج عصري من الألواح الخشبية مطلـي بطلاء رمادي يلائم لـون الوحل، كان حاكم البلدة قد أقامه مثالاً لمبانٍ أخرى، حين كان في شبابـه، ولم يكن قد تعود آنـذاك على نوم القيلولة غب الغداء، ويشـرب في الليل نقيع نباتات طبية مطعم بثمار عنب الثعلب الجافة. وفي الأماكـن الأخـرى لا توجد إلا الأيجة مـن الأغصان المضفورة في الغالـب الأعم. وفي وسـط الساحة أصغر الدكاكين. وفي داخلها دائمـاً يمكن أن تقع عيناك على ضبّة من الكعك المدوّر، وامرأة ريفية تعتصب بمنديل أحمر، وحُقَق من الصابون، وبعض الأرطال من اللوز المُـر، وخردق للصيـد، وقماش قطني وبائعين مـن مساعدي التجار تجدهمـا في كل وقت يلعبان قرب الأبواب لعبة التصويب على حلقة في الأرض. ولكن حالمـا رابط فوج الخيالة في بلـدة ب. حتى تغيّر كل شيء. ازدهت الشوارع وانتعشت بالحركة، وباختصار اتخذت مظهـراً مغايراً تماماً. وغالباً ما أخذت البيـوت الواطئة تشهد ضابطاً خفيف الحركة ممشوق القوام يمر بها، بقبعته المزينة بالريش، ذاهباً إلى رفيقـه يحدثه عن الترقية، وعن التبغ الممتـاز، وأحياناً ليراهن في لعبة ورق على عربة ركوب صغيرة يمكن أن توصف بأنها «فوجية» لأنها كانت تستطيـع أن تضري الجميع، حتـى دون أن تغادر مقر الفوج. فاليـوم إذا أقلها ضابـط برتبة رائد. فغداً ستظهـر في إسطبل ملازم، وبعـد أسبـوع، ربما سترون مراسـل ذلك الرائد مـرة أخرى يدهنها بالشحـم. والسيـاج الخشبي بين البيوت صار كلـه مغطى بطاقيات

الجنود المعروضة لأشعة الشمس، ولابد أن يبرز معطف عسكري رمادي على إحدى البوابات. وأخذت الأزقة تشهد جنوداً بشوارب خشنة، مثل فرش الإسكاف. وكانت هذه الشوارب تشاهد في كل مكان. وإذا اجتمعت نسوة في سوق بجرارهن فلابد أن تطل شوارب من وراء أكتافهن. وعلى منصة العقوبات ترى جندياً مشورباً يحلق لحية ريفي أهوج، كان لا يصدر منه إلا أنين، وعيناه جاحظتان طالعتان إلى فوق. وبعث الضباط الحياة في مجتمع البلدة الذي كان، إلى حين مجيئهم، يتألف فقط من القاضي الذي يسكن في بيت واحد مع شماسة، وحاكم البلدة، وهو رجل حصيف، ولكنه يقضي اليوم كله في النوم: من وقت الغداء إلى المساء. ومن المساء إلى وقت الغداء. وصار المجتمع أكثر إفراداً وإمتاعاً حين نُقِل إلى البلدة مقر جنرال الفرقة، وأخذ ملاكو الأراضي المحيطون بالبلدة، والذين لم يخمن أحد قبل هذه بوجودهم، يأتون أكثر إليها، ليلتقوا بالسادة الضباط وأحياناً ليلعبوا معهم الورق، وهو ما لم يكن يدور إلا بغموض شديد في رؤوسهم المشغولة بالبذار وتوصيات الزوجات واصطياد الأرانب. ومن المؤسف جداً أن لا أتذكر المناسبة التي بسببها أقام جنرال الفرقة مأدبة غداء كبيرة كان الإعداد لها هائلاً. فقد كانت ضربات سكاكين الطباخين في مطبخ الجنرال تسمع بالقرب من بوابة البلدة تقريباً. وخصصت سوق البلدة كلها لهذه المأدبة بالتمام، حتى كان على القاضي وشماسته أن يقتصرا في غدائهما على الرقائق المصنوعة من الحنطة السوداء، وعلى سحلب النشا. وامتلأ فناء مسكن الجنرال الصغير بالعربات والعجلات. وكان الحضور من الرجال الضباط وبعض مالكي الأراضي المجاورين. وكان بيفاغور بيفاغوروفيتش تشرتوكوتسكي، وهو من أرستقراطيي قضاء ب. الكبار، أكثر هؤلاء الملاكين بروزاً، وأشدهم ضجيجاً عند الانتخابات التي حضر إليها

في مركبة أنيقة. وكان، من قبل، يخدم في أحد أفواج الخيالة، وكان أحد الضباط المهمين البارزين. وعلى كل حال كان يشاهد في العديد من حفلات الرقص والمحافل، أينما كان ينتقل فوجهم، وفي الإمكان الاستفسار عن ذلك من آنسات ولايتي تامبوف وسيمبيرسك. وكان من المحتمل جداً أن يكون قد أقام لنفسه شهرة كبيرة في ولايات أخرى، لو لم يتقاعد لسبب يوصف عادة بأنه قصة مؤسفة: إما لأنه سدد صفعة إلى رجل في قديم الزمان وإما لأنه هو نفسه تلقى صفعة، فأنا لا أتذكر على وجه التأكيد. كل ما في الأمر إنه طلب أن يحال على المعاش. وعلى كل حال لم يدع ذلك يقلل من وزنه أبداً. فقد كان يرتدي الفراك بالخصر العالي، على طراز البزة العسكرية، ويضع مهمازين في حذائه، وشاربين تحت أنفه، لأن من الممكن، بدون ذلك، أن يظن النبلاء أنه كان يخدم في المشاة الذين كان يسمّيهم أحياناً بـ «المشائين» ازدراءً، وأحياناً «مشاشين».

وكان يشهد كل الأسواق الريفية المزدحمة التي يتردد عليها ما يؤلف جوف روسيا من الأمهات والأطفال والبنات ومالكي الأراضي السمان، طلباً للهو والمرح في عربات من مختلف الأصناف والحجوم، بعضها لم تخطر على أحد حتى في الحلم. وكان يتشمم بأنفه موقع فوج الخيّالة، ويأتي دائماً ليلتقي بالسادة الضباط، وكان يقفز نازلاً أمامهم بمهارة شديدة من مركبته الخفيفة أو عربته، ويتعارف معهم بسرعة بالغة. وفي انتخابات الأشراف السابقة أقام مأدبة غداء فاخرة للأشراف، وأعلن فيها أنه حالما ينتخب نقيباً لهم، سيجعل الإشراف في أحسن مقام. وعلى العموم كان يتصرف على طريقة الأسياد، كما يقال عادة في الأقاليم والولايات، وتزوج امرأة مليحة إلى حد ما، وأخذ صداقاً لها مائتي قن، وبعض الألوف من رأسمال. واستخدم الرأسمال فوراً في اقتناء ستة جياد ممتازة حقاً،

وأقفـالاً مذهبة للأبـواب، وقـرداً مستأنساً صغيراً للبيـت. وخادماً فرنسيـاً. ورُهِن الأقنان المائتان مع الأقنان المائتين الذين يملكهم للقيام بعمليات تجارية. وباختصـار كان مالك أراض، كما ينبغي أن يكون المالك الممتـاز. وإلى جانب ذلك كان في مأدبة الجنرال بعض ملاكي الأراضـي الآخرين، ولكن لا داعي للكلام عنهـم. وبقية الحاضرين كانـوا جميعاً عسكريين من ذلك الفـوج، واثنين من ضباط الأركان أحدهمـا برتبة عقيد، والآخر رائد بديـن إلى حد ما، والجنرال نفسه كان ركينـاً ممتلئاً، ورئيسـاً جيداً، على كل حال، كمـا كان الضباط يصفونـه. وكان يتكلـم بصوت على قدر معين مـن الغلظة وارتفاع النـبرة. كان الغداء فاخراً مؤلفاً من أنـواع ممتازة من السمك وطيور الحبارى وخضـرة الهليون، وطيور السمان، والحجل والفطر، وكان كل ذلـك يدلّ على أن الطبـاخ لم يضع منذ يوم أمس طعاماً ساخناً في فمـه، وقـد عمل أربعـة جنود مزوديـن بالسكاكين طـوال الليل يساعدونـه في طهي اللحم المفروم المقلي ومهلبية الفواكه. وكان كل شيء يتمـم بعضه بعضاً: كثرة الزجاجات الطويلة من النبيذ الأحمر، والقصيرة من خمرة الماديرا، واليوم الصيفي الرائع، والنوافذ المفتوحة علـى مصاريعها، وصحون الثلج على طاولة، وآخر زر الياقة المفتوح في بزات السادة الضباط، وقبـة الصدر الناتئة لذوي الفراك العريض والحديـث العـام، الـذي يطغي عليـه صـوت الجـنرال، والشمبانيا المسكوبـة. وبعد الغداء نهض الجميع بثقل مريح في المعدة، وخرجوا إلى مدخـل البيت حاملين أقـداح القهوة، بعـد أن أشعلوا غلايينهم الطويلة والقصيرة.

كانت سترات الجنرال والعقيد وحتى الرائد غير مزررة كلياً، حتى كانت تظهر قليلاً حمالات البنطلون الحريرية الفاخرة، ولكن السادة الضبـاط حفظاً على الاحترام الواجب أبقـوا ستراتهم مزررة ما عدا الأزرار الثلاثة الأخيرة.

قال الجنرال:

- والآن يمكن أن نراها. من فضلك، يا محترم قال مخاطباً مرافقه، وهو شاب خفيف إلى حد ما ذات مظهر لطيف اطلب أن يجلبوا الفرس الكميت إلى هنا! وسترونها أنفسكم ومصّ الجنرال مصة من غليونه، ونفث الدخان، ومضى يقول لم تلق الرعاية التامة بعد. فهذه بلدة لعينة ليس فيها اسطبل معتبر. الفرس، بوف، بوف، معتبرة جداً.

قال تشرتوكوتسكي مخللاً كلامه بمصّات من غليونه كما يفعل الجنرال:

- هل هي لديك، بوف، بوف، منذ زمان، يا صاحب السعادة؟

- بوف، بوف، بوف.... يعني.... بوف، ليس كثيراً، سنتان فقط، منذ أن أخذتها من المزرعة!

- وأخذتها مروّضة، أم روضتها هنا؟

- بوف، بوف، بو، بو، بو... وو....ف. هنا.

وبعد أن قال ذلك اختفى الجنرال كله في الدخان.

وخلال ذلك طلع جندي من الإسطبل متوثباً، وتردد وقع حوافر حصان، وأخيراً ظهر جندي آخر في جلباب عريض من القماش الأبيض البسيط له شاربان أسودان ضخمان، وهو يقود فرساً جافلة مذعورة رفعت رأسها فجأة، وكادت ترفع إلى فوق الجندي الذي انحنى حتى الأرض سوية مع شاربيه. فكان يقول، وهو يقترب بها من المدخل: «مهلاً، مهلاً، اغرافينا ايفانوفنا!»

كان اسم الفرس اغرافينا ايفانوفنان وهي فرس قوية غير مطواعة كحسناء جنوبية، ضربت مدخل البيت الخشبي بحوافرها، وتوقفت فجأة.

انزل الجنرال غليونه، وأخذ ينظر إلى اغرافينا ايفانوفنان بادي

الارتيـاح. والعقيـد نفسه نزل درجـات المدخل، وأمسـك الفرس مـن بوزها. أما الرائد فربـت على ساق اغرافينـا ايفانوفنان. وتمطق الآخرون بألسنتهم.

نـزل تشرتوكوتسكـي درجات المدخـل، وجاءها مـن الخلف. انتصب الجندي بقامته، وهو ممسك بالمقود، وحدَّق في عيون الزُّوار، وكأنما كان يريد الوثوب عليها. قال تشرتوكوتسكي:

ـ حلـوة جداً جـداً! فرسـ أصيلة! وكيـف سيرها، يـا صاحب السعادة؟..

ـ خطوهـا جميل. سـوى أن البيطري الأحمـق.... عليه اللعنة، أعطاها قرص دواء، وهي منذ يومين تعطس طوال الوقت.

ـ حلـوة جداً جـداً. وهل لديك مركبـة مناسبة لهـا، يا صاحب السعادة؟

ـ مركبة؟.... ولكن هذه فرس ركوب.

ـ أعرف هـذا، ولكنني سألت سعادتك لأعرف هل لديك مركبة لخيول أخرى.

ـ ليسـت لديَّ كثير من المركبات. وأقـول لك بصراحة منذ زمان وأنـا أودّ أن تكون لي عربة حديثة. وقد كتبت بذلك لأخي الذي هو الآن في بطرسبورغ، ولكن لا أدري هل سيرسلها أم لا.

قال العقيد:

ـ يبـدو لي، يـا صاحب السعـادة، ليس هناك أحسـن من العربة، صناعة فينا.

ـ كلامك صحيح، بوف، بوف، بوف.

ـ عندي، يا صاحب السعادة، عربة رائعة، صناعة فيناوية أصيلة.

ـ أية عربة؟ التي جئت فيها؟

ـ لا. هذه عربة للاستخدام اليومي، على الأخص لسفراتي، ولكن تلك العربة.... مذهلة، خفيفة كالريشة. وحين تجلس فيها تشعر، مع الاعتذار يا صاحب السعادة، وكأنه المربية تهزّك في مهد.

ـ يعني مريحة؟

ـ مريحة جداً جداً، وسائد، نوابض، كل شيء وكأنما في لوحة تبهج النظر.

ـ هذا لطيف.

ـ وسعا لا توصف! أقصد، يا صاحب السعادة، لم أر، مثيلة لها قط. وعندما كنت في الخدمة كنت أضع في صناديقها عشر زجاجات روم، وعشرين رطلاً من التبغ، بالإضافة إلى ذلك حوالي ست بزات رسمية، وملابس داخلية، وشُبُكين طويلين جداً كالدودة الوحيدة وأرجو المعذرة على هذا التشبيه. أما جيوبها فيمكن أن تستوعب ثوراً كاملاً.

ـ هذا لطيف.

ـ دفعت عنها، يا صاحب السعادة، أربعة آلاف.

ـ لابد أنها جيدة، مادامت بهذا الثمن. أنت الذي اشتريتها بنفسك؟

ـ لا، يا صاحب السعادة، حصلت عليها مصادفة. اشتراها صديق لي، وهو رجل نادر، رفيق طفولتي كنت ستصادقه بالتأكيد، لو التقيت به. لا فرق أن يكون هذا الشيء له أو لي. هكذا كانت الحال بيننا. وقد ربحتها منه في لعبة ورق. إذا كنت تحب، يا صاحب السعادة، فتفضل للغداء عندي غداً، وسنرى العربة سوية. سيكون هذا شرفاً لي.

ـ لا أعرف ماذا أقول لك. لوحدي يبدو.... إلا إذا سمحت باصطحاب الضباط.

ـ وليتفضل السادة الضباط أيضاً. أيها السادة، يشرفني شرفاً كبيراً أن أستمتع برؤياكم في بيتي.

شكره العقيد والرائد وبقية الضباط بانحناءة احترام.

ـ من رأيي، يا صاحب السعادة، إذا كنت تشتري شيئاً، فاشتره من نوعية جيدة، فإن الرديء، لا يستحق أن يُقتنى. إذا شرفتموني غداً فسأريكم أشياء اقتنيتها بنفسي لاستخدامها في مزرعتي.

ونظر الجنرال، ونفث الدخان من فمه.

ارتاح تشرتوكوتسكي كثيراً من دعوته السادة الضباط إلى بيته، ولكنه أعد في ذهنه مقدماً معجنات اللحم والصلصات، وراح يتطلع ببهجة شديدة إلى السادة الضباط الذين ضاعفوا بدورهم من ميلهم إليه، وقد ظهر ذلك في عيونهم وحركات أجسادهم الصغيرة الشبيهة بنصف انحناءات. وأخذ تشرتوكوتسكي يتصرف ببحبوحة أكثر، ولاح ارتخاء في صوته. فقد اتخذ نبرة مثقلة بالارتياح.

ـ وستتعرفون عندنا، يا صاحب السعادة، بربّة البيت.

قال الجنرال ممسداً شاربيه:

ـ سأكون مسروراً جداً.

وبعد ذلك أراد تشرتوكوتسكي أن يسرع في التوجه إلى بيته، يهيئ كل شيء، في إبانه، لاستقبال الضيوف على الغداء يوم غد. وكان قد تناول قبعته لينصرف، إلا أنه ويا للغرابة تأخر لبعض الوقت لسبب ما، في غضون ذلك كانت طاولات اللعب قد وضعت في الغرفة. وسرعان ما توزع الحاضرون أربعة أربعة للعب «الويست»، وجلسوا في أركان مختلفة من غرفة الجنرال.

وقدمت الشموع. ظل تشرتوكوتسكي لا يعرف لوقت طويل هل يتوجب عليه أن يجلس ليلعب أم لا. ولكن حالما أخذ السادة الضباط

يدعونه، بـدا له الرفض لا يتماشى مع قواعد العشرة. فجلس. ودون أن يشعر وجد أمامه قدحاً من «البونش» الذي شربه في الحال ساهياً، وبعد دورتين متتاليتين مـن اللعب، وجد تشرتوكوتسكي قدحاً آخر من «البونش» قرب يده، مرة أخرى، فشربه، على الفور بسهو أيضاً، بعـد أن قـال مسبقاً: «حـان أوان عودتي إلى البيت، يـا سادة، حان حقـاً». ولكنه جلس مرة أخرى للعب جولة ثانية. وفي غضون ذلك اتخذ الحديث في مختلف الأركان طابعاً شخصياً تماماً. كان اللاعبون صموتـين إلى حد كبير، ولكن المتفرجـين الجالسين على الأرائك في ناحية كانوا يجرون الحديث فيما بينهم. في أحد الأركان كان نقيب أركان يروي بطلاقة وسيولة والمخدة تحت جنبه، والغليون بين أسنانه، عن مغامراته الغرامية، حتى استحوذ تماماً على اهتمام الحلقة المجتمعة قربه. وكان مالك أراض بدين للغاية ذو ذراعين قصيرين تشبهان، إلى ح مـا، عرقين ناضجين من البطاطـس، يصغي والطلاوة على وجهه بشـكل غير اعتيادي، ومن حين لآخر فقط، كان يجاهد ليمد ذراعه القصـيرة، وراء ظهره العريض ليخرج علبـة النشوق من هناك. وفي زاوية أخرى انعقد جدال ساخن نوعاً ما عن تدريب الكوكبة، وكان تشرتوكوتسكي الذي رمى في ذلك الوقت ملكة مرتين بدلاً من الولد يتدخـل في حديث الآخرين، ويصيـح من ركنه: «في أي سنة هذا؟» أو «في أي فـوج؟» دون أن يفطن إلى أن سؤاله في بعض الأحيان في غير محلـه تماماً. وأخيراً، وقبل بضع دقائق علـى موعد العشاء انتهت لعبـة «الويسـت»، ولكن الكلام استمر حولها، وبـدا وكأن رؤوس الجميـع كانت مملـوءة بالويست. كان تشرتوكوتسكـي يتذكر جيداً أنـه ربح كثيراً، ولكنه لم يمسك شيئاً مـن المال بيديه وحين نهض من وراء الطاولـة وقف طويلاً في وضع إنسان ليس في جيبه منديل لمسح أنفه. وخلال ذلك قُدم العشاء. وطبيعي أن أنواع المشروبات لم تكن

تعاني من أي نقص، وأن تشرتوكوتسكي كان أحياناً يجد نفسه ملزماً بشكل لا إرادي تقريباً بأن يصب لنفسه قدحاً، لأن زجاجات الخمرة كانت تحاصره من يمين وشمال.

استطـال الحديث حول المائدة كثيراً، ولكـن فيه شيئاً من الغرابة، فقد حكـى أحد الملاكين الـذي كان يخدم أثنـاء حملة ١٨١٢ عن معركة لم تجرِ قط، وبعد ذلك، ولأسباب مجهولة كلياً تناول سدادة من دورق، ودحسها في فطيرة. وباختصار، حين أخذوا ينصرفون كانت الساعة الثلاثة، وكان علـى الحوذية أن يمسكوا بعض الأشخاص بين أذرعهـم كما يمسكون صـرر المشتريات، أمـا تشرتوكوتسكي فعلى الرغـم مـن أرستقراطيته، وجد نفسـه ينحني، لـدى ركوبه عربته، انحنـاءة شديـدة من رأسه، حتـى إنه حين وصـل إلى بيته، جلب في شاربيه شوكتين من راعي الحمام.

كان أهـل البيت جميعاً نائمين، عثر الحوذي بصعوبة على الخادم الذي قـاد سيده عبر غرفة الاستقبال، وسلمـه إلى الوصيفة التي سار تشرتوكوتسكـي وراءهـا، حتـى وصـل إلى غرفة النـوم بطريقة ما، واستلقـى جنب زوجتـه الشابة المليحة التي كانـت تضطجع بشكل فاتن في ثوب نـوم ناصع البياض كالثلج. أيقظتها الحركة التي أثارها زوجهـا بسقوطه على السريـر. تمطّت ورفعت رموشهـا، وقلّصت عينيها بسرعة ثلاث مرات، ثم فتحتهما بابتسامة شبه غاضبة. ولكنها حين رأت أنه في هذه المرة لا يريد أن يلاطفها إطلاقاً، استدارت على الجنـب الآخر في غيظ، وألقت خدهـا الغض على يدها، وسرعان ما غفت بعده بقليل.

استيقظـت ربة البيـت الشابة جنب زوجهـا الشاخر في ساعة لا يمكـن أن توصـف بالمبكرة، حسب عـادة القـرى. وحين تذكرت أنـه عاد إلى البيت يـوم أمس بعـد الساعة الثالثة أشفقـت عليه، و لم

توقظه، وارتدت خفّها البيتي الذي كان زوجها قد أوصى عليه من بطرسبورغ، وبلوزة بيضاء، غمرت جسدها كالماء المنسكب، وخرجت إلى غرفة المغسلة، واغتسلت بماء طازج مثلها، واقتربت من صوان زينتها. وتطلعت إلى نفسها مرتين، ورأت أنها اليوم نضرة جداً. والظاهر أن هذه المسألة غير المهمة أجبرتها على الجلوس أمام المرآة ساعتين كاملتين زيادة. وأخيراً تحلّت ببديع الثياب، وخرجت تشمّ الهواء الطلق في الحديقة. وكان الطقس، من نكد الحظ، رائعاً في تلك الساعة، مثلما هو في أجود نهار صيفي من نهارات الجنوب. والشمس قد صعدت إلى كبد السماء، وراحت تشوي بوقدة أشعتها، ولكن التمشي في الدروب المعرّشة المعتمة الكثيفة الظل يبعث طراوة في الجسد، والزهور التي أدفئتها الشمس ضاعفت رائحتها. وغاب عن بال ربة البيت الحلوة تماماً أن الساعة بلغة الثانية عشرة، وزوجها مايزال نائماً. وبلغ سمعها شخير الحوذية الذين كانوا ينامون القيلولة بعد الغداء في الإسطبل وراء الحديقة. ولكنها ظلت جالسة في الدرب المعرَّش الكثيف الظل الذي يطل على منظر من الطريق العامة، تحدِّق في شرود بال إلى العراء الخالي، وإذا، بغبار متصاعد من بعيد يجذب انتباهها. أمعنت النظر ورأت، بعد وقت قصير، بعض المركبات. في المقدمة سارت عربة خفيفة مكشوفة ذات مقعدين، جلس فيها الجنرال بكتافيتيه السميكتين اللامعتين في الشمس، وإلى جانبه العقيد. ووراءها عربة أخرى ذات أربعة مقاعد، وفيها الرائد ومرافق الجنرال وقبالتهما ضابطان، ووراء العربة عجلة الفوج المعروفة للجميع، وكانت في هذه المرة من نصيب رائد بدين، ووراء العجلة عربة سفر عتيقة الطراز ذات أربعة مقاعد جلس فيها أربعة ضباط، وخامس على الأيدي... ووراء عربة السفر كان يتبختر ثلاثة ضباط على جياد كميتية اللون جميلة ذات طرر داكنة.

وفكـرت ربة البيت مع نفسها: «هل معقـول أنهم قادمون إلينا؟ آه، يـا ربي! بالفعل، استـداروا نحو القنطرة!» ونـدت منها صيحة ورفعت ذراعيهـا بيأس، وركضت خلال حوضـ الزهور إلى مخدع زوجها. كان هذا يغط بنوم عميق.

صاحت وهي تجذبه من يده:

ـ انهض! انهض! انهض بسرعة!

ـ ها؟

ـ قال تشرتوكوتسكي متمطياً، دون أن يفتح عينيه.

ـ انهض، يا حبحوب! تسمع؟ ضيوف!

ـ ضيـوف، أي ضيوف؟ قال ذلك وأصدر خواراً قصيراً، كذلك الـذي يصدره عجل، حين يبحث ببوزه عن ضروعأمه مم.... دمدم مدّي عنقك، يا ممو! لأقبّلك!

ـ انهض ، يا روحين بسرعة، بحق الرب. جنرال وضباط!

آه، يا إلهي، في شاربيك علق قرّاص.

ـ جـنرال.؟ آه، يعنـي في طريقـه إلينـا؟ ولكن، اللعنـة، كيف لم يوقظني أحد؟ والغداء الغداء، هل أعد كل شيء حسب الأصول؟

ـ أي غداء؟

ـ معقول لم أوص على غداء؟

ـ أنت؟ وصلت في الساعة الرابعة ليلاً، وكم سألتك، ولكن لم تقل لي شيئـاً، و لم أوقظك، يا حبحوب، لأننـي أشفقت على حالتك... فأنت لم تنم.

وقالت الكلمتين الأخيرتين بصوت حنون للغاية ومتضرع.

أجحـظ تشرتوكوتسكي عينيـه، ولدقيقة ظل راقـداً في الفراش

كالمصعوق. وأخيراً قفز من السرير في قميص النوم وحده، وقد نسي أن ذلك لا يليق به كلياً. ضرب جبينه بيده، وقال:

ـ آخ، أنـا حصان! كنت قد دعوتهم علـى الغداء. ما العمل؟ هل هم بعيدون؟

ـ لا أدري... لا بد أنهم سيصلون في هذه الدقيقة.

ـ يـا روحـي... اختبئ! ... هاي، يـا من هناك! أنـتِ، يا بنت! اذهبـي، يـا حمقاء، مم تخافـين؟ سيصل ضبـاط الآن، فقولي لهم إن السيد ليس في البيت. قولي إنه لن يعود اليوم، وقد رحل في الصباح، تسمعين؟ وأبلغي ذلك لجميع الخدم، اذهبي، أسرعي!

وبعد أن قال ذلك أسـرع في اختطاف روبه، وركض ليختبئ في سقيفـة العربات إذ رأى أنه سيكون في أمان هناك. ولكنه حين وقف في ركن من السقيفة وجد أن في الإمكان أن يروه حتى هنا. ولمع في ذهنـه «هذا سيكون أحسـن». وفي الحال أنزل مرقـاة العربة القريبة منـه، وقفز إلى داخلهـا، وأغلق بابها وراءه، ولمزيد مـن الأمان أغلق الكوة بستارها الجلدي، وسكن تماماً منطوياً في روبه.

وفي غضون ذلك وصلت المركبات إلى مدخل البيت.

خرج الجـنرال، ونفض ثيابه، وأعقبه العقيـد، وهو يعدل الريش علـى قبعته. ثم قفز الرائد البدين من العربة الصغيرة، متأبطاً سيفه. ثم قفـز من عربة السفر ضباط نحـاف برتبة ملازم أول مع الملازم الثاني الـذي كان جالساً علـى أيديهم، وأخيراً ترجّـل الضباط الذين كانوا يتبخترون على صهوات جيادهم.

قال الخادم، وقد خرج إلى مدخل البيت:

ـ السيد غير موجود في البيت.

ـ كيف غير موجود؟ يعني سيعود في موعد الغداء؟

ـ لا. غــادر لقضاء اليوم كله في الخــارج. غداً في مثل هذا الوقت فقط سيكون في البيت.

قال الجنرال:

ـ يا للمفاجأة. كيف هذا؟

قال العقيد ضاحكاً:

ـ هذا مقلب، بصراحة.

ـ ولكن كيــف يمكن هذا؟ مضى الجنرال مستاءً فو.... اللعنة.... طيــب، إذا كان لا يستطيــع أن يستقبــل الناســ، فلمــاذا يترجاهــم للحضور؟

قال أحد الضباط الشبان:

ـ أنا لا أفهم، يا صاحب السعادة، كيف يمكن أن يقوم بهذا.

ـ ها؟

قــال الجنرال، وكانت له عادة النطق بعلامة الاستفهام هذه، حين يتحدث إلى ضابط أقل مرتبة.

ـ كنــت أقــول، يا صاحب السعــادة، كيف يمكــن التصرف بهذا الشكل؟

ـ بالطبع.... طيــب، إذا كان قد حصل شيء فأخبرنا على الأقل، أو لا تترجانا للمجيء.

قال العقيد:

ـ ليس أمامنا، يا صاحب السعادة، غير الرجوع من حيث أتينا!..

ـ بالطبــع، ولا سبيل آخــر. على العموم نستطيــع أن نتفرج على العربــة بدونه أيضاً. لا أظنه قد أخذها معه. هاي، يا مَنْ هناك، تعال، يا أخ، هنا!

ـ ماذا تأمرون؟

ـ هل أنت سائس؟

ـ نعم، يا صاحب السعادة. غير الرجوع من حيث أتينا!..

ـ بالطبع، ولا سبيل آخر، على العموم نستطيع أن نتفرج على العربة بدونه أيضاً. لا أظنه قد أخذها معه. هاي، يا مَنْ هناك، تعال، يا أخ، هنا!

ـ ماذا تأمرون؟

ـ هل أنت سائس؟

ـ نعم، يا صاحب السعادة.

ـ دلّنا على العربة الجديدة التي حصل عليها السيد قبل وقت قصير.

ـ تفضلوا إلى السقيفة.

توجه الجنرال إلى السقيفة برفقة الضباط.

ـ اسمحوا لي أن أدفعها قليلاً، فالمكان مظلم هنا.

ـ كفاية، كفاية، هذا جيد!..

طاف الجنرال والضباط حول العربة، وتفقدوا العجلات والنوابض بعناية، وقال الجنرال:

ـ ليس فيها ما يلفت النظر. عربة اعتيادية تماماً.

وقال العقيد:

ـ في غاية القبح. لا يوجد فيها أي شيء جيد إطلاقاً.

قال أحد الضباط الشبان.

ـ يبدو لي، يا صاحب السعادة، أنها لا تساوي أربعة آلاف كلياً.

ـ ها؟

ـ أقول، يا صاحب السعادة، إنها كما يتهيأ لي، لا تساوي أربعة آلاف.

ـ ولمــاذا أربعــة آلاف! لا تساوي حتى ألفــين، لا شيء يُغري فيها إطلاقــاً. إلا إذا كان في داخلها شيء متميز.... أرجوك، يا محترم، أن تفكّ الستار الجلدي....

ووقعت عيون الضباط علــى تشرتوكوتسكي جالساً في الروب، مطوي الجذع بشكل غريب.

وقال الجنرال مندهشاً:

ـ ها؟ أنت هنا؟

وبعــد أن قال هــذا صفق بــاب العربة، وغطــى تشرتوكوتسكي بالستار من جديد، وغادر ومعه السادة الضباط.

****

مالكو أيام زمان

أحـب كثيراً الحيـاة المتواضعـة لأولئك الملاكـين المنعزلين الذين يسمـون في مالوروسيـا[1] عادة بملاكـي أيام زمان، بقراهـم النائية، لأنهم كبيـوت صغيرة قديمة جميلة رائعة في بساطتها وتضادها العام مـع المبنى الجديد الصقيل الـذي لم يمسح المطر جدرانه بعد، و لم تغطِ سطحه الأشنة الخضراء، ومدخله غير المملوط لا يُظهر آجره الأحمر.

أحـب أحياناً أن انغمر لحظة في جو هذه الحيـاة المنقطعة بشكل غير اعتيـادي، حيث لا تتخطـى أية رغبة السياج المصمـت المحيط بفناء صغـير، والسياج المضفـور لحديقة البيـت المملوءة بأشجـار التفاح والأجاص، والأكواخ الخشبية المحيطة به، والممالة إلى جنب، تظللها أشجار الصفصاف والبلسان والكمثرى. إن حياة ملاكيها المتواضعين هادئـة جداًن حتى لتنسـى لحظة، وتظن أن ا لأهـواء والرغائب وما يولـده في النفـس روح الشر من قلق يعكر صفو الهـدوء والسكينة، لا وجـود لهـا إطلاقاً، وإنك لم ترها إلا في حلم لامع براق. من هنا أ رى بيتـاً واطئاً له رواق من أعمـدة خشبية صغيرة مسودّة يحيط في البيـت كله، ليكون في الإمكان إغلاق صفاقـات النوافذ أثناء الرعد والمطـر المدرار والـبَرَد دون أن يبلله المطـر. ووراء البيت شجرة كرز بـري شذية، وصفوف كاملة من شجـيرات الفاكهة القصيرة الغارقة في أرجوانيـة الكـرز، والبحـر الياقوتي للأجاصـ الكامد، وشجرة

---

(١) يقصد الخنازير. المترجم.

قيقب كثيفة الأغصان فرش في ظلها بساط للاستراحة. وأمام البيت فناء رحب ذو عشب قصير غض، ودرب مدكوك يصل الشونة بالمطبخ، والمطبخ بحجرات أهل البيت، ووزة طويلة العنق تشرب الماء مع وزيزات صغيرة ناعمة كالريش. والسياج المصمت تتدلى منه حزم الكمثرى والتفاح المجفف، وأبسطة وضعت لتتهوى، وعربة شمام تقف قرب الشونة، وثور محلول يرقد كسولاً قربها. كل هذه تمتلك عندي فتنة لا يمكن تعليها، ربما لأنني لن أعود أراها، ولأننا نتعشق كل ما نفارقه. ومهما يكن من شيء، فإن روحي كانت، حتى حين تقترب عربتي من مدخل هذا البيت، تغمرها حالة مدهشة من السكينة والارتياح، وكانت الخيول تتقدم من المدخل مرحة الأعطاف، والحوذي ينزل من مقعده بكثير من الهدوء، ويحشو غليونه، وكأنما وصل إلى بيته، وحتى النباح الذي كانت الكلاب الفاترة ترسله كان يلذ لأذني. ولكن أكثر ما كان يعجبني هم أصحاب هذه البقع المتواضعة شيوخاً وعجائز يخرجون للقائك في ترحاب. وحتى الآن تتراءى لي وجوههم أحياناً في الصخب والزحام، وسط بدلات الفراك الحديثة، فيداهمني نعاس مفاجئ وأتخيل ما مضى. لقد كانت على وجوههم دائماً طيبة وحفاوة ونقاوة قلب تجعلك تنبذ لا إرادياً، ولبعض الوقت، على أقل تقدير، كل الأمنيات النزقة، وتنتقل بكل مشاعرك، ودون أن تدري، في الحياة الرعوية الواطئة.

وأنا لحد الآن لا أستطيع أن أنسى شيخين من القرن الماضي، هما الآن ويا للأسف! قد فارقا الحياة، ولكن روحي ما تزال، حتى الآن مترعة بالشفقة، ومشاعرى تنعصر على نحو غريب، حين أتصوّر أنني بمرور الزمن ساصل مرة أخرى إلى مسكنهما السابق الخاوي الآن، وأرى مجموعة من الأكواخ المتداعية، وبركة ناضبة، وتجويفاً معشوشباً في مكان الذي كان فيه البيت الواطئ ولا شيء آخر. وحشة! أحس مسبقاً بوحشة. ولكن لنعد إلى القصة.

كان افانسي ايفانوفيتش توفستوغب، وزوجته بولخيريا ايفانوفنا توفستوغوبيخا، على حد تعبير الريفيين المجاورين، شيخين من أولئك الذين بدأت قصتي بهم. ولو كنت رساماً، وأردت أن أصور فيليمون وبوسس[1] على القماشة، لما اخترت نموذجين غيرهما. كان افانسي ايفانوفيتش في الستين، وبولخيريا ايفانوفنا في الخامسة والستين، وكان افانسي ايفانوفيتش مديد القامة يرتدي دائماً معطفاً طويلاً من فراء الغنم، مغطى بقماش صوفي، وكان يجلس محني الظهر، دائم الابتسام تقريباً حتى ولو كان يتحدث أو يسمع. وكانت بولخيريا ايفانوفنا أميل إلى الرصانة قليلاً، لا تكاد تضحك. ولكن على وجهها وفي عينيها من الطيبة ومن الاستعداد لاستضافتكم على أحسن ما لديهم، حتى لأظنكم ستجدون الابتسامة زيادة في الحلاوة لوجهها الطيب. وكانت الغضون الخفيفة على وجهيهما من اللطف بحيث سيسرقها الرسام بالتأكيد. وكان يبدو أن في الإمكان أن يُقرأ بهما كل حياتهما الصافية الهادئة، الحياة التي كانت تعيشها العوائل الأوكرانية البسيطة القلوب، والغنية في الوقت ذاته، والتي تقف دائماً في الجهة المضادة لتلك العوائل الوضيعة في مالوروسيا، التي تتحدر من فئة الحرفيين والباعة ويملأون كالجراد، المكاتب والدوائر، وتنتزع آخر فلس من مواطنيهما، وتغرق بطرسبورغ بالوشاة، حتى تجمع أخيراً رأسمالاً، وتضيف لألقابها في نشوة الانتصار، نهايات لتبدو بذلك في روسيتها. لم يكونا يشبهان هذه المخلوقات المحتقرة الوضيعة، شأنهما شأن كل العوائل الأصيلة العريقة في مالوروسيا.

كان لا يمكن أن تنظر إلى حبهما المتبادل بدون تعاطف، كانا دائماً لا يتخاطبان بضمير المفرد «أنت» بل بـ «أنتم» دائماً. أنتم، يا افانسي

(١) هو اسم قديم لأوكرانيا الحالية. المترجم.

ايفانوفيتش، أنتم، يا بولخيريا ايفانوفنا. «هل أنتم كسرتم المقعد، يا افانسي ايفانوفيتش؟» «لا يهم، لا تغضبن، يا بولخيريا ايفانوفنا. أنا الذي كسرته»[1]. ولم يكونا قد رزقا بأطفال، وبسبب هذا كان كل تواشجهما ينصب على نفسيهما. في صباي كان افانسي ايفانوفيتش يخدم في فوج خيالة من المتطوعين، وبعد ذلك صار برتبة رائد ثان، ولكن ذلك كان منذ زمان مغرق بالبعد، حتى أن افانسي ايفانوفيتش كان لا يكاد يذكر ذلك. كان افانسي ايفانوفيتش قد تزوج في سن الثلاثين، حين كان رجلاً شاطراً، وكان يلبس صداراً طويلاً مطرزاً، بل وخطف بولخيريا ايفانوفنا بشطارة كبيرة، وكان أقاربها لا يريدون تزويجها له، ولكن حتى هذا قلّما يتذكره، أو لا يتحدث عنه أبداً على أقل تقدير.

كل هذه الحوادث الفريدة القديمة حلت محلها حياة هادئة ومنعزلة، وتلك الرؤى الناعسة والمتسقة في الوقت ذاتها، التي تحسونها، وأنتم جالسون في شرفة بيت ريفي مطلة على حديقة، والمطر الجميل يضج بأبهة، ضارباً أوراق الشجر، منساباً بجداول رقراقة، مستدعياً النعاس في أوصالكم كلها، وفي ذات الوقت ينسل قوس قزح من وراء الأشجار ويزين السماء بألوانه السبعة الكدرة، على شكل قنطرة نصف مهدمة. أو حين تهدهدكم عربة تغوص بين أجمات خضر، وطائر السمان السهبي يهدر، والعشب الشذي ينسل من باب عربتكم مع سنابل القمح، وزهور الحقل ويداعب أيديكم ووجوهكم بلطف.

كان دائماً يستمع، والابتسامة الحلوة على شفتيه، إلى الضيوف

---

(١) زوج وزوجة في الأساطير الإغريقية يرمزان إلى السعادة في الحياة الزوجية والوفاء الزوجي. المترجم.

الوافدين عليه، وأحياناً يتكلم هو نفسه، ولكنه يستفسر في أكثر الأحيان. لم يكن من أولئك الشيوخ الذين يضجرون بإطراءات مستديمة للزمان السالف أو بعتابهم على الجديد. إنه، على العكس، كان في استفساراته لكم، يظهر حب استطلاع كبيراً، وتعاطفاً مع ظروف حياتكم، ومع النجاحات والإخفاقات، التي تستهوي عادة كل الشيوخ الطيبين، على الرغم من أن ذلك يشبه، بعض الشيء، فضول طفل يتملى طرة ساعتكم، وهو يتحدث معكم، حينذاك يمكن أن يقال أن وجهه ينضح بالطيبة.

كانت حجرات البيت الصغير الذي كان يسكنه شيخانا، صغيرة، واطئة السقف، كتلك التي ترونها عادة لدى ناس أيام زمان. وكانت كل حجرة مزودة بموقد ضخم يحتل ثلثها تقريباً.

كانت هذه الحجرات مدافئة بشكل مفرط، لأن افانسي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا كليهما يحبان الدفء. وكانت الوجاقات كلها موصولة في الرواق الذي كان مملوءاً إلى السقف تقريباً بالقش الذي يستخدم عادة في مالوروسيا بدلاً من الحطب، وفرقعة هذا القش المشتعل والإضاءة تجعلان الرواق مريحاً للغاية في أمسية الشتاء، حين تدخل إليه راكضاً، وقد تتثلج في ملاحقة لسمراء، تصفق كفاً بكف طلباً للدفء. وكانت جدران الحجرات مزينة ببعض الصور واللوحات في أطر ضيقة قديمة. وأنا على يقين من أن رب البيت وربته قدنسيا مضامينها منذ زمان بعيد، وأنهما في الغالب لن يلحظا شيئاً، إذا رفع بعض منها. كانت صورتان منها كبيرتين مرسومتين بألوان زيتية، كانت إحداهما تصور أسقفاً، والثانية بطرس الثالث، وكانت تطل من إطار ضيق الدوقة لافالير يبقعها الذباب. وحول النوافذ وفوق الأبواب كان يوجد عدد كبير من الصور الصغيرة يتعود المرء أن يعتبرها بقعاً على الجدار فلا يمعن النظر فيها مطلقاً. وكانت

أرضية جميع الغرف تقريباً طينية، ولكنها مطلية بدقة، ومنظفة دائماً ذلك التنظيف الذي قد لا تجدونه في أرضية خشبية في بيت ميسور، كنسها بتكاسل سيد ناعس في بدلة خدم.

وكانت الصناديق والعلب من مختلف الحجوم تملأ حجرة بولخيريا ايفانوفنا، والعديد من الصرر وأكياس بذور الزهور والخضار والبطيخ يتـدلى مـن جدرانهـا. وكان العديد مـن وشائع الصـوف المختلف الألـوان، ومـزق الثيـاب العتيقة التـي خيطت قبل نصـف قرن من الزمـن، موضوعـة في الأركان، في الصناديـق، وما بـين الصناديق. كانـت بولخيريا ايفانوفنا ربة بيت مقتـدرة، تجمع كل ما لم تكن هي نفسها تعرف أحياناً ماإذا كانت ستستفيد منه فيما بعد.

إلا أن الأبواب الصداحـة كانت أروع مافي البيت، وما إن يطلع الصباح حتى يملأ صداح الأبواب البيت كله. وأنا لا أعلم علم اليقين لماذا هي تصدح: أبسبب مفاصلها الصدئة، أم أن الصانع الذي أثبتها أخفـى سراً فيهـا، ولكن الرائـع إن كل باب كان لـه صوته الخاص: الباب المـؤدي إلى حجرة النـوم كان يصدح بصـوت طفولي رقيق، والبـاب المؤدي إلى حجرة الطعـام ينخر بصوت عالي الطبقة، ولكن باب الـرواق كان يصدر صوتـاً غريباً مرتعشـاً ومتوجعاً في الوقت ذاته، حتى إذا أصغيت إليه سمعته أخيراً ينطق بكثير من الوضوح: «يا أولياء، أنا متجمد!». أنا أعرف أن الكثيرين لا يعجبهم هذا الصوت، ولكننـي أحبه كثـيراً، وحين يصـادف أحياناً أن أسمـع هنا صريف بابين تنـداح أمام خيالي فجأة قرية وحجـرة واطئة مضاءة بشمعة في شمعـدان قديم، وطعام عشاء جاهز علـى المائدة، وليل داج من أيار، يطل مـن الحديقة من خلال شباك مفتوح، علـى مائدة صفت عليها أدوات الطعام، وبلبل يملأ بصداحـة الحديقة والبيت، والنهر البعيد، وحفيـف أغصان مرعـب... أوه، يا ربي، وعنـد ذاك تنفك أمامي

وشيعة طويلة من الذكريات!..

كانت مقاعد الحجرة خشبية ضخمة كتلك التي كانت سمة من سمات الزمن السالف، وكانت لجميعها ظهور عالية مسحوجة، في شكلها الطبيعي، دون طلاء صاقل ولا صبغ، بل و لم تكن مبطنة بقماش، وكانت تشبه، بعض الشيء المقاعد التي يجلس عليها الأساقفة حتى الآن. كان كل أثاث البيت البسيط الذي كان يعيش فيه شيخاي لا يزيد تقريباً على مناضد مثلثة في الأركان، ومنضدة مربعة أمام الأريكة، وأخرى أمام مرآة في إطار رقيق مذهب مصنوع على شكل أوراق نثر الذباب عليها بقعاً سوداً. وبساط أمام الأريكة عليه رسوم طيور تشبه الزهور، ورسوم زهور تشبه الطيور.

كانت حجرة الخدم مكتظة بفتيات شواب وغير شواب يرتدين أثواباً داخلية مخططة، كانت بولخيريا ايفانوفنا تعهد إليهن أحياناً بخياطة بعض الزينات، تلزمهن بتنظيف ثمار الأعناب البرية، ولكن معظم الوقت يقضينه في الركض إلى المطبخ والنوم. وكانت بولخيريا ايفانوفنا ترى من الضروري ملازمتهن البيت، ومراقبة سلوكهن بصرامة. ولكن لدهشتها البالغة كانت لا تمر بعض الشهور دون أن يصير قوام إحدى الفتيات أكثر امتلاءً من المعتاد، والذي كان يدهش أكثر أن البيت كان خالياً تقريباً من أي رجل أعزب باستثناء صبي وصيف كان يرتدي سترة فراك قصيرة رمادية، ويسير حافي القدمين، إن لم تجده يأكل تجده نائماً بالتأكيد، وكانت بولخيريا ايفانوفنا تشتم المذنبة عادة، وتعاقبها عقاباً صارماً حتى لا تعيد الكرة في المستقبل. وكان عدد فظيع من الذباب يهس في زجاج النوافذ، ولكن طنين النحل الطنان العالي كان يغطي عليه جميعاً، مصحوباً، أحياناً بأصوات اليعاسيب الرفيعة، ولكن حالما تُشعل الشموع تأوي كل هذه الجوقة إلى مضاجعها، وتغطي السقف كله بسحابة سوداء.

كان افانسـي ايفانوفيتشـ قلّ مـا يشتغل بشـؤون الزراعة، على الرغـم من أنه كان يطلع أحياناً إلى العاملين في حش العشب وحصاد الغلـة، ويتمعن كثـيراً في عملهم، وكان عـبء الإدارة كله يقع على عاتـق بولخيريـا ايفانوفنا. كان شغل بولخيريـا ايفانوفنا يتمثل في فتح وغلق مستودع المؤونة دون انقطاع، وتمليح وتجفيف وسلق عدد لا يحصـى من الفواكه والنباتات. وكان بيتها يشبه مختبراً كيماوياً تماماً. وكانت النـار مشتعلة دائماً تحت شجرة التفاح، وكان الموقد الثلاثي الأثـافي لا يكاد يفرغ من قدر أو طنجـة نحاسية موضوعة فوقه فيها مربى أو مهلبية أو حلوى مصنوعة من العسل، أو السكر، وشيء آخر لا أتذكـره. وكان سائـق العربة يقطر الفودكا تحـت شجر أخرى في إنبيق نحاسي ويطعمها بأوراق الخوخ، وزهر الكرز البرين ،حشيشة القنطريـون، ونوى الكرز، وفي نهاية هـذه العملية كان يصير عاجزاً تمامـاً عن تحريـك لسانه، ويظـل يثرثـر بسفاسف لم تكـن بولخيريا ايفانوفنـا تستطيع أن تفهم شيئاً منها، فكانت ترسله إلى المطبخ لينام. كانـت بولخيريا ايفانوفنا تحضر وتملح وتجفف كمية كبيرة من كل هذه الأطعمـة المتنوعة، حتـى كان من المحتمل أن تغـرق الفناء كله، لأن بولخيريا ايفانوفنا كانـت دائماً تحب أن تحضر للاحتياط أيضاً، علاوة علـى ما يخصـص للاستهلاك، لو لم تكن الخادمـات يأكلن أكثر من نصف هـذه الأطعمة حين كـن ينسللن إلى حجـرة المؤونة ويتخمن حتى كن يتأوهن طوال اليوم ويشكين من وجع البطن.

كانـت بولخيريا ايفانوفنـا قليلـة الإدراك في زراعة الحبوب وغير ذلك من الأعمال خـارج فنائها. فكان الوكيل والعمدة يتعاونان في سرقتها بشكل لا يرحم. وصار من حكم العادة لهما أن يدخلا غابات السيديـن الشيخـين، وكأنها ملك لهمـا، ويصنعان عـدداً كبيراً من الزلاجـات، ويبيعانها في السوق الريفية القريبة. وبالإضافة إلى ذلك

كانا يبيعـان كل أشجار البلوط السميكة للقـوزاق المجاورين لتقطع وتصنع منها الطواحين. مرة واحدة فقط رغبت بولخيريا ايفانوفنا في تفقـد غاباتها، ولهذا الغرض شدت الخيـول إلى عربة ذات ملاحف جلديـة ضخمة. وما إن كان الحوذي يجذب العنان، وتنطلق الخيول الهرمة من مكانها، حتى تصدر من العربة فجأة أصوات غريبة ومنها أصـوات الفلوت، والدفوف، والطبول، وكان كل مسمار وكل قيد حديـدي يرن رنيناً يسمعـه الناس حتى بالقرب مـن الطواحين على الرغـم من أن المسافة لم تكن أقل من فرسخـين، ويعرفون أن السيدة خرجـت من فناء دارهـا. وما كان من الممكـن أن لا تلحظ بولخيريا ايفانوفنا الفراغ الرهيب في الغابة، وفقدان أشجار البلوط التي كانت تعرف، حتى في طفولتها، أنها شهدت مئة عام.

قالت تخاطب وكيلها الذي كان معها:

ـ لماذا قلّت أشجار البلوط عندك بهذا الشكل؟ احترس من أن يقل شعر رأسك أيضاً.

ـ لماذا قلّـت؟ قال الوكيل بلهجة اعتياديـة هلكت! هلكت تماماً، بالفعل. أهلكها الرعد، ونخرها الدود، هلكـت، يا سيدتين هلكت.

وقَنِعت بولخيريـا ايفانوفنا بهذا الجواب تماماً، ولدى وصولها إلى البيـت، أصدرت أمرها بأن تضاعف الحراسة في البستان فقط، قرب أشجار الكرز وأشجار الكمثرى الشتوية الكبيرة.

كان هـذان المديـران المحترمـان، الوكيل والعمـدة، يجدان من الزائـد تمامـاً نقـل كل الطحين إلى شونـات السيدين بـل يكفي نقل نصـف الكمية. وأخيراً حتى هذا النصف كانـا يأتيان به متعفناً رطباً ترفضـه السوق الريفية لفساده. ولكن مهمـا سرق الوكيل والعمدة، ومهمـا التهم مَنْ في البيت جميعاً، ابتداء من القهرمانة حتى الخنازير التـي كانت تأتي على كميـة هائلة من الأجاص والتفـاح، وغالباً ما

تنطـح الشجرة بأبوازهــا، لتنزل منها الفواكه مطـراً مدراراً، ومهما نقـرت العصافـير والغربان، وأخذ كل خدم البيـت من هدايا الطعام لأقربائهــم في القــرى الأخـرى، بل ومهمــا أخذوا مــن العنابر من منسوجــات قديمة وغزول، ليتحول كل شــيء إلى تلك البئر الواسعة الشهـرة، أي إلى الحانة، ومهمــا سرق الضيــوف والحوذية الخاملين والخدم، إلا أن الأرضــ المعطاء كانت تغل كمية كبيرة، كانت حاجة افانســي ايفانوفيتش وبولخيريا ايفانوفنا قليلة جداً منها، حتى أن تلك الافتراسات الفظيعة لم تكن ملحوظة في استثماراتهما قط.

كان كلا الشيخــين، علــى عادة ملاكي أيام زمــان، يحب الأكل كثيراً. فما أن يطر الفجر (كانا دائماً يستيقظان في وقت مبكر)، وما إن تصــدح الأبواب بجوقة أصواتها المتنوعة حتى يكونا جالسين إلى المائدة يحتسيان القهوة. وكان افانسي ايفانوفيتش يخرج إلى الرواق بعد احتساء القهوة، وينفض المنديل، ويقول: «بيش، بيش، يا وزات، تعالين من المدخل! وفي الفناء كان في العادة يصادف الوكيل. وكان، علــى عادته، يدخل في حديث معه، ويستفسر منه عن الأعمال بأدق التفاصيل ويزوده بملاحظات وإيعازات تدهش كل إنسان لما فيها من اطلاع فريـد في شؤون الزراعة، ولا تجعل الجديـد على الأمر يجرؤ حتى على التفكير بأن في الإمكان أن يُسرق شيء من مثل هذا المزارع الحــاد البصيرة، ولكــن وكيله كان شخصاً محنــكاً. كان يعرف كيف يجب أن يردّن والأكثر من ذلك كيف يجب أن يتدبر الأمر.

وبعــد ذلــك كان افانســي ايفانوفيتش يعــود إلى داخــل البيت، ويقترب من بولخيريا ايفانوفنا ويقول:

ـ طيب، يــا بولخيريا ايفانوفنا ، ربما حــان الوقت لتناول شيء من الطعام.

ـ ماذا تحــب أن تأكل الآن، يا افانسي ايفانوفيتش.؟... ربما بعض

الفطائر بالشحم أو الكعك بمسحوق الخشخاش، أو ربما فطراً مملحاً؟..

- لا بأس، ولو بشيء من الفطر والكعك.

كان بولخيريا ايفانوفنا يردّ، وسرعان ما يكون الخوان ممدوداً على المائدة بالفطر والكعك.

وقبل ساعة من موعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يأكل من جديد شيئاً من الزاد، يحتسي كأساً من الفودكا بقدح فضي قديم، ويتمزز بالفطر ومختلف أنواع السمك المجفف، وغير ذلك، وكان الشيخان يجلسان إلى الغداء في الساعة الثانية عشرة حيث كانت المائدة تحفل إلى جانب الصحون وأواني الصلصلة، بالعديد من الجرار الصغيرة بأغطيتها اللاصقة حتى لا يفقد ما تحتويه رائحته وهو شيء مشهٍ مما يجود به المطبخ القديم اللذيذ. وفي العادة كان الحديث على المائدة يجري عن أقرب المواضيع إلى الغداء. وكان افانسي ايفانوفيتش يقول عادة:

- يتهيأ لي أن هذه العصيدة احترقت قليلاً. ألا يتهيأ هذا لك أيضاً، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش، طعّمها بمزيد من الزبدة، وعند ذلك لا تبدو محروقة، أو خذ هذه الصلصلة بالفطر، وصبّها عليها.

وكان افانسي ايفانوفيتش يقول مقدماً صحنه:

- طيب، لنجرب ماذا سيكون.

وبعد الغداء كان افانسي ايفانوفيتش يذهب للاستراحة ساعة من الزمن، وبعدها كانت بولخيريا ايفانوفنا تأتي ببطيخة مقطعة، وتقول:

- هاك جربن يا افانسي ايفانوفيتش ، أي بطيخ لذيذ هو. فكان افانسي ايفانوفيتش يقول: وهو يتناول قطعة كبيرة:

ـ لا تصدقي يا بولخيريا ايفانوفنا، لأنه أحمر في الوسط. قد يكون أحمر، ولكنه غير لذيذ.

ولكن البطيخة تُلتهم بسرعة. وبعد ذلك يأكل افانسي ايفانوفيتش بعض الكمثرات أيضاً، ويتجه للنزهة في البستان بصحبة بولخيريا ايفانوفنا. ولدى العودة إلى البيت كانت بولخيريا ايفانوفنا تذهب لشؤونها، بينما يجلس افانسي ايفانوفيتش تحت ظلة تواجه الفناء، ينظر إلى مستودع المؤونة كيف يفتح باستمرار وتظهر أحشاؤه، ثم يغلق، والخادمات يدخلن أو يخرجن الأطعمة المتنوعة يزاحم بعضهن بعضاً حاملات مختلف أنواع الفواكه في صناديق خشبية، ومناخل وجرات، وفي مختلف أواني حفظ الفواكه. وبعد وقت قصير يرسل مَنْ يستدعي بولخيريا ايفانوفنا أو يذهب إليها بنفسه، ويقول:

ـ هل يوجد ما آكله، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تجيب:

ـ ماذا تحب؟ ربما أذهب، وأطلب أن يُجلب لك فطائر بالأعناب البرية التي طلبتُ خصيصاً أن تحفظ لك؟

فيردّ افانسي ايفانوفيتش :

ـ سيكون هذا جيداً.

ـ أم ربما تأكل شيئاً من المخثّرات؟

ـ وهذا أيضاً جيد كان افانسي ايفانوفيتش يرد، وبعد ذلك كان كل ذلك يُجلب على الفور، ويؤكل في العادة.

وقبيل العشاء كان افانسي ايفانوفيتش يصيب شيئاً من الطعام أيضاً. وفي الساعة التاسعة والنصف يجلس الشيخان إلى مائدة العشاء. وبعد العشاء مباشرة يؤيان للنوم من جديد، ويهجع السكون الشامل في هذه البقعة النشطة والهادئة في ذات الوقت.

كانـت الحجرة التـي ينام فيهـا افانسـي ايفانوفيتشـ و بولخيريا ايفانوفنا حارة جداً، حتى مـن النادر أن يتحمل المرء البقاء فيها بضع ساعـات. ولكن افانســي ايفانوفيتش ، فوق ذلــك، وطلباً لمزيد من الـدفء كان ينام على سطيحة الموقد، ولـو أن الحرارة الشديدة غالباً ما تجبره على النهوض عدة مرات خلال الليل، ويتمشى في الحجرة، وأحيانـاً كان يئـن أثناء تمشيه في الحجرة، وعنـد ذاك كانت بولخيريا ايفانوفنا تسأله:

- لماذا تئن، يا افانسي ايفانوفيتش ؟

- الله يعلم، يا بولخيريا ايفانوفنا ، يبدو أن بطني يوجعني قليلاً.

- ألا يكون أحسن لك أن تأكل شيئاً، يا افانسي ايفانوفيتش؟

- لا أعـرف ما إذا كان أحسن، يـا بولخيريا ايفانوفنا! على العموم ما الذي سآكله؟

- شيئـاً مـن اللبن الحامض، أو أصبّ لك شيئـاً من نقيع الكمثرى المجففة.

- لا بأس، لمجرد أن أجرّب.

وكانت الخادمة، والنـوم في جفنيها تذهب للنبش في الدواليب، ويأكل افانسي ايفانوفيتش صحناً، وبعد ذلك يقول عادة:

- الآن أحس وكأن الوجع خف.

وأحيانـاً، حـين يكون الجـو صافيـاً، والحجرات مدفـأة بشكل جيد جـداً، كان المرح يشيع في أعطاف افانسي ايفانوفيتش، فيحبّ التنكيــت على بولخيريا ايفانوفنــا ، ويتحدث عن موضوع خارجي، فيقول:

- طيــب، يا بولخيريا ايفانوفنا، ماذا لـو احترق بيتنا، فإلى أين نولي وجوهنا؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول راسمة علامة الصليب:

ـ وقانا الله من ذلك!

ـ ولكن، لنفرض أن البيت احترق، فإلى أين ننتقل عند ذاك؟

ـ الله يعلم ما هذا الذي تقوله، يا افانسي ايفانوفيتش!

وكيف يمكن أن يحترق البيت: الله لا يسمح بذلك.

ـ ولكن ماذا لو احترق؟

ـ عندئذٍ ننتقل إلى المطبخ، وستشغل أنت مؤقتاً الحجرة التي تشغلها القهرمانة الآن.

ـ وإذا احترق المطبخ أيضاً؟

ـ وهذا أيضاً! سيقينا الله من بلوى كهذه، أن يحترق البيت والمطبخ سوية! طيب، عندها ننتقل إلى مستودع المؤونة وننتظر هناك حتى ينتهي بناء بيت جديد.

ـ وإذا احترق المستودع أيضاً؟

ـ الله يعلم ما هذا الذي تقوله! لا أريد حتى الاستماع إليك. هذا القول إثم. والله يعاقب على مثل هذه الأقوال.

غير أن افانسي ايفانوفيتش كان يبتسم، وهو جالس في مقعده، وقد ارتاح لتنكيته على بولخيريا ايفانوفنا.

ولكن أمتع ما يكون عليه الشيخان، بالنسبة لي، حين يكون عندهما ضيوف. حينئذٍ كان كل ما في بيتهما يتخذ مظهراً آخر. إذ من الممكن القول، إن هذين الشيخين الطيبين كانا يعيشان من أجل الضيوف.

كانا يقدمان أفضل مافي البيت من أشياء، ويسعيان إلى استضافتك بكل ماكانت استثماراتهما تنتجه. ولكن أكثر ما كان يريحني إن كل

كرمهمـا ومخدوميتهما كان خالياً مـن أي تصنع. كانت هذه الحفاوة والأريحية تنعكسان بوداعة علـى وجهيهما، وتناسبانهما إلى درجة أننـي كنت أجـد نفسي أوافق علـى رجائهمـا دون أن أدري. كانتا نابعتين مـن البساطة الصافيـة النقية لقلبيهما الطيبيـن الطاهرين. إن هـذه الحفاوة لا تشبه أبداً تلك التي يبديها، عند استضافتك، موظف هيئة حكومية حصل على مكان مريح بفضل جهودك، وهو يسميك محسناً، ويتمرغ تحت أقدامك. وكانا لا يتركان الضيف يرحل في يوم قدومه، مهما يكن من شيء. فلابد أن يقضي الليلة عندهما.

ـ كيف يمكن أن تخرجوا في سفر طويل في هذا الوقت المتأخر!

كانت بولخيريا ايفانوفنـا تقول ذلك (وكان الضيف عادة لا يبعد عنهما بغير ثلاثة أو أربعة فراسخ). وكان افانسي ايفانوفيتش يقول:

ـ بالطبـع. كل شيء يحصل في الدنيـا: يهاجمكم قطاع طرق أو عدو.

وكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول:

ـ أعاذنـا الله مـن قطاع الطرق! ولِمَ الكلام عـن هذا في الليل؟ لا علاقـة ذلك بقطـاع الطرق، بل لأن الدنيا ظلمـاء، ولا يجوز السفر علـى الإطلاق. كمـا أن سائق عربتكم، وأنا أعـرف سائق عربتكم، ضعيف وصغـير، لا يستطيع أن يسيطر علـى أي حصان، وهو الآن على الأغلب سكران طينه، ونائم في زاوية.

وكان لابـد للضيـف أن يبقـى. ولكنه سيكافأ علـى بقائه بقضاء أمسيـة في حجرة دافئة واطئة السقف، وبحكاية لطيفة تبعث الدفء والنعاس في الأوصال، وبمنظر البخـار يتصاعد مما وضع على المائدة من طعام مغذٍ دائماً، ومطبوخ بمهارة. وأنا أتخيل افانسي ايفانوفيتش وكأنمـا أراه الآن، جالساً على المقعد محدودباً بابتسامته الأبدية يصغي

إلى الضيــف باهتمام، بــل وباستمتاع أيضــاً. وكان الحديث غالباً ما يجري عن السياســة. وكان الضيف، الذي نادراً ما كان يبارح قريته أيضاً، ويستخلص حدوسه، بسيماء من الأهمية غالباً، وبتعبير غامض علــى الوجه، ويذكــر أن الفرنسيين اتفقوا مــع الإنجليز سراً على ترك بونابــرت يهاجم روسيا مرة أخرى، أو مجــرد أن يتحدث عن حرب موشكــة، وعند ذاك كان افانسي ايفانوفيتش غالباً ما يقول، متظاهراً بأنه لا يرمق بولخيريا ايفانوفنا:

- أنا أيضاً أفكر في الخروج إلى الحرب، ولماذا لا أستطيع الخروج؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقاطعه قائلة:

- هاقــد بــدأ! وكانت تقــول مخاطبــة الضيــوف: لا تصدقوا به، العجــوز، يخــرج إلى الحرب! سيرميــه أول جنــدي يصادفه! وحق الرب، سيرميه! يسدد عليه هكذا، ويرميه.

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول:

- وليكن، فسأرميه أنا أيضاً.

فتبادر بولخيريا ايفانوفنا:

- اسمعــوا ماذا يقــول! كيف له أن يخــرج إلى الحرب! مسدساته صدئة منذ زمان، ومرمية في المستودع. وليتكم رأيتموها. سينسفها مــا فيها من بــارود قبــل أن تلحق أن ترمــي، وعندهــا ستقطع يدي الرامي، وتشوه وجهه، فيظل تعيساً مدى العمر.

فكان افانسي ايفانوفيتش يقول:

- لا بأس، سأشــتري سلاحــاً جديــداً. سآخذ السيــف أو الرمح القوزاقي.

- هذه كلها تخيلات، ما إن يطرأ في ذهنه شيء، حتى يبدأ بالتحدث عنه كانت بولخيريا ايفانوفنا تأخذ الكلام في غيظ أنا أعرف أنه يمزح،

ومـع ذلك لا يريحنـي سماعه. إنه دائماً بهذا الشـكل، أحياناً أسمع وأسمع، حتى أشرع بالخوف.

ولكـن افانسـي ايفانوفيتشـ الـذي كان قد ارتاح مـن تخويف بولخيريا ايفانوفنا بعض الشيء، كان يضحك وهو جالس على مقعده محدوباً.

وبالنسبـة لي كانت بولخيريا ايفانوفنـا أمتع ما تكون، حين كانت تغـري الضيف بالمشهيـات. كانت تقـول، وهي ترفـع السداد عن الدورق:

ـ هذه فودكا مطعمة بالمريميـة والافسنتين، وهي تساعد كثيراً مَنْ يشكو وجـع الدفتين والخصر، وهـذه بحشيشـة القنطريون تساعد جـداً في حالة الصفير في الأذان، والطفح على الوجه، وهذه معمولة علـى نوى الخوخ. خذ قدحـاً، رائحتها شذية جداً. الذي يشكو من دواخ الرأس، حين ينهضـ من السرير، فيقع على حافة الدولاب، أو الطاولة، وتطلع عجرة على جبينه، ما عليه إلا أن يشرب قدحاً واحداً منها قبيل الغداء، وسيزول كل شيء رأساً وكأنما لم يكن.

وبعد ذلك يجري مثل هذا التعداد لميزات الدوارق الأخرى، التي تملـك دائماً تقريباً صفات علاجيـة. وبعد أن تكون قد حشيت بطن الضيف بهـذه الصيدلية كانت تغريه بالعديد من الصحون الموضوعة على المائدة.

ـ هـذا فطر بالصعتر! وهذا بالقرنفل والجوز! علمتني على تمليحه تركية، منذ أن كان الأتراك أسرى عندنا. كانت تركية طيبة، ولم يكن يبـين عليها أبداً أنها تدين بالديـن التركي. وهي في حياتها الاعتيادية مثلنـا تقريبـاً، سوى أنها لا تـأكل لحم الخنزير. تقـول: الشرع يحرم عليهـم ذلك. وهـذا فطر مطعم بأوراق عنـب آذار، والبندق! وهذا النوع من الفطر، أسلقـه لأول مرة، مع الخل، ولا أعرف كيف هي.

علمت سرها من الأب ايفان. قبل كل شيء يجب أن تفرش أوراق البلوط في قاع برميل صغير، ثم تنثر الفلفل، والملح ثم تأخذ زهور بعض الأعشاب، وتفرشها على أن تكون نهاياتها في الأعلى. وهذه فطائر! هذه فطائر بالجبنة، وهذه مع عصارة بذور القنب، وهذه التي يحبها افانسي ايفانوفيتش كثيراً محشوة بالكرنب وعصيدة الحنطة السوداء.

وكان افانسي ايفانوفيتش يضيف:

ـ صحيح. أنا أحبها كثيراً. فهي هشة وحامضة قليلاً.

وعلى العموم كانت بولخيريا ايفانوفنا في مزاج رائق للغاية، حين يكون عندهما ضيوف، عجوز طيبة جداً! كلها مُلْك للضيوف. وكنت أحب أن أزورهما، وأسرُّ بالنزول في ضيافتهما، على الرغم من أنني كنت أتخم بشكل مخيف، مثل جميع الذين ينزلون في ضيافتهما، وعلى الرغم من أن ذلك كان يضرني كثيراً. على العموم أظن أن للهواء ذاته في مالوروسيا خاصية معيَّنة تساعد على الهضم، لأن أحداً لو فكر في أن يأكل بتلك الصورة في هذه المدينة لتسجّى، دون شك راقداً في تابوته، بدلاً من سريره.

شيخان طيبان! ولكن قصتي تقترب من حدث شجي للغاية، غيَّر إلى الأبد حياة تلك البقعة الهادئة. ومما يزيد هذا الحادث فداحة أنه وقع بسبب مصادفة قليلة الأهمية. ولكن الأسباب القليلة الأهمية في النظام الغريب للأشياء كانت دائماً تخلق أحداثاً جساماً، بينما الأعمال الكبيرة، على العكس، تأتي بنتائج تافهة. يجمع أحد الفاتحين قوات دولته، ويحارب عدة سنوات، وقادته يذيع صيتهم، وأخيراً ينتهي كل ذلك بالاستيلاء على قطعة من الأرض ليس فيها موضع لزرع البطاطس. وأحياناً يكون العكس، يتشاجر بائعا سجق من مدينتين مختلفتين فيما بينهما على شيء تافه، وإذا بالشجار يعم

المدن أخيراً، ثم القرى والأريـاف، ولربما الدولة كلها. ولكننا لنترك هــذه الأفكار، فإنهــا لا تناسب المقام. كما أننــي لا أ حب الأفكار، حين تبقى أفكاراً مجردة فقط.

كانت لبولخيريا ايفانوفنا قطة رمادية، ترقد دائماً تقريباً عند قدمي العجــوز ملتفة علــى نفسها. وكانــت بولخيريا ايفانوفنــا تمسد على شعرها أحياناً وتدغدغ بإصبعها رقبتها التي كانت القطة المدللة تمدها إلى الأعلــى قدر مستطاعهــا. ولا يمكن القول إن بولخيريــا ايفانوفنا كانــت تحب قطتها أكثر من اللازم، ولكنها ألفتها، وقد تعودت على رؤيتها دائماً. إلا أن افانسي ايفانوفيتش كان غالباً ما يضحك من مثل هذا التعلُّق:

ـ لا أدري، يــا بولخيريــا ايفانوفنا ، ماذا رأيــت في هذه القطة. ما نفعها؟ لــو كان ذلك كلباً، لاختلف الأمر، إذ يمكن الخروج بالكلب إلى الصيد. ولكن ما نفع القطة؟

فكانت بولخيريا ايفانوفنا تقول:

ـ اسكن، افانسي ايفانوفيتش، أنت تحب الكلام ولا أكثر. الكلب نجس، الكلــب يتغوط، الكلب يحطم كل شــيء، بينما القطة مخلوقة وديعة، ولا تلحق أذى بأحد.

وعلــى العمــوم لا فــرق عنــد افانســي ايفانوفيتش بــين القطط والكلاب، ولكنه كان يقول ذلك لمجرد أن ينكّت قليلاً على بولخيريا ايفانوفنا.

كانــت لهمــا، وراء الحديقة غابة كبــيرة كان الوكيــل العملي قد عفــا عنها، ربمــا لأن ضربة الفأس كانــت ستصــل إلى سمع بولخيريا ايفانوفنــا. وكانت صماء مهملــة، تغطي جــذوع أشجارها المعمرة شجــيرات البندق المتنامية، فكانت تشبه أظفار حمام شعثاء. في هذه

الغابة كانت تعيش قطط وحشية. ولا يجوز الخلط بين قطط الغاب الوحشية وبين تلك القطط الجريئة التي تركض على سطوح البيوت. فإنها، على الرغم من حدة خلقها تحضرت، بوجودها في المدينة أكثر جداً من القطط ساكنات الغاب التي كانت في معظمها وعلى العكس من ذلك، مخلوقات موحشة بهيمية، نحيلات هزيلات دائماً، تموء بصوت خشن حُوشي، وأحياناً تحفر نفقاً في باطن الأرض تحت الشونات تماماً، وتسرق الشحم المقدد، بل وتظهر في المطابخ ذاتها، بعد أن تقفز بغتة من فتحة الشباك، حين تلحظ أن الطباخ خرج إلى أجمة الأعشاب البرية. وهي، بشكل عام، لا تعرف أية مشاعر مهذبة، فهي تعيش حياة افتراس، وتخنق العصافير الصغيرة في عقر أعشاشها. إن هذه القطط تشاممت طويلاً من خلال ثغرة تحت الشونة، مع قطة بولخيريا ايفانوفنا الوديعة حتى أغوتها أخيراً، مثلما يغوي فصيل جنود فلاحة بلهاء. وفطنت بولخيريا ايفانوفنا إلى اختفاء القطة، فبعثت مَنْ يبحث عنها، ولكنهم لم يعثروا على القطة. ومضت ثلاثة أيام، وتأسفت بولخيريا ايفانوفنا وأخيراً نستها تماماً. وذات يوم، حين عادت من تفقد حديقة خضرواتها بخيار أخضر طازج قطعته بيدها لافانسي ايفانوفيتش دُهشت حين بلغ سمعها مواء بائس تماماً. فأخذت تدعو بالسليقة: «بيش، بيش!» وإذا بالقطة الرمادية تطلع من أجمة الأعشاب البرية نحيلة عجفاء، وكان واضحاً أنها منذ عدة أيام لم تضع في فمها أي طعام. تابعت بولخيريا ايفانوفنا تدعوها، ولكن القطة وقفت أمامها، تموء، ولا تجرؤ على الاقتراب. والظاهر أنها توحشت كثيراً خلال هذا الوقت. سارت بولخيريا ايفانوفنا إلى الأمام، وهي ما تزال تدعو القطة التي سارت وراءها متهيبة حتى السياج، وأخيراً رأت الأماكن السابقة المعروفة لها فدخلت الحجرة أيضاً، أمرت بولخيريا ايفانوفنا على الفور

بتقديم الحليب واللحم لهـا، وجلست أمامها، تستمتع بنهم محبوبتها المسكينة، وهي تـزدرد القطعة وراء القطعة وتعب الحليب. ونفخت القطـة الرمادية وامتلأت لحماً أمام عينيها تقريباً، ولم تعد تأكل بذلك النهـم. ومدّت بولخيريـا ايفانوفنا يدها لتمسّد علـى شعرها، ولكن يبـدو أن القطة الجاحدة اعتادت كثيراً أن تكـون مع القطط الكاسرة أو اكتسبت العادات الرومانسيـة القائلة بأن الفقر عند الحب أحسن سـتر، والقطط فقيرة إلا من رحمة ربهـا. ومهما يكن من شيء، فإن القطة قفزت من الشباك، ولم يستطع أحد من الخدم العثور عليها.

واستغرقـت العجـوز تفكر، وقالـت لنفسها: «هـذا حتفي جاء يسعى إليّ!» ولم يسلها شيء، ظلتطوال اليوم ضجرة، ولم يُجد مزاح افانسـي ايفانوفيتش، ورغبته في معرفـة السبب الذي أحزن العجوز بغتـة. فقد كانت بولخيريا ايفانوفنا لا تجيب، أو تجيب بشكل لم يكن من الممكن أن يرضي افانسي ايفانوفيتش، وفي اليوم التالي ظهر عليها نحول ملحوظ.

ـ ماذا جرى لك، يا بولخيريا ايفانوفنا ؟ ربما أصابك مرض؟

ـ لا، يا افانسي ايفانوفيتش، لست مريضة! أريد أن أعلن لك شيئاً خاصـاً. أنا أعرف أنني سأموت في هـذا الصيف. حتفي جاء يسعى إليّ.

اعوجـت شفتا افانسي ايفانوفيتش في أسـى ولكنه أراد أن يقمع شعـور الحزن في نفسه، وقال مبتسماً: الله يعلم ما هذا الذي تقولينه، يا بولخيريا ايفانوفنا! لعلك شربت فودكا الخوخ، بدلاً من نقيع الشفاء الذي تشربينه دائماً.

ـ لا، يا افانسي ايفانوفيتش لم أشرب فودكا الخوخ.

وكان يأسف افانسي ايفانوفيتش لأنه نكّت على بولخيريا ايفانوفنا

كثيراً، وينظر إليها، والدموع تتدلى من جفونه. قالت بولخيريا ايفانوفنا:

- أرجوك، يا افانسي ايفانوفيتش، أن تنفذ وصيتي. حين أموت ادفني بالقرب من سياج الكنيسة، وألبسني الثوب الرمادي ذا الزهور الصغيرة على قاعية بنية، ولا تلبسني الفستان الأطلس المقلّم بشرائط وردية. فالميتة لا تحتاج إلى فستان. وأي حاجة لها؟ بينما سينفعك. تُفصّل منه روباً محتشماً، تلبسه حين يأتيك ضيوف، فتظهر إليهم بمظهر لائق، وتستقبلهم.

ويقول افانسي ايفانوفيتش:

- الله يعلم ما هذا الذي تقولينه، يا بولخيريا ايفانوفنا. ما يزال الموت بعيداً عنك وأنت تخوفينني بهذه الكلمات.

- لا، يا افانسي ايفانوفيتش، أنا أعرف متى ستحين منيّتي. وعلى كل حال لا تحزن عليّ. فأنا عجوز الآن. وقد عشت عمراً طويلاً نوعاً ما، وأنت أيضاً عجوز. وسنتقابل قريباً في الدار الآخرة.

ولكن افانسي ايفانوفيتش أعول كالطفل.

- البكاء إثم، يا افانسي ايفانوفيتش! فلا تأثم، ولا تغضب الرب بنحيبك. أنا لا آسف على موتي. آسف على شيء واحد فقط (وقطعت كلامها زفرة ثقيلة للحظة) آسف على أنني لا أعرف لمن أتركك، ومَنْ سيرعاك، حين أموت. فأنت كالطفل الصغير. والذي سيرعاك يجب أن يحبك.

وارتسم على وجهها إشفاق قلبي عميق ساحق، حتى إنني لا أعرف هل كان في وسع أحد من البشر أن ينظر إليها بدون اكتراث.

قالت تخاطب القهرمانة التي أمرت باستدعائها خصيصاً:

- اسمعي، يا فدوخا، حين أموت قومي أنت برعايته، واحرصي

عليـه، حرصك على حدقة عينـك، وكطفلك، واطبخي له ما يحب مـن الطعام. وأعطيـه بياضات وملابسـ نظيفة دائمـاً، وحين يأتي ضيوف، اهتمي بهندامه ليكون لائقاً، وإلا أظنه سيطلع أحياناً بروبه القـديم، لأنه حتى الآن غالباً ما ينسى ولا يعـرف يوم العيد من اليوم الاعتيـادي. ولا تصـرفي بصرك عنـه، يا يافدوخـا، وسأدعو لك في الآخرة، وسيجازيك الرب، لا تنسي، يا يافدوخا، أنك الآن عجوز، ولم يبـق أمامـك عمر طويل، فلا تثقلي على روحـك بالآثام، لئن لا ترعيـه لن تسعدي في الدنيا. سأدعو الرب بنفسي بأن تكون نهايتك سيئة. وستكونين أنت تعيسة، وأطفالك تعيسين، وعشيرتك كلها لن تحظى بمباركة الرب.

يا للعجوز المسكينة! إنها آنذاك لم تكن تفكر في اللحظة العظيمة التـي في انتظارهـا، ولا في مصير روحهـا، ولا في حياتها الآتية. بل كانت لا تفكر إلا بشريكها المسكين الذي قضت معه عمرها، والذي كانت ستتركه يتيماً وبلا مأوى. ودبَّرت كل شيء بحذق بالغ بحيث لا يفتقدهـا افانسـي ايفانوفيتش بعـد وفاتهـا. وكان اعتقادها بدنو أجلها قوياً جداً، وحالتها النفسية مهيئة جداً لهذا الحدث، حتى إنها انطرحـت في الفراش، بالفعل، بعد عـدة أيام، ولم تستطع أن تتناول أي طعـام. وتحول افانسي ايفانوفيتشـ بكليته إلى اهتمام، ولم يبارح سريرهـا. وكان يقول، وهو ينظر في عينيها بقلـق: «حبذا لو تأكلين شيئـاً، يا بولخيريـا ايفانوفنا؟» ولكن بولخيريـا ايفانوفنا لم تكن تقول شيئـاً، وأخيراً، وبعد صمت طويل، بـدا وكأنها تريد أن تقول شيئاً، وحركت شفتيها، ولفظت أنفاسها.

وانصعـق بولخيريا ايفانوفنا تماماً، فقـد بدا له الأمر وحشياً غريباً، حتـى إنه لم يبكِ. نظـر إليها بعينـين كدرتين، وكأنمـا لا يفهم معنى الجثمان.

وسُجِّيت الراحلة على طاولة، وأُلبست الثوب الذي حددته بنفسها، وطويت ذراعيها متصالبتين، ووضعت في اليدين شمعة. وكان بولخيريا ايفانوفنا ينظر إلى كل ذلك جامد الإحساس. وملأ الفناء عدد غفير من الناس من مختلف الرتب، وقدم عدد كبير من الضيوف من أماكن مختلفة لحضور التشييع، ونصبت في الفناء موائد طويلة تغطت بحلاوة الأموات والأشربة والفطائر. وأخذ الضيوف يتحدثون، ويبكون، ويرمقون الراحلة، ويتناظرون في مناقبها، وينظرون إليه، ولكن الزوج كان ينظر إلى كل ذلك بغرابة. وحُملت الراحلة أخيراً، وسار الناس وراءها، وسار هو أيضاً. وكان القسس في حللهم الكهنونية الكاملة، والشمس تسطع، والأطفال الرضَّع يبكون، وهم على أذرع أمهاتهم، والقبرّات تهدل، والأطفال يركضون في القمصان وحدها، ويمرحون في الطريق. وأخيراً وضع التابوت فوق اللحد، وطُلِب من افانسي ايفانوفيتش أن يقترب، ويقبّل الراحلة قبلة الوداع. واقترب، وقبلها، ولاحت دموع في عينيه، ولكنها دموع جامدة الإحساس. وأُنزل التابوت، وتناول القس الرفش، وألقى أول حفنة من التراب، ورتّلت جوقة أصوات غليظة ممطوطة من الشماس واثنين من مساعديه دعاء الخلود، تحت سماء صافية لا غيمة فيها، فتناول الدّفانون الارفاشَ، وامتلأت حفرة القبر، وتساوت مع الأرض، وفي ذلك الحين انسلّ افانسي ايفانوفيتش إلى الأمام، وتنحّى الجميع، وفسحوا له الطريق، يريدون أن يعرفوا على أي شيء نوى، رفع عينيه، ونظر نظرة كدرة، وقال: «يعني دفنتموها! ولماذا؟!» وتوقف دون أن يتم كلامه.

ولكنه حين عاد إلى البيت، ورأى حجرته خاوية، أُفرغت حتى من المقعد الذي كانت تجلس عليه، انتحب، انتحب بشدة، انتحب لا يعزيه شيء، وسالت الدموع كالنهر من عينيه الخامدتين.

وانقضت خمسة أعوام علـى ذلك، وأي بلية لا يمحوها الزمان؟ وأية عاطفـة لا تسلم في النزال غير المتكافئ معه؟ كنت أعرف رجلاً ما يزال في ريعـان شبابه، مفعماً بخالص النبل والسجايا، وقد عرفته عاشقاً برقة وهيـام وجنون وجرأة وتواضع، ورأيـت حبيبته، بأم عينـي، يحصدها الموت الذي لا يشبع، وهي الرقيقة، الجميلة كملاك. ولم أر قـط مثل ما استحوذ على العاشـق المسكين من سورات مخيفة من العذاب النفسي، والوحشـة المسعورة اللاهبة، والقنوط الأكال. ومـا كنت أتصوّر أنه في إمكان إنسـان أن يخلق لنفسه جحيماً ليس فيـه أي ظل أو صـورة أو شيء مما له علاقة في الأمل... حاولوا أن لا يغيب عن أنظارهم، وأخفـوا عنه كل الأسلحة والأدوات التي يمكن أن يقتـل نفسه بها، وبعد أسبوعين انتصر علـى نفسه. وأخذ يبتسم. ويمـزح، فأطلقوا لـه الحرية، وأول شيء استخدمهـا له هو أن اشترى مسدسـاً. وفي أحد الأيام أفزعت طلقة مفاجئـة أقاربه فزعاً شديداً. فتراكضوا إلى الحجرة، ورأوه مطروحاً وجمجمته مهشمة. والطبيب الـذي صادف وجوده آنذاك، وكانـت لمهارته صيت شائع، شخَّص فيـه علائم الحياة، ورأى الجرح غـير مميت تماماً، وأشفاه وسط دهشة الجميـع. وازدادت الرقابـة عليه أكثر. وحتى علـى المائدة لم يكونوا يضعون تحـت متناوله سكيناً، وسعوا إلى إبعاد كل مايمكن أن يضرب نفسـه به، ولكنـه بعد وقت قصير وجد فرصة جديـدة، فألقى نفسه تحـت عجلة مركبـة عابرة. كسرت يـده ورجله، ولكنـه عولج مرة أخـرى وشفي من جديد. وبعـد عام رأيته في قاعـة مكتظة بالناس، وكان جالسـاً وراء طاولـة يقول بمرح «بيتيت اوفـرت»[1] وقد غطا

(١) فيما بعد سيستعمل ضمير المفرد لثقل المنطق في جمع المؤنث بالعربية. المترجم.

أحد أوراقه، ووراءه كانت تقف زوجته الشابة مرتفقة ظهر المقعد، وهي تقلّب فيشه.

بانقضاء خمسة أعوام على وفاة بولخيريا ايفانوفنا، وأثناء وجودي في تلك الأنحاء عرجت على ضيعة افانسي ايفانوفيتش لأزور جاري القديم الذي قضيت عنده يوماً جميلاً ذات مرة، وكنت دائماً أُضيَّف علـى أحسن مطبوخات ربة البيت الحنون. عندما اقتربت عربتي من البيت خُيِّل إليَّ أن البيت قد تضاعف قِدَمه، وكانت أكواخ الفلاحين قـد مالت إلى جنوبها تماماً، مثل مالكيهـا بالضبط، والسياج الخشبي والسيـاج من الأغصـان المضفورة في الفناء قد تحطمـا كلياً، ورأيت بنفسي الطباخـة تخلع منه الأعواد وقـوداً للموقد، في الوقت الذي كانـت لا تحتاج إلى لقطـع خطوتين زيادة للحصـول على الأغصان الجافـة المكومة على الأرض. تقدمت من المدخـل حزيناً، فأخذت نفس الكلاب، التي صارت عمياء الآن، وأرجلها محطمة، تنبح رافعة إلى فوق أذيالها المعوجة وقد علقت بها زهور الشوك. خرج العجوز للقائـي. هذا هـو! عرفته فـوراً. ولكنه احـدودب مرّتـين أكثر من السابق. ع رفني وحياني بتلـك الابتسامة القديمة المألوفة لي. دخلت وراءه إلى الحجـرات، بـدا وكأن كل شـيء فيهـا علـى سابق عهده. ولكننـي لحظت في كل شيء فوضـى غريبة، فقدانـاً محسوساً لشيء ما، وباختصار شعـرت في داخلي بتلك المشاعر الغريبة التي تستولي علينـا، حين ندخـل، لأور مرة، مسكن أرمل كنـا نعرفه من قبل غير منفصل عن القرينـة التي صاحبته طوال العمر. وهـذه المشاعر أشبه بمشاعرنـا، حين نـرى أمامنا إنساناً مقطوع الرجـل، عرفناه من قبل سليماً على الـدوام. كان فقدان بولخيريا ايفانوفنا المعتنية ملحوظاً في كل شـيء. وعلى المائدة قدموا سكيناً واحـداً بدون مقبض، وأطباق الطعـام لم تكن مطبوخة بتلك المهـارة السابقة. أما الشؤون الزراعية

فلم أرد حتى الاستفهام عنها، بل وخفت أن ألقي نظرة على منشئات المزرعة.

عندمـا جلسنا إلى المائدة، شدّت الخادمة على افانسي ايفانوفيتش فوطة، وحسناً فعلـت، لأنه بدونها كان سيلطخ كل روبة بالصلصة. أردت أن أسامـره بشيء ما، فرحـت أقص عليه مختلف الأخبار، وقد أصغـى بنفس تلـك الابتسامـة السابقة، ولكن نظرته كانـت أحياناً خاليـة من أي إحساس إطلاقـاً، و لم يكن يقلب الأفكار في ذهنه، بل إن الأفكار نفسها اختفـت منه. وغالباً ما كان يرفع ملعقة العصيدة، ويقربها من أنفه، بدلاً مـن فمه، وكان يغرس شوكته بالدورق، بدلاً من قطعة الفراخ. وعند ذاك كانت الخادمة تمسك يده، وتوجهها إلى الفرخـة. وكنا أحيانـاً ننتظر الطبق التالي بضع دقائـق و كان افانسي ايفانوفيتـش بنفسـه يلحظ ذلك ويقـول: «لماذا يتباطـأون في تقديم الطعام؟» ولكنني رأيت من خلال شق في الباب أن الصبي الذي كان يحمـل الأطباق لنا، لم يفكـر في ذلك قط، بل كان ينـام مدلياً رأسه على المصطبة.

قـال افانسي ايفانوفيتش حين قدموا لنـا الفطائر بالقشطة: «هذه الأكلـة، هـذه الأكلة» كـرر يقـول، ولحظـت ارتعاشـاً في صوته، والدمـوع على وشك أن تطل من عينيـه الكئيبتين، ولكنه جمع كل قـواه يريد أن يسيطـر على نفسه: «هـذه الأكلة التـي كانت المر... المر... حـو... مة....» وفجأة طفرت الدمـوع من عينيه. ووقعت يـده علـى الصحـن، وانكفـأ الصحن، وقفـز، وانكسـر، وتناثرت الصلصة عليه كلية، فجلس جامد الإحساس، وأمسك بالملعقة جامد الإحساس وهمت الدموع كالسيل، كنافورة لا تهدأ، همت كالوابل على الفوطة التي فرشت عليه.

وكنـت أفكر مع نفسي وأن أنظـر إليه: «يا إلهي! خمس سنوات

مـن الزمن الجائر علـى كل شيء، وإذا بالعجوز يصـير بلا إحساس، العجوز الذي لم تهز حياته قط عاطفة قوية تعصف بالروح، فكانت، كمـا بدت، لا تخرج عـن الجلوس في المقعد العالي الظهـر، وأكل السمـك المجفف والكمثرى وعن الحكايـات اللطيفة، هذا العجوز يستولي عليه مثل هذا الحزن الطويل، هذا الحزن العميق! ماهو الأقوى علينا: الهوى أم العادة. أم أن كل السورات القوية، كل دوامة رغائبنا وصبواتنا الفائرة، ما هي إلا ميزة لريعان عمرنا، ولهذا السبب وحده تبدو عميقة ساحقة؟».

ومهمـا يكن من شيء فقد بدت لي، في تلك اللحظة، طفوليةً كل صبواتنـا إذا قورنت بهذا التعود الطويل البطيء الخالي من الإحساس تقريبـاً، جاهد عد مرات لينطق باسـم الراحلة، ولكن وجهه الهادئ المعتـاد كان يعوجّ متشنجاً بعد أن ينطبق بنصف هذه الكلمة وبكاؤه الطفولي كان يطعنني في صميم القلب. لم تكن تلك الدموع، قطعاً، كتلك التي يسكبهـا الشيوخ عادة بسخاء حين يصفون لكم حالتهم البائسة وبلا ياهم. و لم تكن أيضاً تلك الدموع التي تذرف عند قدح من الخمرة. بل كانت دموعاً همت من تلقاء نفسها، غير مدعوة، وقد فاض بها الألم الحاد الذي يعصر حتى القلب الخالي من الإحساس.

وبعـد هذا لم يعشـ طويلاً، وقد سمعـت بوفاته قبـل زمن ليس بالبعيـد، ولكن الغريـب، على أية حال، إن الظـروف التي أحاطت بموتـه كان لها شبه بموت بولخيريـا ايفانوفنا. ذات يـوم عزم افانسي ايفانوفيتشـ أن يتمشى قليلاً في الحديقة. وحين سار ببطء في الدرب بخلو باله المعتاد، دون أن تشغل ذهنه أية فكرة وقع له حادث غريب. سمع فجـأة شخصاً يناديه من ورائه بصوت واضح على نحو كاف: «افانسي ايفانوفيتش!» التفت، ولكن لم يكن ثمة أحد إطلاقاً، عاين في كل الجهات، ونظر في الأجمات، فلم ير أحداً في أي مكان. كان

النهار هادئاً، والشمس ساطعة، واستغرق يفكر لحظة، وسرت حيوية في وجهه، فنطق أخيراً: «هذه افانسي ايفانوفيتش تناديني!»

ليس من شك في أنكم، في بعض الأحيان تتخيلون سماع صوت يناديكم بأسمائكم، والعامة تفسّره بأن الروح تتشوق إلى إنسان، فتناديه، وبعد هذا يأتي الموت لا محالة. وبصراحة كنت دائماً أفزع من هذا النداء الغامض. أتذكر أنني في طفولتي كنت غالباً ما أسمعه. فجأة أسمع خلفي مَنْ ينطق باسمي واضحاً. والنهار عادة ما يكون في مثل ذلك الوقت صاحياً جداً ومشمساً، ومامن ورقة تتحرك على شجرة في الحديقة، وسكون الأموات يعم كل شيء، وحتى الجندب كان يكف عن الصرير. وما من إنسان في الحديقة. ولكنني بصراحة ماكنت سأخاف من ليلة عاصفة معربدة، تداهمني بكل حممها الجهنمية، وأنا وحدي في غابة صماء لا مخرج منها، مثلما كنت أخاف من ذلك الصمت المريع وسط نهار لا غيمة فيه. وفي العادة كنت آنذاك أركض هارباً من الحديقة بهلع شديد وأنفاس متقطعة، ولا يهدأ روعي إلا حين أصادف إنساناً يطرد مرآه ذلك الخواء الرهيب في قلبي.

استسلم افانسي ايفانوفيتش بكليته إلى اعتقاده الروحي بأن بولخيريا ايفانوفنا تدعوه، استسلم بامتثال طفل طيّع، وجفّ عوده، وراح يسعل ويذوب كالشمعة، وأخيراً انطفأ مثلما تنطفئ الشمعة حين لا يبقى شيء يحفظ ذبالتها البائسة. وكل ما قاله قبل نهايته: «ضعوني جنب بولخيريا ايفانوفنا».

ونُفذت رغبته، ودُفن قرب الكنيسة على مقربة من قبر بولخيريا ايفانوفنا. وكان الضيوف لدى التشييع أقل، ولكن بسطاء الناس والمتسولين كانوا كثيرين أيضاً، وأقفر بيت الملاكين تماماً. ونقل الوكيل المدبر والعمدة إلى بيتيهما كل ما تبقى من الأشياء العتيقة

وسقـط المتاع الذي لم تلحـق القهرمانة أن تنقلـه. وبعد قليل وصل قريـب بعيد من مكان مجهول، هـو وارث الضيعـة، وكان من قبل ضابطـاً في فـوج لا أتذكره، وهـو إصلاحي متزمـت. ورأى، على الفـور، الاختـلال الكبير والإهمـال في شؤون المزرعـة. فعزم على القضـاء على كل ذلك من كل بد، وإصـلاح كل شيء وإعادة النظام إليه، واشترى ستة مناجل إنجليزية ممتازة، ورقَّم كل كوخ برقم خاص، وأخـيراً رتب الأمور بشكل جيد، حتـى أن الضيعة، بعد ستة أشهر، وضعت تحـت الحجز، وفي وقـت قصير أتت لجنـة الحجز الحكيمة (كانـت تتألف من عميد أشراف سابـق وضابط مبهدل اللباس) على كل الدجاج والبيض. كمـا أن الأكواخ التي كانت قد تداعت تماماً، انهـارت كلياً، وعكـف الفلاحون علـى السكر الشديـد، وتهرَّب معظمهم. أما المالك الحقيقـي، الذي كان، بالمناسبة، على صلة ودية لا بأس بها مع لجنة الحجز ويشرب الخمرة معها، فكان نادراً ما يأتي إلى قريتـه، وإذا جـاء إليها، لا يبقى مدة طويلـة، وهو لحد الآن يتردد علـى جميع الأسـواق الريفية في مالوروسيـا، ويستفسر باهتمام عن أسعار مختلف البضائع الكبيرة التي تباع بالجملة مثل الطحين وخيوط القنب والعسل وغير ذلك، ولكنه لا يشتري غير الأشياء الصغيرة مثل حجر الصوان ومسمار تنظيف الغليون، وبشكل عام لا تساوي قيمة كل ما يشتريه روبلاً واحداً.

تتضمن هذه المؤلفات المختارة لنيقولاي غوغول:

مسرحية المفتش العام والتي تُعتبر من أهم أعمال الكاتب الروسي نيقولاي غوغول وهي مسرحية كوميدية ساخرة تم نشرها أول مرة عام ١٨٣٦.

ومسرحيتا: خطوبة و بعد عرض مسرحية جديدة

ومؤلفاته القصصية: المعطف، الأنف، شارع نيفسكي، الصورة، مذكرات مجنون، عربة، ملاكو أيام زمان.

نيقولاي غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي.

وُلد في ١ نيسان ١٨٠٩.

كان مولعاً بقراءة الكتب وبشكل خاص كُتب بوشكين. كما كان يحفظ الأمثال والأقوال المأثورة والكلمات الروسية ذات النكهة الخاصة والأغاني وغيرها. واستفاد من هذا كله في مجموعته القصصية عن أوكرانيا. وفي المدرسة كتب عدداً من الأعمال الصغيرة. ونظم الكثير من الأشعار في مواضيع مختلفة. ويدخل غوغول مرحلة جديدة من التثقيف الذاتي حيث يقرأ شكسبير وغوته وشيلر.

من أعماله الأكثر شهرة رواية الأنفس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين المفتش العام وخطوبة.

ظهرت قصة (المعطف) عام ١٨٤٢ وكانت آخر ما كتبه غوغول وأروعه. واعتبرت مرحلة هامة في تطور الأدب الواقعي للقرن التاسع عشر ورائدة القصة القصيرة الحديثة.

'We all came out from under Gogol's 'Overcoat"

توفي غوغول في ٤ مارس ١٨٥٢.

ISBN 284306224-1
9 782843 062247

تصميم الغلاف ماجد الماجدي